الربيع

على ضفاف الأودر

تأليف

أ. كازاكفتش

ترجمة

سعد زهران

الجزء الأول والثاني

www.alkottob.com

www.liilas.com
منتديات ليلاس
florist

الجزء الأول

www.alkottob.com

الفصل الأول

ضابط الحرس

١

فى صبيحة يوم من أيام الشتاء تكاثف ضبابه ، ونعقت فيه الغربان بإصرار كثيلاتها فى موسكو ، لاحت للأعين عند انحناءة الطريق غابة صنوبرية صغيرة أنيقة — تماما كتلك الغابة التى اجتازها الجنود منذ برهة ، مع فارق واحد هو أن هذه هى ألمانيا .

ومع ذلك كانت هذه الحقيقة مازال حتى الآن معروفة لدى القيادة فحسب ، أما الجنود ، والرجال العاديون الذين ليست لديهم خرائط فقد فاتتهم تلك اللحظة الرائعة ولم يعرفوا أين يوجدون إلا فى المساء .

عندئذ أخذ الجنود يمعنون النظر فى أرض ألمانيا ، تلك الأرض

www.alkottob.com

الطبية المخدومة التى دافعت عنها فى القدم السيوف الروسية والحصون السلافية ضد هجمات البرابرة الآتية من الشرق . رأوا الغابات الأنيقة والمزارع المنسقة المرفئة بالأكواخ الصغيرة والمنازل والمخازن ، المزروعة بالأزاهير والشجيرات وأسوار النباتات . كان من الصعب على الناظر أن يصدق أن هذه الأرض ذات المظهر العادى المألوف كانت مهداً ومصدراً لوباء كاسح هدد مصير العالم بأسره .

— إذن فهذه أنت يا ألمانيا !

قالها جندى روسى ممتلىء الجسم وهو مستغرق فى التفكير . ولأول مرة يخاطب ألمانيا فى وجهها مستخدماً كلمة « أنت » بدلا من كلمة « هى » المجردة المعادية التى ظل يطلقها عليها طيلة السنوات الأربع المنصرمة . وفكر الجنود أيضا فى ستالين العظيم الذى قادهم إلى هنا . وعند ذكراه تألقت عيونهم ممتلئة ببريق الاعتزاز بقوتهم التى لاتقهر .

— إذن فهذا هو معدن الرجال الذى صهرنا منه .

كانت القوات تتدفق على طول الطريق فى سيل لاينقطع . المشاة ، وعربات نقل الجنود ، والمدافع الضخمة ، ومدافع الهاون ذات الأنوف الفطساء ، كان كل هذا يندفع متجهاً نحو الغرب . وقد يتوقف السيل المتدفق من حين لآخر بسبب أحد السائقين الأغبياء ، وعندئذ ترتفع صيحات الاستنكار من جميع الجهات . والحقيقة أن هذه الصيحات المألوفة فى الطرق المكتظة للخطوط الأمامية للجبهة قد خفت فيها لهجة

الهياج والغضب عن ذى قبل ، وأصبح الجميع أكثر تعاطفا مع بعضهم البعض .

ثم تواصل الطوابير سيرها من جديد ويسمع صوت الأوامر الملقاة للشاة :

« إلى اليمين ، در » . ويلوح منظم المرور بأعلامهم . ويبدو كل شىء عادياً ومألوفاً للغاية ، بل قد يبدو باعثاً على الضجر والملل لولا أن الكلمات : « نحن الآن فى ألمانيا » تندفع كالخمر فى رؤوس الجميع ، وتتألق كاللهب فى عيونهم .

ولو كان بين هذا الحشد من الناس شاعر لبهر ناظريه هذا المزيج الهائل من المشاعر الجياشة .

والحق أن كل رجل على هذا الطريق يمكن أن يكون بسهولة بطلا لرواية كبيرة أو لملحمة من الشعر . ألا تصلح هذه المجموعة من الجند مادة للكتابة ، وعلى رأسها هذا الشاويش الضخم الجثة الذى يبدو وجهه إما داكنا لنحته الشمس إلى درجة أن شعره يبدو أبيض أو أن شعره أشقر إلى درجة أن وجهه يبدو داكنا .

وهذه المجموعة المرحة من رجال المدفعية المتعلقين بمدفعهم الضخم وكأنهم طيور على غصن شجرة .

وهذا الجندى الرفيع الشاب من جنود الإشارة الذى ظل يجر لفة

www.alkottob.com

السلك معه من القرى المحيطة بموسكو تقريباً حتى وصل بها إلى أرض ألمانيا .

وهذه الممرضات اللطيفات المنظر ، المطلات بعيونهن الصافيات باهتمام من سيارة ضخمة تحمل المعدات الطبية والخيم ، وإذ رآهن أحد الجنود شد قامته بشكل لا إرادى ، واعتدل فى مشيته ، وأبرز صدره إلى الأمام ، ولمعت عيناه . . .

وعلى الطريق من بعيد ظهرت سيارة نقل جنرالا شهيراً ، وخلفه ناقلة جنود مصفحة بها مدفع رشاش ثقيل يصوب فوهته منذراً إلى أعلى . ألا يصلح هذا الجنرال بلياليه المؤرقة ومعاركه الشهيرة مادة للكتابة أيضاً ؟

إن خلف كل واحد من هؤلاء الناس يوجد ألف كيلو متر من المآثر والأعمال الأسطورية المجيدة .

وعلى الطريق الذى بلله الثلج الذائب كانت تجرى عربة مسرعة . نعم ، عربة ضخمة من الطراز القديم مطلية بطلاء بنفسجى لامع ، وفى الخلف تبرز درجاتها المخصصة للخدم الذين يرتدون زياً خاصاً ، وعلى الأبواب نقشت رسوم لبذلة من الدروع زرقاء ومذهبة ، ورأس وعل ذى قرون متشعبة . وإلى اليمين رسم حصن ذى أبراج محززة ، وإلى اليسار خوذة حديدية ذات قناع فولاذى . ومن أعلى ومن أسفل كتب شعار لاتينى : من أجل الله والوطن .

ومع ذلك ففى مكان الحوذى لايجلس واحد من اتباع الكونت ، وإنما يجلس جندى يلبس جاكتة سميكة وهو يطرقع بلسانه ويستحث خيله وكأنه — بحق — حوذى روسى قديم :

— شى ياجيلة !

— انظروا ، إنهم ينقلون تابوتاً فى هذه العربة !

— يارجال ، هاهو ذا المتحف آت !

وحاول «الحوذى» أن يحتفظ بمظهره الهادىء الجاد ، ولكن عضلات وجهه الحليق المحمر كانت تهتز وهو يحاول أن يخفى ضحكة مكبوتة .

كان ركاب هذه الوسيلة العجيبة من وسائل الانتقال قد تجمعوا فيها بمحض الصدفة . كان كل منهم يحاول أن يلحق بوحدته أو أنه كان فى طريقه الى مهمة جديدة كلف بها . كان الكابتن شوخوف — وهو رجل صموت — قد عثر على هذه العربة عند باب أحد القصور الريفية ، وقال له الخادم العجوز الذى يعمل فى المزرعة أن سيده البارون كان قد أعد هذه العربة ليهرب فيها متجها ناحية الغرب بسبب قلة البنزين ولكنه لم يجد الوقت الكافى لذلك ، فقد زحفت الدبابات الروسية وتخطت المكان ، ولذلك غير البارون ملابسه وغادر المكان سيرا على الأقدام .

ووعد الكابتن شوخوف بأن يلحق بالهارب ويلقنه درساً ، واستقل العربة ليلحق بالوحدة التى عين فيها . حقيقة أنه كانت هناك سيارات

www.alkottob.com

عديدة تسير فى نفس الاتجاه ، ولكن الكابتن شوخوف يحب كان رجلا الاستقلال . والتقط فى الطريق جنديين وازداد العدد كلما واصل السير . وفى الكيلومتر التالى مباشرة لحقت بهم طبيبه شابة قوية البنية ذات أشرطة على كتفيها تدل على أنها من رتبة كابتن ، ثم لحق بهم بعد نصف ساعة ملازم خارج لتوه من المستشفى وإحدى يديه ملفوفة فى الضمادات .

بدأ الجميع يتحدثون ولكن سرعان ما قطع حديثهم راكب جديد . قفز بخفة على سلم العربة ، وهو ضابط عريض المنكبين ذو عينين زرقاوين ورتبته ماجور . ألقى الماجور نظرة مرحة على المقاعد المغطاة بالساتان الفاخر وقال ساخراً :

— تحيات الجيش الأحمر لفخامة عائلة الكونت المبجلة .

ولم يلاحظ أحد أن المرأة ندت عنها شهقة خفيفة وأنها ثبتت عينيها الداكنتين الواسعتين اللتين تألقتا فجأة على الراكب الجديد . لم يلاحظ أحد هذا ، ولاحتى الماجور نفسه الذى واصل كلامه قائلا :

— لقد سافرت على كل وسيلة للمواصلات قد تخطر بالكم : على القارب والطوف والطائرة الشراعية وزلاجة الجليد التى تجرها الوعول ، ولكنى لم أقم أبداً برحلة فى عربة كهذه . وهذه فرصة نادرة لأتذوق طعمها .

وسرعان ماحطم حديثه الحى المرح التحفظ الذى غالباً مايسود مثل

هذه التجمعات العفوية . وأخذ الجميع يتضاحكون ويبدون ملاحظاتهم على بعضهم البعض فى ود وصداقة وكأنهم أطفال ضبطوا وهم يدبرون حيلة محظورة . كانت عينا ذلك الماجور الزرقاوان تشعان ببريق مرح وكأنهما تنطقان بما معناه : « أنا أحبكم جميعاً يامن تجلسون هنا دون تمييز فى الجنس أو السن أو القومية ، فأنتم جميعاً أصدقائى على الرغم من أننى لا أعرفكم قبل اليوم ، أنتم أقاربى على الرغم من بعدى عنكم ، لأننا جميعاً مواطنون سوفييتيون ولأننا نشترك جميعاً فى النهوض بنفس المهمة الكبيرة » ، ويصادف الناس الذين لم مثل هذا البريق فى عيونهم هوى عند الجنود والأطفال .

وإذ انهال الفلاح التعاونى الشاب على ظهور الخيل « الإقطاعية » بسوطه ، انطلقت تجرى وهى أكثر مرحا وأشد سرعة . وكاد الماجور أن يسقط على المقعد وهو يحملق فى وجه السيدة ويصيح :

— انتظر لحظة ! أهذه أنت يا نانيا ؟

وتناول يدها بين يديه فى قوة وقد أصبح وجهه أكثر جدية .

وأحس الجميع بالغبطة لتلك الصدفة التى جمعت بين الإثنين اللذان قد يكون تعارفهما راجعا إلى تلك الأيام التى كادت أن تنسى قبل الحرب ولكن إذ رأوا جميعا أنه قد تكون هناك قصة رومانتيكية خلف هذا اللقاء أخذوا ينسحبون بلباقة بعد الملاحظات المألوفة فى مثل هذه المناسبات من نوع : (ماذا ؟ « أنتما صديقان ؟ » ، « بالصدفة

www.alkottob.com

السعيدة ! ... الخ) لكى يعطوا للطبية والماجور فرصة ليتبادلا بعض الحديث الخاص ، أو ليتبادلا القبلات إن أرادا .

ومع ذلك لم يتبادل الإثنان القبل . وعلى الرغم من أن تعارف ماجور الحرس سيرجى بلاتونوفيتش لوبتسوف ، وكابتن الخدمة العسكرية تاتيانا فلاديميروفنا كولوتسوفا — على الرغم من أن هذا التعارف كان قديما إلا أنه كان عرضيا وقصيراً : لقد قضيا معا ستة أيام فى نفس الوحدة التى هربت من الحصار بين فيازما وموسكو فى ذلك العام الذى لاينسى : ١٩٤١

كان لوبتسوف ملازماً فى ذلك الوقت ، كان صغيراً جداً لايتجاوز سنه الثانية والعشرين . وحتى فى تلك الأيام كان يبدو مرحاً على الرغم من أن هذا المرح الظاهرى كان لايتأتى إلا بجهد وإرادة كبيرين . ولكنه كان يعتبر ظهوره بمثل ذلك المظهر المرح فى تلك الأيام القاسية جزءاً لايتجزأ من واجباته كعضو فى منظمة الكوموسومول .

كان يسير مع البقية الباقية من رجال سريته وأثناء مسيرهم كان ينضم إليهم طول الوقت رجال فرادى أو فى مجموعات صغيرة ممن فقدوا الصلة بوحداتهم ، وكان بعضهم يائساً وأغلبهم ليس معتاداً على ممارسة القتال . وكان عليه أن يزيل عنهم اليأس والكآبة ، وأن يدخل إلى قلوبهم الثقة والطمأنينة ، وأخيراً كان عليه أن يعدهم لخوض المعارك فى وجه صعوبات لاتحصى .

وحدث مرة حين كانوا يخوضون مستنقعاً مليئاً بالأدغال والأشجار أن سأل أحدهم بصوت يشبه الأنين الخافت :

— ولكن ، ربما لم نستطع أن نشق طريقنا ونلحق بوحداتنا .

وكان لوبتسوف فى ذلك الوقت يشذب عصاً غليظة بسكين فتلندى ليصنع نقالة لأحد جنود الدبابات أصيب فى كلتا ساقيه . وحين سمع السؤال أجاب :

— حسناً ، قد لانتمكن بالفعل . . ثم أضاف بعد سكتة قصيرة : ولكن هذا لايهم .

فسمعت همهمة تنم عن الارتياح . فأضاف لوبتسوف بإهمال مقصود :

— إننا سنظل فى مؤخرة صفوف الألمان نعمل كفريق من الفدائيين ، ألسنا وحدة مقاتلة ؟ إن لدينا كل مايلزمنا حتى الطبية .

من أين جاءته كل تلك الثقة وتلك الصلابة فى هذه الأيام الصعبة ؟ كان من مواليد آمورتايجا ، وكان صلباً شديد المراس ، خبيراً فى اقتفاء الأثر ، وكان يعرف الكثير عن الحياة فى الغابة ولكن لم يكن هذا هو جوهر المسألة كان يتأجج فى أعماقه إيمان لايتزعزع بالانتصار النهائى على العدو . وكان هذا الإيمان يبعث الدهشة حتى فى نفس تانيا التى كادت تسقط من إعياء السير الطويل ، والصعوبات التنظيمية والأفكار الحزينة السوداء .

لقد التحقت بالجيش المقاتل فى الميدان فور تخرجها من المعهد الطبى

www.alkottob.com

ولم تكد تتسلم عملها فى إحدى محلات الإسعاف فى الكتيبة حتى اخترقت دبابات الألمان الصفوف واندفعت زاحفة نحو موسكو .

وأخذ الملازم الشاب يبدى عناية خاصة بتانيا ، وهى المرأة الوحيدة فى المجموعة التى تسير معه ، وهى عناية تنم عن شىء أكثر من مجرد العطف العادى .

كان آسفاً من أجلها إلى درجة آلمته . كانت مبتذلة ، واسعة العين شاحبة الوجه إلى درجة جعلته يفكر فى حملها على كتفيه وهو يجتاز تلك الطرقات التى ملأتها حفر أمطار الخريف ، وغاصت الأقدام فى طينها اللزج ، وحفت بها الشجيرات المبتلة الحمراء كانت تسير صامتة لا تتكلم ، متجلدة لا تشكو . وكان صمتها ، بل كان مجرد وجودها ذا تأثير حسن على الآخرين . ولم تكن هى — طبعاً — تدرك هذا ، ولكن لوتبتسوف كان على وعى تام بتلك الحقيقة ، وكان أحياناً يلتفت المتخلفين بقوله :

— يجدر بكم أن تتعلموا ولو قليلا من هذه الفتاة . .

وفى الصباح تغطى طبقة رقيقة من الثلج سطح المستنقعات ، ويكفهر وجه السماء منذراً بشر مستطير . كان الألمان على مقربة من المكان . وكانت تانيا تتألم ، يداها متجمدتان إلى درجة أنها لم تستطع أن تغسل وجهها أو تسوى شعرها ، وأفكارها تبدو على نفس الدرجة من التجمد باستثناء فكرة واحدة تتردد وتلح على ذهنها : « آه . كم أنا مريضة

ومتعبة » ، ولكن هذا الملازم يحلق ذقنه كل صباح بموسى حلاقة يحتفظ به ، ويشكو والابتسامة على شفتيه من عدم وجود ورنيش لحذائه ، بل إنه أخذ يغتسل مرة إلى قرب وسطه من أحد الجداول . واصطكت أسنان تانيا من مجرد النظر إلى هذا المنظر .

كانت تشعر بالامتنان نحوه لكل ما فعله من أجلها . لأنه كان يشعل ناراً صغيرة خصيصاً من أجلها فى المعسكر أثناء الليل فى الوقت الذى كان يمنع إشعال أية نيران أخرى خوفاً من خطر العدو ، ولأنه علمها كيف تعتنى بقدميها ، وللعطف الذى كان يحيطها به وهو يقول لها من وقت لآخر :

— أنت تتحسنين ، وستصبحين جندياً حسناً .

كان نشيطاً لا يكل ، عميق الفهم لطبائع الناس ، عنده دائماً كلمة تشجيع يقولها — ليس فقط لتانيا — ولكن لكل واحد من الرجال . وأخذ الجميع يشعرون بالطمأنينة والثقة بفضل قوة عزيمته وبرود أعصابه .

كان يخرج قبيل الفجر يصحبه رجلان للاستكشاف . وعاد مرة من جولة الاستكشاف شارداً حزيناً ، وأخبر الآخرين أن القرية المجاورة كان فيها معسكر يضم عدداً من الأسرى الروس وكان غالبيتهم مجروحاً جروحا خفيفة ، أما أولئك الذين أصيبوا إصابات بالغة فقد اكتشف أن الألمان قتلوهم رمياً بالرصاص على الطريق لأنهم عجزوا عن مواصلة السير .

www.alkottob.com

وقال بعد سكتة قصيرة :

— إن حرس الأسرى لا يزيدون عن خمسة عشر رجلا ، كما أنه ليس هناك ديدبانات .

ونظر فى وجوه الرجال الذين التفوا حوله واستطرد قائلا :

— وكل وسيلتهم للاتصال بقواتهم هو سلك واحد . . فإذا قطع هذا السلك انتهى كل شىء .

وران الصمت على الجماعة . وفجأة تقدم رجل يلبس معطفاً ريفياً من فرو الخروف ذا ياقة استراخانية عريضة — تقدم إلى الأمام خطوة . لقد ظل هذا الرجل يدب على الأرض طيلة الوقت بخطوات ثقيلة وهو يحملق فى قدميه فى صمت دائم ولا يعير التفاتاً لأى إنسان . وقال بنبرات بطيئة وبلهجة آمرة :

— لا داعى للاشتباك فى مغامرة بلهاء ، فتلك مهمة فوق طاقتنا . أنت تقول إن هناك خمسة عشر رجلا منهم وأننا خمسون . حسناً ، ولكنهم من رجال القوات النظامية . . إنهم ألمان !

وقطب الملازم جبينه ثم قال :

— ليس هذا اجتماعا فى نقابة . إننا وحدة محاربة ، حتى ولو كنا خليطاً .

— هل تعلمنى النظام العسكرى ؟ أنا أعرفه أكثر منك .

وأجاب لوبنتسوف بهدوء :

— هذا أفضل على أى حال . إن عليك إذن أن تدرك أننى القائد المسئول فى هذه الوحدة وأن أوامرى يجب أن تطاع .

وهب فيه الرجل قائلا :

— من عينك فى هذا المنصب ؟ ألا تعرف من أنا ؟ أنا كابتن .

وانفجر لوبنتسوف ضاحكا :

— إذن ، فأى نوع من الكابتن أنت ؟ أنت لست كابتن ، إنما أنت فروة خروف .

وقال الرجل بتبجح على الرغم من الحرج الذى أصابه :

— أعتقد أنك أخذت سلطة تجريدى من رتبتى .

— لماذا تعتقد مثل هذا الاعتقاد وأضاف وهو ينصرف ذاهباً :

— إنما أنت الذى جردت نفسك من رتبتك .

وتمكنت الوحدة من تحرير الأسرى بسهولة لم تكن تخطر على بال أحد حتى لوبنتسوف . لم يبد الحرس أى مقاومة حين أخذوا على غرة . كانوا مطمئنين تماماً إلى قوتهم ، وبنادقهم مكدسة بعناية أمام مقر مجلس سوفييت القرية . ووزع لوبنتسوف البنادق التى غنموها على الجرحى المحررين الذين بذلت لهم ثانيا ما تستطيع من رعاية طبية .

واندفعت المجموعة إلى الأمام بسرعة أكبر لأن لوبنتسوف كان

www.alkottob.com

يخشى أن يتعقبهم العدو . وواصلوا السير بمعنويات أعلى وكان المسيرة قد بدأت لتوها ، وهم يتبادلون الأحاديث والهمسات . وطار النوم من أعين الجميع . وكنت أقدام أشد المتذمرين تذمراً عن الألم . وأخذوا يضخمون من قيمة الانتصار الذى أحرزوه وهم فى غاية الرضا والسرور من الملازم الذى قادهم . وأصبحت تلك الليلة — بالنسبة للكثيرين منهم — البداية الحقيقية لحياتهم العسكرية .

وفى الليلة التالية رأت تانيا الألمان للمرة الأولى .

كانت الأمطار تهطل بغزارة . وكانت الجماعة قد خرجت مقتربة من الطريق العام ، واللوريات تسير فيه . ولم تلحظ تانيا أنهم ألمان وواصلت السير . ولكنها أحست بيد الملازم على كتفها فى الحال . وهمس :

— على الأرض ! الألمان !

ونظرت حولها فى ارتباك . أين هم الألمان ؟ وأخيراً ، أدركت وهى تنبطح على الأرض أن تلك اللوريات — تلك اللوريات العادية ذات الكشافات الأمامية القوية — كانت هى الألمان . وظهرت عدة دبابات صغيرة عليها صلبان سوداء . ووصلت إلى أذنى تانيا أصوات خشنة مقرقعة .

كان المنظر كله غريباً ، شاذاً ، وعدائياً إلى درجة أن تانيا شعرت بمزيج من الدهشة والفزع . شعرت بالوحدة والابتئاس وكأن هذه

الأشباح الكريهة الغريبة قد قطعت الصلة بينها وبين ماضيها وآمالها وأحلامها . وتعلقت بيد لوبتسوف ولم تتركها لمدة طويلة إلى أن انتهى مرور الألمان من أمام ناظريها . وأضاءت ومضات الضوء الصادرة من كشافات اللوريات وجه الضابط إضاءة باهتة . وتحدرت قطرات من المطر على وجنتيه . وبدا وجهه الشاب بالغ الحزن والصرامة .

وأخيراً ، لحقوا بخطوطهم الرئيسية فى الصباح . وسأل لوبتسوف تانيا أن تعطيه عنوانها فى موسكو وهما فى طريقهما إلى مركز التجمع ، وقال :

— ربما تتقابل ثانية فى يوم من الأيام ، وقد أمر عليك لأتناول فنجاناً من الشاى .

وأدهشها هذا الطلب ثانية لما ينطوى عليه من نفس لهجة اليقين التى يبديها دائماً وهو يتطلع إلى المستقبل بما فيه من حياة سلمية ومقابلات وعناوين وشاى .

عنوانها ؟ لقد عاشت تانيا عند خالتها فى موسكو بعد أن تخرجت من المعهد . ولكن لم يكن هذا هو الشىء المهم . وقالت :

— ولكنى متزوجة .

ولم تكن هذه — طبعاً — إجابة لبقة . فهو لم يعرض عليها الزواج على الرغم من الصداقة التى نمت بينهما . وتداركت الأمر فأضافت بسرعة :

www.alkottob.com

— سأعطيك عنوانى طبعاً .

ولكن تانيا نسيت هذا الوعد فى غمرة الحرج والعجلة . وصلوا إلى مركز التجمع وأحيطت بعدد كبير من الضباط من بينهم كثير من الأطباء . وأعطوها شاياً ساخناً ولحماً محفوظاً . وإذ سرى الدفء فى بدنها وداعب ذهنها آمال الالتقاء بزوجها وأمها نسيتْ ـ بطريقة ما ـ الأثر الذى خلفه هذا الضابط المرح العطوف فى نفسها أثناء أصعب ستة أيام فى حياتها .

ووقف الملازم قليلا إلى جوارها ثم مضى دون أن يلحظه أحد . وعلمت بعد ذلك أنه رحل للالتحاق بوحدة أخرى . وحزنت إذ سمعت هذا الخبر وأسفت لأنها لم تتمكن من أن تقول له كلمة شكر ووداع .

والآن ، وبعد ثلاثة سنوات ، ها هو الملازم — بعد أن أصبح اليوم ماجور الحرس — يجلس إلى جوارها فى العربة التى تطوى الطريق الأسفلت المبتل بسرعة .

٢

كانت مقابلة عجيبة حقاً . وأحس الإثنان بالاضطراب . قالت :

— إنك مازلت كما كنت ، مرحاً على الدوام . لا يوجد شىء قادر على تغيير طبعك .

— وأنت لا تزالين كما كنت ، على وجهك مسحة قليلة من الحزن ولكنك تبدين أكبر سناً .

فضحكت قائلة :

— عجزت .

كانت لها ضحكة عذبة ، ضحكة دافئة ناعمة وكأنها تضحك لنفسها . وعندما ضحكت تألقت عيناها وانكمش أنفها إلى أعلى مكسباً وجهها تعبيراً ينم عن طيبة مفرطة غير متوقعة .

وفى تلك اللحظة ارتفع صوت « الحوذى » عالياً مضطربا وهو يصيح :

— أيها الرفاق الضباط ! يقولون إننا الآن فى ألمانيا ...

تلفت لوبنسون حواليه بسرعة ، ثم فتح حقيبة الميدان التى يحملها

www.alkottob.com

وأخرج منها خريطة فردها على ركبتيه. وقال وهو يتنهد تنهدة عميقة.

— نعم، نحن فى ألمانيا.

وأخرج الملازم مسدسه من غمده، وفتح باب العربة وأطلق جميع طلقات المسدس فى الهواء. وأطلق «الحوذى» الرصاص من بندقيته. وأجفلت الخيل وانطلقت بسرعة أعظم. وتعلق الجميع بالشبابيك ينظرون إلى خارج العربة. كانت المراعى، والفرجة فى الغابة، والشجيرات الصغيرة تمر سريعة أمام أبصارهم، وهم جميعاً فى دهشة من المظهر العادى المألوف لكل مايرون:

— انظروا، أشجار الزيزفون!

— وأشجار الزعرور الشائكة!

— وأشجار التفاح!

وفتح الملازم صندوقه وأخذ يعبث فيه ويفتش، ثم صاح بأسى:

— ولكن ليس هناك فودكا!

ودون أن ينطق كلمة واحدة تقدم «صاحب» العربة — الكابتن شوخوف — بزجاجة فودكا. وابتسم جندى فى ارتباك وأخذ يفتل شاربه الأحمر، وقال:

— لدينا بعض الخمر أيها الرفاق الضباط.. إن لم تكونوا سريعى التأثر. إنها قوية ومنفرة بعض الشىء ولكنها فعالة. زفروبوى[1].

(١) نوع قوى من الفودكا. واللفظ الروسى يعنى (قاتل الوحش)

واهتزت العربة وهى تخرج من الطريق العام، وتخبطت قليلا فوق الأرض المرتفعة التى تحف به ثم توقفت فى خميلة من الأشجار. وألقى «الحوذى» بالكرباج الهائل فى مستقره على الصندوق وانضم إلى الآخرين. وأخذ الجميع يتكلمون ويصخبون، ولم يعد فيهم سوى تانيا التى ظلت — لسبب ما — صامتة لا تتكلم، ولكنها تسلقت فوق مقعد الحوذى المرتفع وجلست فوقه منحنية إلى الأمام، تبتسم ابتسامة شاردة يشوبها الحزن وهى تنظر إلى كتل الأشجار المتكاثفة، ورفضت أن تشرب معهم. وقالت وهى تنحى الكأس عنها:

— ليس هذا هو وقت الشراب. أنا لا أدرى ماذا يجب علينا أن نفعل، لعله كان من الأوفق أن نبكى أسى على أولئك الذين سقطوا فى الطريق.

وأدرك الجميع أنها على حق. وعلى الرغم من أنهم واصلوا الشرب — طبعاً — إلا أنهم فعلوا ذلك دون أن يتبادلوا النكات والضحكات، بل إنهم حافظوا على مظهرهم الجدى الوقور.

شربوا أولا نخب ستالين، ثم نخب انتصار قوات الجبهة البيلوروسية الأولى. واقترح الجندى ذو الشارب الأحمر نخباً آخر «فى صحة عائلة جهتنا، فى صحة زوجاتنا وأطفالنا».

ثم أضاف وهو ينظر بطرف عينه إلى تانيا:

www.alkottob.com

— وفى صحة الأزواج أيضا بالطبع ، إن كان هناك أزواج ، وإن لم يكن ففى صحة أزواج المستقبل .

وقالت ثانيا :

— ولكن لنفكروا معى ! هاكم قرية ألمانية هناك . أنا لا أكاد أصدق أن الذين يعيشون فيها من الألمان ، من هؤلاء الناس الذين تسببوا فى كل هذه الأضرار والمصائب للعالم . فما العمل الآن ؟

هل ترانا نشعل النار فى المكان ونقتل كل من نصادفه فيها ؟

وصمت الجميع . ولكن لم يلبث أن سمعوا صوت الكابتن شوخوف :

— ولم لا ؟ هيا بنا نفعل ذلك .

وتركزت كل الأنظار على شوخوف بعد أن قال هذه الكلمات بصوت هادىء . ورأوا جميعاً وجهه الفتى المستدير وأنفه الصغير المدبب وعينيه الداكنتين العنيدتين . ورأوا فى هاتين العينين بريق الثقة والجرأة التى لا تهاب شيئاً .

نظر إليه الماجور لوبتسوف نظرة متفحصة واكتفى بأن لوح بذراعه فى وجهه . وربما كانت هـــذه الإشارة التى تنم عن شىء من الاحتقار أفصح تعبيراً من الكلمات . وأدرك الجميع أنه لن يحرق شيء ولن يقتل أحداً على الأقل فى حضور ماجور الحرس .

وأدرك شوخوف هذا أيضا ، وحدج لوبتسوف بنظرة عدائية

وزم على شفتيه بعنف ولم ينطق كلمة أخرى . أما لوبتسوف فقد قال بلهجة جافة .

— إن الجيش الألمانى مايزال يقاتل باستماتة ، وستتاح لك الفرصه لكى تظهر حماسك فى المعركة .

وانهت ثانيا المناقشة بكلمة لتلطيف الجو ، قالت

— هيا بنا نواصل المسير .

وصعد الجميع مرة ثانية إلى العربة التى انحدرت مسرعة مقرقعة إلى القرية . وهنا استقبلتهم لافتة هائلة موضوعة امام قاعة البلدة ومكتوب عليها ...

النصر أو سيبريا

وترجم لوبتسوف بصوت مرتفع هذ الشعار الذى يكتنفه الغموض والذى يبدو من الواضح انه آخر اختراعات جوبلز

وقال الجندى ذو الشارب الأحمر وهو يبدى امتعاضه

— لماذا يخيف فرتيز أحاه فرتيز ببلادنا سيبريا إن كل ما أتمناه هو أن اظل حياً حتى النصر واعود ثانية إلى بلادى العزيزة سيبريا ، إلى زوجتى فاسيليسا كاربوفنا والأولاد .

أوقف « الحوذى » العربة خارج منزل أنيق مبنى بالطوب الأحمر له رواق مرتفع . وفى الداخل يسود الهدوء والظلمة ورائحة العفن .

www.alkottob.com

وبينما كان « الحوذى » يخلع السروج عن الخيل انتشر الآخرون فى الحجرات الباردة فى صخب وهم يحدقون بفضول فى الأركان المظلمة .

وفجأة ظهر الحوذى على العتبة وفى عينيه نظرات تنم عن القلق وقال :

— أيها الرفيق الماجور ، هناك خطأ ما فى المخزن .

واندفعوا جميعاً إلى الخارج . كانت الخنازير تشمشم فى الأرض بأنوفها فى ظلمة الفناء ، والمخزن مليئاً بخشب الحريق ، وخلف كل الأخشاب المتراصة كشفت بطارية لوبتسوف عن خمسة أجساد معلقة من رقابها .

— عليهم اللعنة . اقطعوا هذه الحبال .

قال ذلك وهو يقطع الحبال بسكينه . وسقطت الجثث ثقيلة على الأرض . ودخل الملازم هو وتشوخوف إلى المخزن ، وأخذ الملازم يبذل معونته فى ضجة كبيرة ، أما تشوخوف فقد وقف جانباً وسيجارته يتألق وهجها فى الظلام .

كان اثنان من المشنوقين ما يزالان على قيد الحياة ، امرأة عجوز وبنت صغيرة . وحمل الاثنتان إلى داخل المنزل وأخذت تانيا تعمل على إعادة الوعى إليهما ، وسرعان ما كانت البنت جالسة إلى جوار تانيا على الكنبة وهى تحك عنقها بإحدى يديها وتتعلق بالأخرى بيد تلك المرأة المجهولة . وأخذت المرأة العجوز — دون أن تنظر إلى الروس

المحيطين بها فى صمت — أخذت تتنقل متثاقلة فى أرجاء الغرفة وهى تلتقط الأشياء المتناثرة على أرضها .

وعلى الرغم من أن لوبتسوف لم يكن يعرف إلا قليلا من اللغة الألمانية ، وأن محصوله منها كان مقتصراً تقريباً على عدد من المصطلحات العسكرية ، إلا أنه نجح فى استجواب المرأة .

اتضح أن ابنها ، وهو من النازيين المحليين ، لم يجد الوقت الكافى للهروب فقرر فى غمرة الرعب أن يشنق نفسه هو وبقية أفراد أسرته . ومرت الدبابات الروسية بالبلدة فى الليلة قبل البارحة ، كما أخذت القوات الروسية تتدفق مارة بالمكان منذ الصباح الباكر . وإذ أيقن صاحب المنزل أن الإفلات أصبح مستحيلا نفذ الخطة التى كانت فى ذهنه .

قال الجندى السيبيرى ذو الشارب الأحمر باشمئزاز وهو يحرك النار فى الموقد :

— أهؤلاء كائنات بشرية حقاً ؟ إن الفاشيين لا يكترثون بمصير أحد ، ولا حتى أطفالهم . لا بد أن هذا الخنزير القذر قد علق أبناءه بيديه .

وحاول الحوذى أن يشرح الأمر للسيدة العجوز فقال وهو يضرب بأصبعه على جبهته : « إن ابنك كان رجلا شريراً ... أنت فاهمة ؟ كيف يمكن لأى إنسان ... » وصاح رافعاً صوته وهو يتصور أنه كلما

www.alkottob.com

ارتفع صوته كلما ازدادت مقدرته على الإقناع . « فظرى .... » ولوح بذراعه ناحية البنت : « مثل هذه البنت الصغيرة » ونزل بيده على الأرض وهو يصيح : « تشنق » ، وهو يشير بإصبعه على عنقه .

بدأت المرأة تسوى الأسرة من أجل الروس . وكانت تعمل هذا دون أدنى إحساس منها بالمهانة ، فقد كانت على شفا الموت منذ لحظات ، الأمر الذى جعلها لا تفكر فى إظهار خلاف ما تحس به تماماً . وكان الأمر فى نظرها طبيعياً لا غرابة فيه : كان الروس هم المنتصرون ومن حقهم أن يخضعوا المهزومين لمشيئتهم .

ولكن لوبنسوف ، الجندى المحنك ، لم يكن ليطمئن إلى الاستسلام الألمانى ، ولذلك فقد قرر أن يقيم نظاماً للحراسة أخذاً بالأحوط . وبعد أن حدد نظاماً دقيقاً للحراسة ولإشارات الإنذار ، قال :

— بإمكانكم أن تناموا جميعاً وسأقوم أنا بالحراسة حتى الصباح ، فأنا لن أنام الليلة .

وسمع صوت تانيا من ركن قصى من أركان الغرفة :

— هل لى أن أتولى الحراسة معك ؟

وصاح لوبنسوف :

— طبعاً !

وتفرقوا جميعاً إلى أماكنهم فى الحال وكأنهم على اتفاق سابق

عدا لوبنسوف وتانيا اللذان جلسا إلى المنضدة قليلا ثم قاما وارتديا ملابسهما العسكرية ليتوليا القيام بنوبة الحراسة

كانت أصوات الشخير الرتيبة قد ملأت جو المنزل . وقام لوبنسوف وتانيا بالمرور فى جميع غرف المنزل قبل أن يغادراه إلى الخارج . كان الكابتن تشوخوف ينام على أريكة فى غرفة الطعام . كانت ملامح وجهه وهو نائم تكشف عن صغر سنه وقد فقدت طابع الجسارة البالغة والاعتداد الكبير بالنفس . وفى الغرفة التالية كان الملازم يتقلب على السرير فى نوم غير مريح وهو يغمغم ويقرض على أسنانه وما يزال يلبس قلنسوته الشتوية القديمة فوق رأسه . وعلى السرير الكبير ينام الجندى ذو الشارب الأحمر والحوذى ، كان كل منهما يرتدى ملابسه كاملة بما فى ذلك الحذاء الثقيل ، وكانا يتغطيان بمعطفيهما العسكريين على الرغم من أن كومة كبيرة من الأغطية والملاءات توجد فوق السرير تحت أقدامهما . ومن تحت المعطفين كانت تبرز فوهة مترليوز صغير وبندقية . كانا هما الإثنان أيضاً يغطان فى النوم .

وإلى جوارهما كانت البنت الألمانية تنام على سرير صغير .

وضحك لوبنسوف ضحكة رقيقة وهو ينظر إلى البنادق النائمة وعلى البساطة الاسبرطية [1] للجنود — لقد عودتهم الحرب أن يكونوا على استعداد فى أية لحظة .

---

(١) نسبة إلى اسبرطة « المدينة الإغريقية القديمة التى كانت مشهورة بروح مقاتليها وكفاءتهم وانضباتهم العسكرية النادرة المثال .

www.alkottob.com

خرج الاثنان إلى الفناء . كان الظلام حالكا والريح قوية نشيطة . ووصلت إليهما من الطريق أصوات وقع الأقدام الثقيلة وضجيج وسائل النقل الميكانيكية . وأحس الإثنان بشيء يتحرك تحت شجرة ، أضاء لوبنسوف بطاريته فرأيا المرأة العجوز وهي تحفر حفرة كبيرة بالجاروف وسألت تانيا بصوت خفيض :

— لماذا تحفر المرأة هذه الحفرة ؟

واتجه لوبنسوف ناحية المرأة وتكلم إليها ، فردت عليه بكلام وشرح طويل . ثم عاد لوبنسوف وقال لتانيا :

— إنها تحفر قبراً . إنهم لايدفنون المنتحرين فى جبانة البلدة ، وهذا هو السبب ... أعتقد أن هذا ما تقصده المرأة بكلامها .

وخرجا إلى الشارع ووقفا ساكنين لحظة ، ثم سألت تانيا

— ماهو عملك الآن ؟

— ضابط استكشاف فرقة ، وأنا عائد من مركز هيئة قيادة الجيش . لقد أرسلوا فى طلبي . إنهم يريدون إرسالى لأدرس فى الأكاديمية العسكرية فى موسكو ، ولم أتمكن من الاعتذار عن الذهاب إلا بصعوبة ، فمن المؤسف حقا أن يعود المرء إلى المؤخرة ولا يواصل القتال فى الخطوط الأمامية إلى النهاية ، وخاصة الآن — قبل النهاية الأخيرة . كذلك لم تكن بى رغبة فى ترك رجال الاستكشاف الذين عملوا معى طيلة الفترة الماضية فقد اعتدت على الحياة معهم . لقد أصبحت فرقتى بالنسبة إلى كمنزلى

وأهلى . لقد بذلت مجهوداً خاصا لأقناعهم فى القيادة . وكم أنا سعيد لانهم لم يرسلونى ... وإلا لكنت الآن فى مكان ما قرب مدينة مينسك ...

وصمت برهة ثم أضاف

— وما كانت أتيحت لى فرصة مقابلتك .

وتبينا أن لها بعض المعارف المشتركين . كانت تانيا قد اشتغلت فى إحدى مستشفيات الجيش وتعرفت إلى الكولونيل ماليشيف ، قائد قوات الاستكشاف فى الجيش . أما الآن فقد كانت عائدة من أحد مؤتمرات الجراحة ، وهى تشغل منصب الجراح الأول فى فرقة الكولونيل فوربيوف .

قال لوبنسوف .

— أنا أعرف هذا الضابط أيضا . إنه قائد حسن . ولكن الجنرال سيريدا قائد الفرقة التى أعمل فيها أفضل .

— أوه ، أنت تحب كل الناس .

قالت ذلك وابتسمت ، ونظرت إليه بطرف عينها ثم أضافت بصوت رقيق .

— إنه لشيء رائع حقا أن تمر سالما خلال هذه الحرب الرهيبة التى اختطفت عدداً لايحصى من خيرة الناس وبخاصة فى مهنتك ! كم أنا مسرورة برؤيتك .

وبعد لحظة سكوت عادت تسأل :

www.alkottob.com

— هل تعرف الكولونيل كراسيكوف من هيئة أركان حرب الجيش ؟

— أعرفه معرفة طفيفة .

وسار الاثنان متمهلين أمام واجهة المنزل الناتم وفجأة تعثرت فى مشيتها فسارع لوبنتسوف إلى الإمساك بها من ذراعها ، ولم يتركها بعد أن اعتدلت فى مشيتها وسأل هو بلهجة مرحة

هل هذا مسموح به فى أوقات العمل ؟

ومر بخاطر لوبنتسوف فجأة أن الحرب قد أوشكت على نهايتها ، أن السلام يوشك أن يظلل العالم . وقد تكون هذه هى المرة الأولى التى يخرج فيها للنزهة مع امرأة منذ اربع سنوات .

وصفت صفحة السماء قليلا ، وأطل القمر من فرجة فى السحب المبددة ، وسقط ضوءه على جدران المنازل البيضاء المخططة بأعمدة الخشب الأفقية الداكنة ، كما أضاء سطح البحيرة المذهب . كيف يمكنهما ان ينسيا الأحراش القريبة من فيازما حيث كانا محتبئين منذ ثلاث سنوات . قال :

— عندى إحساس كأننا كنا نتسلق جبلا عظيم الارتفاع شديد الانحدار لمدة طويلة جداً ، وأننا اليوم عند قمة هذا الجبل أو قريبين منها جداً... قد يكون هذا تشبيها مطروقا أو مبتذلا ولكن ... ماهو المدى الذى تستطيع أعيننا أن تدركه من هذه القمة ! يبدأ المرء فى رؤية ماضيه بنظرة

جديدة وبطريقة جديدة ، كذلك يرى الإنسان ما أمامه واضحا متبلوراً إننا الآن نعرف — بحق — قوتنا ومغزى وجودنا فى العالم لقد كبرنا ، وكأننا بلغنا مرحلة النضوج . . .

ثم ابتسم فى ارتباك وقال

— حسنا ، من الصعب ان أشرح مافى نفسى .

كانت تنظر إليه بتمعن لسبب بسيط — هو أن تتأكد أن هذا هو نفس الملازم الذى كان يقف إلى جانبها على هذا الطريق القديم عند مشارف سمولنسك ، هذا الشخص الذى يتعلم المرء منه كيف يكون شجاعاً واثقاً فى نفسه . وأحست فجأة بأنها تحسد رجال الاستكشاف وكل الناس الذين لم حظ العمل معه

سألت فجأة

— أتسمع هذا الصوت ؟

ونظر كل منهما إلى الآخر فى دهشة . كانت أصوات غريبة تشبه الأنين تأتى من مكان قريب ، وكأن الريح تلعب على أوتار هائلة . كان لحناً قديماً يعرفانه جيداً منذ أيام الطفولة . كان هناك شخص يعزف الأغنية الشهيرة عن ستيان رازين على آلة لايستطيعان أن يتبيناها على وجه التحديد . كانت الأصوات تأتى من الكنيسة . واتجه لوبنتسوف وتانيا ناحيتها وسرعان ما كانا أمام الدرج العريض الصاعد إلى بابها الرئيسى كان ضوء القمر ينصب داخل الكنيسة من الشبابيك المعقودة الطويلة .

www.alkottob.com

وفى أشعة ذلك الضوء جلس جاويش فوق منصة عالية يعزف على الأورغون . ووقفت جماعة من الجند فى أسفل المنصة تنصت فى شغف .

توقف الجاويش عن العزف ونهض من مكانه ، ورن صوته فى المكان

— أيها الرفيق الماجور ، هل تأذن لى فى الاستمرار ؟

وعقدت الدهشة لسان لوبنسوف ، ولم يتبين لأول وهلة أن السؤال كان موجهاً إليه . وإذ تبين ذلك اكتفى بأن أشار بيده إشارة سريعة ثم غادر هو وتانيا المكان .

كان الشارع بارداً مهيباً ، والريح نشيطة عنيفة .

وسارا عائدين إلى المنزل ببطء ، وفجأة سأل لوبنسوف

— وزوجك ، فى أى جبهة هو ؟

— لقد قتل فى عام ١٩٤٢ .

وأضافت بصوت مجدب :

— فى جبهة ستالينجراد .

وكان التغير المفاجىء فى نبرة صوتها يعنى قولها ارجو الا تكون آسفاً من أجلى ، لاتقل كلاماً لا داعى له ولا تتظاهر بأنك مهتم اهتماماً خاصاً بزوجى .

ثم قالت بشكل عرضى :

— هذا هو ماحدث .

ولكن ، عندما ألقت نظرة سريعة على وجه لوبنسوف ولمحت

وجهه الحائر المرتبك لم تستطع أن تمسك نفسها . وعبثاً ما فعلت حين أخذت تجز على شفتها السفلى بأسنانها ، كان الوقت قد فات وتحدرت الدموع من عينيها غزيرة ، وأشاحت بوجهها جانبا وهى لاتقوى على منع نفسها من النحيب .

www.alkottob.com

٣

فى الصباح الباكر دخل طابور من اللوريات إلى القرية . ووقف أحد اللوريات فجأة وقفز منه ضابط الإشارة الشاب الملازم نيكولسكى الذى كان همه الأول هو أن يخبر لوبتسوف بفرح :

ـ هل تعلم أيها الرفيق الماجور أننا الآن على أرض ألمانيا .

وقال لوبتسوف ضاحكا :

ـ نعم ، أعلم ذلك .

والتفت إلى تانيا ، كان الوقت قد حان للرحيل ولكنهما تخلفا قليلا كان الجندى ذو الشارب الأحمر خارج المنزل ، كذلك كان الجندى السيبيرى قد استيقظ لتوه وخرج هو الآخر ، وحين رأى أن الماجور متأهب للرحيل قال :

ـ حظاً طيباً يا رفيق ماجور . نتمنى أن نتقابل فى برلين .

ضحك لوبتسوف وشد على يد الجندى بقوة وهو يقول :

ـ هذا هو الأرجح .

وبنفس القوة شد على يد تانيا وأصابعها الرقيقة فظهر على وجهها الألم وقالت متشكية :

ـ كيف تضغط على يدى هكذا ؟ ألا تعرف أننى محتاجة إليها من أجل الجرحى ...

وأحس لوبتسوف بالحرج الشديد ، ولعن نفسه لغباوته . وقفز إلى جوار السائق ، وجلس الملازم فى المقعد الخلفى ـ ثم تحركت السيارة .

وفكر لوبتسوف بأسى : أنا لست إلا دباً غليظاً ، لم أقل لها كلمة واحدة ، ولم أقل كلمة للآخرين متمنياً لهم حظاً حسناً . . ماذا ستقول عنى يا ترى !

وتنهد . ونظر إليه السائق من طرف عينه وابتسم ابتسامة ذات مغزى . إن رجال الاستكشاف هؤلاء يجدون الوقت الكافى لكل شىء . كل إنسان فى الفرقة يعرف لوبتسوف فقد كان دهاؤه وشجاعته مضرب الأمثال ومادة للقصص والأساطير . وكان من الطبيعى أن يستنتج السائق والملازم نيكولسكى أن ماجور الحرس كان مشغولا بأكثر من مجرد النزهة الصباحية مع الطبيبة الجميلة ذات العينين الباكيتين .

فى هذه الأثناء كان اللورى قد وصل إلى الطريق العام وهدأ من سرعته حين دخل فى الطابور المتحرك الذى لا نهاية له .

كان لوبتسوف يرقب الحقول المنبسطة وسقوف المنازل المبلطة المرشوشة بالثلج الأبيض ، والغابات الصغيرة المنسقة وهى تمر كلها أمام شباك السيارة ، ويزن خصائص المكان وقيمته من وجهة النظر

www.alkottob.com

التكتيكية ، ولكنه مع ذلك لم يكف لحظة عن التفكير فى تانيا . تذكر دموعها الحزينة والقصة المؤثرة التى أعقبت ذلك . حكت له كيف قتل زوجها وماتت أمها ، وشعر بنفسه يبتسم ابتسامة حالمة رقيقة - وتنبه فى الحال إلى أنها - أيضاً - ابتسامة قاسية . قال لنفسه : هذا معناه أننى مسرور لمقتل زوجها ! إننى لم أتصور نفسى على هذا الحد من السفالة !

وهنا حاول أن يبدو فى مظهر أكثر جدية وصرامة .

لقد هزته مقابلته لتانيا ، وبخاصة فى ذلك اليوم الذى ينبىء بقرب انتهاء الحرب ، كحدث ذى دلالة عميقة .

كانت تانيا « معرفة قديمة » ، وتلك حقيقة عظيمة الأهمية فى نظر لوبنتسوف ، فلا يمكن أن تكون العلاقة بينهما من نوع « الصداقة » الطائشة التى ليست نادرة الحدوث فى الجبهة بين الرجال والنساء ، هذا النوع من « الصداقة » الذى يتجنبه بكل ما يستطيع والذى لا يسبب له سوى القرف والمرض .

« معرفة قديمة » ! كلمتين من جرس جميل ، كانا يحرراته من الشعور بالخجل الذى يحسه فى وجود بعض النساء اللائى قد يصادفهن الإنسان أحياناً واللائى يدركن تماماً من الذى ينتظره الإنسان منهن .

قضى وقته كله يفكر فى تانيا فى الالتقاء مستقبلا بها إلى أن وصلوا إلى إحدى القرى حيث كانت الفرقة قد توقفت منذ بضع ساعات .

وهنا انغمس لوبنتسوف فوراً فى جو مألوف لديه ، الجو الصاخب ولكن غير المتعجل - لكل مراكز هيئات أركان الحرب .

نزلت وحدة الاستكشاف التابعة للفرقة فى منزل كبير أبيض ناصع عند المشارف الغربية للقرية .

كان المنزل مليئاً بالفراش الريش وبالساعات المختلفه الاشكال والأحجام . وكانت الساعات تعلن الساعات بدقات خشنة مبحوحة وكأنها تطلب أن تأوى وتتدثر فى الفراش .

وفوق الأبواب والأسرة ، وبين النسابيك كتبت حكم من الشعر بخط وطريقة قوطية قديمة ، وغالبيتها تتحدث عن القناعة وعن الرضا بالهدوء والسعادة العائلية وتفضيلها على غرور الدنيا ، وتحت هذه الأشعار علقت صور جنديين ألمانيين يبتسمان ، وهما على ما يبدو إبنا صاحب المنزل ، والصور مأخوذة فى شوارع وميادين بعض العواصم الأوربية : كوبنهاجن ، ولاهاى وبروكسل وباريس . لقد كان هناك فعلا ما يبرر ابتسامات الجنديين .

تنتشر الأخبار فى الجيش بسرعة : لذلك سرعان ماعرف رجال الاستكشاف بنبأ عودة قائدهم فجاءوا يرحبون بعودته . وعلى الرغم من أنهم كانوا رجالا متحفظين فى إظهار مشاعرهم إلا أن لوبنتسوف لم يسعه إلا أن يلاحظ أنهم مسرورون بالفعل لرؤيته ثانية .

www.alkottob.com

هاهم جميعاً : الباشجاويش فورونين ، وهو كشاف ماهر ، أسمر البشرة ضئيل الجسم ، خفيف الحركة ، ذو نظرة ثعلبية ماكرة والجاويش الهادىء ميتروخين ، وهو رجل معتز بكفاءته ويعرف قدرها ، والكابتن الشاب ميشيرسكى قائد رجال استكشاف الفصيلة والشاويش الكتوم الشاذ الطباع شيبيريوف ، وهو مراسلة الماجور لوبتسوف .

وكان المترجم الهادىء الطبع ، أوجانسيان ، كشأنه دائما غير حليق الذقن قليل الحركة ، كان جالسا فوق أحد الأسرة ذات الفراش الريش وعندما لمح المترجم الماجور لوبتسوف قادما هب واقفا . وسارع الماجور — تقديراً منه لتلك التضحية الكبيرة من المترجم — فقال له : خذ راحتك ، وعندئذ غرق المترجم ثانية — وقد شعر بالارتياح — فى فراش الريش .

قال ميشرسكى بشىء من الخجل .

— إذن فأنت لست ذاهبا إلى الأكاديمية ؟

وبدأت الأسئلة تترى . ماذا يقولون فى مقر قيادة الجيش ؟ وماذا فعل الألمان فى القطاعات الأخرى من ميدان القتال ؟ . .

كانوا جميعا فى روح معنوية عالية وكأنهم فى عيد . وقال أحد رجال الاستكشاف وهو يلوح بذراعيه :

— لقد رأيت ماذا يجرى فى الطرقات ، أليس كذلك يارفيق ماجور ؟

شىء مهول ! رأيت عدد الرجال ، وعدد المدافع أيضا ! إن الألمانى الآن فى المصيدة على الرغم من أن أوربا اشتغلت من أجله .

وتنهد الباشجاويش فورونين بارتياح وقال :

— لقد وصلنا أخيراً .

ثم أضاف بشكل غير متوقع :

— وهذا يعنى يارفيق ماجور أننا سنعود قريبا إلى العمل بالشاكوش والمخراز .

ولم تنسجم فكرة شاكوش الإسكاف ومخرازه مع نظرته إلى فورونين وهو الكشاف الذى لايضارعه أحد فى إقدامه وشجاعته والذى يتحلى صدره بخمسة نياشين . وابتسم لوبتسوف وبدأ ، لأول مرة منذ بدء الحرب ، ينظر إلى كل جندى على ضوء عمله السابق .

وهكذا لم يكن فورونين « العظيم » سوى صانع أحذية ، وميتروخين كان سباكا ، وشيبيريوف كان يعمل حارسا لعلائم النهر العائمة فى الدنيبر ، أما أوجانسيان ، ذلك الرجل الطيب الخشن الطباع الدائم التبرم فقد كان ناقداً فنياً ، ولم يكن الكابتن ميشرسكى أى شىء بعد ، فعندما نشبت الحرب كان قد انتهى لتوه من دراسته الثانوية فقط .

لم يكن فيهم سوى لوبتسوف الذى كان قبل الحرب كما هو الآن — أحد رجال الجيش النظامى . قال وهو يحاول أن يخفى مشاعره بنكتة :

www.alkottob.com

— والآن أيها الأصدقاء ، أعطوني فكرة عما جد في الفرقة وأنتم مازلتم جنوداً في الجيش .

ولكن ظهر في هذه اللحظة الوجه المشاكس للماجور أنتوينوك مساعد لوبنتسوف ، ظهر عند الباب . ولم يكن هذا الضابط في يوم من الأيام مرحاً بأي حال ، وكان في هذا الوقت مبتئساً ، بشكل ملحوظ كان من الصعب عليه أن يخفي خيبة أمله فقد كان يأمل أن يتسبب نقل رئيسه في جلب ترقية له .

كان الماجور أنتوينوك يحفظ القواعد والأصول عن ظهر قلب ، وقضى في الجيش مدة طويلة كان سلوكه فيها ممتازاً ، وهو من رجال سلاح الفرسان سابقاً ، وهو فخور بذلك . ثم درس بعد ذلك منهجاً خاصاً في فن الاستكشاف ، وهو لذلك يعتبر نفسه أستاذاً في ذلك الميدان أيضاً .

كان موقفه من لوبنتسوف خليطاً من مشاعر عديدة فهو — بالطبع — لم يكن مغلق العينين بحيث لا يرى الكفاءات والميزات العالية التي يتمتع بها ماجور الحرس . ولكنه كان ميالاً إلى اعتبار الصفات التي يراها الناس من مزايا لوبنتسوف — كان ميالاً إلى اعتبارها من نقائصه فمثلاً : كان يؤلمه الأسلوب الرفاقي البعيد عن الرسميات الذي يعامل به لوبنتسوف رجال الاستكشاف . كذلك كان يعتبر أنه من غير اللائق أن يدرس لوبنتسوف الألمانية بمعاونة أوجانسيان ، فليس من اللائق بأي حال أن يتلقى ضابط قائد التعليم في أي شيء من أحد مرؤوسيه ،

ويقف أمامه كالتلميذ الصغير . وبشكل عام كان أنتوينوك يرى في لوبنتسوف كثيراً من صفات المدنيين ، «والمدنيون» في نظر أنتوينوك لفظ مرادف لمعنى « الأقل قدراً » . وحدث أنه بدأ يعامل الكابتن ميشرسكي بشيء من الاحتقار عندما عرف أنه كان ينظم الشعر حين يختلي بنفسه .

وكان لوبنتسوف على وعي بكل هذا ، فكان يضحك أحياناً ويستبد به الغضب أحياناً أخرى ولكن ، ما كان على لوبنتسوف إلا أن يرفع صوته ويصيح حتى يستسلم أنتوينوك في الحال ، فقد كان ، وعموماً ، لا يحترم سوى الرؤساء الغضوبين . وقد اعتاد لوبنتسوف أن يقول عنه :

— إذا لم تصح في وجهه فلن يفعل شيئاً ، وهو يظن أن الآخرين على شاكلته .

ولكن لوبنتسوف كان على حد من الابتهاج والفرح بدخول الجيوش السوفيتية ألمانيا ، وبمقابلته الشخصية لتوتيا إلى درجة لا تسمح له بإعطاء أهمية خاصة لوجه أنتوينوك الذي استطال من وقع مشاعره ، وانصرف إلى تأمل الخريطة التي تبين استحكامات الدفاع الألمانية على طول نهر كيورو . وتجمع الرجال حول رئيسهم وهم يدخنون الماخوركا بتلذذ وينتظرون الأوامر . كانوا على يقين من شيء واحد : هو أن هذا الماجور الذي لا يعرف الكلل سيجد حتماً عملاً لكل منهم !

www.alkottob.com

وبالفعل ، وقف الماجور بعد لحظات من التفكير وأخذ يذرع الغرفة ثم قال :

ـ حسنا ، لابد من بعض القتال !

وأعتقد أن من واجبنا إرسال جماعة لاستكشاف الاستحكامات المقامة على طول نهر كيودو ، وهذه الاستحكامات هى ـ كما تعلمون ـ جزء مما يسمونه الجدار الشرقى . إجعل الرجال يتأهبون للذهاب باميشركى فستكون على رأس القوة ، وسأذهب لأقدم تقريرى إلى الجنرال .

والتفت إلى المترجم قائلا :

ـ هل هناك أسرى ؟

ـ نعم.

ـ هل استجوبتهم ؟

ـ نعم ، قليلا .

ـ هل سألتهم عن نهر كيودو ؟

واعترف المترجم قائلا :

ـ لا .

وحدج لوبتسوف أنتونيوك بنظرة عاتبة دون أن يقول شيئاً ، وارتدى قلنسوته ، وخرج لمقابلة قائد الفرقة .

٤

كان المكان الذى يحيط بالمنزل الذى يقيم فيه قائد الفرقة الماجور جنرال سيريدا وأركان حربه يموج بالحركة ويعج بالصخب ، إذ يبدو أن أحد كبار المسئولين قد وصل . وعند البوابة الرئيسية وقفت إحدى عربات نقل الجنود المصفحة وبها مدفع رشاش ضخم. وكان ضباط القيادة يدخلون المبنى ويخرجون منه فى عجلة وهم يحملون الدوسيهات الكبيرة ، وارتسمت على وجوههم إمارات التعب ومسحة من التهيب والخوف ، همس أحدهم فى أذن لوبتسوف :

ـ هل تعرف من هنا ؟ إنه سيزوكريلوف .

فالحقيقة إذن هى أن الذى يزور قائد الفرقة هو عضو فى المجلس العسكرى الأعلى ، اللفتنانت جنرال جورجى نيكولايفيتس سيزوكريلوف . وتردد لوبتسوف قليلا ثم صعد درجات السلم الخارجى .

كانت صالة المدخل مليئة بالناس . هنا يجلس معاونو سيزوكريلوف وضباط اتصاله ، وهناك عدد من رماة قوة الحراسة ، وضباط من هيئة قيادة الفرقة . وكان المكان هادئاً . ومن خلف الباب سمعت أصوات منخفضة .

www.alkottob.com

لا ، ليس من المناسب الدخول عند قائد الفرقة الآن . واتكأ لوبنتسوف على أحد أعمدة المدخل وهو يفكر فى التقرير الذى سيقدمه فى حالة إذا ما استدعى عضو المجلس العسكرى أحد رجال الاستكشاف .

فتح الباب بعنف وظهر عنده رئيس القسم السياسى للفرقة ، الكولونيل بلوتنيكوف وقال لأحد ضباط الفرقة

— إرسل فى طلب لوبنتسوف .

— أنا موجود هنا .

— حسناً ، أدخل .

كان الهدوء تاماً فى الغرفة الفسيحة النصف معتمة . وعلى أريكة فى الركن القصى جلس رجل نحيل أشيب يلبس معطف الجنرال . وأمامه يقف فى حالة انتباه قائد الفرقة ، الماجور جنرال سيريدا . وعلى مسافة منهما يقف ثلاثة من كبار الضباط : أحدهم ماجور جنرال لم يره لوبنتسوف من قبل ، ويبدو من الأشرطة التى على كتفيه أنه من سلاح الدبابات ، والاثنان الآخران من رتبة كولونيل .

كان لوبنتسوف ينوى أن يثبت حضوره بمجرد دخوله ، ولكنه غير رأيه فى الحال حين أحس أن الجو فى الغرفة كان متوتراً . وفضل أن يقف « انتباه » إلى جوار الحائط ، وهو يشعر بمزيد من الاشفاق على قائده الذى فهم أنه كان يتلقى درساً لسبب معين .

كانت أول كلمة طرقت سمعه هى « عربة » . فأصاخ السمع وهو مشدوه . كان عضو المجلس العسكرى يقول :

— نعم ، العربات التى تجرها الخيل ، إنهم يركبون أى شىء على هواهم .. وقد أوقفت اليوم نوعاً من عربات النقل المغطاة التى تجرها البهائم أوقفت ثلاثاً من هذه العربات وفيها حشود من المشاه ياتاراس بتروفيتش .

وسكت برهة ثم أضاف بصوت أكثر انخفاضاً ولكن لوبنتسوف تبين فيها نوعاً من الخبث :

— وليس الأمر قاصراً عليك أنت وحدك . .

ونظر إلى سيريدا فى وجهه وقال وهو حانق :

— اجلس . لماذا تصر على الوقوف .

جلس الجنرال تاراس بتروفيتش سيريدا ، ولكن سيزوكريلوف وقف وواصل الكلام وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً .

— إن زحفاً سريعاً ناجحاً شىء جميل حقاً ، ولكن له جوانبه السلبية ، فالقواد الذين يأخذهم الحماس يفرطون فى المسائل الخاصة بالنظام العسكرى ، وهناك نوع من التصرفات والنزعات الطائشة الحمقاء تنتشر بين القوات . وكأن شيئاً لا يعنينا ، وكأن شجاعتنا وصفاتنا خارقة ... وقد يؤدى مثل هذا إلى مضاعفات غير سارة ، وبخاصة على أرض العدو إنكم جميعا تتصرفون وكأنكم سكارى . طبعا ، فى ذهنكم أنكم الآن فى ألمانيا ... ولكن ألمانيا يجب أن تغلب ، يجب أن تؤخذ ، ولن تؤخذ

www.alkottob.com

ألمانيا كما أخذت فيليكى لوكى . يجب أن نخوض قتالا عنيفا من أجل أن نأخذ ألمانيا !

فكر لوبنتسوف : لماذا أرسلوا فى طلبي ؟ ودار فى ذهنه هذا السؤال وهو يندم على رحلته فى العربة ذات الخيل ، التى يبدو أنها ستجلب عليه اللوم والتقريع . وبالتأكيد لا يمكنهم أن يعرفوا أنه كان مشتركاً فى هذا العمل أيضا .

وأخذ يتأمل عضو المجلس العسكرى الذى سمع عنه كثيراً دون أن يراه من قبل . وأثرت فيه بصفة خاصة عينا سيزوكريلوف السابحتين الغائرتين المنهكتين .

عندما علم سيزوكريلوف أن ضابط الإستكشاف قد وصل استدار نحوه وأخذ يتفحصه بنظرة ثابتة . هل يمكن أن يكون على علم بموضوع العربة ؟ دار السؤال مرة ثانية بذهن لوبنتسوف وقد احتقن وجهه قليلا ولكن يبدو أن هذا الموضوع قد مر بسلام .

سأله الجنرال :

ــ هل تستطيع أن تتصرف على طريقك تماما فى الظلام ؟

ــ نعم يارفيق جنرال .

ــ أنبأنى قائد الفرقة أنك كنت فى مقر قيادة إحدى وحدات الدبابات أخيراً ...

ــ نعم ، منذ يومين .

ــ ستقوم بتوصيلى إلى هناك .

قال لوبنتسوف بقلق :

ــ قد يوجد جماعات متناثرة من الألمان بين مكاننا هنا وبين وحدات الدبابات ، فالجبهة هنا ليست متماسكة تماماً . بإمكانى أن أذهب إلى هناك بمفردى وأستحضر أحد الضباط هنا ليقدم تقريراً عن الحالة . بإمكانى أن أذهب وأعود بسرعة .

حدج سيزوكريلوف ضابط الاستكشاف مرة أخرى بنظرة ثابتة ، وأجاب بلهجة فيها شيء من السخرية :

ــ سأنفذ أوامرك بكل سرور يارفيق ماجور ، ولكن المشكلة هى أنى أود أن أزور وحدات الدبابات بنفسى .

أجاب لوبنتسوف وقد تملكه الارتباك تماماً :

ــ مفهوم يارفيق جنرال .

ــ أما عن جماعات الألمان المتناثرة فلا اعتقد أننا يجب أن نخشاهم ، فهؤلاء « الفردلولف » الألمان لايتحركون إلا بالأوامر ، إن أحدا منهم لن يفعل شيئا بناء على مبادرته الخاصة . واللبيب منهم من يدرك أنه لافائدة من مثل هذه المحاولات . هل لديك أعمال معينة يجب أن تفرغ منها ؟

ــ أريد أن أحصل على الموافقة على خطة الاستكشاف واستجوب بعض الأسرى .

www.alkottob.com

— هل يكفيك ساعة .

— نعم .

قال الجنرال وهو يلقى نظرة على ساعته :

— حسنا ، أمامك ساعة .

ثم التفت فجأة إلى قائد الفرقة وسأله :

— وأين ابنتك ؟ بالتأكيد لا يمكن تكون معك هنا حتى الآن .

كانت فيكا — ابنة الجنرال سيريدا التى تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً — تلازم أباها بصفة دائمة . كانت أمها قد قتلتها قنبلة ألمانية فى بداية الحرب .

وكانت فيكا — وهى التى نشأت بين الجنود وفى قلب معارك الحرب وأهوالها — قد تمكنت من تحصيل معلومات طيبة عن الخرائط العسكرية ومختلف أنواع الأسلحة . وكان أبوها يقول ضاحكا إنها تعلمت القراءة والكتابة فى « كتاب الجيب للشاة ـ الجزء الأول » .

وظل الجنرال على اتصالات لا تنتهى بأخت زوجته طيلة الوقت بالخطابات . ولما وصلا إلى اتفاقات على كل شىء كان الهجوم على نهر الفستولا قد بدأ ، ولم يعد هناك وقت للالتفات إلى الشئون الخاصة ، فبقيت فيكا — كما كانت دائماً — تعيش مع الفرقة .

كانت فتاة غريبة التكوين ، شديدة الذكاء ولكنها ليست على القدر من القوة البدنية . ولها ذاكرة مدهشة ، إلى درجة أنها كانت غالباً ما

تساعد والدها على تذكر أسماء المواقع وأرقام المرتفعات الإستراتيجية والتفاصيل الخاصة بوحدات المدفعية وغيرها من القوات . وأحيانا ، عندما يكون ضباط القيادة منهمكين مع والدها فى الحديث ولا تسعفهم الذاكرة باسم أحد المواقع التى عسكرت فيها الفرقة منذ عام أو أكثر ، كان يسمع صوت فيكا الرقيق النحيل من ركن قصى بالغرفة وهى تقول ولا يخلو صوتها حينئذ من نبرة فرح وسخرية :

— ألا تذكر يابابا أن ذلك كان عند الحافة الغربية من الغابة على بعد كيلومترين جنوبى زاديبا ؟

وعلى الرغم من معرفتها لكل هذه الأشياء التى تعتبر عديمة الجدوى بالنسبة لها فقد كانت خالية الذهن تماما من كل الإهتمامات العادية التى تشغل البنات فى سنها .

ومن الطبيعى أن مثل هذه الحالة غير العادية لا يمكن أن تمر دون أن تلفت النظر ، ولا عجب فى أن عضو المجلس العسكرى كان عالما بوجود فيكا .

قال سيزوكريلوف :

— أدعها هنا .

خرج قائد الفرقة وهو ساكن وأحضر فيكا من غرفة مجاورة .

دخلت إلى الغرفة فتاة شاحبة الوجه واسعة العينين ، شعرها أسود مقصوص كشعر الصبية ، ترتدى قميصا وسترة كاكيين . كانت جادة فى

www.alkottob.com

هدوء ، ساكنة فى يقظة . ومع ذلك فقد لاحظ سيزوكريلوف بعض الشواهد الصغيرة التى تدل على أنها كانت فى حقيقتها عصبية إلى درجة كبيرة . كان كفها الأيسر يرتجف بين حين وآخر رجفة خفيفة .

تقدمت إلى عضو المجلس العسكرى وقدمت نفسها :

ـ أنا فيكا .

وإذ لاحظت الفتاة وجود لوبنسوف ابتسمت له ابتسامة ودودة لم تفت عينا عضو المجلس العسكرى الذى استنتج أن ضابط الاستكشاف كان شخصية محبوبة من الجميع .

وفى الوقت الذى كان فيه لوبنسوف يقدم الخطة التى وضعها للاستكشاف إلى رئيس أركان حرب الفرقة ، بدأ الجنرال سيزوكريلوف يتحدث إلى فيكا وهو يستخدم فى حديثه صيغة الاحترام التى توجه عادة إلى الناس الكبار ، قال :

ـ لقد آن الأوان لتذهبى إلى موسكو للدراسة ، فالحرب تقترب من نهايتها ، ويجب أن يفكر المرء فى المستقبل .

وأجابت البنت بلهجة جادة :

ـ أحب أن أنتظر إلى أن نأخذ برلين يارفيق جنرال . لا شك أن الذهاب إلى هناك شىء ممتع إلى أقصى حد .

ـ على أى حال ، يجب أن تتركى هذا المكان .

ـ ولكنى أدرس هنا ، ويعطينى الماجور جارين والملازم نيكولسكى بعض الدروس .

وردد الجنرال بعدها :

ـ « بعض الدروس » ، ولكن هذا البعض « قليل جداً » ، بالنسبة لما يجب أن تتعلميه .

واعترفت فيكا :

ـ أنا أعلم هذا تماماً ولكن هذا يكفى فى الظروف الحالية .

فسأل سيزوكريلوف وهو يحدج قائد الفرقة بنظرة جانبية :

ـ ولكن ، ألا تسببين أى تعطيل لوالدك فى عمله ؟

ـ بل على العكس ، أنا أساعده .

وابتسمت ابتسامة حزينة شاردة وقالت :

ـ عندما ينسى شيئاً ما أذكره بما نسى .

وضحك الجميع عدا سيزوكريلوف الذى قال :

ـ حسناً ، هذا شىء جميل ، ولكن على أية حال أرجو أن تعدى نفسك لتكونى فى الصف الثانى من صفوف جبهة القتال !

هل تدركين حقيقة الموقف ؟ فى هذه الحرب المتحركة غالباً ما يكون مقر هيئة قيادة الفرقة فى مركز دقيق . . . وقد يحدث ماليس فى الحسبان كما حدث يوم أن اصطدمت أنت ووالدك بقوات من الألمان . أليس كذلك ؟

www.alkottob.com

— نعم، حدث ذلك عند مشارف زوبين.

— ها أنت تذكرين.

وابتسم الجنرال سيريدا ابتسامة مرتبكة وقال:

— هل تعلمين يافيكا أنه لاحيلة لنا فى الأمر، إن الأمر الصادر من المجلس العسكرى الأعلى يجب أن يطاع.

فى هذه الأثناء كان لوبنسوف قد حصل على الموافقة على خطته وقفل عائداً إلى وحدته، وبعد أن أعطى أنتونيوك التعليمات اللازمة ذهب مع أوجانسيان وشيبريوف إلى المخزن الذى كان الأسرى الألمان محتجزين فيه.

كانوا جالسين على القش يتناولون الحساء فى طاساتهم، وبينما هم فى انتظارهم إلى أن ينتهوا من عشائهم أخذ لوبنسوف يتحدث إلى مراسلته بصوت خفيض:

— كيف أحوالك؟ هل الخيل على مايرام؟

— على مايرام تماما.

كان وجهه المربع كشأنه دائماً، هادئاً ولا يكشف عما فى نفسه. ولكن لوبنسوف كان يعرف مراسلته معرفة دقيقة جعلته يدرك أن هناك ما يضايقه. وأخيراً قال سيبيريوف:

— يقولون إن فراغ بطون الألمان هو الذى أرغمهم على الاستسلام،

ولكنى أرى وفرة من الأبقار والخنازير هنا. فكيف يمكنك تفسير هذا؟

نظر لوبنسوف إليه باهتمام. كان يعرف أن الأسئلة التى تقلق بال سيبيريوف كانت تقلق بال الكشافين الآخرين حتما. والحق أن أحواش المزارع الألمانية كانت مكتظة بالخنازير والأبقار السوداء والبيضاء من أجود السلالات

أجاب لوبنسوف بعد أن فكر برهة:

— ليس الأمر بسيطا كما يبدو. فبينما الخنازير تجرى فى وضح النهار هنا وهناك، فإنك لاتستطيع أن تأكل منها شيئا، فالألمان ممنوعون من ذبحها. قال لى ذلك أحد أسراهم عند نهر الج... حسنا، هذه هى حقيقة الأمر. تنظر حواليك فتظن أن ما تراه طعاماً، فإذا دققت النظر لاتجده طعاما وإنما هى مخازن لتموين الجيوش.

توقف سيبيريوف عن التفكير قليلا وهو يزن قوة الحجة، ثم قال:

— نعم، يبدو أن الأمر كان كذلك فعلا. وهكذا كان يمكن أن يستمر الألمان فى القتال عشر سنوات أخرى، وأن يظل عندهم مايكفيهم من القوت ومن كل شىء آخر... ومعنى هذا أن الجوع ليس هو الذى أرغمهم على الركوع، ولا القنابل الأمريكية — إنما نحن الذين طرحناهم أرضاً.

وضع سيبيريوف يده بكل تأكيد على جذر المسألة، ونظر لوبنسوف إليه بامتنان.

www.alkottob.com

كان لوبنتسوف يحب مراسلته على الرغم من أطواره التى تتسم بالشذوذ أحياناً . كان سيبيريوف يتكلم عن الناس بنوع من السخرية وبلهجة من لايخطىء الحكم على شىء . ولم يكن من الأمور السهلة على الإطلاق أن يخطىء المرء على تقدير هذا الجندى المفكر الصموت .

كان يقول عن لوبنتسوف :

ــ هذا رجل .

أما عن أنتونوك الذى كان لايحبه ولايحترمه فى قرارة نفسه ، فكان يقول :

ــ هذا ليس رجلا .

وكان الكشافين الآخرين يمزحون معه أحياناً متسائلين عن هذا الشخص أو ذاك :

ــ ما رأيك ياسيبيريوف ، هل هذا الشخص رجلا أو ليس رجلا؟

والحقيقة أن المزاح والضحك معه كان أمراً محفوفا بالمخاطر ، فقد كان يندفع اندفاعات وحشية فى ساعات غضبه .

بدأ أوجانسيان ينادى الأسرى واحداً بعد الآخر .

ولأول وهلة لفتت نظر لوبنتسوف ــ كما أدهشته ــ ظاهرتان فى حالة هؤلاء الأسرى . فأولا : كان الأسرى الألمان ينتمون إلى تشكيلات مختلفة من المقاتلين فى الصفوف الأولى ومن الحاميات العسكرية فى المؤخرة . كانت الوحدات النظامية والخاصة ، ووحدات

الاحتياطى وفرق الأمن مختلطة بعضها بالبعض اختلاطاً تاماً ، الأمر الذى يكشف عن حالة الذعر والانهيار المعنوى الذى أصبح فيه الجيش الألمانى . والظاهرة الثانية هى أن الألمان قد فقدوا ــ خلال الساعات القليلة التى انقضت منذ أسرهم ــ فقدوا طابعهم العسكرى وعادوا إلى ما كانوا عليه قبل الحرب ــ صغار موظفين وصغار تجار وحرفيين وعمال وفلاحين . وفى هذا كانوا يختلفون اختلافا أساسياً عن أسرى المراحل الأولى من الحرب . فقد كان الأسرى حينئذ يظلون محتفظون بصفاتهم كعسكريين حتى بعد أن يقعوا فى الأسر .

وكان من الواضح أن الأسرى الجدد تحققوا تماماً من أن الهزيمة قد حلت بألمانيا . وإن لم يكن كلهم قد سلم بهذه الحقيقة . كان فيهم أحد أفراد فرقة المشاة الخامسة والعشرين المدحورة ، واسمه هلمت شفالب أجاب على سؤال موجه إليه عن احتمالات سير الحرب وعيناه الصغيرتان تبرقان فى جنون ، قال فى لهجة متنبىء وهو يرفع أصبعاً قذراً :

ــ فى الأعماق المظلمة لأحد المناجم السحيقة يجرى صنع سلاح سرى رهيب . . وهذا السلاح سينقذ ألمانيا .

وكان أحد الأسرى الألمان ، وهو رجل طويل نحيل ، يقف بالقرب منه فقال باحتقار وغضب :

ــ لقد خرج الحمار العجوز عن جادة العقل تماماً !

وأعقب هذا شجار بين الأسرى . وكان من الواضح أن هذا ليس

www.alkottob.com

هو أول شجار من نوعه بينهم . ولاحظ لوبنتسوف بارتياح أن شقالب كان معزولا عن الباقين ، وأن الغالبية كانت تسخر منه بينما ظل الباقين صامتين فى حزن وأسى .

كانت معظم المعلومات التى يعرفها الأسرى عن استحكامات نهر زيودو منقولة إليهم عن طريق الرواية أو السماع . ومع ذلك فقد دون لوبنتسوف بعناية المعلومات البسيطة التى أدلوا بها .

وتتابعت دقائق الساعة التى حددها عضو المجلس العسكرى الأعلى بسرعة . وترك لوبنتسوف المترجم أوجانسيان يواصل استجواب الأسرى فى المخزن ، واصطحب المراسلة معه وتوجه إلى قائد الفرقة .

هنا كان الضجيج الذى يسبق الرحيل على أشده . وكان رجال المدفعية الرشاشة يتخذون أماكنهم على حاملة الجنود المصفحة ، وانزاح بعضهم ليفسحوا بينهم مكاناً للمراسلة سيبيروف .

خرج سيزوكريلوف من المنزل وهو يلقى نظرة حواليه ، وإذ رأى ضابط الاستكشاف أومأ إليه برأسه محيياً ثم استأذن فى الرحيل من سيريدا وبلوتنيكوف واتجه ناحية السيارة . وقال :

ـ هيا بنا .

وجلس لوبنتسوف إلى جوار السائق ، واتخذ عضو المجلس العسكرى ومساعده وجنرال الدبابات أماكنهم فى المقعد الخلفى .

أسرعت السيارة تنهب الطريق المرصوف بالأسفلت وهى تتأرجح برقة . وبعد أن استدارت مع حنية الطريق لحقت بعربة تزحف ببطء على الطريق ، عربة تجرها أربع خيول مسرجة .

استرق لوبنتسوف نظرة خاطفة إلى وجه عضو المجلس العسكرى فرأى عينى الجنرال مغلقتين . وتخطت السيارة العربة السيئة الطالع . كان لوبنتسوف على استعداد لحلف أغلظ الأيمان بأن تلك العربة هى الوسيلة العجيبة العتيقة للانتقال التى يمتلكها شوخرف ، ولكن كان من الصعب عليه أن يتحقق منها تماماً . مرت السيارة بها مروراً خاطفاً . وكانت ظلمة الليل قد بدأت تهبط عليهم .

www.alkottob.com

٥

والحقيقة أنها كانت نفس العربة ، ولم يبق من ركابها سوى الكابتن شوخوف والجندى السيبيرى الذى كان يتخذ مكانه كسائق لها . أما رفاق الطريق فقد تفرقوا جميعاً إلى وحداتهم فى صبيحة ذلك اليوم .

كان شوخوف يجلس فى الخلف وهو يدخن باكتئاب . كان قد لمح لوبتسوف فى السيارة الكبيرة وأخذ يفكر فيه بغيظ لا يتبين كنهه أو سببه : هذا الماجور مرة أخرى .. هذا النوع الذى يجيد إلقاء المواعظ والخطب . نحن نعرف هذا النوع من الناس ... لم يكن باستطاعته أن يغفر له إشارته التى تنم عن الاحتقار ولا كلماته اللاذعة القارصة ، والأدهى من ذلك أن هذا حدث فى وجود سيدة ! سيدة حبوبة . لا شك أن لوبتسوف هذا من أبطال العمل فى المؤخرة ... لا يكف عن الضحك طول الوقت .. وينقذ حياة الألمان ... ياله من مصاص للدماء .

كانت الكتيبة التى يسعى تشوخوف للحاق بها قد أصبحت قريبة ، ولاحت القرية التى بها مقر قيادتها بعد حنية الطريق التالية .

صاح تشوخوف :

ـ أسرع .

وألهب الجندى السيبيرى ظهور الخيل بسوطه .

كانت هيئة قيادة الكتيبة تحتل منزلا ذا سقف جمالون مبلط ، أمامه ثلاث شجرات سنديان عجوزة كثيرة البزوز . ترك تشوخوف العربة عند المعبر وتقدم بخطوات سريعة ماراً بالديدبان متجاهلا دهشته عند رؤية هذه الوسيلة العجيبة من وسائل الانتقال ، وشق طريقه بين عدد من جنود المراسلة والاتصال والكتبة الذين كانوا واقفين أو جالسين عند المدخل ، ودلف إلى غرفة صغيرة . كان بالغرفة ضابط قصير القامة من رتبة ماجور يتحدث فى التليفون . وإلى منضدة بالغرفة جلس أحد الكتبة وعامل التليفون . حيا تشوخوف الجميع وهو بادى المرح والبهجة .

ـ الكابتن تشوخوف فى خدمتكم .

ولكن الماجور كان يصيح فى التليفون :

ـ ... انتبه إلى جيداً يا فيسلتشاكوف ، يجب أن تستولى على القرية ! ماذا تعنى بقولك إنهم يطلقون النار ؟ ... هل كنت تنتظر أن يخرجوا لاستقبالك بفرقة موسيقية ؟

ووضع سماعة التليفون ، وقال لعامل التليفون :

ـ أطلب لى زهرة ، السوسن ، ... دعنا نرى ماذا تفعل هذه الزهرة الجميلة البيضاء .

www.alkottob.com

ثم التفت إلى تشوخوف ، وأخذ أوراقه وسأل :

ـ حسناً ؟

شخصية مضحكة حقاً ، أيمكن أن يكون هذا هو رئيس هيئة أركان الكتيبة ؟

سأل الماجور :

ـ تشغل مركز قائد فصيلة ؟

ـ تماماً .

ـ هل توليت هذا المركز منذ مدة ؟

ـ سنتان .

ـ إنها مدة طويلة نوعا .

قال الماجور هذا التعليق وهو يشير إلى عامل التليفون ألا يرفع صوته وهو يتحدث إلى « سوسنه » . وعاد إلى السؤال :

ـ لماذا ؟

حلق تشوخوف فى الماجور بعينيه الداكنتين النفاذتين ، وكأنه غواص فى أعماق الماء يتفرس فى نبات نام فى القاع . قال :

ـ لا أدرى .

قطب الماجور جبينه ، وسأل :

ـ حسناً ، حسناً ؟ من الذى يعرف إذن ؟

ـ الرؤساء .

غمغم الماجور وخرج إلى الغرفة المجاورة .

سأل تشوخوف الكاتب بلهجة فيها اعتزاز :

ـ من هذا ؟

ـ قائد الكتيبة .

ـ حسناً ، إنه فتى لا بأس به .

فأجاب الكاتب وقد أخذ بهذة اللهجة التى لاكلفة فيها والتى يتحدث بها هذا الضابط الجديد عن رئيس هيئة أركان الكتيبة :

ـ من ؟ الرفيق الماجور ؟ إنه حائز على وسام « بطل الاتحاد السوفيتى » ، إنه الماجور ميجاييف هل تقول لا بأس به .

عاد الماجور إلى الغرفة ، وتحدث أخيراً إلى « السوسنة » المتمنعة البيضاء العطرة ، ثم التفت إلى الكاتب وقال :

ـ ادرج اسم الكابتن تشوخوف فى القائمة كقائد لفصيلة البنادق الثانية . وما هذه العربة الغريبة ؟

ـ إنها عربتى .

وانفجر ميجاييف ضاحكا :

ـ إذن فأنت هو الكونت ! فهمت ! حسناً ، بإمكانك ترك عجلتك وراءك . إننا نضع تحت إمرتك وحدة من وحدات المشاة وليست

www.alkottob.com

وحدة مدرعة ... وتذكر ما سأقوله لك الآن — نحن بحاجة إلى قائد أورطة . فلو أثبت أنك أهل لها عيناك قائد أورطة .

فقال تشوخوف :

— أنا أشعر أنني على ما يرام حيث أنا .

فرد ميجايف وهو يتظاهر بالغضب :

— إليك عني أيها الإنسان الغريب .

— حسناً .

قالها تشوخوف بصوت فيه رنة كآبة ، واستدار على عقبه وهو يرفع يده مرة ثانية إلى قلنسوته في جسارة وعدم اكتراث .

كان قد فتح الباب وهو في طريقه إلى خارج الغرفة حين صاح الميجور ميجايف خلفه :

— هل تعرف مكان الفصيلة الثانية .

أجاب تشوخوف باقتضاب :

— سأبحث عنها .

وخرج .

* * *

كان تشوخوف من مواطني مدينة نوفوجرود . وكان أبوه قد توفي

وهو صغير ونشأ مع والدته العجوز في بيت صغير عند مشارف المدينة . وكان أخوه الكبير يشتغل في مصنع في لنينجراد . وعندما نشبت الحرب كان في التاسعة عشر من عمره ، وكان قد انتهى لتوه من الدراسة في معهد المعلمين كما كان مغرماً بالفتاة التي تقطن في المنزل المجاور لمنزله . كان اسمها فاريا بروخوروفا ، وهي فتاة شقراء ذات عينين لامعتين ، كانت تدرس معه ، وكان مقدراً لها أن تبدأ التدريس في ٩٤ ، في أول العام الدراسي . وكان تشوخوف يعد للسفر إلى لنينجراد عند أخيه ليتم دراساته في أحد المعاهد العالية .

مزقت الحرب كل هذه المشاريع . وسمر تشوخوف شبابيك منزله ، وقال وداعاً لفاريا ، ثم اصطحب أمه إلى محطة السكة الحديد في الطريق إلى لنينجراد .

وفي لنينجراد استدعي تشوخوف فوراً إلى الجيش . وظلت فاريا تكتب إليه يومياً إلى أن احتل الألمان مدينة نوفوجرود فانقطعت رسائلها . وأرسلت الوحدة التي كان يعمل فيها تشوخوف إلى جبهة كاريليا . وتطورت المعارك دون توقف ، وبرز فيها تشوخوف من البداية كمقاتل بارد الأعصاب لا يعرف الخوف . وسرعان ما أرسل إلى مدرسة لتخريج صغار الضباط وتدريبهم . والحق أنه لم تتح له فرصة الدراسة مدة كافية ، فقد أرسل طلبة المدرسة إلى جبهة مورمانسك بعد قليل ، ولكن تشوخوف حصل من ذلك على لقب ضابط وأصبح

www.alkottob.com

قائداً لسرية . ثم أصيب بجرح خطير . وعلم من الصحف بعد ذلك بحوالى عام ، وقت أن كان يحارب فى الجبهة الشمالية — علم أن فتاة من الفدائيين اسمها فاريا بروخوروفا اعتقلتها القوات الألمانية وشنقتها فى شارع لنين بمدينة نوفوجرود .

وتلق بعد ذلك تباً يفيد أن أمه ماتت جوعاً أثناء الشتاء الذى اشتد فيه الحصار الألمانى حول مدينة لنينجراد ولم تخلف أمه أى أثر وراءها ولا حتى مقبرة . فقد توفيت فى الشارع وقام بعض الناس الغرباء بدفنها . أما أخوه الكبير فقد قتل حين سقطت قنبلة فوق المصنع الذى يعمل فيه .

ولم يبق من الأسرة كلها سوى تشوخوف الذى بقى وحيداً .

وكانت هذه الضربات شديدة الوقع على نفسية الشاب اليافع ، وخلفت فيه آثاراً جعلته يحس بمرارة شديدة . وأصبحت الحرب هى موضع كل همه فى الحياة . وبمرور الوقت داخله إحساس غريب بالزهو لأنه ترك وحيداً فى هذه الدنيا . ماذا يهمنى ؟ أنا إنسان وحيد . كانت هذه هى الفكرة التى لا تفارق فكره . وعندما كان الجنود يتلقون خطابات من ذويهم أو يتحدثون عن عائلاتهم يتأثر ، وهم يبتسمون أو يتأوهون أو يتشكون كان تشوخوف ينظر إليهم نظرة متعالية ، وكأن هذه الارتباطات العائلية تحط من قيمتهم فى نظره وتجعلهم فى مركز أصغر مما هو فيه .

وبرز فى المعارك بفضل شجاعته النادرة التى لا تبارى . وأصبحت

كراهيته الألمان — بما فيهم الأسرى — مضرب الأمثال . وكان رؤساؤه يتسامحون معه كثيراً من أجل شجاعته الفائقة . كما كانوا يحسون بنوع من الأسى تجاهه عندما يعرفون المآسى التى حلت به . ومع كل هذا كانوا يرغمون على معاملة هذا الكابتن بشىء من الحذر ، فقد كان أحيانا يبدو مندفعاً وياتساً إلى أقصى الحدود ! وكان دائما يتقدم جنوده — محطماً بذلك جميع القواعد والتعليمات — الأمر الذى كان غالباً ما يؤدى به إلى أن يفقد السيطرة على فصيلته .

هذه هى الأسباب التى جعلت تشوخوف مازال قائد فصيلة . وعلى الرغم من أنه كان يتظاهر بأن هذا الموضوع لا يهمه فى شىء إلا أنه يحس فى قرارة نفسه بأنه مطعون . وفى هذه المرة أيضاً ، عندما ترك الماجور ميجاييف وتوجه ناحية عربته ، كانت تبدو على وجهه إمارات الحزن .

كان قد تجمع عدد من الجنود حول العربة وهم يتفحصونها باهتمام وتلذذ ، وكان الجندى السيبيرى يشرح التفاصيل التى كان قد سمعها بالأمس من لوبنتسوف عن تصميم هذه العربة العتيقة . وترجم الحكمة اللاتينية المنقوشة عليها والتى نصها : «من أجل الله ، والقيصر ، والوطن» .

وإذ تبين الجندى — الذى كانت فرقته تعسكر إلى يسار هذا الموقع — أن تشوخوف يواصل السير متخطياً إياه ، أعاد ماسمع أن قاله منذ أيام قليلة للماجور لوبنتسوف :

www.alkottob.com

التساهل مع الضباط ، والحرب هى الحرب . وعلى ذلك يجب التفريق بين جلاشا وقائد الأورطة . ولكن جارين أحس أن هناك خطأ ما فى هذه النتيجة . لم تكن الحالة حالة « حب معسكرات » ، ولكنه كان حباً بسيطاً صادقاً . وبعد أن ظل جارين يتأمل نتائج البحث الذى قام به طول الليل عاد إلى القسم السياسى للفرقة دون أن يكتب شيئاً عن الموضوع. كان فى تقديره أنه بمجرد أن يبدأ الهجوم سينسى كل ما يتعلق بهذا الموضوع وهكذا ظلت المسألة على هذا الوضع إلى تلك اللحظة .

لم تكن جلاشا موجودة بالفرقة عندما وصلوا إليها ، ولكن الجو النسائى كان ملحوظاً فى كل ما يحيط بقائد الأورطة من نظافة وترتيب شاملين . وسرعان ما ظهرت جلاشا نفسها .

كانت امرأة فى السابعة والعشرين ، ضخمة الجثة شديدة السمنة ، ساقاها سمينان بيضاوان ، وشعرها كتانى مشدود ، يوجهها تمش خفيف — مثل وجه فيسيلشا كوف — ولها خدان ممتلئان موردان . .

ولكنك إذا نظرت فى عينى هذه المرأة الهائلة الحجم تجدهما معبرتين تعبيراً عميقاً عن رقة نادرة المثال . كانت نظرة واحدة لفمها الرقيق وللغمازتين الدقيقتين فى خديها الموردين — نظرة واحدة تكفى لكى تجعل المرء ينسى كل ما يتعلق بغلظها وعدم رشاقتها . كان بها شىء أكبر من مجرد جمال الجسد — ذلك هو جمال الروح وصفاء النفس .

وأحس تشوخوف بهذا المعنى إحساساً طفيفاً .

أخذت جلاشا تتنقل فى المكان وهى تعد الطعام للضابط الجديد ،

وتحكى له ، وكأنها تتحدث إلى صديق قديم ، كيف ظلت تتقلب نصف النهار فى هذا المنزل الذى كان يملكه أحد الكيهاويين الألمان ، وكيف عثرت على مخزن يحتوى على كمية وافرة من الأدوية والضمادات ، وكيف سرت جداً لهذا الاكتشاف لأن الوحدة الطبية متخلفة كثيراً عن الوحدات الأمامية فى الجبهة .

قالت عن الألمان :

— إن منازلهم نظيفة جداً ، ولكن من الواضح أن أرواحهم ليست نظيفة تماماً . كما أنهم فى غاية الذعر منا ! فالفلاح يعرف طبيعة الشخص الذى اختطف منه اللحم

كانت الأورطة قد استولت منذ قليل على إحدى القرى الكبيرة ، كما استولت على دبابتين وعشر سيارات نقل فى حالة جيدة . وكانت هذه المغانم واقفة بالقرب من المنزل الذى ينزل فيه قائد الأورطة . وكان الألمان قد انسحبوا واعتصموا بغابة صغيرة على ربوة مرتفعة وفتحوا النار من مدافعهم المورتر ، وكل خمس دقائق يسمع صوت انفجار خشن يملأ الفضاء . كذلك سمعت انفجارات الألغام مرة من ناحية اليمين ومرة أخرى من اليسار . وبعد كل انفجار يدمدم فيسيلشا كوف بصوت خافت وهو ينذر العدو البعيد الذى لا يرى :

— انتظروا قليلا .. ستغيرون من لهجتكم فى الصباح .

وسأل تشوخوف :

www.alkottob.com

— أليس من الواجب أن نسارع إلى طردهم من هناك ؟

— إن رجالنا متعبون ، فهم لم يتذوقوا النوم منذ ثلاثة أيام . يجب أن يعطوا قليلا من الراحة . بإمكانك أن تذهب إلى وحدتك ، إنها معسكرة فى القرية القائمة هناك عبر الجدول ، على الحد الشمالى للجبهة . سيدلونك على الطريق . لن تجد تحت إمرتك جنوداً كثيرين ، فقد أعفى كل قواد السرايا من مهامهم . كذلك هناك بطارية مضادة للدبابات وبطارية لمدافع المورتر . وعندك كمية كافية من الذخائر .

وقالت جلاشا وهى تودع تشوخوف :

— يجب أن تتأكد بنفسك من أن الرجال يخلعون أحذيتهم أثناء الليل وهم ينام . ومن المفيد لهم أن يذهبوا إلى الحمام .

ونظرت نظرة متوسلة إلى فيسيلاشاكوف الذى هز رأسه وقال :

— هاأنت تعودين إلى الحديث عن الحمام . إن الرجال بحاجة إلى النوم وليس إلى حمام البخار .

وذهب تشوخوف . .

صعد إلى العربة وانهال على الخيل الأرستوقراطية بضربة قاطعة من كرباجه ، فانطلقت تعبر الجدول بخطوات سريعة . وخاضت الخيل فى المياه إلى بطنها وبللت الساتان الفاخر الذى يغطى المقاعد .

وعند مشارف القرية ، وبالقرب من القنطرة المحطمة القائمة على الجدول - رأى تشوخوف جثة جندى روسى . كانت الجثة مغفرة بتراب

من أرض أجنبية ، وهو يرقد هناك مرتدياً معطفاً عسكرياً رمادياً ، وعيناه شاخصتان مثبتتان فى السماء الغربية .

كان هذا أول جندى روسى يراه تشوخوف مقتولا فوق أرض ألمانيا . يا للمصير المؤلم : أن يتحمل المرء كل تلك المصاعب ، ويخوض كل تلك المعارك ، ويجتاز كل تلك الطرق ثم يقتل فى الوقت الذى تبدو فيه الآمال قريبة المنال . واتجه تشوخوف بفكره — شأن أى شاب فى وضعه — إلى التفكير فى نفسه ، إلى التفكير فى احتمال أن يلقى هو قريباً نفس المصير .

www.alkottob.com

٦

كانت الاستحكامات الألمانية على نهر الفستولا بالغة القوة والمناعة. وكل من اشترك فى الحرب يعرف المصير الذى تؤول إليه فصيلة من القناصة حاملى البنادق بعد اختراق مثل هذه الاستحكامات . وبعد ذلك ، وأثناء تعقب قوات العدو المهزوم لا تفقد الفصيلة كثيراً من رجالها ولكن يحدث بين الحين والحين أن يقتل أحد رجالها أو يجرح أو يصاب بمرض . ولكن عدد الرجال يستمر فى النقصان وتظل مهمة الفصيلة كما كانت ، على الرغم من كونها معدة فى البداية لتقوم بدور طاقم كامل من الجنود . إن كل رجل من رجالها ينهض الآن بما كان ينهض به ستة رجال على الأقل . ولا يتخلف واحد منهم أو يصاب بمرض ، فقد أصبح من الصعب أن تردى أحدهم أو تصيبه بجرح . لقد أصبحوا رجالا « محصنين ضد الموت » .

ولا يعنى هذا أن الرجال الباقين هم أفضل الرجال . لقد كانوا فى يوم من الأيام مثلهم مثل غيرهم ممن قاتلوا إلى جوارهم وسقطوا فى المعركة . ولكنهم أصبحوا الأفضل الآن ، واكتسبوا هذا بفضل التجارب القتية التى حصلوها فى سنوات الحرب .

وتتكون الفصيلة الثانية من عشرين جندياً من هؤلاء الرجال الذين « لا يموتون » . والضعف العددى لهذه الفصيلة يرجع لظروف معينة أخرى . فأثناء عمليات الاختراق كانت الأورطة تهاجم عند الطرف الأقصى للجناح الأيمن من الجبهة ، على الرغم من أن الجنود - طبعاً - لم يكونوا على علم بتلك الحقيقة . وعند عبور النهر توجهت القوات المصاحبة فى الحال ناحية الشمال . وهكذا تقدمت الأورطة — وفيها الفصيلة الثانية وجناحها الأيمن مكشوف تماما ، وانهالت عليهم القنابل من قطاع مودلين المحصن تحصيناً قوياً فى نفس الوقت الذى سقط منها كثير من الضحايا من نيران العدو المتقهقرة أمامها .

وعلى الرغم من أن هذه لم تكن أول مرة يخوض فيها تشوخوف المعارك فى الميدان إلا أنه صدم بسبب الضعف العددى للفصيلة الموضوعة تحت إمرته . وفكر وقد تملكه الغضب : لقد جعلونى قائداً لمجموعة صغيرة من الجند .

حملق الجنود ، وهم لا يخفون اهتمامهم ، فى قائدهم الجديد الذى خاض بكل تلك الجرأة فى المجرى المائى بمركبته الغريبة ، وقد أخذوا يتصرفاته القاطعة وعينيه الرماديتين الباردتين وثقته التى لا تحد فى شخصه .

— أين قواد السرايا ؟

سأل تشوخوف هذا السؤال للجنود الذين اصطفوا أمامه وكأنه لا يعرف شيئاً عن حالة الفصيلة .

www.alkottob.com

أدى أحدهم وهو جندى طويل القامة برتبة باشجاويش ادى التحية وقال دون تردد :

— ليس هناك قواد سرايا يارفيق الكابتن . لا يوجد سواى ، أنا باشجاويش الفصيلة ، واثنان من قواد المجموعات : الشاويش الممتاز سليفينكو والشاويش جوجو بريدز . وقد جرح آخر قواد السرايا ، وهو الصول يارسوك فى المعركة من أجل برومبرج . ويقوم الأمباشى سميجلاف بمهمة البوكامين . والمنظم الحزبى للفصيلة هو الشاويش الممتاز سليفينكو . ويتولى كتابة التقارير باشجاويش الفصيلة جودونوف .

وأصدر تشوخوف أمره بلهجة جافة قائلا :

— اخلعوا أحذيتكم وخذوا قسطاً من الراحة .

ولكن لم يتمكن جميع الرجال من الاستسلام للنوم . فمثلا : لم يتمكن الأومباشى سميجلاف ، البالغ من العمر أربعاً وعشرين عاماً ، من النوم بسبب الحادث الكبير — وهو دخول ألمانيا .

كان المنظم الحزبى للفصيلة ، سليفينكو ، قد نظم بالأمس اجتماعاً قصيراً للجنود بهذه المناسبة ، ولكنه كان اجتماعاً مثيراً أثر فى سميجلاف تأثيراً بالغاً . وتبع ذلك انشغاله مدة طويلة فى ورشة الصيانة القائمة فى أقاصى القرية . وجد عدداً كبيرا من الجنود هناك ، وأخذ يشتغل معهم . وتنهد وهو يخرج من الورشة وينظر بحزن إلى يديه ، وقال للمنظم الحزبى :

— لقد فقدت مهارتى فى العمل تماماً . . . أنظر أى نوع من الميكانيكيين أصبحت . إنهم لن يعتبروني إلا عاملا من الدرجة الثالثة .

فأجابه سليفينكو مواسيا :

— إنك سرعان ماتستعيد مهارتك . فأنت لم تكن تعرف شيئاً عن مهنة الجندية فى بداية الحرب وانظر أى نوع من الأسود أصبحت اليوم ! ولاشك أنك أكثر معرفة بمهنة الميكانيكى !

ولكن سميجلاف كان متألماً ، ولم يكن بذهنه سوى فكرة ألحت عليه ، وهى أن يديه لاتطاوعانه فى العمل . وأخذ يتجول حزيناً فى القرية وهو يحملق فى منازلها . وقابل عدداً من معارفه من جنود مدفعية الميدان ومدافع المورتر ، وحدثهم عن قائد الفصيلة الجديد . واكتشف فى أحد المنازل المهجورة بذلة جديدة لأحد رجال فرق العاصفة الألمانية (فرق ال S S) وعليها صليب حديدى . وعندما عاد إلى فصيلته بلغ عن اكتشافه هذا . عندئذ قال تشوخوف :

— أحرقوا هذا المنزل عن آخره .

رفع المنظم الحزبى سليفينكو حاجبيه مدهوشاً وأجاب فى هدوء :

— إذا أشعلت النار فى المنزل فإنك تضىء القرية كلها ، وسيشكرك الألمان لهذه الخدمة التى ستوديها لهم .

وتساءل تشوخوف بلهجة جافة :

— ماذا ؟ هل تخاف الألمان ؟

www.alkottob.com

ولكنه لم يصر على وجهة نظره .

وجاء اثنان من رجال المدفعية الذين حدثهم سميجلاف عن القائد الجديد ، وهما قائد المدفعية المضادة للدبابات والملازم المشرف على مدفعية المورتر ، جاءا لزيارة القائد الجديد وأعطياه تقريراً عن حالة « المهمات » وهو الإسم الذى يطلقونه على مجموعاتهم باللهجة الدارجة فى صفوف الجيش . وكان هناك نقص فى الذخائر ، فلا يوجد سوى نصف الكمية اللازمة ، فقد كانت خطوط الإمدادات بعيدة فى المؤخرة ، وإن كان هناك وعد بصرف كميات أخرى من الذخائر فى الصباح .

كانت القرية تسبح فى ضوء القمر . وكان معظم رجال الفصيلة نائمين . ولم يكن هناك من يجلس يقظاً سوى الديدبانات فى خنادقهم عند الطرف الأقصى من القرية — البعض إلى جوار مدافعهم الرشاشة والبعض الآخر إلى جوار مدافعهم المضادة للدبابات ، وهم يحدقون فى الهياكل المعتمة للأشجار والشجيرات ، وهم يخفون حفائر كبيرة من الماخوركا فى أكمام معاطفهم العسكرية . ولم ترد المدفعية السوفييتية على المورتر الألمانى إلا فى فترات متباعدة ، فقد كانوا يوفرون الذخيرة .

بعد أن ودع تشوخوف رجال المدفعية راح للنوم فى سرير أعده له الباشجاويش . وتجمع عدد قليل من الرجال فى الفناء يتبادلون الرأى حول القائد الجديد .

قال جوجو بريدز ، وهو رجل طويل القامة ، داكن البشرة ، ذو شارب قصير أسود مبروم إلى أعلى :

— يبدو أنه فى غاية الحزم .

وأضاف سميجلاف :

— ومتهور .

والتفتت جميع العيون ناحية سيليفنكو ، المنظم الحزبى ، فقد كان لرأيه وزن كبير فى نظرهم . ولكن سيليفنكو تجنب إصدار حكم متعجل ، وقال

— ستكشف لنا الأيام .

كان جودونوف قد قرر أن يعد عشاء فاخراً بمناسبة مجىء القائد الجديد . كان قد تمكن من صرف كمية من الفودكا تكفى الثلاثين رجلا . كانوا مدرجين فى كشف المنزل الذى تقيم فيه الفصيلة الأسبوع الماضى . وأمر جندى المراسلة بيشوجين أن يمسك ثلاث دجاجات من حظائر أحد المنازل التى لاحظ جودونوف أن أصحابها تركوها وهربوا . قائلا :

— أمسك ثلاثة منها واشويها ، ولكن لاتطلق النار عليها وإلا أيقظت قائدنا . (وكان قد سمح لنفسه باستخدام كلمة « قائدنا » دلالة على أنه قبل دخول الكابتن فى أسرة الفصيلة) .

وعندما نضج الدجاج ذهب جودونوف لإيقاظ تشوخوف .

www.alkottob.com

قال :

— أيها الرفيق الكابتن ، إن العشاء جاهز .

هب تشوخوف مستيقظاً وبدأ فى الحال يلبس حذاءه . ولكنه — حين تبين السبب الذى من أجله أوقظ — خلع حذاءه ثانية وكان يريد الرقص لولا أنه لمح الفراخ المشوية والفودكا الموجودة فى إبريق زجاجى مخمور ، فتذكر أنه لم يذق شيئاً من الطعام طول اليوم ، فجلس إلى الطعام ليتناول عشاءه — حقاً ، لقد كان الباشجاويش يعرف تغذية الجائعين تماماً !.

كان شخير الجند يسمع من خلف الحائط . واختلط صوت وقع أقدام الجند بصيحات الديدبانات . كانت القرية مليئة برجال الإشارة والمتسللين وجنود الخدمات الطبية . وسمع صوت ماكينات سيارات ولوريات : لابد أن هذا هو المدد جاء من مخازن الكتيبة .

وجاء إلى المنزل ثلاثة من جنود استكشاف الفرقة يقيمون فى المنزل المجاور . كانوا قد انتهوا لتوهم من نوبة مراقبة فى الطابق الأعلى من أحد الأبنية القائمة فى طرف القرية . جلسوا ليتدفئوا إلى جوار النار .

قرع الباب ، ودخلت مجموعة أخرى من رجال الاستكشاف التابعين لقيادة الفرقة ومعهم قائد الفصيلة الكابتن ميشيرسكى . قدم كل من القائدين نفسه للآخر ، وبعد أن استمع ميشيرسكى للأخبار التى أدلى بها

الجنود الثلاثة الذين كانوا يقومون بالمراقبة قال :

— هل تعرفون أيها الزملاء أن ماجور الحرس قد عاد ثانية .

وأضاف ، شارحاً الأمر لتشوخوف بلهجة مؤدبة :

— إننى أتحدث عن قائد قوة الاستكشاف التابعة للفرقة . كانوا يريدون إرساله إلى الأكاديمية العسكرية ولكنه رفض .

كان ضابط الاستكشاف هذا من النوع المؤدب المتعلق بالكتب . وتجاوز تشوخوف عن طباع ميشيرسكى الشاذة على الرغم من أنه يعتبر الأدب نوعاً من الترف غير المستحب فى الجبهة ، وما كان تجاوزه هذا إلا لأن به احتراماً خاصاً لرجال الاستكشاف .

عندما نال الرجال حظاً من الدفء نهضوا وعلى رأسهم ميشيرسكى ليواصلوا السير إلى المؤخرة الألمانية . وعندما عرف تشوخوف هذا تساءل :

— هل أنت ذاهب معهم ؟

— طبعاً ، بالتأكيد .

توجه تشوخوف إلى الرواق أمام المنزل وظل يرقب رجال الاستكشاف وهم يبتعدون حتى غابوا عن بصره تماماً . وكان الجاويش الممتاز سليفيتكو واقفاً إلى جوار الرواق ، فسأله تشوخوف :

— ماذا تفعل ؟ هل أنت فى نوبة الحراسة ؟

www.alkottob.com

— لا يارفيق الكابتن ، كل ما فى الأمر هو أنى لا أستطيع النوم .

ثم سكت برهة وأضاف :

— إن ابنتى موجودة هنا ، يارفيق الكابتن .

— أين ؟

من يدرى ! . . . كل ما أعلم هو أنها فى ألمانيا . لقد أخذوها وأحضروها إلى هنا . ومنذ أذاع القسم السياسى أننا فى ألمانيا طار النوم من عينى .

وضحك ضحكة مغتصبة وكأنه يعتذر عن ضعفه ، وأضاف :

— لقد تملكت رأسى العجوز البلهاء فكرة ملحة ، وهى أن ابنتى ربما تكون الآن على بعد نصف ميل من هنا ، فى مكان ما قريب من هنا ، فى واحد من المنازل المبنية فى المزارع الموجودة هنا ، أو ربما فى القرية المجاورة .

قال تشوخوف :

— ولكن ألمانيا بلد كبير .

— أنا أعلم هذا علم اليقين ولكننى مع ذلك لا أستطيع أن أنام . أخبرنى اليوم أحد الألمان أن هناك فتيات من روسيا يعملن فى منزل أحد كبار الملاك فى المزرعة المجاورة . وهناك طريق مستقيم يصل بيننا وبين هذه المزرعة . أرجو يارفيق كابتن أن تدعنى أذهب إلى هناك بنفسى لأرى ، وليطمئن قلبى .

دخل الإثنان إلى المنزل وألقيا نظرة على الخريطة . كانت المزرعة التى تحدث عنها الجندى واقعة على بعد كيلومترين فى اتجاه الشمال الشرقى.

قال تشوخوف : — ماذا يجب عمله ؟ ليس بإمكانك أن تذهب بمفردك . أما عن إعطائك رجالا آخرين فأنت تعلم أنه لم يبق فى الفصيلة غير القليل الذى لا يمكن التفريط فيه . . . يقولون إن الألمان يعملون فى جماعات ، بطريقة تشبه أعمال الفدائيين .

عندئذ ضحك ساليفينكو باحتقار :

— دعك من هذا الكلام يارفيق الكابتن ! أنا لن أصدق أبداً أن هناك فدائيين ألمان . إن الألمان لا يصلحون أبداً لمثل هذا النوع من القتال . إن الألمانى بطبعه حريص ، وهو يعرف أن من المحال نشر الخشب بمطواة الجيب . وأين يمكن القيام بعمليات الفدائيين هنا ؟ إن الغابات نظيفة تماماً ، والطرق مستقيمة لا التواء فيها . . . لا ، لا يجب ألا تقلق بالك من أجلى ، سأذهب وحدى .

أثرت هذه الحجج الطلية فى تشوخوف ، فتردد قليلا ثم سمح للمنظم الحزبى بالرحيل .

أخذ ساليفينكو أحد المدافع الرشاشة الصغيرة ، ووضع قنبلة يدوية فى كل من جيبيه ، وقال وهو يبتسم فى ارتباك :

— أشكرك أيها الرفيق الكابتن . لا داعى لمجرد إخبارهم ...

www.alkottob.com

ولوح بيده وهو عند باب الغرفة المجاورة التى كان الجنود نامون فيها وقال :

— سأعود بعد ساعة .

ثم أختتم كلامه بالأوكرانية :

— . . . وإلا فسيثبت جنونى . منظم حزبى ومع ذلك لايعدو أن يكون عجوزاً أبله .

وحيا الضابط ، وخرج .

كان تشوخوف على وشك الرقاد والنوم عندما انفتح الباب فجأة واندفع الكابتن ميشيرسكى إلى داخل المنزل وقد غطى كله بالطين والأوساخ ، وسأل فى عجلة :

— أين التليفون ؟ يجب أن أرسل أخباراً عاجلة لهيئة القيادة . إن العدو ينسحب ، لقد زحفت فى قلب صفوفهم . إنهم ينسحبون ، أنا أجزم بذلك .

وأبلغوا الخبر إلى قيادة الأورطة التى أبلغته بدورها إلى قيادة الكتيبة ثم إلى قيادة الفرقة .

وتحركت الفرقة وهى تنفض عن نفسها غبار النوم .

وأيقظ تشوخوف رجاله وهم لايكادون يستطيعون التحرك من الإنهاك ، ويرتجفون فى برد الفجر .

وسأل تشوخوف ضابط الاستكشاف :

— هل أنت راحل الآن ؟

— نعم ، إنهم فى انتظارى . إلى اللقاء يارفيق الكابتن .

ودهش تشوخوف مرة ثانية من التأدب الذى لا يتغير لضابط الاستكشاف . خرج تشوخوف إلى فناء المنزل حيث وقف قليلا ينصت لوقع أقدام ميشيرسكى وهى تبتعد ، ثم استدار عائداً إلى فصيلته التى كانت قد تجمعت ووقفت على أهبة الاستعداد .

ترك الجنود الفناء . وكانت القرية قد امتلأت بالرجال والعربات والتوريات . .

وزمجرت سيارات النقل وهى تتحرك إلى الأمام ، وصفرت آلات السيارات الصغيرة ، وصلصلت مهمات الرجال .

www.alkottob.com

٧

كان ساليفينكو كلما تقدم على طول الطريق المرصوف بالأسفلت وهو يضرب الأرض بعنف بالحديدتين المركبتين فى كعبى حذائه الغليظ كلما ازداد فى نفسه الإحساس بأنه سيجد فى هذه المزرعة فعلا ابنته العزيزة ، أو كما كان يسميها بالأوكرانية (دونشكا) . حقيقة أنه كان يحس بأن فى أعماقه ، فى جزيرة صغيرة معزولة فى محيط وجدانه ، يحس بوجود ساليفينكو آخر ، ساليفينكو متشكك مرتاب ، ينظر ساخراً إلى ساليفينكو الحالم ، الذى يتصور أن كل شىء ممكن وغير مستحيل .

كان ساليفينكو الآخر ، ساليفينكو المرتاب ، يوجه خطابه إليه وقد عقد ما بين حاجبيه ساخراً : حسنا ، يالك من شخص غريب حقا . هل أنت جاد فيما تظن من أن جاليا موجودة هنا بالفعل ، وفى هذه المزرعة بالذات ؟ أنت ، عامل المناجم الذى تجاوز الأربعين من عمره ، ورجل خبرت الحياة — أنت يدخل فى روعك فجأة أنك ستجد ابنتك بهذه الطريقة ، وفى هذا البلد المعادى الذى يحتوى على آلاف المزارع والقرى.. .. عد إلى حيث يوجد رفاقك وآوى إلى فراشك يارجل . . .

ولكن ساليفينكو يواصل سيره فى عناد . لقد تذكر ابنته جاليا .

كانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما جاء الألمان . كانت قد انتهت فى دراستها من امتحان السنة السابعة عشر بنجاح . كانت فتاة طويلة القامة ، داكنة البشرة ، جميلة المنظر . ولكن أعز وأحب ما كان فيها فى عين والدها هو عقلها . كانت على درجة من السخرية ، وعلى جانب كبير من الدهاء ، يخلف هذا مظهر يدل على التحفظ والهدوء والبساطة ، بما يتناسب وسنها الصغير . وكان ساليفينكو يحب التحدث مع ابنته ويكتشف كل يوم فيها صفات جديدة : فهم للطبيعة البشرية ، وإرادة قوية ، وطاقات نادرة المثال . والحق أنه كان حريصا على ألا تجرفه أحاسيسه الأبوية وكان يعاملها بشىء من الصرامة .

وتذكر ساليفينكو الآن خطيئته الظالمة وعيناه تفيضان ندماً . لقد كان عملا أحمق منه أن يثير كل تلك الضجة حول إعجابها الصبيانى بفولودكا أو خريستوك ، وهو فتى رائع مرح قتل فى الحرب .

عندما وصلت المعارك إلى الدونباس التحق ساليفينكو بأورطة شيوعية أرسلت لمقابلة الألمان عند ستالينو . وجرح ساليفينكو فى هذه المعركة وحمل فى سيارة نقل قديمة إلى المستشفى العسكرى .

وكان بإمكانه طبعاً بعد أن عاد إلى رشده أن يقول إنه عامل فى مناجم الفحم ، وعلى الأرجح كان هذا سيعفيه من الذهاب إلى الجيش للقتال ، فقد كانت الحاجة ماسة إلى عمال المناجم فى المؤخرة ، عند كاراجاندا مثلا . والحق أن ساليفينكو لم يخف مهنته . وكل مافعله هو

www.alkottob.com

أنه – ببساطة – تعمد ألا يذكر شيئاً عنها . فقد كان يظن ، لجهله بالحرب ، أنه حين يلتحق بالقوات المسلحة فسيرسل في الحال إلى المكان الذي يتوق إلى الذهاب إليه – إلى فوروشيلوفجراد ، وأنه سيشترك في طرد الألمان من وادي الدونباس الحبيب إلى قلبه . ولكن خاب ظنه ، فقد ألحقوه بوحدة مدفعية مضادة للطائرات في قرية نائية من قرى القوازق حيث توجد مستودعات ضخمة للبترول . وكان ساليفيكو يقضي ليالي الخريف الطويلة يتطلع إلى قبة السماء الهائلة الممتدة فوق السهوب وقلبه يتحرك شوقاً إلى الغرب ، إلى منجمه ومنزله الصغير . وقد كانت تسري عنه – على أية حال – فكرة أن كل إنسان يحارب من أجل الوطن ككل إنما يدافع في نفس الوقت عن منزله وأسرته ، بل وعن كل منزل وأسرة فيه .

وجاء اليوم الذي تحرر فيه حوض نهر الدونباس ، وتمكن بعد أن أبل من جرحه الثاني (وكان عندئذ قد انتقل إلى سلاح المشاة) تمكن من زيارة منجمه . وخطى عتبة منزله ووقف وقفة طويلة في وسط الغرفة التي تضم « امرأته العجوز » . لم يفهم لأول وهلة السبب في دموعها التي انهمرت بحرارة ولكنه سرعان ما هجست نفسه بالسبب . لم يجرؤ على السؤال عن سبب بكائها ولكنه تيقن في ذات الوقت من أن جاليا هي السبب ، فلم تكن جاليا موجودة بالمنزل . وبدا المنزل فراغاً لا غناء فيه .

وأخيراً ، وعندما أقبل الجيران مسرعين وعلم بمصير جاليا أخذ يهدئ من روع « المرأة العجوز » ، ووعدها – طبعاً – وهو يبتسم ابتسامة مقتضبة أنه سيبحث عن (دوتشكا) بمجرد وصوله إلى أرض ألمانيا ، وأنه سيجدها ويحضرها معه . وكأن « المرأة العجوز » لم تصدق هذا القول منه ، فلم تقل شيئاً واستمرت تبكي في صمت .

والآن ، هاهو على أرض ألمانيا ، وهو حي يسعى ! وهناك وعلى بعد كيلومتر واحد منه توجد ابنته .

وواصل السير وهو يستحث الخطى .

وطافت بذهنه فكرة سوداء حاول طول الوقت أن يطردها دون جدوى : ابنتي ... إنها فتاة جميلة . أي رجل يمسك نفسه عن النظر إليها ؟ أي رجل لا ينظر إليها والبسمة في شفتيه والرغبة في نفسه ؟ وماذا لو كانت مثل هذه الفتاة أصبحت أمة مستعبدة ؟ وهؤلاء الألمان – السادة ؟ ...

ظهر المبنى القائم في المزرعة . كان منزلاً كبيراً محاطاً بجدار عال من الحجر وكأنه قلعة مسورة . وكانت البوابات المعقودة هي الأخرى تبدو وكأنها بوابات قلعة ، كانت مصنوعة من ألواح غليظة من الخشب تمسكها قضبان كبيرة من الحديد ، وكان الباب المفتوح في البوابة الرئيسية مغلقاً بالمزلاج .

ضرب ساليفيكو الباب بحذائه ذي الحديد وصاح :

www.alkottob.com

— افتح !

ونبح كلب نباحا عنيفا غاضبا .

وسمعت أصوات وقع أقدام تهرول ، توقفت عند الباب ثم أخذت تبتعد ثانية . عندئذ أخذ ساليفينكو يدق الباب بكعب بندقيته .

— افتحوا الباب ! . . . هنا جندى روسى !

وأسرعت أصوات الأقدام أكثر من ذى قبل . كان هناك أكثر من رجل عند الباب . وأخيراً سمع صوت أحد الألمان يسأل فى جبن بالألمانية :

— ماذا تريد ؟

— افتح . افتح . أقول افتح

وفتح الباب .

وجد ساليفينكو أمامه رجلا ألمانيا عجوزا يبدو عليه المرض والهزال ويمسك بيده فانوساً . وعلى مسافة قليلة منه رأى ساليفينكو هيكل رجلين منحنيين فوق سور حظيرة الماشية . وفجأة رفع الرجلان يديهما فوق رأسيهما واقتربا من ساليفينكو الذى تبين أنهما جنديان ألمانيان . قالا بالألمانية :

— نحن نستسلم .

وأجاب ساليفينكو بخليط من الألمانية والروسية :

— بالطبع . . تستسلمون . .

ولكى يأخذ بالأحوط لجأ ساليفينكو إلى دهاء الجندى فصاح :

— انتظروا دقيقة واحدة يافتيان !

وتردد صوته فى سكون الليل عبر البوابات الكبيرة .

ولكنه ربما فعل ذلك ليرضى ضميره كجندى أكثر مما فعله لرغبة فى تضليل الألمان .

وسأل بلغته المختلطة وهو يلكز كل جندى بأصبعه :

— اثنان فقط ؟

وأصدر أمره إليهما :

— خلفاً در .

ورفع المترليوز فى حالة استعداد .

فهم الألمان الأمر واستداروا وساروا عبر الفناء الملىء بالسماد والروث الجاف والقش ، وازدحمت فيه مرتفعة العارضة .

اتجهوا إلى منزل رب البيت ، وفى الدهليز صاح ساليفينكو :

— قف !

وسأل وهو يضرب بيده على كعب بندقيته الرشاشة :

— أين البنادق . البنادق . أين هى ؟

وأجاب أحد الجنود بالبولونية .

— لايوجد . . لا . . لايوجد .

وأجاب الآخر بالألمانية :

— لايوجد . . .

— ليس معنا أسلحة . . ألقيناها . .

قال ذلك وهو يلوح بذراعيه وكأنه يلقى بشىء ما بعيداً .

www.alkottob.com

وترجم ساليفينكو ماسمعه قائلا :

رميتوها . . .

وطافت بذهنه فكرة أنه ربما كانت أفضل طريقة لمعاملة هذين الألمانيين النجسين هو القضاء عليهما بوابل من رصاص مدفعه الرشاش ولكن ساليفينكو استبعد الفكرة تماماً ، لا لخوف مما قد تفعله السلطات العليا التى أصدرت أوامرها المشددة بمنع مثل هذه الأعمال الوحشية القاسيه ، فقد كان من الممكن أن يتم كل شيء دون علم أحد على الإطلاق ولكن لأن ساليفينكو ماكان ليقدم على مثل هذه الفعلة ، لقد كان ذلك ضد مبادئه تماماً .

صعد إلى أعلى ودفع أحد الأبواب ، ونادى الرجل العجوز فرأى فى ضوء الفانوس الذى يحمله فرناً كبيراً وأرضية مبلطة وبعض الأوانى النحاسية . وكان الشباكان مغلقين . وأشار ساليفينكو إلى الجنديين لكى يدخلا إلى المطبخ فأطاعا فى الحال ، وأغلقا الباب خلفهما . وأشار ساليفينكو إلى كالون الباب وقال للعجوز :

— تربس الباب .

وأخذ العجوز ينقب هنا وهناك ثم جرى إلى الخارج وسمع وقع أقدامه على السلم فى مكان قصى من المنزل الخالى ، وعاد أخيرا بربطة كبيرة من المفاتيح وأغلق الباب .

ثم سأله ساليفينكو :

— أين ذهب الروس الذين كانوا هنا .

لم يفهم الرجل العجوز هذا السؤال فى البداية ، ووقف فى مكانه برأسه الأشيب الذى يشبه رأس طائر منحنية جانباً . ولكن ما إن فهم حتى أخذ يلوح بيديه وذراعيه ، ونق بصوته الخشن :

— الغرب ، الغرب ، الغرب .

إذن فقد ذهبوا لقد سبقوا مرة ثانيه إلى الغرب .

— وأين سيدك ؟ سيدك ؟ أين البارون أو الكونت ؟ وفهم العجوز أخيراً وعاد يلوح بذراعيه :

— لقد ذهب . . . ذهب .

وضرب الأرض بقدمه بحركة مضحكة وكأنه يقول : لقد هرب ، لقد ولى الأدبار .

وسأل ساليفينكو :

— وإن ، فأنت الذى تركت هنا لترعى ملكيته . حسناً . . أين زوجتك وأطفالك ؟ أين البنات ؟

تحرك الرجل العجوز وساليفينكو يتبعه ، وتخطيا منزل السيد ، وعندما وصلا إلى آخر البناء رأيا كوخا ضئيلا ملصقاً بالجدار الحجرى وكأنه عش عصفور صغير .

دخلا الكوخ ، فرأى ساليفينكو وجوها نسائية استطالت من فرط الرعب والهلع . كان هناك امرأة عجوز وثلاث بنات .

www.alkottob.com

وتملك ساليفينكو إحساس شرير وهو يحملق – ولمدة طويلة – فى البنات الثلاثة . وغمغم :

– إذن فالبنات الروسيات أخذن ناحية الغرب ... حسنا ، فالبنات الألمانيات يؤخذن ناحية الشرق . إمشوا .. إمشوا ...

عندئذ حدث ما أدهشه . لقد فهمت النساء الألمانيات تلك المقارنة ولكنهن فهمنها على أنها أمر صادر من ذلك الجندى الروسى . وبعد أن تبادلت البنات بضع كلمات مع الأم أخذن يتأهبن للرحيل ، وفى هدوء ودون أن يصدر عنهن أى جلبة . وحزمن ملابسهن فى لفافة . ولم تذرف الأم دمعة واحدة . لقد كان الجميع يسلمون بما فى الموقف من عدالة . لقد سيقت البنات الروسيات ناحية الغرب ، واليوم جاء دور البنات الألمانيات ! لم يحدث شىء سوى أن صغراهن أخذت ترتجف بشكل واضح على الرغم من الجهد الكبير الذى بذلته لتبدو متماسكة ، وهى تبذل جهدها لكى لاتغضب الجندى الروسى بسبب أى مظهر من مظاهر الأستياء الذى لامبرر له . ووقفت البنات منتظرات .

كان منظراً يدعو حقاً إلى الأسى . وعندما فهم ساليفينكو ماذا كان يحدث انفجر ضاحكا بشكل غير متوقع . ولا يمكن لرجل فى مثل مركزه أن يضحك مثل هذه الضحكة المفعمة بالرقة إلا إذا كان له قلب من ذهب . وأدركت الألمانيات هذه الحقيقة فتطلعت إلى ذلك الجندى الروسى الضاحك فى دهشة وأمل . ولوح ساليفينكو بذراعيه وقال بخليطه اللغوى العجيب :

– لا سيبيريا .. اذهبن إلى الجحيم .

ثم أحس بالخجل من هذا التسامح الذى بدا منه ، فصاح فى النساء الألمانيات مهدداً متوعداً (وكن قد بدأن يثرثرن معاً فى حبور) ، فعدن إلى ماكن عليه من المسكنة والاستسلام . قال فى نفسه : لقد ساقوا ابنتك إلى مصير مجهول ، وخربوا بيتك ونهبوه ، وها أنت تشعر بالأسى من أجلهم .

ولكن بصره وقع على الأيدى الكبيرة المحمرة المعتادة على العمل الشاق فى الحقول . والحق أنه شعر فى قرارة نفسه بالإشفاق عليهم : أهؤلاء هم النخاسون تجار العبيد ؟ أهؤلاء هم اللصوص ؟

عاد الشاويش الممتاز ساليفينكو إلى فصيلته ، وهو يسير خلف الجنديين الألمانيين الذين أسرهما .

ولكنه وجد أن الفصيلة قد رحلت .

كانت هيئة قيادة الفرقة قد انتقلت إلى القرية . وكان جنود الإشارة يجرون أسلاكهم خلفهم وهم يتثاءبون ويلعنون بصوت خفيض :

– إن الألمان مازالون يواصلون الجرى حتى هنا على أرضهم ... أين سيثبتون ؟ إنهم لا يعطوننا فرصة ولا حتى للنوم ، هؤلاء الشياطين الملعونين !

سلم ساليفينكو الجنديين الألمانيين لجنود الاستكشاف الذين احتلوا المنزل الذى كانت تحتله الفصيلة الثانية منذ ساعتين من الزمان . وبدأ

www.alkottob.com

مسيرته ناحية الغرب ليلحق بكتيبته ، وفى عينيه تلك النظرة الهادئة التى تميز الجندى المتمرس الواثق من أنه لن ينعزل عن وحدته .

ولحقته وهو يسير فى الطريق سيارة نقل الكولونيل بلوتنيكوف والماجور جارين . وإذ تبين الكولونيل فى ذلك الجندى واحداً من المنظمين الحزبيين فى فصيلة تابعة لقيـــادته ، أوقف العربة . وقال للكولونيل :

ــ تعال معنا فى السيارة يارفيق . هل عقدت اجتماعاً لجنود فصيلتك بمناسبة دخول القوات السوفييتية ألمانيا ؟

ــ نعم أيها الرفيق الكولونيل .

وأضاف :

ــ وقد اخترت ثلاثة جنود وأعددتهم للالتحاق بالحزب ، ولكنهم لم يدعوا حتى الآن للحضور أمام لجنة الحزب .

فقال بلوتنيكوف بلهجة الاعتذار :

هذا صحيح ، ولكن هذا راجع لسبب بسيط هو أننا لانجد الوقت اللازم لهذا . إننا نتقدم ونتقدم ولا شىء غير هذا . يبدو أن التقدم له متاعبه أيضاً .

وابتسم ابتسامته العريضة الرقيقة الطيبة .

صمت ساليفينكو قليلا ثم سأل :

وماذا عن الألمان أيها الرفيق الكولونيل ؟

دهش بلوتنيكوف من السؤال ونظر إلى جارين ، ثم سأل ساليفينكو :

ــ مارأيك أنت فى هذا الموضوع ؟

وأجاب ساليفينكو بتؤدة وهو يعبث فى شاربه :

ــ أعتقد أنه يجب أن تكون أكثر تسامحاً معهم الآن . أقصد أكثر تسامحاً مع المدنيين طبعاً ، وكأنهم ليسوا ألماناً على الإطلاق وأن نعاملهم على أنهم مجرد أناس ، مجرد شعب .

عندئذ انفجر بلوتنيكوف ضاحكا وقال وهو يوجه كلامه إلى جارين بصوت خفيض وكأنه يخشى أن يسمع ساليفينكو إطراءه :

ــ هذه هى النظرة السليمة ! هذه هى النظرة السليمة !

والتفت ثانية إلى المنظم الحزبى وقال :

ــ هذا صحيح . التزم بهذا الموقف .

ثم بدأ بلوتنيكوف يتحدث مع جارين عن فيسباشاكوف وجلاشا . كانت قيادة الجيش تطالب باتخاذ قرار نهائى بشأنهما . وهنا دافع جارين دفاعاً حاراً عن فكرة أنه ليس من العدل فى شىء التفريق بين اثنين من أحسن الناس يحبان بعضهما حباً صادقاً .

وقال بلوتنيكوف :

ــ بالطبع أنا آسف من أجلهما . ولكن مهما كان الأمر يجب أن تفكر جيداً فى النتائج .

ثم التفت فجأة إلى ساليفينكو وسأله :

www.alkottob.com

ـ وماذا كنت تفعل فى قيادة الفرقة ؟

ـ كنت أسلمهم بعض الأسرى .

ثم أضاف من أجل أن يدلى بالحقيقة كاملة :

ـ كذلك كنت أبحث عن ابنتى .

وأجاب على نظرة الكولونيل المتسائلة بقوله :

ـ نعم ، ابنتى . إنها هنا فى ألمانيا . لقد سافروا من حوض الدونباس إلى هنا . ولكننى لم أجد أحداً فى المنزل الريفى الذى هاجته . لقد واصلوا سيرهن ناحية الغرب .

استطال وجه الكولونيل بلوتنيكوف من التأثر وبان عليه الحزن . ولم يجب بشىء وفضل أن يحملق فى الطريق .

امتدت طوابير الرجال والآلات المنهكة على طول الطريق فى ضباب الصباح الكثيف متجهة ناحية الغرب . ومرت عربة بريد تحمل رسائل الجند تتبعها سيارات نقل فارغة بعد أن أفرغت شحناتها من الذخيرة . وكان البرد الرطب ينزل من السماء مدراراً ، وفروع الأشجار العارية تهتز ، وعبارات الجند القصيرة المطروحة على أكتافهم ترفرف فى الهواء كشراعات المراكب .

كان الرجال يتقدمون فى سيرهم صامتين . وسمعت أصوات طلقات المدافع الرشاشة من موقع قريب . وعند مفترق الطرق طلب منهم

www.alkottob.com

ساليفينكو أن يوقفوا السيارة ، فقد كان الطريق يتجه من هذه النقطة جهة اليمين حيث توجد هيئة قيادة الكتيبة . وقفز الرجل من السيارة وودعهم ثم توجه إلى المكان الذى كانت تأتى منه أصوات الطلقات بشكل أكثر عنفاً واستمراراً .

٨

بعد أن تخطت السيارة عربة تشوخوف وخلفتها بعيداً ، التفت الماجور لوبتسوف لينظر مرة ثانية إلى وجه الجنرال . كان سيزوكريلوف ما يزال ساكناً فى مكانه وعيناه مغلقتان . وفكر لوبتسوف وقد أخذته الشفقة عليه : لا شك أنه ميت من التعب . فى تلك اللحظة ألقى برأسه إلى الوراء وقد ارتسم على وجهه تعبير غير مفهوم ، لعله يدل على الغضب أو على العناد ، وفتح عينيه ، والتفت إلى جنرال الدبابات الجالس إلى جواره ، وسأله :

ـ هل استغرقت رحلتكم من الأورال إلى هنا وقتاً طويلا ؟

وأجاب الماجور جنرال الذى فوجىء بالسؤال :

ـ أربعة أيام . استلمنا العتاد ووضعونا فى القطار الحربى فى الحال .

ـ إذن فقد أتممتم الرحلة كلها فى أربعة أيام ؟

ـ نعم .

وأضاف جنرال الدبابات وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

ـ لقد فرشوا أمامنا « طريقاً أخضر » بناء على أوامر الرفيق ستالين .

أضاء وجه سيزوكريلوف ، والتفت بشكل غير متوقع ناحية لوبتسوف ، قال:

هل تعرف يا ماجور ما هو « الطريق الأخضر » ؟

وأشار لوبتسوف بذراعيه دلالة على عدم الفهم ، فأخذ سيزوكريلوف يشرح الموضوع ، قال :

إنه عبارة عن خط سكة حديد ليس عليه سوى إشارات خضراء فقط . وفى كل وصلة توجد قاطرات على أهبة الاستعداد ومراجلها مليئة بالبخار . ويجرى تغيير القاطرة فى الحال وينطلق القطار الحربى وليس فى طريقه سوى الإشارات الخضراء إلى الوصلة التالية ، حيث توجد قاطرة أخرى فى الانتظار . ولا يلمح القطار إشارة حمراء واحدة فى طول الطريق ، ولا يقف مرة واحدة ـ السكة مفتوحة أمامه دائماً . هكذا يكون التنظيم !

وأضاف الماجور جنرال باعتزاز :

ـ ويقوم الفنيون بفحص عربات القطار وهو منطلق بأقصى سرعة . إنها ليست رحلة بالقطار ـ ولكنها رحلة بالطائرة ! كان هذا بناء على أوامر من القائد الأعلى ! أنا ما زلت غير قادر على تجميع كل أعصابى حتى الآن ...

وأعقب هذا صمت استمر لفترة . ومرت السيارة فى قرى مهجورة إلا من كلاب نابحة أن أبقار بلا راع أو صاحب . وظلت الريح تخبط نوافذ السيارة بالثلج الرطب . ووصلوا بعد قليل بلدة شوارعها الجانبية

www.alkottob.com

مرصوفة بعناية ، ومنازلها من طابقين وذات سقوف عالية مبلطة .

سأل سيزوكريلوف :

ـ أين حراسنا ؟ هل تخلفوا كثيراً وراءنا ؟

ونظر المساعد من الشباك الخلفي ، فلم ير حاملة الجنود والمدرعة

فقال سيزوكريلوف :

ـ لننتظر قليلا .

توقف السائق عند ميدان صغير . وفتح سيزوكريلوف الباب ونزل من السيارة ، وتبعه الآخرون . وألقى نظرة حواليه وقال وهو يفكر بصوت عال :

ـ يبدو أن هذا هو قطاع فوروبيوف :

حلق لوبتسوف بفضول فى الميدان المظلم وفى أشباح المنازل المحيطة . كانت تانيا تعمل فى فرقة الكولونيل فوروبيوف ومن أجل هذا بدت هذه البلدة الصغيرة الغارقة فى الظلام فى نظر لوبتسوف مكاناً يستحق منه أكبر اهتمام وعناية .

كانت بلدة صغيرة عادية خاملة كغيرها من البلاد ، مليئة بأصوات الليل المألوفة . كانت الخيل تصهل بين وقت وآخر فى أفنية المنازل ، ويختلط وقع الأقدام وأصوات الجنود الخفيضة بصيحات الديدبانات البعيدة وهى ترتفع فى نحد .

أخذ الجنرال سيزوكريلوف يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو

مستغرق فى التفكير ، وخطوته الثابتة على الرصيف ترن فى الميدان الصغير . وأخيراً توقف الجنرال بالقرب من شبح نصب قائم فى وسط الميدان ، وأشعل بطاريته فرأى الجميع فى ضوئها تمثالا من الحديد الزهر لنسر محلق مرتكز على قاعدة حجرية منحوت عليها الرقمين (١٨٧٠ — ١٨٧١) ، ويحيط بالرقمين رسوم لأكاليل الغار والزهور .

أطفأ الجنرال بطاريته وقال :

ـ مهدى إلى أبطال سيدان من مواطنيهم العارفين بجميلهم . . . يالله من مكان تحف به الأبهة على الرغم من ضآلته .

وظهرت الأضواء الكشافة عند انحناءة الطريق ، ودخلت حاملة الجنود المدرعة إلى الميدان ، وكشافاها يضيئان كل شىء : السقف المدبب لصالة البلدة ، والنافورة المكسوة بكمكة من الجليد ، والنسر المصنوع من الزهر فوق النصب . أطفأت المدرعة أضواءها الأمامية فى الحال . وقفز الملازم الذى يقود حاملى المدافع الرشاشة وتقدم فى الظلام . ولمح لوبتسوف فوق كتفى هذا الملازم الوجه الأليف لشيبريوف .

سأل الجنرال :

ـ هل نحن منطلقون بسرعة كبيرة ؟

واعترف الملازم :

ـ من الأفضل فعلا أن تهدئوا السرعة قليلا .

وقال الجنرال :

ـ فليكن .

www.alkottob.com

وابتسم الجميع باستثناء الملازم . فقد كان من صغر السن بحيث اعتبر أن الابتسام شيء لايليق وبخاصة إذا كان المرء ينفذ مهام جسيمة . كذلك لم ير أن كلمة « فليكن » غير المحددة كافية لتتضمن أمراً واضحاً ، فظل واقفاً فى مكانه فى انتظار إجابة صريحة .

فأوضح سيزكريلوف مقصده :

ـــ ستسير سيارتنا بسرعة أقل .

وعاد الجميع إلى أماكنهم فى السيارة التى انطلقت ثانية .

وقال سيزوكريلوف فجأة :

ـــ المدخنون يستطيعون أن يدخنوا بحرية .

وسارع كل من جنرال الدبابات والكولونيل إلى إشعال سيجارة وهو مسرور . وعلى وهج السجائر والأضواء الخافتة الصادرة من العدادات المثبتة فى لوحة قيادة السيارة ، لاحظ لوبتسوف ـــ حين التفت ثانية إلى الخلف ـــ أن عينى عضو المجلس العسكرى نصف مغلقتين ، فإما أن يكون الرجل قد راح فى إغفاءة أخرى أو أنه مستغرق فى التفكير . ولكن لا . إنه ليس فى إغفاءة فقد تحرك بعد دقيقة واحدة وأخذ يتكلم وكأنه يواصل مناقشة دائرة من قبل :

ـــ ولكن الألمان مايزالون يصدقون دعايات هتلر . أنظروا إلى القرى . إنكم لا تكادون تجدون فيها إنساناً باقياً . إن الراديو الألمانى لايكف عن الصراخ متحدثاً عن أهوال الغزو الروسى ، ولا يكف عن

دعوة السكان المدنيين للهروب جهة الغرب . وهاهم يهربون فعلا . وما تزال عيوننا تنقل إلينا أخباراً وتفاصيل رهيبة عن هذا الذعر الكاسح . إن الناس يموتون من الجوع والبرد . يبدو أن هتلر قد قرر أن يجر نصف ألمانيا على الأقل معه إلى الهاوية ، وكأنه زعيم قبيلة من المتوحشين حين يصر على اصطحاب عدد كبير من الأحياء معه فى قبره حتى لايترك بلا رعية فى العالم الآخر . . .

وبعد فترة صمت قصيرة ، قال سيزوكريلوف :

ـــ هانحن على أرض بولندية من جديد . . .

كانت السيارة تجرى على طريق مبلل مخلفة آثار الإطارات وراءها وكانت دوامات من قطع الثلج المتساقط ترى معلقة فى أضواء كشاف المدرعة وكأنها أخذت على غرة وهى تندفع فى هذا الاتجاه أو ذاك مذعورة ، تاركة غيرها لتأخذ مكانها .

وحاق لوبتسوف فى الظلام بشدة خشية أن يخطىء فى تحديد المنحنى الذى يجب أن تدخل فيه السيارة . فعلى الرغم من معرفته للطريق إلا أن الوقت كان نهاراً فى آخر مرة جاء فيها إلى وحدة الدبابات ، وكان كل شيء يبدو مختلفاً فى ظلام الليل ، وكانت كل حساباته تدل على أنهم قد تجاوزوا الحنية المقصودة . إنه يذكر أن الطريق يمر بكنيسة صغيرة ثم يجتاز غابة صغيرة ، ثم هناك الانحناءة الشديدة جهة اليمين . ولكنه لم ير حتى الآن لا الكنيسة ولا الغابة . وألقى نظرة خاطفة على عداد المسافات

www.alkottob.com

وتبين أنهم قطعوا حتى الآن ٦٨ كيلو متراً : فقد وعى لوبنسوف الرقم في أول الرحلة كعادته دائماً . لا . لايمكن أن تكون قد ضللنا الطريق .

وكما يحدث دائماً في الرحلات الليلية على الطرق غير المألوفة ، يفتقد المسافر لتبين أي علامات مميزة . بل إن الطريق يبدو في الليل أكثر اتساعاً مما يبدو أثناء النهار ، كما تبدو الأشجار على جانبيه أكثر طولا . وطمأن لوبنسوف نفسه : لا ، لايمكن أن تكون قد تخطينا الحفية المقصودة ، فالسائق يسير ببطء خوفاً من أن يخلف المصنحة والحرس لمسافة كبيرة ورائنا . ولكن هاهو العداد يقول إن السيارة قطعت حتى الآن سبعة وسبعين كيلومتراً . وانتاب لوبنسوف قلق جدى ، فسأل السائق وهو يظهر عدم الاكتراث :

— ما شأن هذا العداد ؟ هل هو مضبوط ؟

وهمس السائق بصوت خفيض :

— لا ، بل إنه يقدم . إنه بحاجة إلى إصلاح ولكني لاأجد الوقت اللازم لهذا ، فنحن دائمو الحركة . . .

تنهد لوبنسوف بارتياح وألقى نظرة من طرف عينه على الجنرال . كان الرجل ينظر إلى الأمام ، وقد تقضنت جبهته بعمق فوق قصبة أنفه .

ومروا مسرعين بالكنيسة الصغيرة التي طال انتظارها .

وقال لوبنسوف :

— يمينك .

وظهرت البلدة الصغيرة أخيراً . وهنأ ، شكراً لمقدرته على إحصاء الشوارع ، فقد كان الاهتداء إلى الطريق السليم أمراً من أصعب مايمكن . وكثيراً ما كان المرء يضطر إلى اللف كثيراً في الشوارع الخلفية . حقيقة أن لوبنسوف كان غالبا ماتنقذه خبرته وحاسته ، فقد كان يشم المنحنى الصحيح — إن صح هذا التعبير . ولكن الماجور كانت له طريقته الخاصة في تلك الحالة المعقدة أيضاً . كانت لديه عادة لاشعورية لإحصاء المنحنيات والشوارع الجانبية . وتذكر : خامس حنية إلى اليمين ، ثم الثالثة إلى اليسار ، ثم الأولى إلى اليسار أيضاً ، وعندئذ تصبح في الطريق الرئيسي . أكانت الخامسة أو السادسة ؟ لا ، بل الخامسة ، وعند الناصية يوجد حجر مميز وعمود نور محطم .

قال للسائق :

— إلى اليمين .

وانطلقت السيارة إلى أن أنهت كتل المباني الثلاثة الأولى ، فأصدر لوبنسوف أمره : « شمالك » ، وبعد ذلك « شمالك » أخرى . وكان يصدر أوامره تلك بلهجة واثقة وكأنه يعوض الإحساس بالقلق والذعر الذي كان يتملكه منذ قليل . وقل عدد المنازل بالتدريج حتى اختفت تماماً . ودخلوا غابة صغيرة .

www.alkottob.com

سأل الجنرال فجأة :

ـ كم مرة جئت إلى هنا قبل اليوم ؟

ـ مرة واحدة .

ـ ذاكرتك مدهشة . منذ متى وأنت تعمل تحت قيادة تاراس بتروفيتش ؟

ـ منذ عام ونصف .

ـ هذا معناه أنك أنت الذى نظمت الغارة النهارية بين نهرى الفستولا والبج .

ـ نعم .

ـ أنا أذكر هذه الواقعة . كانت عملية ناجحة . هل أنت عضو فى الحزب ؟

ـ نعم .

ـ ماذا كانت مهنتك قبل الحرب ؟

ـ ملازم .

آه . أنت من رجال الجيش النظامى إذن ؟

ـ نعم .

ـ إذا كنت من ضباط الجيش النظامى فربما يكون من الأنسب أن تعمل فى إحدى هيئات القيادة الأعلى من قيادة الفرقة ... فلا ضرر من توسيع أفق المرء العسكرى ...

وسكت قليلا ، منتظراً بنوع من الفضول الغريب ، إجابة لوبتسوف الذى هز رأسه وقال :

ـ لا يارفيق جنرال . اسمح لى أن أنهى الحرب فى فرقتى .

كان المساعد فى دهشة من كثرة كلام عضو المجلس العسكرى واهتمامه بهذا الضابط الذى لا يعرفه . لقد كان المساعد ـ بالطبع ـ يعرف أن الجنرال سيزوكريلوف كان قوى الملاحظة وخبيراً بالناس ، كان سيزوكريلوف يحب الناس ، ولكنه حب عميق لا يعلن عن نفسه ، وبعيد كل البعد عن المؤثرات العاطفية العارضة ، حتى أن البعض يحسبونه رجلا قاسياً .

وكان سيزوكريلوف يعرف أنه شخصية مرهوبة يخشاها الآخرون وكان هذا يؤلمه جداً . وأحب لوبتسوف لسبب بسيط : هو أنه لم يجد فيه ظلا لهذا النوع الحقير من الخوف لرؤسائه . واستقر فى ذهن سيزوكريلوف أن هذا يرجع إلى أن الماجور كان شابا أميناً مخلصا ، ويعرف كيف يؤدى عمله على أحسن وجه ...

قال :

ـ فكر فى الأمر جيداً ، بإمكانى أن أكلم ماليشيف .

ـ لا يارفيق جنرال ، أرجوك ألا تكلمه . إنهم سيعتبرون كلماتك أوامر وينقلونى على الفور ..

فقال الجنرال بهدوء :

www.alkottob.com

— كما ستفعل أنت .

ثم أغلق عينيه ثانية .

وقال السائق :

يبدو أننا قد وصلنا .

دخلت السيارة قرية كبيرة . وعلى الرغم من أن الظلام كان دامساً إلا أن المرء يشعر بأنها مليئة بالناس . ورؤى وجه أحد الأشخاص يطل من النافذة إلى داخل السيارة قبل أن تقف . وارتفع حاجز من الهواء مخلياً الطريق أمامها . ووقف الديدبانات فى معاطفهم الصوفية القصيرة البيضاء وقفة انتباه . ولوحت أشباح كثيرة فى الهواء بأذرعها . وومضت هنا وهناك أضواء بطاريات الجيب . وسمعت أصوات خافتة .

وتوقفت السيارة .

٩

كانوا يتوقعون مجيء عضو المجلس العسكرى . ووقف عشرة رجال (انتباه) أمام السيارة . وعند نزوله صاح رجل ضخم الجسم على رأسه قلنسوة قوقازية من الفرو :

— انتب... — ... اه ! الرفيق الفتنانت جنرال ...

قاطعه سيزكريلوف وهو فاقد الصبر :

— دعنى أقدم قائد لواء الدبابات الذى جاء لتوه من الأورال ليدعم قواتكم . واستعدوا لاستقبال اللواء الجديد .

أسرع الجنرالات إلى المنزل الذى فيه هيئة القيادة ، وسمع صوت الأبواب وهى تصطفق . ثم ساد الهدوء .

أحس لوبتشوف بالحيرة فجأة . لقد قام بالمهمة التى عهدت إليه وهو لا يدرى الآن ما الذى يجب عليه أن يعمله : هل يظل برفقة عضو المجلس العسكرى ويتبعه إلى داخل المبنى أو يظل فى السيارة جالساً إلى جوار السائق . وقد اختار لوبتشوف طريقاً وسطاً : نزل من السيارة وأخذ يمشى إلى جوار السيارة جيئة وذهاباً .

www.alkottob.com

وقفز رجال المدفعية الرشاشة من المصفحة ، وأخذوا يخبطون على جوانبهم بأيديهم الملفوفة فى قفازات جراية لكى يدخلوا الدفء إلى أجسامهم . وكان الملازم الصغير واقفاً وقفة انتباه إلى جوار المصفحة منتظراً أوامر جديدة . واقترب سيبيربوف بهدوء من ماجور الحرس وهو يدخن فى صمت ، ووهج سيجارته الباهت يضيء طرف مترليوزه . وسرعان ما نزل السائق من السيارة وأشعل سيجارة واقترب من لوبتسوف وقال :

ـ إذن فبإمكانك أن ترى فى الليل كالقطط . أليس كذلك يارفيق ماجور ؟ هذه موهبة نادرة بالفعل . أنا أقوم بعملى كسائق لعضو المجلس العسكرى منذ عام ونصف تقريباً ، وهو كثير التنقل جداً ، وكم كنت أحب أن تكون لى مثل مقدرتك ... هل تستطيع أن تتبين طريقك بنفس السهولة بالاستعانة بالخرط ، أو أنك تعتمد على الذاكرة فحسب ؟

لم يجب لوبتسوف . فقبل أن يجيب اقترب منهم أحد الضباط وسأل بصوت عال :

ـ من هو قائد الحرس من حملة المدافع الرشاشة ؟ وهنا تقدم الملازم الشاب فى صمت . وقال الضابط :

ـ خذ رجالك إلى ذلك الكوخ ليستدفئوا ويتناولوا عشاءهم . أين ماجور الاستكشاف ؟

أجاب لوبتسوف :

ـ إنه أنا .

ـ تعال معى .

تبع لوبتسوف الضابط إلى داخل المنزل الكبير الذى دخل فيه سيزكريلوف منذ بضع دقائق ، وبعد أن اجتازا عدداً من الممرات نصف المعتمة ، دخلا غرفة كبيرة قوية الإضاءة حيث تجلس حوالى عشر من عاملات السنترال إلى أجهزة الاستقبال ؛ وكل منهن تسجل على الورق أمامها قوائم طويلة من الرموز والأرقام ، وإلى جوار كل منهن ضابط يجلس على كرسى أو يمشى بعصبية جيئة وذهاباً .

كانت الغرفة دافئة بسبب النار التى تتوهج فى المدفايات . وكانت الأوامر تصدر مقتضبة فى كلمات :

« اتصل بيتروف ! »

« أسأل لماذا لا يقدم تقريراً عن جيرانه فى الجهة ! »

« هل وصلوا إلى لاندسبرج ؟ »

« أسأل ثانية أين بدأ الهجوم المضاد الألمانى ! »

« هل اشتبكوا مع جنود العاصفة ؟ »

وأحياناً كانت تسمع بعض الملاحظات والتعقيبات :

« يا للعنة ! ... قل له أن ينفذ مهمته ! »

« ارسل : الوقود فى الطريق إليكم ! »

اختفى الضابط المصاحب للوبتسوف ، واستند الماجور إلى الحائط

www.alkottob.com

حتى لا يعترض طريق أحد . وعلى الرغم من ضغط العمل فقد وجدت البنات فسحة من الوقت لإلقاء نظرة على الزائر الغريب وتسوية شعرهن بأيديهن .

وصاح أحد الضباط برتبة ـ لفتنانت كولونيل ـ وهو يتأمل ورقة كبيرة عليها صفوف من الأرقام :

ـ لقد وصل سامبولون إلى لاندسبرج ! سأقدم تقريراً بذلك فى الحال !

وزرر سترته واختفى فى الغرفة المجاورة .

وكان معظم الضباط يدخلون ـ بين وقت وآخر ـ إلى الغرفة المجاورة ويعودون بعد لحظات .

وسرعان ما ظهر الضابط الذى كان يصاحب لوبنتسوف ثانية وقال

ـ إن عضو المجلس العسكرى يدعوك لتناول العشاء .

تبع لوبنتسوف الضابط إلى الغرفة المجاورة حيث رأى ضباط هيئة أركان الحرب جالسين إلى مناضد كبيرة مفروشة بالخرائط ، وهم يخطون علامات يتابعون بها تحركات الدبابات . وأحس لوبنتسوف ـ وهو من المشاة ـ بنوع من الحسد لهؤلاء الذين يعملون فى قيادة سلاح الدبابات . فهنا يحدث من التغيرات فى ساعة واحدة ما لا يحلم السائرون على الأقدام من تحقيقه فى أيام ، على الرغم من أن الدبابات لا تستطيع أن تتقدم كثيراً إن لم تؤازرها قوات المشاة .

وكانت معاطف الجنرالات معلقة أو ملقاة فى إحدى الغرف .

وهمس الضابط فى أذن لوبنتسوف :

ـ إخلع معطفك !

وخلع لوبنتسوف معطفه ، وفتح البـــاب الذى يفصله عن الغرفة المجاورة نصف فتحة فرأى عدداً من قواد الدبابات وأحد جنرالات الجو جالسين إلى منضدة معدة للعشاء . كانوا كلهم عشرة من كبار الضباط .

كان عضو المجلس العسكرى يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يقلب الأمر فى ذهنه . كان الهجوم يتقدم إلى الأمام بنجاح . ولكن كان هناك تقرير رئيس أركان الحرب ـ الجنرال سيرجيفسكى ـ وهو يتحرى عادة الحذر فى تقاريره ولا يميل إلى إصدار أحكام متسرعة ، وهناك أيضاً المكالمة اللاسلكية التى جرت بينه وبين قائد العمليات فى القطاع المعين ، ومن هذا التقرير وتلك المكالمة تبين سيركيلوف أن الموقف أخذ يتعقد ساعة بعد ساعة . فأولا : كانت الدبابات قد تقدمت حتى انفصلت عن المشاة بمسافة شاسعة تتراوح من ٥٠ إلى ١٠٠ كيلو متر . وكتائب الدبابات التى تتقدم فى شرق ألمانيا تفقد كثيراً من العتاد والرجال . وعرقلت خطوط المواصلات عرقلة جزئية بواسطة عدد من الفرق الألمانية القوية . وكان يجرى نقل الوقود والذخائر فى ظروف صعبة للغاية . وتمكن سلاح الطيران الألمانى من تدمير طابور ميكانيكى بأكمله

www.alkottob.com

ولكن أهم صعوبة فى الموقف بأسره تكمن فى أن كثيراً من الوحدات قد استنفدت وقودها تماماً وأن سيارات نقل الوقود قد اتجهت للمؤخرة لإحضار المزيد من الوقود ولكنها لم تعد بعد بالإمدادات الجديدة.

تساءل سيزوكريلوف وهو يقف فجأة أمام سيرجيفسكى :

ـ لماذا لم يعودوا حتى الآن ؟

وقف سيرجيفسكى ولكنه لم يجب .

وعاود سيزوكريلوف الكلام :

ـ ألا تعرف السبب ؟ إذن فسأشرح أنا السبب . السبب هو أنك عهدت بمهمة على أعظم درجة من الأهمية ـ وهى مهمة توفير الإمدادات البترولية ـ إلى عدد من المرؤسين الثانويين ، بل عهدت بها أحياناً إلى السائقين . لقد أرسلت رسائل النقل ثم لم تكلف نفسك مؤونة التفكير بعد ذلك . ولكن كان يجب أن يكون هناك ضباط من هيئة القيادة برفقتهم .

وأخذ يذرع الغرفة ثانية ثم سأل :

هل أرسلت فى طلب كاريلين ؟

نعم يا رفيق جنرال .

كان الجنرال كاريلين على رأس فرقة مدفعية تتقدم فى الجبهة بمدافعها الثقيلة ، وكان قد توقف أثناء الليل فى القرية المجاورة . وكانوا قد أرسلوا أحد الضباط لإيقاظه واستدعائه إلى هنا . ووصل فى هذه اللحظة . كان

رجلا ضخم الجسم متورد الخدين ، أحمر الشعر ، يبدو عليه المرح . وبعد أن قدم نفسه بصوت عال وقف فى مكانه فى انتظار الأسئلة التى سيوجهها إليه عضو المجلس العسكرى .

سأله سيزوكريلوف بهدوء :

ـ كيف الأحوال يا كاريلين ؟

وأجاب كاريلين مبتسما :

ـ أشكرك يا رفيق جنرال ! إن كل شىء على ما يرام . ومدافعنا الضخمة على استعداد لتقويض برلين . وقد حافظنا على الدقة فى مراعاة المواعيد المضروبة لنا ، فأتممنا كل مهمة لنا فى موعدها . والرجال متلهفون من أجل الاندفاع إلى الأمام ، هم والمشاة معاً . وعند الفجر سنواصل تقدمنا .

قال سيزوكريلوف :

ـ إنهم رجال عظام ... رجال عظام .

وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم توقف ثانية وقال :

ـ هل لديك وقود ؟

صاح كاريلين فرحاً :

ـ لدى منه ما يكفى تماماً ! ما يكفى حتى نصل برلين ! إن الماكينات مليئة إلى حافتها !

ودعاه سيزوكريلوف إلى الطعام :

www.alkottob.com

ـ إجلس لتتناول عشاءك .

ألقى كاريلين معطفه ، وجلس إلى المنضدة ، وتناول شوكته وسكينه بيديه الهائلتين الموردتين .

وواصل سيزوكريلوف كلامه

أما عن الوقود ، كل ما لديك من الوقود ـ هل تفهم ؟ كله ، كل نقطة من البترول ، يجب أن تسلمها للدبابات .

سقطت الشوكة من يد كاريلين وحملق فى ممثل المجلس العسكرى بنظرة يائسة ، وانطفأ وجهه فى الحال .

وسأل بصوت متهدج :

ـ وأنا ؟ ماذا سيتبقى لى أنا ؟

وأحس الجميع بالأسف من أجل هذا الرجل المرح الضخم ، الذى نزل فجأة ، وبفعل كلمات معدودة ضئيلة ، من قمة الأمل والاعتزاز إلى أعماق اليأس والضياع .

ووجه سيزوكريلوف كلامه إلى سيرجيفسكى :

ـ يجب أن تكون سيارات نقل البترول مستعدة فى الحال ، وأن تتجه فوراً إلى فرقة كاريلين بناء على أمر منه لتجمع الوقود . أكتب الأوامر .

والتفت إلى كاريلين وقال :

ـ اكتب : سلموا فى الحال كل الوقود الموجود فى الفرقة إلى ناقلات

البترول التابعة لوحدات الدبابات مع إخطارنا بالتسليم . السبب : امر من المجلس العسكرى . ضع توقيعك والآن لتتناول العشاء معا ، ثم تعود إلى فرقتك وتراقب بنفسك تنفيذ الأمر الذى وقعته .

أضاء وجه الجنرال سيرجيفسكى وأخذ الورقة من يد كاريلين وهو يكاد يجرى بها قفزاً كتلميذ صغير فرحان ، ليقوم بتبليغ الأمر . أما كاريلين فقد ظل جالساً إلى المائدة وقد اكفهر وجهه كسحابة سوداء ، وصدت نفسه عن الطعام ، وأخذ يحملق بعينين زجاجيتين فى مفرش المائدة . وران الصمت على رؤوس الجميع ، وكان عضو المجلس العسكرى صامتاً أيضاً ، ونهض قبل أن يتناول شيئا يذكر من الطعام . وسأل :

ـ ألم يصل بعد اللواء الآتى من الأورال . من الذى ذهب لاستقباله ؟

ـ الكولونيل بريوزوف .

ـ كم تبعد محطة الوصول من هنا ؟

ـ ستين كيلومتراً

ونظر إلى كاريلين ، ثم التفت إلى جنرالات الدبابات وقال :

ـ إن الدبابات المصابة يجب أن ترمم فى الميدان فوراً . ولديكم خبرات طويلة فى هذا الشأن . إن رجال الصيانة هم أهم رجال لديكم الآن . وكل من يبرز ويؤدى خدمات كبيرة فى هذا المجال يجب أن يعطى لقب بطل الاتحاد السوفيتى .

www.alkottob.com

وأخيراً التفت إلى كاريلين وقال :

ـ أنا أعرف أنى قد أفسدت شهيتك . ولكن هون عليك وقم لتذهب إلى فرقتك لتراقب بنفسك تنفيذ أوامرك ، أنا أدرك الوطنية (المحلية) التى تتملك رجال المدفعية ومن المحتمل ألا يرحبوا بفكرة تسليم الوقود الذى لديهم ، لذلك من الأفضل أن تقوم بالرقابة على هذه العملية بشخصك .

وتمتم كاريلين وهو يقول « نعم » ، وليس معطفه وخرج .

وأصاخ الجميع السمع . وصل إلى آذانهم صوت كاريلين وهو يهدر غاضباً :

ـ شغل ماكينة السيارة . تحرك . هل استسلمت للنوم ؟

وغمغم سيزوكريلوف وهو يكتم ضحكة ، ولكنه لم يقل شيئا .

وعاد سيرجيفسكى وقال إن ناقلات البترول قد تحركت وراحت لتجمع الوقود .

وقال سيزوكريلوف بلهجة رصينة :

ـ سنتحدث معا فى مرة ثانية ، سنتحدث عن رجال الإمدادات التابعين لقيادتك .

وأصاغ السمع ـ كانت ماكينات السيارات تزمجر ويأتى صوتها من بعيد .

بعد ذلك بدقيقة دخل الجنرال الذى كان راكبا فى السيارة مع

سيزوكريلوف وقال إن لواء الدبابات قد وصل وأنه يجتمع الآن فى الغابة .

قال سيزوكريلوف :

ـ هيا بنا إلى غرفة اللاسلكى .

وقف الجميع وكأن أمراً صدر إليهم ، وتبعوا سيزوكريلوف وسيرجيفسكى إلى غرفة أخرى .

ومرة أخرى ترك لوبنتسوف وحده وداخله الإحساس غير المريح بأن وجوده غير مرغوب فيه وأن وجوده هنا كان وليد الصدفة وحدها . ولكن الباب فتح نصف فتحة وأطل كولونيل الدبابات وناداه مداعباً :

ـ لماذا تتخلف دائما ؟ إن ممثل المجلس العسكرى لايفوته أن يسأل عنك فى كل مرة .

تبع لوبنتسوف الضباط الآخرين ، وقد تأثر من الاهتمام الخاص للجنرال الذى يجد فى وقته متسعا لكى يهتم بضابط صغير لايكاد يكون معروفا ، على الرغم من المشكلات الجسيمة الملحة التى تشغله . كان الجنرالات متجمعين فى الغرفة الصغيرة ، أما سيزوكريلوف فلم يكن موجوداً . وساد الغرفه صمت رهيب .

قال أحد الضباط بصوت هامس :

ـ إنه يتحدث مع الرفيق ستالين .

ونظر أحدهم فى ساعته ولسبب ماتبعه الآخرون ، بمافيهم لوبنتسوف .

www.alkottob.com

كان الوقت متأخراً ، أو بالأحرى مبكراً جداً ـ كانت الساعة الرابعة صباحا . وتبادل الجميع النظرات التى تعبر عن فكرة مبهجة : إن ستالين يعمل الآن .

وأخيراً ظهر سيزوكريلوف وهو ينظر حواليه فى وجوه الحاضرين :

إن التعليمات التى تلقيتها هى كالآتى : يجب أن تتقدم صوب نهر الأودر مهما كان الثمن ، وأن تأخذ نقطة ارتكاز على شاطىء الأودر . لايجب أن نشتبك أو نعطل أنفسنا فى معارك من أجل المدن أو المواقع الحصينة . علينا أن نلتف حولها وتتخطاها وتندفع إلى الأمام . يجب أن تتخطى شميدموهل ، ودوتشكرون ، ولاندسبرج ، وكوستزين . إننا سنستولى على هذه المراكز بقوات المشاة . إن مهمتكم تتلخص فى :

تحطيم احتياطات الألمان عند مشارف المناطق الحصينة ، وقطع خط الدفاع الألمانى ، وأهم واجب هو الوصول إلى نهر الأودر . إن تقارير مخابراتنا تشير إلى الارتباك الذى لامزيد عليه الذى عليه هتلر وهيئة قيادته .

وسكت قليلا ثم قال شيئا لفت أنظار الجميع :

ـ ويجب أن تعلموا أن الارتباك لم يعم قيادة هتلر فحسب ، فهؤلاء الذين كانوا يتلكأون فى فتح الجبهة الثانية وقت أن كانت دماؤنا تستنزف هؤلاء يسرعون الزحف الآن بكل مالديهم من قوة .. وليس من الصعب

أن يدرك كل جندى ، وكل عامل من عمال الصيانة ، وكل رجل من رجال الإمدادات الذين يعملون فى وحدات الدبابات ، إنما يساهمون جميعاً فى صنع التاريخ السياسى للعالم .

والآن يجب أن نقوم بزيارة للوحدات القادمة من الأورال ثم العودة .

وغير سيزوكريلوف الحديث فجأة ، وبحث بنظره عن لوبنشوف ، ثم أومأ إليه .

وقال سيرجيفسكى :

ـ ألاتقضى بقية الليل معنا حتى الصباح ؟ من الأوفق أن تنال قسطا من الراحة .

ـ لا . يجب أن أقدم تقريرى إلى المجلس العسكرى ، كما أعتقد أنه قد آن الأوان لتغيير مقر هيئة قيادتك وأن تنتقل بها إلى الغرب .

بالفعل يارفيق جنرال .

والتفت سيزوكريلوف إلى الباقين جميعاً وقال :

ـ لقد فرغنا من العمل ، ويامكانكم أن تنصرفوا جميعاً يارفاق .

استأذن الجنرالات وخرجوا جميعاً عدا سيرجيفسكى ومشى سيزوكريلوف بهدوء فى الغرفة فى المكان الذى كانوا يتناولون فيه عشاءهم . وبعد فترة سكوت صغيرة قال سيرجيفسكى بنبرة تأثر وهو يضغط على خريطة ملفوفة فى يديه :

www.alkottob.com

ـ يا رفيق جنرال ، إن ملازم الحرس سيزكريلوف مات فى الجبهة ميتة الأبطال . لقد اندفعت دبابته فوق قنطرة أقيمت على نهر ثم ...

قاطعه سيزكريلوف بصوت منهك :

ـ لقد أخبرونى بتفاصيل الحادث فى التليفون .

ـ حدث هذا أول أمس فى تمام الساعة ١٦,٣٠ . وقد أمرت بإبلاغك النبأ فى الحال .

لقد أبلغونى بالفعل .

وسكت الجنرال سيزوكريلوف لحظة ثم أضاف :

ـ هل أبلغتهم برجائى ألا تقوم الكتيبة بإبلاغ زوجتى فى موسكو بالنبـــأ .

ـ نعم يارفيق جنرال .

واختلج وجه سيرجيفسكى الكبير المجدن ، اختلج برهة ثم أضاف :

ـ لقد أصدرت أمراً بذلك .

لبس الرجلان معطفيهما فى سكون وخرجا إلى الشارع . كان الهواء نشيطاً رطباً . صفرت ماكينات السيارات وأزت فى عتمة ضباب ماقبل الفجر . وكان الحرس من رجال المدافع الرشاشة قد أخذوا أماكنهم على ظهر المصفحة حاملة الجنود ، والضابط الشاب يقف (انتباه) إلى جوار سيارة الجنرال . وعندما رآى الجنرال رفع يده إلى قلنسوته وقال :

ـ إن المصفحة حاملة الجنود على استعداد .

وسأله سيزكريلوف :

ـ هل لقيتم معاملة طيبة من رجال الدبابات ؟ هل غديتم تغدية جيدة ؟

فأجاب الضابط وهو ما يزال على أقصى درجة من الجدية :

ـ نعم يارفيق جنرال .

ـ إذن فهيا بنا .

www.alkottob.com

١٠

انطلقت السيارة الهورش التى يقلها الجنرال سيرجيفسكى (والتى كان قد غنمها من الألمان) تتبعها السيارة الإمكا التى يقلها قائد لواء دبابات الأورال، تتبعها سيارة مبعوث المجلس العسكرى، وأخيراً المصفحة.

وجلس لوبنتسوف فى العودة أيضاً إلى جوار السائق على الرغم من أنه لم تعد به حاجة إلى مراقبة الطريق.

إن كل ما رآه وسمعه فى قيادة وحدة الدبابات: قصة «الطريق الأخضر» الممتد من الأورال إلى ألمانيا، والإحساس بالقوة والسرعة غير العادية لهجوم الدبابات، والمحادثة التى جرت بين سيزوكريلوف وستالين من هذه القرية النائية من قرى بولندا، وأخيراً اكتشافه غير المتوقع لفقيد عائلة سيزوكريلوف — كل هذا أثر فيه تأثيراً بالغاً وبدا كأن بين كل منها رباطاً لا ينفصم. وحتى اهتمام الجنرال بحرسه من حملة الرشاشات، وعنايته الخاصة بلوبنتسوف، بدت وكأن لها علاقة مباشرة بستالين وقوة الهجوم السوفييتى التى لا تقاوم.

وقطعت صيحة ترحيب «هوراه» عالية، قطعت أفكار الماجور.

ووقفت السيارة. وفى مكان خال من الأشجار وسط الغابة كانت الدبابات تقف مرصوصة والأعلام الحمراء ترفرف فوق أبراجها. ووقف الرجال إلى جوار دباباتهم وهم فى حالة انتباه وكأنهم متجمدون فى أماكنهم. وفى المقدمة وقف جندى فارع الطول يحمل راية حمراء كبيرة. وتناثرت حبات الثلج التى تساقطت من فوق أفرع أشجار الشربين بسبب الصيحات الصاعدة.

نزل سيزوكريلوف من سيارته بهدوء وبدأ يتحدث بصوت هادىء واضح النبرات — وإن كان عالياً بشكل غير متوقع — ولكنه يحتفظ بطابع الحديث والصداقة، قال:

— أيها الرفاق، يا رجال الدبابات! سأختصر الحديث لأننا فى سباق مع الزمن وأنتم يجب أن تتحركوا إلى الأمام فى الحال. لقد تحدثت منذ قليل مع الرفيق ستالين. إن أمامكم مهمة على أعظم جانب من الأهمية: هى أن تتقدموا فى أقل وقت ممكن إلى مشارف مدينة برلين.

وضجت الغابة بالتصفيق الحاد وبصيحات «الهوراه»، وواصل سيزوكريلوف كلامه بعد سكتة قصيرة:

— لقد قام رفاقكم بقفزة هائلة من نهر الفستولا إلى هنا. وأنتم: لقد جئتم من الأول إلى هنا على «طريق ستالين الأخضر»، عليكم أنتم أن تتموا المهمة بالتعاون مع هؤلاء الرفاق. وإن المجلس العسكرى

www.alkottob.com

لعلى يقين من أنكم ستنهضون بمهمتكم على خير وجه لأنكم تنتمون إلى جيش الشيوعيين — جيش ستالين ، جيش الرجال الذين لا يخافون العقبات ولا يعترفون بالصعوبات . أنتم جنود الدبابات ، أنتم القوة الضاربة فى جيش الشعب العامل ، الذى استولى على السلطة فى أيديه لأول مرة فى التاريخ ، وتمكن من خلق قوة من الجبروت بحيث تستهين فى المجالين العسكرى والسياسى بقوى أعدائه . والآن ، ستبدأون حملتكم المجيدة ومهمتكم العسيرة . وإن المجلس العسكرى ليتمنى لكم النجاح والتوفيق .

وسأل سيرجيفسكى :

— هل نبدأ ؟

نعم .

استقل عضو المجلس العسكرى سيارته ورحل . ومن خلفه بدأ زئير الماكينات الذى أخذ يرج الغابة رجاً ، والثلج يتناثر من فوق أغصان الأشجار على الدبابات والسيارة المصفحة ، والمدافع الأوتوماتيكية .

وقبل أن يفترقوا ، وضع سيرجيفسكى فى يد لوبتسوف خريطة ملفوفة وهمس :

— هذه من أجل عضو المجلس العسكرى .

وبينما كان سيزوكريلوف يودع رجال الدبابات اغتنم لوبتسوف الفرصة ليلقى نظرة على تلك الخريطة . كانت الخريطة التى مقياس رسمها

١ : ٥٠,٠٠٠ تصور مساحة صغيرة مغطاة بالغابات ويقوم فيها عدد من طواحين الهواء . وفى مركز الخريطة علامة بالقلم الأحمر ، كتب عليها الرسام : « هنا ، فى الثانى من فبراير عام ١٩١٥ ، دفن جثمان ملازم الحرس أندريه جوجيفيتش سيزوكريلوف !! »

حثت عجلات السيارة ببطء فوق الثلج الرطب . وبدأ الضوء ينتشر شيئاً فشيئاً . ونظر لوبتسوف من ركن عينيه فرأى أن عضو المجلس العسكرى قد استسلم للاغفاء من جديد ، وعيناه نصف مغلقتان .

كان الجنرال سيزوكريلوف يحاول ألا يفكر فى ابنه . ولكن لم يكن ذلك يعنى إلا أن الفكرة لا تزايله . وسرعان ما أدرك الجنرال نفسه هذه الحقيقة ولكنه بذل جهداً خاصاً لكى يصرف تفكيره إلى موضوعات هامة أخرى ، مثل إمدادات الوقود ؛ والتوافق الزمنى بين هجوم سلاح الدبابات والسلاح الجوى ، ودفع قوات المشاة إلى الأمام حتى لا تتخلف كثيراً عن الدبابات .

ولكن فكرة فقدان ابنه الوحيد كانت تبرز متميزة وسط خليط الأفكار الكثيرة الأخرى . بل إن هذه الفكرة كانت تنفرد بذهنه للحظات بكل قسوتها المخيفة طاردة كل الأفكار الأخرى . وفى تلك اللحظات تفلت منه أنة خافتة ، ولكن سرعان ما يفتح عينيه ويلتفت إلى مساعده ويقول بلهجة متعجلة :

— لا تنس أن تذكرنى عندما نصل أن أصدر أمراً باسمى لمد

www.alkottob.com

كاربلين بالبترول فى الحال .

ــ طيب .

واستطرد سيزوكرياوف :

ــ نحن الآن نخترق أرض ألمانيا ، ومع ذلك فإننا نحن أنفسنا لا نتحقق بالدقة من مغزى هذا الحدث ... إن ما يهم فى هذا ليس فقط هو انتصار أسلحتنا وجيوشنا ، ولكنه ـ وبالدرجة الأولى ـ انتصار لمعنوياتنا ، لطريقتنا فى التفكير ، ومنهجنا فى تثقيف الشعب ، والطريق الذى اخترناه لكتابة تاريخنا . إن الإنسان ليذكر تلك الأيام من عام ١٩١٨ عندما كانت الامبراطورية الألمانية ـ التى لايمكن أن تقاون قوتها بقوة الإمبراطورية الهتلرية ـ عنـــد ما كان خطر تلك الامبراطورية فوق رأس الجمهورية السوفييتية الوليدة . لقد أصر لينين وستالين حينئذ على إبرام معاهدة الصلح والسلام مع ألمانيا ... ذلك السلام السيء الطالع ، كما سماه فلاديمير إيليتش ... لقد وافق قادتنا على تلك المعاهدة حينئذ لأنهم كانو يعلمون أن الواجب الأساسى هو أن نحمى وندعم وطننا السوفييتى ، وأن نبنى الاشتراكية ، أن نبنى ذلك النظام القادر على تحقيق النصر على أى عدو مهما كان .. والآن ها نحن على أرض ألمانيا .

وأحيت هذه الأفكار الإحساس بالقوة فى نفس الجنرال ، وذكرته بأنه ليس إلا مكافحاً فى حزب عظيم ، وأن عليه ألا ينسى هذه الحقيقة مهما كانت الظروف .

ولكن الجنرال عاد يفكر وقد علا العبوس وجهه المتألم : ليس الأمر سهلا على من كان فى موقفى ، ليس من السهل أن أظل دائماً القائد الهادىء الرزين الذى يسمو فوق كل المآسى والأحزان الدنيوية . إن هذا أمر صعب حتى على الجنرالات ، وعلى ضباط الجنرالات . وقفزت فى ذهنه فجأة صورة زوجته التى لم تعلم النبأ بعد .

عندما أتم أندريه تدريبه فى مدرسة الدبابات طلبت آنا كونستانتينوفا من زوجها الجنرال أن يأخذ أندريه معه . قالت وقد احمر وجهها :

ــ دعه يعمل معك ، فمن المفروض على أى حال أن يكون معك عدد من المساعدين .

لقد كانت تعرف زوجها حق المعرفة وهى لذلك كانت محرجة وهى تتكلم معه عن ابنه . وقد فعل حقاً ما كانت تتوقعه ، غضب وقال لها معاتباً :

ــ ولكن كان يجب يا آنا أن تعلمى أننى لن أوافق على مثل هذا الطلب كما أنك تعرفين أيضاً أن أندريه نفسه لا يرضى أن يختبىء من الحرب خلف ظهر أحد الجنرالات ، وبخاصة إذا كان هذا الاختفاء خلف ظهر والده .

فهل تراه يندم على تلك الاجابة الآن ؟

كلا !

ومع ذلك ، فقد كان التفكير فى أمر زوجته شيئاً رهيباً ، كما أنه

www.alkottob.com

من الصعب حقاً تبرير موقفه أمام حزن أم ثكلى .

ضغط سيزوكريلوف على فكيه ، وفتح عينيه بصعوبة . كان الضوء يملأ الدنيا . ومرت السيارة بالبلدة ذات النصب المقام لتخليد ذكرى « المنتصرين فى موقعة سيدان » ، وأزت العربات بصوت رقيق . وذكر منظر مؤخرة رأس لوبنتسوف ذى الشعر الأشقر ـ ذكرت الجنرال بابنه الفقيد .

قال :

ـ إن فرقتك ياماجور ستحاصر قلعة شتيد موهل ، وهى من أقوى النقط الحصينة فيما يسمونه بالحائط الشرقى . فتذكر هذا وأنت ترسم خطتك للاستكشاف .

وسكت برهة ثم قال :

ـ إن لديك قدرة ممتازة لمعرفة طريقك فى الظلام ، ولاشك أن هذا يجعل منك كشافاً أهلا للثقة .

وصلت السيارة إلى القرية التى كان بها مقر قيادة الفرقة فى الليلة السابقة ، وهدأت من سرعتها . ووضع لوبنتسوف الخريطة الملفوفة إلى جواره وأومأ برأسه إلى الجنرال ، فهز السائق رأسه دلالة على الفهم .

صافح الجنرال لوبنتسوف وهو يودعه وقال :

بلغ تحياتى وتقديرى لسيريدا وبلوتنيكوف .

نزل لوبنتسوف من السيارة ورأى سيبيريوف يقفز من

المصفحة فى الوقت ذاته . فرفع لوبنتسوف يده بالتحية إلى أن مرت السيارات وأخيراً اختفت عن الأبصار .

قال سيبيريوف :

ـ لقد حدثنى حملة الرشاشات عنه وعن ابنه ... م ـ نعم ..

واقتضب كلمته قائلا بهدوء :

ـ هذا رجل .

ساروا فى القرية ، ولكن قيادة الفرقة كانت قد تركتها . وكان رجال الإشارة يجولون فى الحقول المغطاة بالثلوج ومعهم لفافات من السلك ، وعلم الرجلان منهم أن الفرقة قد واصلت زحفها عند الفجر وأن هيئة أركان حربها قد انتقلت إلى قرية أخرى ناحية الغرب .

ورأى لوبنتسوف أن يذهب إلى المنزل الذى قضى فيه رجال الاستكشاف ليتم لكى يطمئن إلى أنهم لم يخلفوا أحداً وراءهم . كان المنزل بارداً حالياً . وكانت الأسرة ذات الفرش الريش فى مكانها كما هى والساعات تواصل دقاتها الرتيبة الرفيعة .

قال لوبنتسوف :

ـ هيا بنا ، ونركب أى سيارة على الطريق توصلنا إلى مقر القيادة .

ولكنه فى تلك اللحظة رأى رجلا ينام على سرير فى أحد الأركان القصية .

www.alkottob.com

قال شيبريوف وهو يتجه ناحية الشخص الملفوف فى الملاءات على السرير :

ـ لنرى إذا كانوا قد خلفوا أحدهم هنا .

ظهر من تحت الملاءات وجه مذعور مضحك غير حليق لرجل ألمانى تخطى سن الشباب ، يلبس نظارة ويربط رأسه بمنديل امرأة ، وفوق المنديل قبعه سوداء مهشمة . وعندما رأى الرجلين قفز واقفا وخلع قبعته وانحنى انحناءة تأدب قابلها شيبريوف بتكشيرة . فهم لوينتسوف من كلمات الألمانى المتلعثمة أن الرجل هو صاحب البيت ، وأنه هرب من المنزل إلى الغابة خشية الروس . أما الآن ، وبعد أن عاد الهدوء إلى القرية فقد عاد الرجل إلى منزله .

قال الرجل وهو ينقل إشارات يديه بين نفسه والساعات المعلقة على الحيطان :

ـ « أورميستر »

وترجم لوينتسوف الكلمة لمراسله :

ـ صانع ساعات .

كف شيبريوف عن التكشير وقال وهو يخرج قطعة خبز من جيبه ويعطيها له :

هذا يعنى أنه من الشعب العامل .

وقال الألمانى معبراً عن شكره :

ـ « شكراً جزيلا ، شكراً جزيلا .

وغمغم شيبريوف بلهجة ساخرة ، وقد ندم على تسامحه وكرمه .

ـ ك رجلا الاستكشاف المنزل ، ولكن صانع الساعات ظل واقفا فى مكانه يلوك قطعة الخبز وهو يتمتم لنفسه بكلمات ألمانية غير مفهومة .

www.alkottob.com

١١

عندما ذهب الروسيان ظل الرجل الألمانى واقفاً فى مكانه نحو دقيقة أخرى وهو يصيخ السمع ثم جلس على السرير مدة طويلة بلا حراك .

واختفت من وجهه علامات الغباء المقصود وتعبيرات الخوف المبالغ فيه . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن من يراه من زملائه القدامى لا يمكن أن يصدق أن هذا المتسول العجوز الذى يرتدى ملابس مضحكة هو كونراد وينكل (نمرة ٢١٧ — ف) من القسم المخصوص (ر) التابع لمخابرات القيادة الألمانية .

كان أول شىء خطر بذهن وينكل عندما رأى الروسيان يدخلان عليه هو أن يكشف عن شخصيته الحقيقية ويسلم نفسه ، ولكن تملكه خوف قاتل لما يمكن أن يحدث له لو فعل هذا فتفضل أن يتظاهر بأنه صاحب البيت . وإذا رأى الساعات العديدة المعلقة على الجدران ، خطر له أن ينتحل شخصية صانع الساعات ، وشجعه على ذلك ما لاحظه أثناء فترة عجوله التى استمرت ثلاثة أسابيع من أن الروس يعاملون الشعب العامل معاملة كريمة .

كان عقله مرتبكا ومعنوياته منهارة . إن ما كان مجرد تخمين فى البداية قد أصبح الآن حقيقة مرة : لقد هزمت ألمانيا . ولكن هذا لم يكن هو السبب الرئيسى فيما يشعر به من يأس مطبق . إن ما حدث هو أسوأ بكثير من مجرد الهزيمة العسكرية ، إنه الانهيار الكامل لكل آمال وأحلام جيل بأسره من الألمان ، الذين يدخل وينكل فى عدادهم .

قضى كونراد وينكل كل حياته فى دانزج . وكان ألمان تلك «المدينة الحرة» الذين ألهبتهم دعاية هتلر ، وأهاجتهم أقاويل عملاء هيس وروزنبرج وبوهل ، وامتلأت قلوبهم بالأحقاد على منافسيهم من البولنديين ، كان هؤلاء الألمان من القوميين المتعصبين . وعلى الرغم من الاحتجاجات والتحذيرات التى لم يكف عنها وينكل الأب — وكان رجلا حصيفاً حريصاً متشككا — فإن أبناءه كونراد وهوجو وبرنارد انضموا إلى فرقة العاصفة والشباب الهتلرى ، وساروا باعتزاز فى صفوفهم وهم يهتفون « هايل هتلر » ويبشرون برسالة ألمانيا العظمى فى أوروبا . وبعد أن كانوا فتياناً مجدين فى دراستهم يميلون إلى الهدوء ، تحولوا إلى أنفار من الحثالة الهتلرية الحرقاء المسممة بالدعايات الباطلة والأكاذيب .

لقد أخذ يداخل هؤلاء الشبان المرد الوجوه ، الطوال القامة ، النحاف الأجسام ، أخذ يداخلهم وهم بأن فى جنباتهم « وحوشاً شقراء » ضارية مرعبة لا تقهر . وأصبحت عبادة القوة هى فلسفتهم فى الحياة . وأصبح لجنون العظمة فعل السحر على عقولهم ، وتملك هذا الشىء المشوه

www.alkottob.com

— من كونيجسبرج إلى التيرول ، فجنون العظمة من المقومات الفكرية للدولة .

والحق أن الأخ الأكبر - كونراد - (كان قد بلغ الخامسة والعشرين فى ١٩٣٨) كانت تساوره بعض الريب والشكوك . كانت تصله الشائعات عن الفظائع التى ترتكبها فرق الـ (إس . إس) ، وعن معسكرات الاعتقال الرهيبة ، وعن حملات النفى والإعدام بالجملة . ولكنه - طبعاً - لم يبذل أية محاولة للتحقق من صدق هذه الشائعات ، فقد كان هذا أمراً محفوفاً بالمخاطر ، كما كان إيمانه — الذى يشبه العقيدة - بالسلطة لم يكن ليسمح له بأن يشك كثيراً . ثم هناك أقوال مستشار الرايخ الذى كان يتمتع بنفوذ عظيم حتى فى البلاد الأجنبية (وبمناسبة ذكر البلاد الأجنبية كانت هناك نقطة شك سامة قاتلة فيما يتعلق بمكانة الفوهرر) ، وأقوال أساتذة الجامعات والعلماء والكتاب ووزراء الرايخ القدامى وفون بلومبرج وفون نيورات (فقد كانت الثقة فى القدامى أكثر من الثقة فى الجدد لأنهم كانوا أكثر احتراماً) ، وجنرالات جيش الرايخ ، بل هندنبرج نفسه الذى دعا هتلر إلى الحكم - ألم يقل هؤلاء جميعاً ذات يوم «هذه ضرورة لابد منها » ، فقيم الشك إذن ؟

إذا كانت إبادة أمم بأسرها أمراً ضروريا لخير ألمانيا - فما الذى يجب عمله إذن ؟ لابد للمرء أن يقتل ، ولا سبيل إلى اللف والدوران . وإذا كان لابد للمرء أن يمارس الخداع ، فليكن ! فالمغفلون ما وجدوا فى

هذه الدنيا إلا ليخدعهم المتفوقون .

بهذه الأفكار وبمثيلاتها خنق كونراد وينكل ومن على شاكلته صوت الضمير الذى كان يهمس فى أعماقهم بين الحين والحين بكلمات مقلقة مكدرة . ولو كان هناك من يقوم بعملية القتال بدلا منهم لكان ذلك أفضل بكثير ، ولكن لم يكن أمامهم الآن إلا أن يقاتلوا بأيديهم .

التحق هوجو وبرنارد وكونراد بالجيش ، الواحد بعد الآخر . وعلى أية حال فإن برنارد لم يستمر طويلا فى القتال ، فقد تدابرت ساقاه بفعل أحد الانفجارات وعاد إلى المنزل وقد ساورته شكوك قوية فى إمكانية حل المشكلات المختلف عليها بطريق الحرب . واشتغل كونراد أول الأمر فى هيئة قيادة كراكاو التى يتولاها الدكتور فرانك ، الحاكم العام لما كان يوماً يسمى بولندا . وأثبتت اللغة البولندية ، التى كان يتقنها ويحتقرها جداً فى الوقت نفسه ، أثبتت أنها ذات فائدة كبيرة بالنسبة له . وفى عملية التعبئة الأخيرة ، « التعبئة الشاملة » فى ١٩٤٤ ، نقل للعمل فى قلم المخابرات التابع لقيادة الجيش . وهناك تلقى دراسة خاصة فى عمليات التخريب والتجسس وعمل بعد ذلك فى إدارة مكافحة الجاسوسية فى المؤخرة الألمانية . وأصيب وينكل طبعاً — بانزعاج شديد بسبب تقهقر الجيش الألمانى إلى خط الستولا . وبصفته جاسوساً ، كان يعرف أن مقالات الصحف التى تؤكد أن الروس لن تكون لهم القدرة

www.alkottob.com

على مواصلة الزحف بعد هذا الاندفاع الكبير — كانت مقالات كاذبة. ومع ذلك فقد كان واثقاً من أن استحكامات خط الفستولا قوية منيعة، ولم يكن كونراد وينكل ليتصور — منذ ثلاثة أسابيع، عندما وقف الجيش الألمانى عند خط الفستولا، أن هذه الاستحكامات ستتحطم بضربة واحدة من الروس. والحق أن الضربة الروسية كانت قوية ورهيبة، فقد كانت تحتوى تقارير ضباط القيادة، فى الجبهة أو بالقرب منها، على تفاصيل فظيعة. لقد تمكنت المدفعية وسلاح الطيران السوفيتى من اكتساح كل ما يعترض طريقهما اكتساحاً.

وحدث فى يوم ١٣ من يناير أن قابل فى مقر هيئة أركان حرب الجيش أعاه الصغير هوجو، الذى منح وسام «أوراق الزان» علاوة على الصليب الحديدى، وكان هوجو قد توجه إلى مقر القيادة لمهمة خاصة.

وفى صبيحة ١٠ من يناير سمعوا هدير المدفعية الرهيب من بعيد.

قال كونراد، وقد شحب وجهه:

— لقد بدأ الهجوم.

وأنصت هوجو قليلا وهز رأسه، ثم قال:

— حتى ولو حطم الروس خطوط الدفاع فى هذه النقطة أو تلك فستتمكن من وقفهم عند الخط الممتد من برومبرج إلى بوزنان ثم فى سيليزيا، وهو الخط المعد إعداداً متقناً للدفاع...

والحق أن هوجو لم يشر بكلمة إلى الفوهرر، ولكنه كان يثق فى قوة القيادة العليا. قال وهو يزرر سترته بسرعة:

— إن جنرالاتنا رجال ذوو خبرة، وسيتمكنون من إعداد مراتز جديدة للدفاع. حسناً، إلى اللقاء. سأرحل. وأتمنى أن أراك ثانية.

وبعد هذا الحديث بساعتين ذاع خبر أن الروس حطموا خط الدفاع فى جبهة عريضة. ولكن برغم ذلك ظل وينكل يعتقد أن الموقف لم يتطور بعد ليصبح فى حكم الكارثة.

فالطريق إلى ألمانيا طريق طويل، ولن يلبث الروس حتى تنهك قواهم سريعاً. وهناك الحائط الشرقى، تلك السلسلة الهائلة من التحصينات المنيعة الممتدة على طول خط الحدود الألمانية القديمة، وهى قادرة على إقفال الطريق فى وجه الزحف الروسى، وحماية أهم المراكز الحيوية للإمبراطورية.

وفى الوقت نفسه أصيبت هيئة القيادة باضطراب وقلق يثيران الشك وفى المساء عمت المكان حركة سريعة محمومة. وأخذوا يحملون سيارات النقل بكل شىء، أياً كان.

وذهب وينكل لمقابلة الكولونيل بوهمل بناء على طلب الأخير. وتمت المقابلة والحديث فى مخبأ تحت الأرض لأنه يبدو أن الروس قد اكتشفوا مقر هيئة القيادة فلم تكف طائراتهم عن ضرب القرية بالقنابل لحظة. وأمر وينكل بأن يلبس ملابس مدنية ويتوجه — ومعه جهاز إرسال لاسلكى — إلى هوهنزلاز، وهى بلدة بولندية كانت تسمى قبل الاحتلال الألمانى إنوروكلاو. وتسلم وينكل من الكولونيل أوراق

www.alkottob.com

تحقيق شخصية مزورة باسم فلاديسلاف فاسليفسكى ومهنته سمسار عقارى من مدينة وارسو . وكان عليه أن يتخفى فى شكل لاجىء من وارسو وينزل فى بلدة هوهنزلاز عند بقال بولندى يعمل فى المخابرات الألمانية . وقال له الكولونيل أيضاً إنه فى بلدة ألتبرجاند المجاورة (وكان اسمها بالبولندية سوبين ثم أعيدت تسميتها بهذا الإسم الألمانى) ملازم ألمانى اسمه ريتشاردهان الذى أرسل للمهمة نفسها ، ويتخفى فى شكل ميكانيكى بولندى . كما أعطاه الكولونيل ثلاثة مراكز أخرى يمكنه الاتصال بها فى حالة اضطراره التحرك ناحية الغرب ، ثم سمح له بالانصراف . وجرى وينكل بكل قوته إلى المنزل الذى كان عليه أن يقدم فيه تقريره ، ورأى عند الباب الماجور سيرت يهم بركوب السيارة . ولكن الماجور توقف وهو متبرم وصاح بمرءوسيه :

« أعطوه جهاز إرسال لاسلكياً » ثم قفز إلى السيارة التى انطلقت به فى الحال . وقام جندى متجهم الوجه بعرض نحو دستة من آلات الإرسال اللاسلكية المرصوصة فوق الأرض على وينكل وطلب منه إيصالا باستلام الجهاز . وجلس وينكل لتحرير الإيصال . كان المبنى كله يهتز من وقع قنابل الروس التى تتفجر فى أماكن قريبة . وفكر الجندى لحظة ثم قال :

— حسناً ، بإمكانك أن تأخذه ولا داعى للإيصال .

نظر وينكل إلى الجهاز حائراً ، كيف يمكنه حمله ؟ ولحسن حظه رأى عربة صغيرة ذات عجلتين فى الفناء ، فوضع الجهاز والبطاريات عليها ودفعها بيديه أمامه ، وتوجه إلى « قسم ٢ - ب » . كان بوهم قد ترك المكان . وكان الجميع يعدون هنا وهناك بالقرب من السيارات وهم لا يريدون الإجابة على أى كلام يوجه إليهم . وأخيراً ظهر الملازم الأول هوس ، وهو من زملاء وينكل ومعارفه ، وسأل بصوت هامس:

— إلى أين ستذهب ؟

— إلى هوهنزلاز ، وأنا أجر معى أحد أجهزة الإرسال .

— وأنا ذاهب إلى جنسن فى وارتجاو .

وزاد صوته انخفاضاً وأضاف :

— إننا فى حالة ارتباك شامل . أنت - على الأقل - تعرف اللغة البولندية معرفة جيدة ، أما أنا فماذا أفعل واللهجة السكسونية القديمة يمكن التعرف عليها من بعد ميل ... لقد قلت له . أنا أعرف البوهيمية .. إرسلنى إلى بوهيميا ، ولكنه كان خائفاً إلى درجة أنه كان يتنفس بصعوبة . . . وتركنى وركب السيارة وانطلق ، هذا الشيطان ! ليس هناك من يستطيع المرء التحدث إليه . لقد سمعت أن الروس سيكونون هنا غداً . حسناً ، لنرحل فوراً . إن كرافت ينتظرنا فى القرية المجاورة ومعه إحدى السيارات .

دخل الإثنان إلى المنزل ، والتقطا بعض الملابس المدنية من بين

www.alkottob.com

الأشياء الكثيرة الملقاة فى المكان ، وغيرا ملابسهما . ولف وينكل جهازه فى إحدى الملامات . وتركا القرية . وعلى الطريق كانت البقايا المهلهلة للقوات النظامية تتحرك ناحية الغرب فى سيل لا ينتهى . كانت ماكينات السيارات تصفر صفيراً خشناً مزعجاً وهى تزيح من طريقها الجنود كاسفى البال وهم يضربون على الطريق ببطء وإعياء .

وظن الجنود أن وينكل وهوس بولنديان ، إلى درجة أن أحدهم هددهما بإطلاق النار عليهما إن لم يفسحا الطريق أمام الجند . وقال لهما مزمجراً :

— جواسيس ! سأريكما !

وأصيب وينكل بالذعر فعلا ، فقد كان منظرهما فعلاً لا يثير إلا الشك . ولو أن أحد الجنود أخذ يفتش فى العربة الصغيرة ذات العجلتين وعثر على جهاز الإرسال ، إذن لأعدموهما رمياً بالرصاص فى الحال دون أن ينصتوا لأى كلام أو شرح .

لم يكن على الطريق رجال لتنظيم المرور . ولكن بين الحين والحين كنت ترى أحد الضباط يحاول أن يقر نوعاً من النظام ، ولكن أحداً لم يكن يصغى إليه أو يطيعه . وكانت السيارات والعربات والمدافع المتروكة تملأ الخنادق والحفر . وبعد مسافة رأى وينكل على الطريق صندوقاً من حوافظ القنابل ملقى على الطريق وفيه ومن حوله كتب كثيرة مبعثرة . وهذا الصندوق — على ما يبدو — من ممتلكات إحدى

فرق الدعاية : كانت بينها كتب إنجيلية وكاثوليكية من كتب الصلاة والعبادات ، وكتب من تقاويم الجند . وظهرت فى أحد الكتب المفتوحة صورة للفوهرر ملطخة بالطين تنظر بعينين مجنونتين متوحشتين إلى الرجال المارين بها . وأشاح وينكل بوجهه جانباً .

كان الجنود يحملقون فى سيارات النقل التى تمر بهم محملة بالأثاث والسجاد والنباتات المنزلية التى يملكها القواد والرؤساء الهاربون إلى الغرب ومرت اثنتا عشرة سيارة تحمل الصناديق المصنوعة من خشب الموجنا والمحملة بممتلكات أحدهم — قالوا إنه الدكتور هانز فرانك نفسه. وأخذ الثلج الرطب يغطى الدواليب والمناضد وخزانات الملابس الفخمة المحفورة بأيد ماهرة . والأوز الأبيض السمين يطل بأعناقه من تحت المناضد والكراسى وهو يصيح ويكاكى .

وفى إحدى المزارع حيث القسم (ر) التابع للقيادة العليا ، والممنوع اقتراب الأغراب منه وإلا أطلقت النيران عليهم ، كانت هناك جمهرة صاخبة من الناس : ضباط من إدارة المهمات العسكرية ، وجنود ، ونسوة مخمورات شبه مجنونات . كان يجرى إجلاء بيت للدعارة التابعة للجيش .

قال هوس وقد شحب وجهه جزعا :

— ألا يمكن أن يكون كرافت قد رحل ؟

ولكن كرافت لم يكن قد رحل بعد لحسن الحظ . ففى غمرة هذا

www.alkottob.com

الاضطراب والفوضى الشاملة كان هو الوحيد الذى يحتفظ بمظهره الهادئ وهو واقف أمام المدفأة فى غرفته يحرق تلالا من الأوراق المكدسة حوله . وأشار برأسه للضابطين المتشكرين وقال :

ـ سأقوم بتوصيلكما فى الحال . لقد اقترب الروس .

وألقى عليهما نظرة فاحصة ناقدة وأدى بعض الملاحظات حول هندامهما ونصح هوس ألا يبرز صدره إلى الأمام قائلا :

ـ تذكر أنك الآن مدنى .

وحين اشتكى هوس قائلا إنه لا يجيد الحديث باللغة البولندية ، أجاب وهو يهز كتفيه :

ـ لا يمكن عمل شىء الآن . لدى أمر بتوصيلك إلى جينسين ولا يمكنى إلغاؤه ، وقد رحل جميع الرؤساء الآن .

وأضاف بعد سكتة قصيرة :

ـ لقد اقترب الروس .

وسأل هوس :

ـ ما رأيك ، هل تعتقد أن هجومهم سيوقف قريباً .

وألقى كرافت عليه نظرة طويلة من عينين شاحبتين لا يطرفان ، وقال :

يجب تنفيذ الأوامر ... إن رجالنا يكيلون الضربات الأمريكيين فى الأردين ، ثم فجأة يأتى هذا الهجوم الروسى ، هجوم لم يسبق لعنفه مثيل

وقد كنت أعتقد شخصياً أن الهجوم لن يبدأ إلا بعد أسبوعين . وكانت لدينا أخبار تؤكد هذا . ولكن جاء الاندفاع الروسى قبل ذلك ، يبدو أن الروس أسرعوا إلى نجدة الفرق الأمريكية المرتبكة .

وألقى الدوسيه الأخير فى النار وسألها :

ـ هل لديكما نقود كافية ؟ خذا هذا .

وأعطى كلا منها رزمة من المارکات الألمانية والزلوت البولندى . وبعد أن فكر قليلا قال :

ـ ولكن ربما تكون هذه النقود قد فقدت قيمتها الآن . خذا هذه الروبلات الروسية . إنها مزيفة ولكنها متقنة الصنع بحيث لا يمكن التمييز بينها وبين الروبلات الحقيقية .

فى هذه اللحظة وقفت سيارة ركاب كبيرة زرقاء أمام المنزل وأخذت تزمر باستمرار من أجل كرافت . ولبس كرافت سترته وخرج الثلاثة .

وفى السيارة رأى وينكل رجالا كثيرين لا يعرفهم يلبسون الملابس المدنية ، وضابطين مسلحين بمترليوزين . وكان الأوتوبيس مليئاً بصناديق مختلفة الأحجام والأشكال مشمعة بالشمع الأحمر ولم يتمكنوا من إدخال العربة الصغيرة ذات العجلتين وعليها جهاز الإرسال فى الأوتوبيس ، ولكن وينكل كان متشبثاً بهما ولا يريد مفارقتهما بأى حال . وأخيراً وضعوا العربة الصغيرة فوق ظهر الأوتوبيس وانطلقوا .

كانت الدنيا قد أظلمت . ومن الطريق تأتى ضجة هائلة وأصوات

www.alkottob.com

وفى منتصف الليل وصلوا إلى بلدة كنتو حيث نزل أحد الرجال المدنيين بعد أن أسر شيئاً فى أذن كرافت . وفى بلدة كولو ترك رجل آخر سيارة الأوتوبيس . وعبروا نهر فارتا على أحد الكبارى . وكان الكوبرى مزدحما إلى درجة فظيعة بالناس والعربات والسيارات إلى درجة اضطرتهم إلى الانتظار ساعتين . وتركوا جاسوساً ثالثاً فى بلدة كونين وبعد ذلك اتجهت السيارة ناحية الشمال . وكان الطريق مليئاً بالقوات المتقهقرة واللاجئين . وعائلات ألمانية بأكملها تهيم على وجوهها على طول الطرق والخنادق . ولحقت سيارة الأوتوبيس بقافلة سيارات النقل التى تحمل متاع الدكتور فرانك المصنوع من الموجنا وأوزانه البيض .

كان قد انقضى شطر من الليل عندما توقفت السيارة بالقرب من بلدة هوهنزلاز . وهنا جاء دور وينكل . واقترح عليه كرافت أن يسلم أوراقه الرسمية العسكرية ويعدم جميع ما لديه من الخطابات الألمانية وكل ما يربطه بحياته السابقة عموماً . وجاس وينكل بسرعة فى جيوبه ثم قال إن كل شىء على ما يرام . وصافحه هوس مودعاً . كانت يده دافئة ومرتعشة . وقفز وينكل من السيارة وأنزلت عربته الصغيرة بعده . وواصلت السيارة طريقها، وسرعان ما اختفت خلف منعرج فى الطريق .

ووقف وينكل فى مكانه دقيقة ثم بدأ سيره ناحية بلدة هوهنزلاز

(أو إينوروكلاو) وهو يدفع عربته الصغيرة أمامه . ومن هذه اللحظة كان على وينكل أن يسمى البلدة باسمها البولندى .

وأحس الجاسوس بخوف واضطراب ، فقد كان الاعتماد على البولنديين فى هذه الأيام شيئاً محفوفا بالمخاطر . وسرى عن نفسه قليلا ما رآه من أن كثيراً من الألمان والبولنديين كانوا يسيرون على الطريق وأن بعضهم كان يدفع أمامه أنواعاً من العربات الصغيرة التى فيها شبه بعربته ، بحيث لا يصح هو فيهم متميزاً وملفتا للأنظار . وعلى الطريق جماعات من الجنود الألمان ، ولكن لا يستطيع أن يحتمى فيهم ، فهو الآن ليس إلا السمسار العقارى «فلاديسلاف فاليفسكى» من مدينة وارسو ولا هو يستطيع أيضاً أن يدخل هذا المطعم الجميل المريح إلى جوار محطة البنزين القائمة عند طرف البلدة ، لأنهم علقوا على الباب لافتة تمنعه من ذلك ، كتب عليها : « للألمان فقط » .

وطافت بذهنه فكرة وهو يبتسم ابتسامة مريرة : سيأتى الروس سريعاً ويحررونا من الاضطهاد الألمانى

كانت الشوارع خالية من الناس . واهتدى وينكل إلى المنزل الحجرى الذى بأسفله دكان البقال بعد لأى ودق على المصراع المتربس ولكن أحداً لم يرد .

وألقى وينكل نظرة أخرى على لافتة المحل : « سكليب سبوزيتش ماتوتشيفسكيجو » ، نعم هذا هو المنزل بالتأكيد . وقرع ثانية النافذة

www.alkottob.com

بشكل أكثر إلحاحا وأعلى صوتا . وأخيرا سمع صوت رجل يقول من بعيد :

ماذا يريد السيد .

وحسب التعليمات ، أجاب وينكل أن لديه خطابا للسيد ماتوتشيفسكيجو من السيد زابلودوفسكى من وارسو . ففتحت البوابة بهدوء ، ودخل وينكل وهو يدفع العربة أمامه .

وتبين وينكل أن ماتوتشينسكى رجل يميل إلى السمنة قصير القامة كثير الكلام . كان الرجل منزعجا جداً مما حدث ولم يبد أى مظهر من مظاهر السرور بمقدم « السيد فلاديسلاف فاليفسكى » . وكان شاربه الأشعث الأشيب يهتز عند سماع أى صوت فى الشارع ، وتلتوى شفته العليا كاشفة عن أسنان صغيرة حادة ، ويده اليمنى السمينة ترتفع فى الهواء محذرة ، ومنظره يذكر الإنسان بنأر من قفران الغيط ، مضطرب عند سماعه صوت إنسان بين أعواد القمح .

ولكن ماتوتشينسكى يعاود الثرثرة بمجرد انتهاء الصوت ، متحدثاً عن عائلته وأخيه الذى يعيش فى لندن ، وشكواه من ضعف الجيش الألمانى ، وآماله الضائعة ، وقرب مجىء الروس .

— آخ . آخ . أى تحول محزن سارت إليه الأمور ... وما الذى ستنتهى إليه الأحداث ياسيد ؟ ..

ولكن الرجل غمره الفرح حين علم أن وينكل يحمل معه عملة سوفيتية . (ولم يخبره وينكل طبعاً أنها كانت عملة مزيفة) . وأسكن

الألمانى فى غرفة صغيرة تحت السطح المدبب . ووضعا جهاز الإرسال فى (السندرة) وسط أكوام من القنب وعدد من البراميل القديمة .

وقدم وينكل (فاليفسكى) لأمرأة نحيفة اعوب متقدمة فى السن هى السيدة ماتوتشيفسكا — كلاجىء من وارسو . وكان عليه أن يسرد عليها كثيرا مما يعلمه ومالا يعلمه عن وارسو وعن الزحف الروسى . وبعد أن نجح صاحب البيت فى إقناع زوجته بالذهاب إلى فراشها وانفرد ثانية بوينكل أخذ يعبر عن « عقيدته السياسية » كما كان يحلو له أن يسميها باعتزاز . قال :

— أنا بولندى . وقد كانت هنالك أمور كثيرة ، نعم ياسيد ، أمور كثيرة جعلتنى اشمئز مما كان يفعله .. و.. م .. السادة الألمان . إن السياسة الألمانية ياسيد .. ياسيد فاليفسكى .. إنها ليست سياسة بارعة . إننى لم أسمح لك بالبقاء فى منزلى لأننى أحبك ، لا . ولكننى فعلت ذلك لاعتبارات سياسية عليا ، لأن الشيوعية ياسيد هى نقمة الله على البشر . سأكون صريحا جدا معك .. إننى اعتنق آراء جيش كراجوفا الذى أتشرف بالانتماء إليه . وأنا استمع بانتظام إلى راديو (سويت) وأوافق تماما على سياسة الجنرال سوسنوكوفسكى .. أصارحك القول ياسيد ... ياسيد فاليفسكى ، أصارحك تماماً ، أنا لست مرتداً عن قوميتى البولندية كلا . وحاشا ! إن أخى فى لندن يحتل مركزاً هاما فى الحكومة المكونة هناك ، وهو رجل ذو مكانة

www.alkottob.com

وقيمة كبيرة ... آه .. لا ! السيد الوزير ماتوتشيفسكي ، لا ، إنه سمي ، ليس إلا .

وأحس وينكل بأن ثرثرة ماتوتشيفسكي مثيرة لأعصابه للغاية ولكنه كان مضطراً للإنصات . وكشفت صراحة هذا البولندي التي بلغت حد الوقاحة والتي كان من المستحيل أن تصل إلى هذا الحد منذ أيام قليلة ـ كشفت إلى أي درجة تدهور نفوذ ألمانيا . ووجد وينكل صعوبة كبيرة في منع نفسه من الشجار مع هذا الرجل ، فلم يكن هذا هو الوقت الملائم . واكتفى بأن جلس مقطبا حاجبيه بل حاول التظاهر بالاهتمام بما يقوله هذا « السياسي » البولندي . وبينما ظل وينكل مضطرا للإنصات إلى مضيفه الثقيل انصرف عقله إلى التفكير في شئونه الخاصة : لو تمكن الجيش من الثبات في خط برومبرج ـ بوزنان ـ برسلاو ، إذن لأمكن إنقاذ كل شيء .. وفكر أيضاً : ياللعار ، الهرب على هذه الصورة المخزية كالخراف ! ..

وصعد إلى غرفته ، وسرعان ماراح في نوم عميق ..

وعند الفجر أيقظه همسات ماتوتشيفسكي المتعجلة . وكان الرجل يحمل بين يديه راية حمراء . قال :

ـ الروس في البلدة . إنهض . إنهض ياسيد وساعدني .

وقال وينكل مشدوها :

ـ أبمثل هذه السرعة ، هذا شيء غير معقول .

www.alkottob.com

وأجاب ماتوتشيفسكي متهكماً غاضباً :

ـ غير معقول ! ؟ أيها المحاربون ! .. إنهض . إنهض وساعدني .

وفتح الشباك الصغير . واندفعت ريح باردة إلى داخل الغرفة وطيرت المفرش والنتيجة من فوق المنضدة . ووقف ماتوتشيفسكي على كرسي وسمر العلم في سارية خارجة من الحائط أسفل شباك السندرة . وترددت أصداء الطرقات في الشارع الخالي . ونزل السيد ماتوتشيفسكي من فوق الكرسي وهو يتنهد تنهدة ثقيلة .

ورفرفت الراية الحمراء فوق المنزل .

www.liilas.com
منتديات ليلاس

١٢

وفى الصباح خرج وينكل يجول فى طرقات البلدة . وتمكن من أخذ فكرة عن قوة الهجوم الساحقة . ومرت به الدبابات والمدافع الثقيلة فى سيل لاينتهى .

ولم يكن المرء بحاجة لأن يكون عالما نفسانيا لكى يرى فى الوجوه البرونزية التى لوحتها الشمس لجنود المشاة الروح المقاتلة العالية، والدرجة الرفيعة للتدريب العسكرى الذى وصلوا إليه . لم يكونوا يسيرون فى صفوف متقاربة . أو يطوحون أرجلهم فى مشية الأوزة ، ولم يكن هناك طبول تقرع ، ولم يكن هناك شىء من مظاهر الأبهة أو أجواء الفاتحين والغزاة .كان الرجال يسيرون فى هدوء ، ومن الواضح أنهم ليسوا فى عجلة ، كرجال ينهضون بعملهم وهم يعرفون جيداً ماذا يفعلون . كانوا ينظرون بفضول إلى لافتات المحلات وينظرون بخبث إلى النساء البولنديات الجميلات . وقد لايكون لديهم مانع من الاستراحة قليلا فى البلدة ومغازلة الفتيات ، ولكنهم لم يتوقفوا فى أى مكان ، وواصلوا السير بلا توقف ناحية الغرب . وأحس وينكل وهو يرتجف أنه لاتوجد قوة على وجه الأرض قادرة على أوقفهم .

ومرت به إحدى الوحدات وفى مقدمتها علم يرفرف .

وعلى هذه الراية رأى وينكل المطرقة والمنجل والنجمة الخماسية ، شعار الشيوعيين أو كما يسمونها فى ألمانيا شعار « الماركسيين » . لقد اعتاد على التفكير فى الشيوعيين كأناس خارجين على القانون تماماً . ولا عجب فمنذ ١٩٣٣ كانت كلمة «شيوعى» كلمة مخيفة مرعبة . وهاهم أولاء شيوعيون بالجملة ! ولم تكن لهذه الحقيقة وقع فى ذهن وينكل أقل مما لو سمع أحدهم يقول « إن سكان القمر قد نزلوا فى برلين » ، ولكن هؤلاء هم الشيوعيون، وبالجملة ، أمام عينيه ! وليسوا بالجملة فحسب ، ولكنهم مسلحون أيضاً ، وأقوياء لا يغلبون ، وعلى أعتاب الإمبراطورية الألمانية !

وعاد وينكل إلى المنزل فى الظهيرة وقد أنهكت قواه إنهاكاً تاماً . كانت أطرافه مخدرة ومعدته خاوية . واستقبله ماتوتشيفسكى صامتاً وأطلق كحة ذات مغزى . وسرعان ما قرع الباب وظهر شاب طويل على ذراعه شارة حمراء بيضاء . وحيا الشاب ماتوتشيفسكى و « اللاجىء الآتى من وارسو » الذى قدمه له صاحب البيت . وأخبرهما الشاب أنه سيعقد اجتماع لأهل البلدة فى الميدان بعد ساعة .

وانحنى ماتوتشيفسكى وهو يضع يده السمينة على صدره شاكراً هذا الشاب على الدعوة ، وأكد له أنه هو وعائلته سيشتركون فى الاجتماع الذى سيعقد لتحية هذا الحدث العظيم ، ألا وهو تحرير بلدته إيشوروكلاو من الغزاة الأشرار الألمانيين .

www.alkottob.com

وألقى الرجل نظرة حاقدة على وينكل .

وذهب وينكل إلى الاجتماع بصاحبة ما توتشيفسكى .

وفى ميدان البلدة اجتمع جمهور كبير مبتهج . وفى كل مكان رفرفت الأعلام الحمراء والأعلام ذات اللونين الأحمر والأبيض . وفى شرفة قاعة البلدة وقف عدد من الضباط البولنديين والسوفييت .

ووقفت امرأة بولندية شابة ، ولكن شعرها شائب كله ، خرجت لتوها من معسكر اعتقال ألمانى — وقفت على المنصة تخطب . كانت القصة التى تحكيها مرعبة حقاً . وران على الجمهور صمت رهيب . ووقف وينكل وسط الناس وهو لا يجرؤ على الحركة . وعندما أنهت المرأة كلمتها دخلت سيارة تتبعها مصفحة من حاملات الجنود إلى الميدان ، وهى تزمر عالياً . وفى المصفحة وقف جنود سوفييتيون يلبسون خوذات فولاذية ويحملون المترليوزات . ونزل من السيارة جنرال سوفيتى كبير السن . ودخل الجنرال يصحبه ضابطان سوفييتيان وآخر بولندى إلى قاعة البلدة ، وسرعان ما ظهر فى الشرفة .

وطلب منه رئيس الاجتماع — وهو مواطن بولندى — أن يتكلم فى الحال . ولم يكن اسم سيزوكريلوف يعنى شيئاً بالنسبة للبولنديين الموجودين ، ولكنه كان إسماً معروفاً تماماً لدى الجاسوس الألمانى .

وبدأ الجنرال يتكلم . ورن صوته المرتفع المنطلق بين جدران المنازل القديمة . وهنأ البولنديين بمناسبة تحررهم من النير الألمانى ووعد الشعب

البولندى بالمعونة والمساندة من جانب الجيش السوفيتى .

وقابل الجمهور كلمة الجنرال بالتصفيق والهتاف المدوى . وأحس وينكل بأحدهم يحتضنه ويقبله بحرارة . ووجد نفسه بين ذراعى رجل بولندى عجوز ، وبعد ذلك احتضنته امرأة بولندية شابة وغطت وجهه بالقبلات . وطارت القبعات فوق الرؤوس فرحا وابتهاجاً .

ولم يستطع وينكل ، وقد تحدر جسمه وابتأست نفسيته ، لم يستطع أن ينتزع نفسه من الجمهور إلا بصعوبة ، وعاد إلى منزل ماتوتشينسكى وصعد فوراً إلى غرفة السندرة . لقد كان المكان هنا معتماً هادئاً تشيع فيه رائحة التراب والفئران . وأضاء وينكل الفانوس وأخذ يدير أزرار جهاز الإرسال بشكل محموم . كان يريد أن يرسل تقريراً بالقوات السوفيتية التى رآها ويبلغ أن الجنرال سيزوكريلوف موجود فى البلدة ، وعندئذ يرسلون سلاح الطيران الألمانى وتذهب كل بلدة اينوروكلاو بكل من فيها وبينهم ماتوتشينسكى إلى الجحيم ، وتطير شظايا فى الهواء !

أخذ وينكل يدير مفتاح الجهاز مناديا « كايزرهوف » ، وجاءته أصوات غناء وأحاديث وموسيقى على موجات الأثير . وسرعان مابدأت الموجة المطلوبة تتكلم . . . ولكن بالروسية . كان هناك من يصر على تكرار : واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ... هنا فانيا .

ولم تجب « كايزرهوف » .

وأخذ وينكل يبحث عن موجات أخرى . وتمكن من التقاط كلمات

www.alkottob.com

ألمانية متأثرة استنتج منها أن الجيش الألماني مايزال يتقهقر فى غير نظام . كان أحدهم يطلب النجدة . وآخر يصيح : «لقد استسلمت» . وهدر صوت ثالث : « اذهب إلى الجحيم !» .

جلس وينكل إلى الجهاز طول الليل ، وواصل محاولاته طيلة الليالى الثلاث التالية ، ولكن دون جدوى . كان جهاز الإرسال لايستطيع أن يصل إلى أبعد من مائة كيلومتر ، ويبدو أن الجيش الألمانى قد خرج ، أو بتعبير أدق — قد هرب — من هذا النطاق .

وفى الصباح نزل وينكل إلى الطابق الأرضى . وعندما فتح باب شقة ماتوتشيفسكى رأى ضابطين سوفييتيين فكاد يجرى هارباً ، ولكنه تمالك أعصابه واحتفظ بهدوئه . واتضح أن الضابطين ينزلان فى الدار . وبعد أن تحدثا قليلا ، وبأدب جم ، مع مضيفهما ومع « اللاجىء القادم من مدينة وارسو » جلسا إلى المنضدة يلعبان الشطرنج . وجلس وينكل يحملق فيهما بنظرات ثابتة ، كانت عيونهما الحادة الذكية ، مركزة على لوحة الشطرنج ، وكلاهما شاب فى مقتبل العمر ، وجبهتاهما عريضتين منحوتتين . لا ، إنهما لايشبهان الغزاة المنتصرين فى شىء . فهما لايتصايحان ولا يتباهيان ، ولا يحاولان إشعار أى إنسان بتفوقهما وسيادتهما

وسألهما عن رأيهما وتوقعاتهما بالنسبة لمصير الحرب . ورفع الإثنان بصرهما من رقعة الشطرنج فى الوقت نفسه ، وأنصتا باهتمام إلى الكلمات البولندية التى لايستطيعان فهمها بسهولة فى أغلب الأحيان . وأجاب أحدهما:

— ستنتهى الحرب فى الشهور القليلة القادمة .

وسأل « فاليفسكى » :

— فى نهاية هذا العام .

وأجاب الضابط الروسى وقد أصابه نوع من الدهشة من هذا السؤال :

— طبعاً .

وإذ هم فاليفسكى أن يبدى شكه فى هذا الرأى ، قائلا إن الألمان لايزالون أقوياء جداً — حدجه ماتوتشيفسكى بنظرة قاسية حادة منذرة وأخذ — فى الحال — يؤكد « للسادة الضباط » أن ضعف القوات الألمانية كان شيئاً بالغ الوضوح .

ومع ذلك أبدى الضابطان الروسيان موافقتهما على الرأى الذى أبداه « فاليفسكى » قال أحدهما :

— مايزال لديهم عدد من الفرق ، وعدد من الفرق القوية ، ولكننا أقوى منهم . يضاف إلى ذلك حالة الانهيار المعنوى الذى عليه القوات الألمانية .

وسأل فاليفسكى :

— معذرة ، ولكن مامعنى هذه الكلمات الأخيرة ؟

وكرر الروسى كلمة « الانهيار المعنوى » ، وهو يحرك قبضة يده حركة ذات معنى — من كتفه وإلى أسفل .

غادر وينكل الغرفة . وهب ماتوتشيفسكى مسرعا وراءه . وهمس:

www.alkottob.com

— هل جننت ياسيد ؟ ... ماذا قلت ؟ هل تريد أن تلقى بنا إلى التهلكة ! ؟

وانطلق وينكل صاعدا إلى غرفته وهو يفح بصوت كريه :

- إخرس أيها المأفون العجوز .

ماذا عليه أن يعمل الآن ؟ هل يحاول العودة إلى دانزج ثم إلى منزل أسرته ؟ لابد أن يكون أهله وأقاربه قد هاجروا وذهبوا إلى عمه إديك فى ويتينبرج . أم يحاول الاقتراب من الخطوط الأمامية للجبهة ومعه جهاز الإرسال اللاسلكى . إنها فكرة سخيفة ، فإن قلم مكافحة الجاسوسية الروسى سيتمكن حتما من اكتشاف أمره .

وأخيراً ، وصل إلى قرار : سيذهب إلى ريتشاردهاف فى بلدة سوبين . لقد استقر هذا الملازم فى تلك البلدة منذ مدة وقبل أن يحدث هذا الهجوم الكبير بمدة كافية . ولعل جهازه اللاسلكى يكون أقوى ، ولعله توجد وسائل أخرى للاتصال . وكان وينكل على معرفة بهذا الملازم ، على الرغم من أن القيادة لم تكن تسمح للجواسيس بالاختلاط كثيراً .

نزل وينكل إلى الطابق الأرضى ثانية . كان ماتوتشيفسكى بداخل دكانه . فقد قرر ، رجل الجنرال سوسنكوفسكى ، أن يعيد فتح دكانه تعبيراً عن عظيم سروره بتقدم الروس وولائه للحكومة الجديدة — وكان صاحب المحل يلبس ، بدلة شغل ، لاتنفذ منها المياه ، ويجوس بين

براميل الزنجة المملحة وبراميل الجاز . وقد انتحت زوجته جانباً وهى تبيع الدقيق والسجق بأسعار خيالية .

قال وينكل :

— أنا راحل ياسيد ماتوتشيفسكى .

وتعلقت عينا البقال بالجاسوس الألمانى فى خوف وذهول . وتكلم وينكل بصوت مرتفع يصل إلى زبائن المحل :

— إن قلبى يحن حنيناً شديداً إلى وارسو ... إذا عدت فقد أجد أحداً من أهلى . .

مسح ماتوتشيفسكى يديه بسرعة فى مريلته واصطحب وينكل إلى المخزن الخلفى حيث تكدست البراميل والجوالات . وقال وينكل إنه سيترك الجهاز ويتوجه لقضاء مهمة معينة فى بلدة أخرى . وقال أيضاً إنه قد يعود يوماً ما . وطلب من البقال أن يعطيه بعض الأغذية لتسد حاجته أثناء رحلته ، وأضاء وجه ماتوتشيفسكى ابتهاجا وهو يستمع إلى وينكل . وقد بلغ به السرور حداً جعله يعد طرداً كبيرا مليئا بالمأكولات للجاسوس الراحل - رغيف كبير من الخبز الأبيض ، وكمية من السجق وكتلة كاملة من الجبن الهولندى ، وزجاجه فودكا !

وفى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم فتح وينكل الباب بهدوء وخرج إلى الشارع وهو يدفع أمامه عربته ذات العجلتين ، وسرعان ماوصل إلى الطريق العام . وكان الثلج الرطب ينهمر من السماء . وكان

www.alkottob.com

يصطدم بين حين وآخر بطوابير من البولنديين الهائمين على وجوههم بحثاً عن بلادهم ومنازلهم وهم عائدون من المعسكرات والمزارع والمصانع الألمانية . وكان كثيرون يصطحبون عائلاتهم معهم . والأطفال نيام بين أذرع الآباء والأمهات . وكان الجو مليئاً بقرقعة العربات وصلصلة العجلات وحتى أثناء الليل لم يعرف الطريق طعم الراحة أو النوم . وإلى جوار الشجيرات التي تحف بالخنادق كان الناس يتهامسون ويبكون ويتحدثون .

وحفت أوراق الأشجار بفعل الريح النشيطة . وواصل وينكل سيره وهو يحاول جاهدا ألا يفكر في أي شيء . كانت الأفكار التي تطوف بذهنه كئيبة حزينة . لقد اكتشف أن كل شيء لم يكن سوى خدعة كبيرة — العظمة الألمانية ، رسالة ألمانيا ، ألمانيا التي لاتقهر . والآن ، إلى أين يذهب ؟ هل يعود إلى الاهتمام بحياته وشئونه الخاصة ؟ وعاد يفكر في الأسلوب العنان التي تكتب به الأعمدة الطويلة في الصحف السيارة . وفكر أنه ربما توجد ملايين عديدة من الألمان لا يزالون يفكرون بالطريقة نفسها . وعلى أي حال ، أي نوع من الشخصيات العامة كان هو طيلة الأعوام الماضية ؟ لقد كان دائماً لايفكر إلا في نفسه . وقد لقن أنه لايمكن تحقيق أي حياة مزدهرة إلا إذا تمكنت ألمانيا من غزو أوربا وأقامت « النظام الجديد » فيها ، الأمر الذي يضمن قوة الجنس الألماني وأهميته . ولكن ، ماهي القوة والأهمية ؟ فكر وينكل في هذا

www.alkottob.com

السؤال كما فكر إكلياستيس من قبل. التراب والهشيم، ولاشيء أكثر من هذا..

وبعد أن أعياه السير الطويل ترك الطريق العام ودخل فى غابة صغيرة حيث جلس مستندا إلى عربته وراح فى إغفاءة وسرعان ما أحس أن أحدا يقف بالقرب منه. وحين انتبه وجد حقاً أن هناك رجالا يقفون إلى جوار شجرة قريبة منه. كانوا ثلاثة يلبسون ملابس مدنية لاتناسب أحجامهم وأجسامهم، وقد نبت الشعر فى ذقونهم. وكانوا يحملقون فى الرجل صاحب العربة الصغيرة.

سأل أحدهم بصوت خشن:

ـ ماهذا الذى معك؟

كان السؤال بالألمانية وبلهجة خشنة جعلت وينكل يقفز من فرط الدهشة.

وتبين فى الحال أن هؤلاء كانوا جنوداً ألمان يلبسون الملابس المدنية يحاولون اختراق الخطوط الروسية ليعودوا إلى خطوطهم. وعلى الرغم من أن التعليمات كانت تنص على عدم الكشف عن شخصيته الحقيقية إلا أن حالة الفرح التى طغت عليه جعلته يتجاهل التعليمات ويصيح:

ـ وأنا أيضاً ألمانى.

ودون أن يجيبوا عليه بكلمة واحدة لكزه أحدهم بقبضته فى صدره

www.alkottob.com

على حين أزاحه الآخر بعيداً عن العربة ، ثم أخذوا ينقبون فى ممتلكاته ويتخاطفونها وهم يتلفتون خلفهم ناحية الطريق العام طوال الوقت. وأخيراً عثروا على المأكولات . وأخذ وينكل يزمجر :

ـ ماذا تفعلون ؟ أنا ألمانى ... أنا من مدينة دانزج أنا ملازم فى الجيش الألمانى ... إننا جميعاً ... أنا أيضاً أحاول اختراق الخطوط .

ودفعوا العربة الصغيرة أمامهم واختفوا فى الغابة . ونهض وينكل واقفاً وأخذ يطلع مسرعاً على الطريق . كانت مواصلة الرحلة بغير العربة أصعب عليه من مواصلتها والعربة معه . وعلى الرغم من غرابة هذه الحقيقة إلا أنه كان يتصور أن وجودها معه تجعل رحلته شيئاً ذا هدف وموضوع ، وتصرف عنه الأفكار السوداء . وسار وينكل وهو يئن أنيناً موجعاً ويكاد يبكى من فرط الغضب والغيظ .

وكان الصبح قد طلع عندما صادف وينكل جماعة من الجنود الروس ، يبدو أنهم من سلاح الإشارة ، يطبخون قدراً من الحساء على نار من نيران المعسكر . نادى الجنود عليه وسأله أحدهم وعلى شفتيه شبه ابتسامة :

ـ هل أنت بردان ؟ ومن تكون ؟

وأجاب وينكل بصوت خافت لا يكاد يسمع :

ـ أنا بولندى . اسمى فلاديسلاف فاليفسكى من وارسو .

www.alkottob.com

وسأل آخر :

— وما عملك ؟ هل أنت عامل أو فلاح أو مثقف ؟

وإذ تذكر وينكل المطرقة والمنجل قرر ألا يقول إن مهنته « سمسار عقارى » ، وفهم أن هذه المهنة لن تلق قبولا لدى الشيوعيين . وأجاب :

— نقاش .

وأخذ يحرك يده اليمنى فى الهواء كمن يستخدم فرشاة لكى يجعل كلامه مفهوماً للروس .

قال الجندى الروسى الثالث فرحاً :

— نقاش للعمارات والمنازل !

وكان هذا الجندى طويل القامة ، ذا شعر كتانى . وكان الآخرون يخاطبونه بقولهم « يا رفيق يا شجاويش » ، ويبدو أنه قائد الجماعة .

— هل سمعتم هذا يا فتيان ؟ يبدو أنه نقاش . هل أنت جائع يا نقاش وتريد أن تأكل شيئاً ؟ إجلس !

وجلس وينكل وأكل مع الجنود حساء الخضر المركز وقطعة ساخنة من اللحم .

— إن عمى أيضاً يشتغل نقاشاً . وهو عامل شهير يعيش فى مدينة فولوجدا . هل سمعت عن بلدة بهذا الاسم : فولوجدا ؟

وأجاب وينكل :

www.alkottob.com

ـ لا .

وقال الجاويش بلهجة مرحة :

ـ حسناً ، تصوروا ! إنه لم يسمع عن فولوجدا أبداً ! حسناً ، ستعرفها الآن . إنها مدينة رائعة ! تذكر ولا تنس ! يجب أن تعرف أسماء المدن الروسية ، لأنها المدن التى جئنا منها لنساعدكم ... إن أدمغتكم مليئة ببرلين وباريس ولندن .. أنت تعرف هذه البلاد ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ ها هو ذا . ولكنك الآن يجب أن تعرف فولوجدا وكوستروما .. هل تبينت الإسمين .

ـ نعم . فولوجدا ، كوستروما .

وضحكوا جميعاً . وسأل أحدهم :

ـ وإلى أين أنت ذاهب ؟

وبين لهم وينكل أنه يقصد أخته فى بلدة بيدجوستش ، حيث تقيم مع أسرتها فى منزلها . أما هو فقد فقد منزله وأسرته فى إحدى الغارات .

وقال أحد الجنود ـ وكان صامتاً طول الوقت ـ وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ بلا منزل . كم منهم أصبح الآن بلا منزل !

وقف وينكل ، وخلع قبعته ، وانحنى للروس ، وواصل مسيرته .

وفى المساء وصل إلى بلدة سوبين .

www.alkottob.com

١٣

كان الوقت متأخراً ومع ذلك كانت ورشة صيانة السيارات ماتزال تعمل ، والمحركات تهدر فى داخل البناية الكبيرة المبنية من الآجر . والعمال البولنديون والروس يدخلون ويخرجون : من الواضح أن الورشة تقوم بإصلاح المصفحات السوفيتية .

ورأى وينكل الجنود فلم يحرؤ على دخول الورشة ، فجلس فى الفناء المظلم على كومة من الحجارة ، وانتظر . وسرعان ما توقف صوت المحركات وأخذ العمال يخرجون واحداً بعد الآخر من فتحة الباب المستطيلة المضيئة . وحملق وينكل فى وجوههم بعناية خشية أن يفلت هان منه وأخيرا رأى رجلا طويلا نحيلا يلبس الأفرول ، وسرعان ما تبين صوته . كان هان يتحدث بانفعال مع شخص آخر . وبدأ قلب وينكل يدق وكأنه يرى أعز صديق له بالرغم من أنه يكاد لا يعرف هان .

ولحق وينكل به وقال بصوت مرتجف :

ـ هان ...

وتوقف هان وكأنه قد سمر فى الأرض ، وهمس بالألمانية :

ـ من أنت ؟

www.alkottob.com

فباح وينكل باسمه .

وسارا صامتين مخترقين الشارع المظلم .

ثم قال هان وهو يتجه صوب باب منزل من طابقين :

ـ هنا .

ودب الخوف فى قلب وينكل فجأة بسبب صمت هان وسكوته . فقد كانت ثقته فى الصلابة الألمانية قد تزعزعت بشكل ملحوظ بعد أن قابل ثلاثة من مواطنيه .

وسرعان ما توقف هان أمام الباب ، وفتحه بمفتاح معه ، ثم دخلا . كان أول ما وقع عليه نظر وينكل كيساً موضوعاً فوق مقعد تضخم بما فيه حتى كاد يتمزق .

جلس هان على السرير وسأل :

ـ حسناً ؟

جال وينكل ببصره فى وجه هان ، متفحصاً دارساً ، ماذا يمكنه أن يبوح به لهذا الرجل ، وماذا يجب أن يخفى ؟ أليس من الأفضل أن يضع كل شىء بصراحة ويسأل النصح ؟ .. لا ، فقد كان وينكل يخشى أن يقول الحقيقة حتى فى هذه الظروف .

وكان هان بدوره يراقب وينكل بعناية ، ما الذى أتى بهذا الملازم إلى هنا ؟ ومن الذى أرسله ؟ أجاء يختبر ولاءه ؟ كان هان قد استقر رأيه

www.alkottob.com

على ترك وظيفته ومغادرة سوبين متجها إلى الشرق ـ من المؤكد أن القيادة لم تعلم شيئاً عن ذلك . ثم ألقى نظرة توجس على الكيس المعد للرحيل .

وقطع وينكل عليه تلك النظرة وسأله وهو يصطنع الهدوء :

ـ أتستعد للرحيل ياهان ؟

وفكر هان : لقد اكتشفوا الأمر .للخنازير القذرة ! والآن ، سوف يسأل عن جهاز الإرسال اللاسلكى ... وكان هان قد ألقى به فى بئر فور وصول الروس بعد أن فكه قطعة قطعة .

فأجابه غاضباً ، محاولا التهرب :

ـ لست ذاهباً إلى أى مكان ... ماالذى جعلك تظن ذلك ؟ ليس كل الناس تفر من الواجب .

ونظر كل واحد منهما إلى الآخر متسائلا . وفكر هان وهو ينظر إلى وينكل بكراهية : أيعرفون إلى أين سأذهب . وفكر وينكل فى خوف : لماذا يتحدث عن الفرار ؟

وقال وينكل بسرعة :

ـ إن الفرار الآن عار مزدوج ... إن أرض الوطن فى خطر ... والأعداء يحدقون بها من كل جانب . الآن يجب أن نقف إلى جانب الفوهرر أكثر من أى وقت مضى .

وفكر هان : بالرجل البوليس القذر . ثم قال :

www.alkottob.com

ـ أنا شخصياً لا أشك فى النصر . فالهزائم المؤقتة لا تحطمنا .

وفكر وينكل : إنه من رجال فرقة العاصفة المتعصبين الأقذار . لن أمكنه من أن يستمر إلى أن ينشد النشيد النازى

وقال :

ـ حسناً إذن ... أين جهاز اللاسلكى ؟

ونظر أحدهما للآخر فى خوف وكراهية . وأخيراً قال هان مكابراً :

ـ إنه فى مكان ما .. والآن ، سأعطيك شيئاً تأكله ، فقد تكون جائعاً .

وفكر وينكل : ماذا أفعل ؟ إلى أين أذهب ؟ لماذا أربط مصيرى بهذا الغبى لاعق الأحذية الذى لا يدرك حقائق الأمور حتى هذه الآونة .

وجلسا إلى المائدة يلوكان الطعام فى صمت . ثم قفز هان وقال :

ـ آه وينكل . عندى قليل من الروم هنا .

وأخرج زجاجة من الكيس ، وشرب وينكل بسرور ، وبدأ النعاس يداعب جفنيه .

وتخلى له هان عن مخدعه كرماً ، ونام على الأريكة .

وفى الفجر استيقظ وينكل وهو يشعر ببرد شديد فاكتشف أن هان ومعطفه وجرابه قد اختفوا جميعاً من الغرفة . وانتظر وينكل نحو نصف الساعة ثم ارتدى ملابسه وترك المنزل وهو يتلفت حواليه فى هلع .

وهكذا بدأ وينكل يهيم على وجهه متجولا على غير هدى .

www.alkottob.com

تنقل من قرية إلى قرية مقترباً من الخطوط الأمامية فى الجبهة . كان يسير دون خطة ، وهو لا يهدف إلى شىء سوى مجرد الوصول إلى ألمانيا .

كان الجو بارداً . وعثر وينكل على منديل رأس للسيدات فى أحد المنازل المهجورة ، فربطه حول رأسه ، وثبت القبعة فوقه — ونظر إلى صورته فى المرآة . فسره المنظر الغبى البائس الذى لا ينم عن حقيقته .

كان وينكل يعبر المناطق التى سبق أن أمر الفوهرر بإجلاء البولنديين عنها ، وإعطاء الأرض للمستوطنين الألمان ، أو « المستعمرين الألمان » ، كما كان يحلو لهم أن يسموا أنفسهم . أما الآن فقد فر هؤلاء إلى الغرب مع الجيش الألمانى . كانت القرية خاوية — ودخل وينكل المنازل المهجورة وأخذ يجوس فيها وأكل كل ما وقع عليه بصره من طعام وما وجده على أرفف المطابخ والخزائن . وفى قرية واحدة استطاع أن يجمع مئونة كبيرة . وحدث مرة أن طارد خنزيراً نصف وحشى ما يقرب من ساعة ثم استطاع قنصه وذبحه بسكين وجده فى أحد المنازل ، وحشا جيوبه بشرائح لحم الخنزير الزلجة الندية .

انتقلت الجبهة مسافة كبيرة ناصية الغرب . وامتدت طوابير الإمدادات الروسية على طول الطرق إلى مالا نهاية . ولاذ وينكل — وقد صار حطاماً بائساً ملتحياً تعلوه القذارة — لاذ محتميا بإحدى العائلات البولندية العديدة العائدة إلى الوطن . وعلى الرغم من مشقة الرحلة على الأقدام وحالة الجو المقرفة ، كان البولنديون فى نشوة وابتهاج . وكانوا يصادفون

www.alkottob.com

سيلا من الناس الآخرين الذين حررهم الجيش السوفيتي بين روس ، وأوكرانيين . وبولنديين . وتسيك . وصرب . وكانوا كلما مروا بهم تبادلوا الهتافات وتناقلوا آخر الأخبار .

كان الطريق يحيا حياة حافلة صاخبة بهيجة .

كانت العائلة البولندية التي انضم إليها وينكل تحس بنوع من الخوف منه ، فقد كانت تشك في اختلال قواة العقلية ، وكان هو يغذي هذا الشك فيهم - مهمهماً ، ومنتهداً بين الحين والحين . وحاول البولنديون التخلي عنه ، إلا أنه أشار إليهم ذات مرة أنه أمضى عاماً ونصف عام في مجدانيك . وعندئذ صاروا أكثر عطفاً عليه ، وبدأوا يرعونه رعاية خاصة ويهبونه أفضل الأطعمة . وبلغ بهم الأمر أن دعته الإبنة الكبرى جادفيجا إلى منزلهم في شودجيز ليستجم .

كان رب أسرة مارسينكيفيتش يعمل محولجياً بالسكة الحديد . وفي ١٩٤١ نفي من موطنه الذي أمضى فيه كل حياته . والآن تعود عائلة مارسينكيفيتش إلى موطنها ، سعيدة مفعمة بالأمل ، كانوا قوماً هادئي الطباع ، طيبي المعشر .

وذات يوم في الصباح الباكر ، والرحلة توشك على نهايتها برز فجأة من الغابة طابور ضخم من الجنود الألمان المسلحين وعلى رأسهم أحد الضباط .

وعمت الفوضى الطريق . وتوقف كل ما عليه ومن عليه . وسأل الضابط

www.alkottob.com

بأدب ، مخاطباً البولنديين الذين عقدت الدهشة ألسنتهم :

ـ أيبعد الروس كثيراً من هنا ؟

تسمر وينكل فى مكانه مشدوهاً ، ولكنه سرعان ما اندفع إلى الألمان قائلا :

ـ لقد مرت منذ لحظة قافلة إمدادات روسية . واتجهت إلى اليمين .

ودهش وينكل حين رأى طابور الألمان يتجه بسرعة إلى الجهة التى أشار إليها . وتريث وينكل قليلا ثم تبع الألمان دون أن يلق نظرة واحدة على أسرة مارسينكيفيتش الذين فاجأتهم وأدهشتهم تلك الألمانية الطلقة التى تكلم بها ذلك المواطن السابق من ماجدانيك .

كان من الواضح أن الألمان ينقصهم الطعام والذخيرة وأنهم سيهاجمون قافلة الإمدادات الروسية . وقرر وينكل أن يكشف عن شخصيته للضابط ويشق طريقه إلى ألمانيا مع هذه الجماعة الكبيرة من الألمان .

فى خمس دقائق دخل الألمان الغابة ورأوا قافلة طويلة من العربات التى تجرها الخيل محملة بالدريس والصناديق ، وإلى جوارها جنود روس عجائز يسيرون وهم يمسكون أعنة الخيل الطويلة ولا يزيد عددهم على العشرة .

ونفض وينكل عن نفسه مظهر الغباء والتبلد الذى تقمصه أخيراً وقال :

www.alkottob.com

ـ كابتن . أنا ضابط فى هيئة قيادة الجيش .

ونظر الضابط الألمانى إليه دون أن تبدو عليه دلائل الفهم . وفجأة رأى وينكل الضابط والجنود يتجهون نحو سائق العربات الروس وأيديهم مرفوعة فى الهواء . وكان الروس قد لاحظوا اقتراب الألمان فتوقفوا .

وتسمر وينكل وسط الطريق مرتجفاً . وكان على وشك الاختفاء فى الغابة لولا أن أحد الجنود الروس صاح فيه :

ـ هاى ، أنت أيها الواقف هناك .

واقترب وينكل :

ـ قل لهم أن يصعدوا الطريق حيث يوجد مركز مراقبتنا ، هناك يستطيعون تسليم أنفسهم . أما نحن فلدينا عمل عاجل آخر .

وترجم وينكل هذه الكلمات بسرعة إلى أحد الألمان واختفى فى الشجيرات القائمة إلى جانب الطريق .

بعد عدة أيام من التجوال القلق المضطرب ، وجد وينكل نفسه فى غابة كبيرة امتدت حول البقع الخالية من الأشجار فيها تحصينات من الأسمنت المسلح ، وخنادق امتلأت بالأخشاب المتساقطة والأسلاك الشائكة الصدئة .

كان الهدوء يلف الغابة ، والمساء يقترب ، والقمر مزدهراً ، والجو حاراً نوعاً ، وأشجار الحور تخشخش فوق الحفر والخنادق . من الواضح

www.alkottob.com

أنه ليس هناك من يدافع عن تلك التحصينات القديمة ، فهى مليئة بالثلوج النائية والأعشاب المتعفنة التى تفوح منها الرطوبة .

هبط وينكل إلى خندق مظلم شديد الرطوبة ، ولكنه كان دافئاً . وراح فى النوم وقد أسند رأسه إلى الحائط بأسفل إحدى الفتحات المعدة لإطلاق النار .

واستيقظ فى الفجر وهو يرتجف من البرد ، كان محموماً .

صعد الحفرة بصعوبة ، وجاس فى الغابة متعثرا فى مزيد من الاستحكامات . وفجأة أدرك أنه فوق «الحائط الشرقى» الذى كان الألمان يتباهون به ، والذى كان معداً لسد الطريق أمام الجيوش الروسية حتى لاتصل إلى قلب ألمانيا . امتد الحائط عدة كيلومترات ، وكانت أشجار الحور تخشخش فوقها وتنثر الثلج الندى فوق الحصون المشيدة من الخراسانة . لم يكن لدى الألمان وقت لخوض أى معركة هنا . كانوا يفرون ، ويمعنون فى الفرار إلى الوراء ، إلى الأودر ، إلى برلين .

تجول وينكل متعثراً فى جنبات الغابة .

وسرعان ما وجد نفسه فى القرية الألمانية حيث ألتقى بلوبنتسوف فى المنزل الملىء بالساعات . وعندما تأكد أن الروس قد رحلوا ، رقد الجاسوس الألمانى السابق ثانية ، ودفن وجهه فى الوسادة .

---

www.alkottob.com

١٤

بعد أن ترك لوبنتسوف المنزل ذى الساعات التقطته إحدى السيارات وأوصلته إلى مقر قائد الفرقة الذى كان ينتظر عودته بفارغ الصبر. كان الجنرال شغوفاً بمعرفة ما إذا كان عضو المجلس الحربى قد تحدث عنه وعن الفرقة، وماذا قال بالضبط.

كان تاراس بتروفيتش سريدا غالباً ما يتظاهر بأنه لا يهتم برأى رؤسائه، فهو جندى — وهو لا يحارب من أجل أن يمتدح. ولكن ذلك التظاهر كان ستاراً شفافاً لا يخفى غيرته الدائمة واهتمامه البالغ برأى كبار الضباط فيه وفى فرقته.

وكثيراً ما كان الكولونيل بلوتنيكوف — رئيس القسم السياسى — يتندر بهذا الضعف فى قائد الفرقة.

كان بلوتنيكوف قبل الحرب مدنياً، تخرج من المعهد الأحمر للمعلمين. واشتغل بعد ذلك رئيساً للقسم السياسى فى محطة للجرارات بالكوبان. وأخيراً وبعدأن نال شهادة الماجستير فى فلسفة العلوم، اشتغل بتدريس المادية الجدلية بجامعة فاركوف. وعلى الرغم من ذلك، أو ربما نتيجة لذلك، كان بسيطاً فى تصرفاته.

www.alkottob.com

فى ١٩٤٢ عين بلوتنيكوف رئيساً للقسم السياسى فى فرقة الجنرال سيريدا . ولم يلق هذا التعيين ترحيباً خاصاً من الجنرال ، وذلك حين اكتشف أنهم قد أرسلوا « فيلسوفاً » ، ورجلا لم يعش أبداً فى خط النار .

ولكن الجنرال ، حين قابل بلوتنيكوف ، لم يجد فيه الفيلسوف المتعالم الذى كان يتوقعه ، ولكنه رأى أمامه مناضلا سياسياً حكيما ، وداعية بارعاً قادراً على عرض أعقد المسائل فى أبسط لغة . فأدرك خطأه ، وسرعان ما اكتشف أيضاً أن الكولونيل رجل شجاع ، بل إن شجاعته ممزوجة بالمرح دون أن يكلفه ذلك شيئاً . والشجاعة عند الجنرال — وهو المحارب المتمرس — ليست صفة يستهان بها .

درس بلوتنيكوف الفن العسكرى منذ بداية الحرب بطريقة منهجية كدراسته لأى موضوع آخر ، ونسخ بخطه الجميل مقتطفات طويلة من كتاب « مبادىء الفن العسكرى » . وأتقن دراسة الإمكانيات التكتيكية والفنية للسلاح الجوى ، وسلاح المدفعية والدبابات . أما فيما يختص بالعمل السياسى فقد كان « إلها » ، كما وصفه سيريدا بإعجاب .

عاش العاملان السابقان اللذان أصبح أولهما جنرالا ، وأصبح الثانى أستاذاً ، عاشا كصديقين حميمين ، وعملا معاً فى انسجام . ولم يمنع ذلك الرجل « الأقل رتبة » من مراجعة أعمال الرجل « الأقل علماً » — كما كان يصف كل منهما الآخر فيما بينهما . والحقيقة أن الجنرال سيريدا

www.alkottob.com

وهو الأقل علماً كان غالباً ما يشتط فيما يسميه « بوطنية الفرقة » فيحاول أن يجذب إلى غرفته أفضل الجراحين والضباط وضباط الصف من الفرق الأخرى ، كما كان يختطف لها أسيراً وقع فى أيدى جيرانه . وإذا ارتكب رجاله أى خطأ كان يوبخهم بشدة ، ولكن دون ضجة حتى « لا يلطخ اسم العائلة » .

كان كل رجال الفرقة يحبون الجنرال سيريدا . وكان مرءوسوه يتحدثون بغبطة عن فهمه للناس وشجاعته النادرة فى جميع الظروف ، وعن روح الدعابة اللاذعة الحادة التى يتميز بها ، وحتى عن شاربه الأسود الجعد الذى يرعاه باعتزاز .

سأل الجنرال وهو ينظر إلى ساعة يده .

ــ ما الذى أخر لوبتسوف هذا ؟

وتساءل بلوتنيكوف بخبث :

ــ آه ــ ألنت متلهف على أخباره ؟

واعترف الجنرال قائلا :

ــ نعم .

وفى الغرفة المجاورة كانت فيكا مشغولة بترتيب حاجياتها فى حقيبة مفتوحة . كانت تستعد للرحيل إلى خط القتال الثانى وهى متضررة ، فقد تعلمت من ضباط القيادة أن تستصغر شأن العمل فى المؤخرة ، وذلك

www.alkottob.com

على الرغم من أن وحدات المؤخرة تتخذ مراكزها قريبة جداً من الجبهة . لقد ترك لها الجنرال حق الاختيار : إما أن تعيش فى مقر جريدة الفرقة أو فى مركز قيادة المؤخرة مع قائدة سلاح الخدمة والمهمات أستاخوفا .

وبعد قليل من التفكير اختارت فيكا الجريدة ، لأن المراسلين - مهما كان الأمر - أفضل من كتبة المهمات . وقد شجعها على هذا الاختيار وجود سيدة رائعة تعمل رئيسة لقسم الطباعة ، وهى من الرماة السابقين . وقد اتفقت هى وفيكا على العيش سوياً .

ولم تجد توسلات فيكا لابقاء فى مقر القيادة ، فقد كان تاراس يتروفيتش دقيقاً فى تنفيذ الأوامر الصادرة من أعلى ، وهو لا يستطيع تجاهل الأمر المباشر الصادر من عضو المجلس الحربى - على الرغم من يقينه أن الجنرال سيزوكريلوف لن يصر على مراقبة تنفيذ هذا الأمر .

ورفع سيريدا صوته يكرر سؤاله لابنته فى صرامة :

هل أنت مستعدة ؟

فى دقيقة واحدة .

وأخيراً ظهر لوبنتسوف . وأعلن لوبنتسوف الأنباء الأساسية فى الحال :

- سنستولى على شنيدموخ . وعضو المجلس الحربى يتوقع أن يدافع

www.alkottob.com

١٤

بعد أن ترك لوبنتسوف المنزل ذى الساعات التقطته إحدى السيارات وأوصلته إلى مقر قائد الفرقة الذى كان ينتظر عودته بفارغ الصبر . كان الجنرال شغوفاً بمعرفة ما إذا كان عضو المجلس الحربى قد تحدث عنه وعن الفرقة ، وماذا قال بالضبط .

كان تاراس بتروفيتش سيريدا غالباً ما يتظاهر بأنه لا يهتم برأى رؤسائه ، فهو جندى - وهو لا يحارب من أجل أن يمتدح . ولكن ذلك التظاهر كان ستاراً شفافاً لا يخفى غيرته الدائمة واهتمامه البالغ برأى كبار الضباط فيه وفى فرقته .

وكثيراً ما كان الكولونيل بلوتنيكوف - رئيس القسم السياسى - يتندر بهذا الضعف فى قائد الفرقة .

كان بلوتنيكوف قبل الحرب مدنياً ، تخرج من المعهد الأحمر للمعلمين . واشتغل بعد ذلك رئيساً للقسم السياسى فى محطة للجرارات بالكوبان . وأخيراً وبعد أن نال شهادة الماجستير فى فلسفة العلوم ، اشتغل بتدريس المادية الجدلية بجامعة فاركوف . وعلى الرغم من ذلك ، أو ربما نتيجة لذلك ، كان بسيطاً فى تصرفاته .

على الرغم من أن وحدات المؤخرة تتخذ مراكزها قريبة جداً من الجبهة . لقد ترك لها الجنرال حق الاختيار : إما أن تعيش فى مقر جريدة الفرقة أو فى مركز قيادة المؤخرة مع قائدة سلاح الخدمة والمهمات أستاخوفا .

وبعد قليل من التفكير اختارت فيكا الجريدة ، لأن المراسلين - مهما كان الأمر - أفضل من كتبة المهمات . وقد شجعها على هذا الاختيار وجود سيدة رائعة تعمل رئيسة لقسم الطباعة ، وهى من الرماة السابقين . وقد اتفقت هى وفيكا على العيش سوياً .

ولم تجد توسلات فيكا للبقاء فى مقر القيادة ، فقد كان تاراس بتروفيتش دقيقاً فى تنفيذ الأوامر الصادرة من أعلى ، وهو لا يستطيع تجاهل الأمر المباشر الصادر من عضو المجلس الحربى - على الرغم من يقينه أن الجنرال سيزوكريلوف لن يصر على مراقبة تنفيذ هذا الأمر .

ورفع سيريدا صوته يكرر سؤاله لابنته فى صرامة :

هل أنت مستعدة ؟

فى دقيقة واحدة .

وأخيراً ظهر لوبنتسوف . وأعلن لوبنتسوف الأنباء الأساسية فى الحال :

- سنستولى على شنيدموخ . وعضو المجلس الحربى يتوقع أن يدافع

www.alkottob.com

الألمان عن المدينة دفاعاً جيداً ، فهى قلعة من قلاع الحائط الشرقى .

وفى الحال استدعى قائد الفرقة رئيس أركان الحرب وقائد المدفعية . واتصل بقيادة الجيش كما اتصل بكتائب الفرقة تليفونياً . وباختصار ، بدأت ضجة العمل المعهودة فى مثل هذه الأحوال ، والتى تدخل السرور فى قلب كل ضابط ، وأكدت قيادة الجيش أن مهمة الفرقة قد تغيرت ، وأن قطاع الهجوم يجب أن يتقدم إلى الشمال تجاه شنيدموخ . وبعد ساعة وصل أمر كتابى من قيادة الجيش كما وصل قادة الكتائب والوحدات الملحقة بالفرقة .

وعززت الفرقة بكتيبة مضادة للدبابات ، وأخرى للمدفعية من الاحتياطى التاسع للقيادة العليا ، وفصيلة من الحرس المسلح بمدافع الهاون وكتيبة مدفعية آلية . إن وراء قادة تلك الوحدات طوفان من النار : عشرات المدافع ذات القوة التدميرية الرهيبة . ومع ذلك تراهم هادئى الطباع دمثى الأخلاق . ونظر إليهم القائد وهو يحصى إمكانيات كل فرد فى هذه المجموعة من ناقلات اللهب : هذا الكولونيل عنده كذا مدفع ، ومع ذلك الضابط كذا ... وفى مجموعهم يستطيع هؤلاء الرجال إطلاق كذا قذيفة فى الدقيقة .

ونهض الجنرال بعد أن وزع هذه الوحدات على الكتائب المختلفة ، وأبقى تحت قيادته المباشرة فرقة الكاتيوشا وكتيبة المدفعية الآلية

كاحتياطى لمقاومة الدبابات .

قال الجنرال :

ـ أنا آسف من أجلكم . فأنتم ستبقون عند مدينة شنيدموخ على حين تتحرك القوات الأخرى صوب برلين . ولكن ماذا عسانا نفعل ؟ إن هتلر يحبس قواته فى المدن بدلا من أن يسحبها وراء نهر الأودر للدفاع عن عاصمته . هذا ما رأيناه فى بوزنان ثم فى برسلاو وأخيراً فى شنيدموخ ... حسناً ، إن مهمتنا ، إذن ، هى الإنتهاء من تلك القلعة بأسرع ما يمكن . وأتمنى لكم التوفيق والنجاح .

تسللت فيكا مع لوبنتسوف للذهاب إلى رجال الإستكشاف ، وأخبرته فى الطريق أن برقية وصلت من جماعة ميشيرسكى فى الليلة السابقة عرف منها أن كل شىء على ما يرام هناك بل يبدو أنه أسر أحد الألمان .

كانت فيكا تتعامل مع ضابط الحرس بنوع من الحب . كانت تحب عينيه الزرقاوين المرحتين ، وشجاعته النادرة ، وحيله التى لا تنتهى ، وكانت ـ قبل كل شىء ـ تحب تقاريره التى يقدمها إلى قائد الفرقة والتى كانت تسميها : « قصص لوبنتسوف الأخاذة » كان دائماً يتكلم عن الألمان وعن أهدافهم ومناوراتهم المعقدة ، ويزخرف تقاريره بألقاب الفرق الألمانية وأسماء الأسرى الألمان الغريبة على الأسماع . وعلق بذاكرتها لقب إحدى الفرق وهو « الرأس الميت ! » وسألت فيكا .

www.alkottob.com

— أين يوجد هذا « الرأس الميت » الآن ؟

وأجابها ضابط الحرس شارداً :

— فى هنغاريا .

شمل الهدوء كوخ رجال الاستكشاف ، كشأنهم دائماً عندما تكون جماعة منهم تعمل فى مؤخرة الأعداء . وتجمع الجنود فى غرفة كبيرة ينصتون فى صمت إلى الصوت المكتوم والخربشة الصادرة من وراء باب الغرفة المجاورة المغلق . . ففى هذه الغرفة تجرى العملية التى تتوج مهمة الإستكشاف . ونستحوذ من الرجال جميعاً على أعظم الاهتمام : فى تلك الغرفة يتم الإتصال اللاسلكى بغرفة الاستكشاف التى تعمل فى مؤخرة الألمان .

كان رجال الاستكشاف فى غاية القلق ، فقد بعث ميشيرسكى رسالته اللاسلكية الأولى فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين ، ووعد بالاتصال ثانية فى الساعة الثامنة . والآن تجاوزت الساعة الثامنة ولم يتردد نداء ميشيرسكى : « هنا النهر الصغير » .

رأى رجال الاستكشاف قائدهم وهو يدخل ؛ فتنهدوا بارتياح ، وكأن فى قدرته أن يجعل ميشيرسكى يتكلم .

لم يجب ميشيرسكى حتى الظهيرة . وفورونين جالس والسماعات على أذنيه ، ولجأة احمر وجهه كله من فرط الإنفعال المفاجىء .

وسأل لوبنتسوف :

— هل تكلم ؟

فصاح فورنين وهو يومىء برأسه متهللا :

— النهر الصغير ! النهر الصغير ! هنا البحر ! أنا أسمعك جيداً .

وبسرعة أخذ لوبنتسوف مكانه أمام جهاز اللاسلكى وعرف صوت ميشيرسكى . قرر اليوزباشى أن الألمان يتقدمون فى الطريق المؤدى إلى شنيدموخ ، وأن عدداً من المدافع المتوسطة وعشرين دبابة وكتيبتين من المشاة قد مرت بهم . وانتشر المشاة فى الخنادق على طول نهر كودو جنوبى المدينة .

وقال لوبنتسوف :

— النهر الصغير ! النهر الصغير ! هنا البحر ! لقد أنجزت مهمتك . إذهب إلى القطاع السادس عشر ـ الركن الأعلى إلى اليمين وانتظرنا هناك . لا تنس الإشارات .

وكان « الركن الأعلى إلى اليمين » من القطاع السادس عشر عبارة عن غابة مليئة بالمستنقعات تقع على بعد ثمانية كيلومترات شمال شرقى شنيدموخ .

وصاح فورونين :

— حسناً ، انتهى كل شىء !

ولكن لوبنتسوف رد عليه بقلق :

www.alkottob.com

– لا ، لم ينته كل شيء بعد . يجب تحذير مدفعيتنا وكتائبنا فربما ظنوا أن جماعة ميشيرسكى من الألمان، فيبيدوهم عن آخرهم فى الفوضى والظلام . هيا بنا إلى مقر القيادة .

لم يعد مقر القيادة موجوداً بالقرية . فقد انتقل إلى الغرب بأمر من قائد الفرقة . وأسرع لوينتسوف بالسيارة للحاق به .

١٥

فى مكتب البريد ذى الطابقين – الذى اتخذته الفرقة مقراً للقيادة كان كل شيء مقلوباً رأساً على عقب . فقد تبعثرت فوق الأرض وعلى المناضد – تبعثرت الأختام وآلات الطى والتغليف ورزم الخطابات وشرائط طويلة من الطوابع تحمل صور هتلر وهندنبرج ، وأكداسا من العملة الفضية .

حام أوجانسيان حول لوحة الاتصالات التليفونية ، وثبت المفاتيح فى بعض ثقوبها ، وطلب – عابثاً – أرقام بعض المشتركين المجهولين :

– آلو ! .. آلو ! ..

ولكن التليفونات لم ترد ، فقد هجرها أصحابها .

وكانت رزم الصحف الحديثة الصدور هى أكثر مايثير الانتباه . فهناك جريدة فولكيشر بوبشتر الصادرة بالأمس . يالللفاجأة ! صحف برلين الصادرة بالأمس فقط ، ورائحة حبر الطباعة مازال تفوح منها ، وهى تحتوى على آخر صرعات جوبلز ولاى المحمومة كما خرجت من شفاههم دون أن يقرأها أحد !

هذا – مثلا – مقال بالصفحة الأولى كتبه جوبلز منذ يومين

www.alkottob.com

اثنين فقط ! جوبلز الذى كان حتى تلك اللحظة مايزال فى مخيلة كل جندى — لا كإنسان حى ، ولكن كتجسيد لأكاذيب النازيين وغدرهم ، جوبلز هذا يصبح اليوم عدوا ماديا ملموساً .

لم تعد صرخات اليأس مقصورة على الأسرى الألمان فحسب ، بل هامى تصدر أيضاً من الزعماء أنفسهم . وبدا للوبتسوف أن هتلر نفسه على وشك أن يرفع يديه فى الهواء ويصيح الصيحة الشهيرة :

« هتلر تحطم » .

وفى تلك الأثناء جيء بجماعة جديدة من الأسرى ، وبدأ أوجانسيان يستجوبهم فى غرفة بالطابق الأعلى كانت معدة لنوم وكيل مكتب البريد السابق الذى فر مع الجيش الألمانى . لم يكن عند معظمهم أى جديد . كانوا أفرادا من فلول جيش الفستولا القوى الذى تمت إبادته تقريباً . هذا الجيش الذى لم يمض على تعيين هملر قائدا له — ساعات معدودة .

كان أوجانسيان يضيق بالأسرى لكثرة من استجوب منهم أثناء الحرب . ولكنه كان ينتعش حين يصادف جندياً من فرقة المشاة الألمانية الثالثة والسبعين ، وكنت تراه يستجوب مثل هذا الأسير وهو يبتسم ابتسامة خبيثة من عينين مستضيقتين . فمع مثل هذا الأسير يستطيع أوجانسيان أن يتكلم يوماً كاملا دون ملل !

كانت فرقة المشاة الثالثة والسبعين هى نقطة ضعفه وموضع اهتمامه ومحط كراهيته . كان يكفى أن يسمع عن أسر واحد من الفرقة الثالثة

والسبعين حتى يندفع إلى استجوابه فى الحال ، مضحياً حتى بالنوم — وهو الرجل النؤوم .

فى أبريل ١٩٤٣ استدعى أوجانسيان للعمل كمترجم فى الجيش فوجد نفسه فى فرقة للقناصة تقاتل فى منطقة بالقرب من كيرش . ولم يكن قد تسلم بذلته العسكرية بعد حين بدأ الألمان يتقدمون تعززهم هجومهم أسراب الطائرات .

وكلما طافت بذهنه ذكرى تلك الأيام — حتى بعد مرور ثلاثة أعوام عليها — يتألق فى عينيه السوداوين بريق غضب عاصف .

تكدس آلاف البشر على شريط ضيق من الأرض بمحاذاة المضيق وحجبت أسراب الطائرات الألمانية وجه السماء كالغيمة السوداء . وحولت القنابل أرض الشاطىء إلى فوهة بركان أسود . ولكن الطبيعة تواصل دورتها المألوفة . فالجو الصيفى اللطيف يسود المكان ، والأمواج تتكسر على حصباء الشاطىء فى زبد أبيض . وتفجرت قنابل الألمان فى كل مكان . وطيور النورس تظلها العاصفة فتصرخ كالصرخ أثناء العواصف . وبدأ الآلاف يعبرون المضيق فى ذلك اليوم الذى لاتمحى ذكراه . عبر الرجال المضيق إلى الشاطىء الفوقازى المرتجى فى المراكب والزوارق البخارية ، وعلى البراميل والأطواف البدائية .

وكلما اقترب الألمان ، وأصبحت صيحاتهم مسموعة ألقى جنودنا بأنفسهم على العدو بعنف دون انتظار للأوامر . وكان ذلك يخيف

www.alkottob.com

الألمان فيتراجعون ، وعندئذ يعود رجالنا إلى مراكزهم على حافة البحر الزرقاء في انتظار دورهم على المراكب ، وتعود أسراب طائرات الانقضاض الألمانية من جديد .

في ذلك الوقت جاءوا بأول أسير لأوجانسيان . كان ألمانيا طويل القامة ، نصف مخمور ، يحيط نفسه هالة من التحدي والوقاحة . وبدت عليه الدهشة حين تصدى لاستجوابه — وبلغة ألمانية سليمة — رجل في ملابس مدنية ، يقف بين الضباط مرتديا سترة زرقاء ملطخة بالوحل والطين ، ويتدلى حول عنقه رباط رقبة حريري متهدل معوج ، ونما الشعر في لحيته التي لم تحلق أياما عديدة .

دهش الأسير من إجادة أوجانسيان للغة الألمانية ، وأجاب على أسئلته بشيء من الاحترام : كان من فرقة المشاة الثالثة والسبعين . وقال بفخر إنها الفرقة التي اخترقت الجبهة بهذه السرعة وأجبرت الروس على التقهقر إلى المضيق .

وقال الأسير :

— اسمحوا لي أن أنقل إلى قيادتنا رغبتكم في الاستسلام استسلاما مشرفا . لقد أدهشتنا شجاعتكم حقا .

هكذا تحدث ذلك الهتلري المتعفن نصف المخمور وهو يمثل دور ملاك الرحمة ورسول السلام !

وانتفض أوجانسيان ، وأخذ يفك جراب مسدس أحد الضباط

الواقفين بجواره (فلم يكن لديه مسدس في ذلك الوقت) ، ولكنه تمالك نفسه بصعوبة ولم يطلق النار . واكتفى بأن أخذ يصيح بصوت عال وهو يصب اللعنات والشتائم على رأس هذا الألماني بلغته الأرمنية غير المفهومة .

وقابل أوجانسيان الفرقة الثالثة والسبعين مرة ثانية في نهاية ١٩٤٤ كانت تشترك في الدفاع عن شمال مدينة وارسو في المنطقة الواقعة بين أنهار البوح والناريف والفستولا . كان لوبتسوف يعرف طبيعة قلب مترجمه وميله للتكسل والأسى ، لذلك أدهشه سلوك أوجانسيان . حقا ، إن الحقد المتأجج هو وحده القادر على تغيير هذا الإنسان إلى ذلك الحد .

عندما تسلم أوجانسيان الاسير الأول أخذ يتفحصه لمدة طويلة مبتسما ابتسامة شريرة ، كاشفا عن أسنانه غير المنتظمة التي صفرتها الماجوركا :

— أين كنت عام ١٩٤٢ ؟

وبدأ الرجل يتكلم :

— قاتلت أولا عند مدينة كيرش ...

ولكن الأسير انتفض فجأة حين رأى وجه أوجانسيان المخيف .

وبعد أن أخذوا الأسير بعيدا ، واستعاد أوجانسيان طبيعته الطيبة المرحة المتسقة أخذ يقص على لوبتسوف قصة تعارفه بفرقة المشاة الألمانية رقم ٧٠ .

www.alkottob.com

وصاح (وكأن ذلك أهم مافى القصة) :

لقد فقدت سترة رائعة وكرافتة جميلة ! عبرت المضيق فوق برميل فجردتنى الامواج من جميع ملابسى ، وربما لاتزال تطفو هناك حتى الآن .

ولكن لوبنتسوف لم يبتسم لهذه الخاتمة المضحكة التى أنهى بها أوجانسيان قصته الرهيبة . وقال :

ـ حسناً ، لننتظر قليلا . فبحسب معلوماتى ستلتى فرقتك الثالثة والسبعون نهايتها بعد بضعة أيام .

والحقيقة أن فرقة المشاة الثالثة والسبعين كانت قد تحطمت بالفعل بالقرب من وارسو ، وتشتت جندها فى كل اتجاه تاركين أسلحتهم ووقعت كتيبة مدفعيتها فى الأسر ، وقابل أوجانسيان أكثر من أسير من رجالها . وكان المترجم يحس بأنه انتقم لأيام كيرش بما فيه الكفاية . ومع ذلك فقد ظل كلما صادف أسيرا من الفرقة الثالثة والسبعين يستجوبه بدقة ولمدة طويلة متلذذاً باستعادة تفاصيل هزيمتها ، محاولا استخلاص آخر قطرة من المعلومات عن الكتائب والفصائل ، وحتى عن بعض الضباط الذين يعرف أسماءهم . فقد كان يعرف كل شىء عن الفرقة الثالثة والسبعين .

وعلى غير انتظار يظهر الآن جنديان آخران من تلك الفرقة ، فيأخذ

فى استجوابهما وهو مكشر عن أسنانه بخبث كعادته . ويتناول من التفاصيل ما أدهشهما .

وسأل المترجم أحد الأسيرين ، وهو شاب ألمانى ، طويل هزيل ذو شعر أحمر ، سأله كيف أسر . فأجاب الأسير أن جنديا روسيا أمسكه هو وزميل له بمنزل فى ضيعة نائية حيث كانا يختبئان ويستعدان لاستبدال ملابسهما العسكرية بأخرى مدنية لكى يواصلا السير إلى موطنهما .

قال لوبنتسوف .

ـ أسأله ماهو موطنه .

وكان الجواب : « شنيدموخ » .

وأخذ لوبنتسوف . إنه الحظ الحسن . كما دهش الضابط من الهدوء الذى قابل به أوجانسيان تلك الإجابة ، ولكن لاعجب . فهنا ينتهى دور المترجم ويبدأ عمل رجل الاستكشاف .

أرسل لوبنتسوف الأسرى الآخرين إلى نقطة تجمع الأسرى ، وبدأ بمساعدة المترجم يستجوب أسيرى شنيدموخ استجواباً مفصلا . وأدلى الأسيران بهذه المعلومات :

تقع مدينة شنيدموخ التى تعرف بالبولندية باسم بيلا ، تقع على نهر كودو . ويخترقها طريق الرايخ رقم ١٦٠ المؤدى إلى بحر البلطيق وكولبرج وطريق الرايخ رقم ١٠٤ الذى يمتد عبرستيتن إلى لوبيك فى مقاطعة هانوفر . وإلى الغرب يمتد طريق الرايخ رقم (١) إلى برلين ثم إلى

www.alkottob.com

ماجدبورج وبرونزويج ودرتموند وإيسن ودسلدورف حتى أخن .

وخص الألمانى ذو الشعر الأحمر طريق الرايخ رقم (١) بالمديح ، فقد كان الرجل يعمل سائقاً . أخذ يعدد محاسن الطريق وكأنه مقاول يقدم عمله إلى الزبون :

ـ لقد غطى هذا الطريق بطبقة سميكة ملساء من الأسفلت ، وصيانته جيدة إلى أقصى درجة . وهذا الطريق يصل رأساً إلى برلين ، إلى قلب برلين تماما ، إلى ميدان الإسكندر . والمسافة من شفيدموخ إلى برلين مائتان وأربعون كيلو متراً تماماً ، أو ثلاث ساعات بالسيارة .

ولم يملك لوبنتسوف إلا أن يبتسم لكلمات الترحيب التى قالها الألمانى . وإذ شعر الرجل بأنه فوق أرض بلاده أخذ يجيل النظر فيما حوله ، وواصل حديثه بأسلوب جذاب كأسلوب الكتب السياحية :

إن طريق الرايخ رقم (١) هو أطول الطرق فى ألمانيا ، وباستثناء (الطريق الممتاز) يعتبر أحسنها صيانة . وهو يمتد إلى مسافة بعيدة جداً ، إلى حدود بلجيكا .

وسأل لوبنتسوف :

ـ كم طوله ؟

ـ أكثر من ثمانمائة كيلومتر .

وانفجر لوبنتسوف ضاحكا ، فبالنسبة لرجل مثله جاء من الشرق الأقصى ، لاتعدو أن تكون هذه المسافة الضئيلة مجرد نكتة . ثمانمائة

كيلو متر من أقصى الحدود الشرقية إلى أقصى الحدود الغربية ! وتذكر المسافات فى منطقة الأمور ، حيث لا تعتبر آلاف الكيلومترات أكثر من مربى حجر . وتذكر أيضاً « الطريق الأخضر » الذى يبلغ طوله أربعة آلاف كيلومتر والذى سمع عنه بالأمس من قائد الدبابات . وقال أخيراً :

حسناً ، لنعد إلى عملنا . دعهم يحدثوننا عن شفيدموخ .

وبدأ الأسيران يتكلمان :

يحيط بالمدينة من الشرق والجنوب نطاق من الغابات تعرف باسم غابة «ستادفورست» . نعم ، إنهما يعرفان أين تقع القلاع القديمة . فأحداها وهى الكبرى تقع على بعد خمسين كيلومتراً شرق المدينة . وهناك حفرت الخنادق . وعلى بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب توجد قلعة أخرى ، هى قلعة «والتر» . وبين القلعتين توجد مراكز حصينة للمدافع الرشاشة . والحق أنها أهملت منذ أن انتقلت الجبهة بعيداً إلى الشرق . فنبتت فيها الحشائش والأزهار ، وأصبح معظمها مرتعاً للعب الأطفال . والغابة مليئة بالبحيرات والمجارى المائية التى تصب فى نهر كودو .

ووضع الأسيران معلوماتهما بعناية فى خريطة شارحين كل خط بالتفصيل .

أما عن المدينة نفسها فهى بلدة عادية ، بها ثكنات وورش آلية للأخشاب ، ونصب تذكارى لفردريك ملك بروسيا ، ومصانع للحبال ،

www.alkottob.com

وكنائس أثرية . وكان أحد الأسيرين يسكن فى ميدان هندنبرج فى قلب المدينة ، والثانى فى ميدان برلين فى الضواحى الغربية ، ولهما هناك أقارب أسماؤهم هى . . . .

وقال لوبنتسوف :

فهمت . إسألهم عن النهر ، فعلينا أن نخوض معركة لعبوره .

إن نهر الكودو نهر صغير ولكنه عميق ، وهو فرع من نهر النيتز ، يتدفق حول المدينة فى جزئها الجنوبى الشرقى فيقسمها قسمين غير متساويين : يقع أصغرهما فى الشرق وأكبرهما فى الغرب . وهو نهر هادىء قاعة رملى وشواطئه شديدة الانحدار ، وبه بحيرات للسباحة ومراس للمراكب .

قال لوبنتسوف وقد ضاق بالتفاصيل :

ـ حسناً .

وقال أحد الألمانيين :

ـ قد تجدان خريطة للمدينة فى مكتب البريد ، فشنيدموخ هى عاصمة الإقليم .

ووجدوا خريطة فى المكتب بالفعل ، وبدأ عمل حامى محموم فى غرفة وكيل المكتب . وعكف طوبوغرافى ورسام على إعداد نسخ من الخريطة لمختلف الكتائب ، وترجم أوجانسيان إلى الروسية أسماء الشوارع

والميادين والمؤسسات الصناعية والمرافق العامة .

وأحس لوبنتسوف بالغبطة والرضى . وسرح خاطره وهو يفكر بحب وامتنان فى ذلك الجندى الروسى المجهول الذى أسر هذين الألمانيين فى تلك المزرعة النائية .

---

www.alkottob.com

١٦

دق جرس التليفون بعد ساعة . كان المتكلم هو الكولونيل ماليشيف رئيس مخابرات الجيش .

وبعد أن علم أن لوبتسوف عنده خريطة تفصيلية لشنيدموخ أمره بتزويد كل كتيبة من الكتائب المهاجمة بصورة منها . وذهب لوبتسوف إلى مقر القيادة ليستعلم عن هذه الكتائب ويعرف مواقعها . وهناك علم أن وحدات الكولونيل فوربيوف ستهاجم شنيدموخ من الشرق وأن فرقة سيريدا قد أمرت بتخطى المدينة واحتلال مشارفها الغربية .

وأخبره الضابط النوبتجى أن رجال فوربيوف يناوشون العدو فى شرق المدينة . والحقيقة أن طلقات المدافع كانت تدوى من بعيد وتتألق ألسنة اللهب فى الأفق .

وهكذا ستفرق المدينة المحاصرة بين لوبتسوف وتانيا . وماذا فى ذلك ؟ إن قلب رجل الاستكشاف العاشق يستطيع أن يحتمل هذه المسألة البسيطة .

ومع ذلك أتاح أمر الكولونيل ماليشيف بتسليم الخرائط إلى الكتائب، أتاح فرصة أمام لوبتسوف لمقابلة تانيا قبل الاستيلاء على مدينة

شنيدموخ . لم يكن الأمر من الأهمية بحيث يستدعى أن يقوم لوبتسوف بنفسه بتسليم الخريطة إلى الكولونيل فوربيوف . ولو لم تكن تانيا هناك لما فكر لوبتسوف فى تسليم الخريطة بنفسه ، ولاكتفى بإرسالها مع أنطونيوك أو مع أى شخص آخر .

ابتهج الجنرال سيريدا بالسبق الذى أحرزه رجال الإستكشاف التابعين له على رجال فوربيوف وتصديهم لمساعدة الآخرين .

وقال سيريدا مبتسما وهو يفتل شاربه :

— بلغ فوربيوف تحياتى ، واسأله إن كان بحاجة إلى شىء آخر . اطلب منه أن يشغل الألمان وسوف نحتل المدينة ...

وأمر لوبتسوف بإسراج الخيل ، وأخرج من حقيبته قبعة من قبعات « أيام السلام » ذات شريط قرمزى ، ولبسها ، وامتطى صهوة جواده الأسود .

انطلق فى صحبة شيبريوف ، وسارا خبباً صوب شنيدموخ . وهبط الفارسان طريقاً جانبياً فوجدا نفسيهما فى غابة كبيرة . كان لوبتسوف يفكر فى تانيا وكيف أن وجودها هنا يخفف من غيظه لتخلفه عند شنيدموخ على حين تزحف الفرق والجيوش الأخرى إلى الغرب وتدنو من برلين خلف تشكيلات الدبابات التى تحطم خطوط دفاع الألمان الحصينة

اشتهرت فرقة الكولونيل فوربيوف فى الجيش كله بروحها الهجومية فقد تشكلت من خلاصة وحدات الحدود ، وضباطها جميعاً من حرس

www.alkottob.com

الحدود السابقين ، ورجالها فخورون معتزون بذلك . إنها فرقة قوية محنكة عنيدة فى الدفاع وسريعة فى الهجوم . ولم يكن فوربيوف - وهو جندى قديم من حرس الحدود - لم يكن يطيق مفارقة سترة رجل الحدود العسكرية وقبعته ذات القمة الخضراء اللامعة .

تفحص فوربيوف خريطة البلدة وحصونها لمدة طويلة . كان قد علم بنبأ هذه الخريطة ، وكان فى انتظارها : ففى الجيش تنتشر الأخبار بسرعة كبيرة .

وقال :

ـ حسناً ، شكراً ! هذا عمل لا بأس به ! أطلب من سيريدا أن يصمد فى الضواحى الغربية ، أما أنا فسأضرب هنا برجال الحدود ...

وابتسم لوبنتسوف : فقد سمع العبارات نفسها من قائد فرقته .

وبعد ذلك توجه لوبنتسوف لرؤية زملائه ، وتبعه شيبيريوف وهو يقود الحصانين . وسأل لوبنتسوف رجال الإستكشاف أسئلة عديدة من بينها سؤال عارض عن الكتيبة الطبية . وكان أثناء ذلك يشكو وجعا فى أسنانه ويلوى وجهه متظاهراً بالألم .

وأوضح قائلا :

ـ إن كتيبتنا الطبية خلفنا بمسافة طويلة .

وأسرع لوبنتسوف إلى الكتيبة الطبية وقد ابتسم من تحايله الساذج متجنباً نظرات شيبيريوف . وكان شيبيريوف هادئا كعادته : فقد اعتاد

على عدم توجيه الأسئلة التى لا داعى لها . وسار بجانب رئيسه كظله .

كانت الكتيبة الطبية تعسكر فى قرية كبيرة مختبأة فى غابة ستادفورست .

صادف لوبنتسوف إحدى الممرضات فسألها بلهجة مرحة لا تخفى إحساسه بالحرج ، سألها عن الطبيبة الكابتن تانيا فلاديميروفنا كوانسوفا وعندما رأت الممرضة ضابطاً باسماً ذا عينين زرقاوين يمتطى فرساً أسود جميلا ، أجابت بدهشة ودلال :

لقد ذهبت منذ قليل ... بإمكانى أن أبلغها بأى رسالة تشاء .

واستطردت الممرضة بخبث مدفوعة ، إما بالرغبة فى إغضاب تانيا أو بالرغبة فى تنبيه ذهن الفارس اللطيف ، استطردت :

ـ كثيراً ما تخرج فى الأمسيات .

وقال لوبنتسوف بلهجة آلية وهو ما يزال يبتسم :

ـ فهمت .

ـ تأتيها سيارة فى هذه الأمسيات .

وكرر لوبنتسوف :

ـ فهمت .

ولكن الابتسامة كانت قد تلاشت من على وجهه .

وجذب عنان جواده بعنف ، فشب على ساقيه الخلفيتين .

www.alkottob.com

وبإيماءة من رأسه حيا لوبتسوف الممرضة التى أجفلت . وكر مسرعاً من حيث جاء . وسار سيبيريوف وراءه ، ولكنه سرعان ما تخلف عنه .

وعندما هدأ الضابط قليلا جذب عنان حصانه وربت على عنقه وخاطبه بصوت مرتفع :

— وأنت أيها المتسول العجوز ... ما ذنبك ؟

وجاء الصدى من الغابة : « ... جوز .. بك .. »

وتمتم لوبتسوف لنفسه :

— إنه صدى ألمانى ، ولكنه يتكلم الروسية .

انبعث من الغرب قصف المدافع . وسمع الجواد هذه الأصوات المألوفة المقبضة فأصاخ بأذنيه فى خوف ، وجرى مسرعاً .

كان الجو رطباً قظيعاً ، والسماء تمطر ماء وبرداً .

وسرعان ما وصل لوبتسوف إلى طريق الرايخ رقم (١) الذى تباهى به الألمان كثيراً ، والذى ترعد الجيوش الروسية الزاحفة فوقه الآن . ومرت به كتيبة للمدفعية الثقيلة بكل ضجيج محركاتها . ومرت المدافع المضادة للدبابات ، وهى قابعة متحفزة . ومرت فصيلة من المتسللين بمعداتها . ومرت لوريات الحرس المسلح بمدافع المورتر ببطء وهى تهز جنبات الطريق .

ونظر الرجال بإشفاق إلى المشاة المنهكين المبللين الذين يشقون

سبيلهم فى الجانب الآخر من الطريق : وشعر الجميع بأن الحظ لم يوات تلك الفرق التى تعطلت عند شنيدموخ .

وأقبل على لوبتسوف ضابط برتبة ماجور من سلاح المدفعية مقلا سيارة . قال :

— ماذا بك ؟ هل توقفت عند شنيدموخ ؟ أأنت هنا لتبحث عن المتاعب .

لقد لاحظ ضابط المدفعية أن ضابط المشاة كان شارداً حزيناً ففسر ذلك بطريقته الخاصة وختم كلامه بعبارة تنم عن الشعور بالذنب ، قال :

— ربما تعطلنا نحن أيضاً عند الأودر ...

ولكن هذه المحاولة التى بذلها ضابط المدفعية لم تدخل السرور إلى قلبه . فابتعد ضابط المدفعية . وذهب لوبتسوف للبحث عن فرقته . ورأى لوبتسوف الملازم نيكولسكى مقبلا عليه وهو مبتل يبدو عليه الإنهاك . وهذا الملازم هو قائد رجال الإشارات الذين يمدون الخط التليفونى للفرقة . وعندما رأى لوبتسوف أفرغ على الفور آخر ما فى جعبته من أخبار . قال :

— أتعرف يا رفيق أننا سنهاجم شنيدموخ .

فأجاب لوبتسوف :

— أعرف ذلك ، أين مقر القيادة ؟

www.alkottob.com

ـ تتبع أسلاك التليفون تصل إليها .

ـ هل عاد ميشيرسكى ؟

ـ أجل ، وقد عاد ببعض الأسرى .

سرعان مادخل لوبتسوف إحدى القرى ، وأوقف حصانه فى أحد الشوارع لمحة . فقد رأى منزلا لفت نظره ... لم يكن منزلا بالضبط ، بل كان نوعاً من البناء يشبه المخزن الكبير أو الجاراج ، رمادى اللون ، مبنياً من الآجر ، له أبواب مزدوجة واسعة ، بها نافذة صغيرة . وأحاط بالبيت ـ كالسياج ـ ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة امتدت لمسافة كبيرة حواليه تحيط بأعمدة وصلبان من خشب البلوط الغليظ . وعلى طول هذا السياج الغريب أقيمت أبراج خشبية منخفضة مربعة ذات سقوف مدببة ، تبعد كل منها عن الأخرى مسافة تتراوح بين عشرة أمتار وعشرين متراً .

تناثرت القمامة والأوراق فوق أرض الفناء الواسع الذى تحيط به الأسلاك الشائكة والأبراج . كان المنظر كله مخيفاً : المنزل الرمادى العاطل من النوافذ ، والفناء الواسع الكئيب ، والأسلاك الشائكة الصدئة ، وأبراج المراقبة الخشبية .

وترجل لوبتسوف وسلم عنان الفرس لشيبيريوف ودخل المنزل بخطوات وئيدة . كانت الأرض المبلطة بالأسمنت مغطاة بالقش المكدس فى صفوف وما يزال به طابع الأجساد البشرية التى كانت ترقد عليه إلى وقت قريب . وعلى الحائط حفرت كلمات بالروسية والأوكرانية نابعة من أعماق أرواح الأسرى ، معبرة عن فيض ماشعروا به من يأس وأمل .

لا ، لم يكن هذا معسكراً للاعتقال ، بل مجرد ثكنة للأسرى الروس والعبيد الذين جاء بهم الألمان للعمل هنا فى حقول القرية ، وساقوهم على عجل من هذا المكان قبل وصول الجيش الأحمر بفترة وجيزة .

لم يكن هذا معسكر اعتقال مجدانيك ، بل كان معسكراً عادياً « للعمال الشرقيين » .

وأفظع مافى الأمر أن يقف هذا المنزل الرمادى بسياجه وأبراجه فى صف واحد مع منازل القرية الاخرى . فإلى يمينه منزل آخر ، منزل صغير بسيط أبيض وبلا أسلاك شائكة ، وفى فنائه ديك يصيح ، وإلى يساره كوخ رمادى تغطى الستائر نوافذه . صحيح أن القرويين قد فروا . ولكنهم كانوا هنا منذ بضعة أيام . كيف كان هؤلاء الناس يسمحون لانفسهم بأن يزرعوا الكرنب والقرنبيط فى سلام بجوار هذا السياج من الأسلاك الشائكة . بل إن فى مواجهة المعسكر منازل أخرى تحيا حياة ريفية بسيطة .

ترك لوبتسوف المخزن وامتطى صهوة حصانه ، وسرعان ما لحق برجال الإستكشاف . وهنا خلع قبعة « أيام السلام » ذات الشريط القرمزى ، ودسها غاضباً فى جيبه ، وألقى عنه المعطف ، ولبس قبعة

www.alkottob.com

الميدان وسترة اللباد ، وشد على حزامه ، ووضع مسدساً فى جيبه .

ثم قال وهو ينظر إلى رجال الاستكشاف الذين اصطفوا أمامه فى الفناء :

— والآن أيها الفتيان ، هيا بنا للاستيلاء على شفيدموخ . إن الحرب ما تزال دائرة الرحى ، وأنا دائم التنقل ، تارة إلى مقر قيادة الجيش ، وتارة أخرى إلى الرئيس ، وأحياناً إلى حيث لا يعرف إلا الله .

وفى أثناء ذلك كان أوجانسيان يستجوب الأسرى الذين جاء بهم ميشيرسكى . لم يكن بينهم واحد من الفرقة الثالثة والسبعين ، ولكنه استجوبهم بدقة ، لأن لوبنتسوف أمره باكتشاف أسماء وحدات العدو فى غابة شفيدموخ .

وكانت أثمن المعلومات هى التى أدلى بها الشخص الضخم القذر الذى اتضح أنه مراسل قائد القلعة الألمانى . كان الألمان قد حشدوا فى المدينة — طبقا لما أدلى به هذا الجندى — ضباط وطلبة مدرسة برومبرج لتدريب الفرسان ، والفصيلة البحرية الثالثة والعشرين ، وفصيلتين من فصائل المدافع الرشاشة معها عشر فصائل من جنود العاصفة وكتيبة من رجال الأمن ووحدة للدبابات .

كان الأسير يئن ويتنهد عند كل جملة ، وكان يلوح بيديه ، وكأن هذا الألمانى الممتهن الذى فقد إيمانه بكل شىء يزيح الهموم عن كاهله بحركات يديه . وقال :

— آه ، أجل . كان هملر هنا !

ولوح بيديه كأنه يقول : وماذا يستطيع هملر أن يفعل هنا ؟

ثم واصل حديثه :

— أجل ، كان هملر هنا منذ خمسة أيام ، وقد عين اللفتنانت كولونيل ميلينجر رئيس فرقة العاصفة قائداً للدفاع عن المدينة .

ولوح الألمانى بيده — ماذا بحق جهنم يستطيع ميلنجر أن يصنع هنا هو الآخر ؟

عندئذ سأله أوجانسيان السؤال التقليدى :

— لماذا تواصلون المقاومة ؟

وتنهد الألمانى :

— الأوامر هى الأوامر . .

ولوح الألمانى بيده هذه المرة مشيرا إلى نفسه وزملائه الذين أجبرهم النازى على القتال ، على الرغم من أنه كان واضحاً للجميع عدم جدوى المقاومة .

أمر لوبنتسوف أنتوبنوك أن يخبر القائد وماليشيف بكل هذه التفاصيل ، وذهب هو إلى رجال الإستكشاف فى المراكز الأمامية .

كان لوبنتسوف فى موقع غرب القوات الألمانية للمرة الثانية أثناء الحرب . وكانت المرة الأولى بالقرب من موسكو حين كان لوبنتسوف يحاول الإفلات من الحصار . وعندما تذكر هذا الحصار فكر لوبنتسوف فى تانيا من جديد .

www.alkottob.com

وسأل الباشجاويش فورونين الذى كان يسير بجانبه صامتاً :

— هل أنت متزوج ؟

فتجهم فورونين وقال :

— لا . . لم يكن أمامى متسع من الوقت . سأتزوج فور استيلائنا على برلين وعودتى إلى الوطن .

وسأله لوبنسوف مازحا :

— هل أنت مستعجل إلى هذا الحد ؟ أتفكر فى فتاة بعينها ؟

وأجاب فورونين :

— بالطبع ! وهل يوجد من لايفكر فى فتاة بعينها . سأذهب إلى وطنى وأسأل عن كل مايتعلق بحياتها . أجل إن لى عين استكشاف هناك .

وغمز بعينه ، واستطرد :

— إن شقيقتى تشتغل على مخرطة فى المصنع نفسه . وهى ترسل لى الرسائل وتخبرنى بكل ماتعرفه عن فتاتى كاتيا . كيف هى ؟ ومن تخالط ، وباختصار تخبرنى بكل شىء .

وقال لوبنسوف عابساً :

— ولكن هذا أمر ضار ، فقد يقولون شيئاً سيئاً عنها فتصدقه على الفور .

وأجاب فورونين وقد أدهشته حرارة الضابط :

— ولماذا على الفور ؟ إن الغبى وحده هو الذى يصدق على الفور .

وتوقف قليلا ثم قال بلهجة جدية :

— إن فتاتى كاتيا بنت طيبة . . . وأنا أثق فيها . هل تفكر أنت أيضاً فى فتاة بعينها ؟

ألقى لوبنسوف نظرة على شيبريوف الصامت على يساره وقال :

— ليس لى أحد .

وانفجر لغم بالقرب منهم ، فقال لوبنسوف :

— أترى ؟ ليس هذا وقت التفكير فى زوجة . لم يحن الأوان بعد .

ودخلوا قرية يقوم عند حافتها برج وحيد . لماذا بنى هذا البرج فى هذا المكان ؟ هل تراه بنى للزينة ، أو هو أثر من آثار التاريخ القديم ؟ أو هو برج من أبراج الأجراس ؟ ولكن ، أيا كان الأمر فقد أدرك لوبنسوف ميزاته فى الحال ، وقرر اتخاذه مركز مراقبة لقائد الفرقة . وتسلق السلم الحلزونى ، ونظر خلال منظاره المكبر . وامتدت أمامه المدينة يغطيها ضباب رطيب أزرق ، وغطيت السقوف ببلاط أحمر مبلل . وإلى اليمين توجد محطة السكة الحديد ، وإلى اليسار مداخن مصنع كبير لا ينبعث منها دخان . وأرسل لوبنسوف أحد رجاله إلى مقر القيادة وسار مع الآخرين ، فروا جنود يحفرون الخنادق ويعدون مواقع جديدة للمدافع ، وحفراً لمدافع الهاون ، ومطابخ للميدان . كان الجنود حركة دائبة فى كل مكان ، يشعلون نيران المعسكر ، ويحاولون تهيئة وسائل الراحة لأنفسهم . ولكن على الرغم من التعب

www.alkottob.com

الشديد الذى عانوه خلال ثلاثة أسابيع من الزحف المتواصل كانوا يلعنون المدينة التى أوقفت تقدمهم إلى برلين .

كان الحال شبيهاً بحرب الخنادق التى كادوا ينسونها منذ بدأ الهجوم . واخترق رجال الاستكشاف خندق الاتصال ، وهم يقفزون تارة فوق جندى نائم ، وتارة أخرى فوق كومة من التراب فى جزء لم يتم من الخندق .

ومشى لوبنتسوف على طول الجبهة وتحدث مع قادة الكتائب والفصائل ، ومع الجنود . وأكثر حديثه كان مع رجال المدافع الرشاشة والقناصة ، ومع كشافة الكتائب ، ومع مراقبى المدافع والمتسللين وسألهم بالتفصيل عن كل ما لاحظوه . ووضع المعلومات على خريطة ، ورسم تخطيطاً بكل تلك الملاحظات . وبذل كل ما فى وسعه ليكون عمله متقناً ومحكماً .

—

كان من المقرر اشتراك الكتائب فى المعركة عند الفجر ، وعليه أن يعرف طبيعة الخطة العامة للدفاع الألمانى بمنتهى الدقة . عليه أن يعرف مراكز إطلاق النار الألمانية ومواقع العوائق الصناعية . وعلاوة على ذلك عليه أن ينسى تانيا . وقد بذل بالفعل جهداً واعياً لينسى كل شىء عنها . صحيح أنه ضبط نفسه متلبساً بالتفكير فى « صديقته القديمة » أثناء محادثاته مع القواد ، وفى تلك اللحظات كان يتجهم عابساً ويتذكر الجنرال سيزوكريلوف كان وجه عضو المجلس الحربى الهادىء الصارم

قد التصق بذاكرته . وكانت ذكرى ذلك الوجه تستحثه وتجعله ينصرف بكليته إلى عمله .

ذرع لوبنتسوف الجبهة التى انتشرت عليها قوات الفرقة من الجنوب إلى الشمال . وامتلأت خريطة المدينة بالتدريج بالعلامات التى تشير إلى مواقع مدافع الألمان ودباباتهم ومدافعهم الرشاشة والأسلاك الشائكة وحقول الألغام .

ولكن حدث ما جعله يعيد التفكير فى تانيا من جديد . ففى خندق عند كوة مدفع رشاش صادف زميل السفر « صاحب » العربة الشهيرة . الكابتن تشوخوف .

—

www.alkottob.com

١٧

دهش الكابتن تشوخوف عندما رأى الماجور اللطيف ذا السترة اللباد والقبلتين المتدليتين من حزامه . دهش لرؤيته على رأس رجال الاستكشاف فى الفرقة ، وازدادت دهشته حين عرف أن هذا الماجور هو لوبنتسوف الشجاع ، الشهير الناجح دائماً الذى سمع عنه كثير من الجنود .

وشعر تشوخوف بالحرج ، وكذلك لوبنتسوف — ولكن لسبب آخر : إذ خيل له أن العالم كله يتآمر عليه لتذكيره بكولتسوفا ! وقطب حاجبيه وقال :

— ها نحن نتقابل من جديد ! حسناً ، قل لى ماذا رأيت فى مراكز الألمان ؟

وسرد عليه تشوخوف مارآه فى كلمات مقتضبة . وبين مواقع إطلاق النيران على خريطة معه . ولاحظ لوبنتسوف أنها الخريطة نفسها التى أعدها هو ورجاله ، وسره أن يجد أنها قد وزعت حتى وصلت إلى قادة فصائل القناصة .

وبينما لوبنتسوف ينقل معلومات تشوخوف على خريطته الخاصة كان الكابتن يتملى من وجه ضابط الحرس : كانت خطوط المنظر الجانبى لوجهه جميلة متناسقة ، وأنفه مائلا قليلا إلى أعلى ، وشفتاه مرسومتين مضمومتين ، وجبهته عريضة ناصعة ، وشعره أشقر .

وتحرك فى أعماق تشوخوف إحساس يشبه الحسد ، لا بسبب شهرة لوبنتسوف ، ولكن بسبب صفاء ذهنه وتحرره من كل تظاهر .

وطوى لوبنتسوف خريطته ثم قال :

— هيا بنا لنقوم ببعض أعمال المراقبة .

وقال أحد رجال الاستكشاف بهدوء وإصرار :

— أيها الرفيق الماجور ، إنك بحاجة إلى النوم ولو قليلا ، فكم ليلة أمضيتها ساهراً .

وانضم إليه جندى آخر :

— هذا صحيح . سنقوم نحن بالمراقبة .

وأجاب لوبنتسوف مكابراً :

— لقد نمت .

وسأل الرجل الأول :

— متى ؟ لم نلاحظ ذلك بأى شكل . . .

وقال لوبنتسوف :

www.alkottob.com

ـ نمت فى طريق العودة من مقر القيادة .

وفى الحال احمر وجهه خجلا حين تذكر أنه يوجد شاهد على « سهره » من أجل تانيا فى الليلة قبل البارحة ، وأضاف بسرعة :

ـ لقد غفوت فى السيارة حين كنت مسافراً مع عضو المجلس الحربى .

وقال رجل ذو وجه مربع شاكياً :

ـ أنت لم تنم أيها الرفيق الضابط .

فقاطعه لوبنتسوف :

ـ دعك من هذا ياشيبيريوف . وهيا بنا .

وسأل تشوخوف :

ـ أتأتى معنا ؟

خرج تشوخوف مع رجال الاستكشاف وكان الثلج ينهمر من السماء ممزوجا بماء المطر . وكان الجنود يطلقون عليه اسم « المطر الفاشستى » . وكان الخندق يقسم أحد التلال الصغيرة قسمين ، فوقف الجميع فى الجانب الشرقى منه .

قال تشوخوف :

ـ هذا موقع جيد .

ونظر لوبنتسوف خلال منظاره المكبر ، وقال معاتبا تشوخوف :

ـ لقد حفرت على مسافة بعيدة من الألمان . . .

وكان فى الخندق جنود يتحدثون ، فأنصت لوبنتسوف إلى حديثهم كان فيهم شاويش أسود الشارب يلقى كلمة سياسية . وكان الشاويش يتكلم من خلف مدفع رشاش وهو يحملق فى ستار الضباب الرمادى المتكاثف أمام الخندق ويدير رأسه إلى الجنود المنصتين بين الحين والحين . قال :

ـ كان هتلر يسمى نفسه اشتراكيا ، ولكنه لم يمس الملاك . ونحن نعرف طبعاً أن الفاشيين هم كلاب الحراسة للرأسمالية . ولكن لماذا يسمى هتلر نفسه اشتراكيا ؟ لان الاشتراكية فكرة صحيحة وتقدمية ، فكرة تسرى فى دماء العمال ، والرجل الكادح لايفرط فيها أبداً ، وهو لايتبع هتلر إلا إذا كان مخدوعاً . والحقيقة أن العمال الألمان قد استسلموا لخداع هذا اللص .

وتوقف قليلا ثم قال بمرارة :

ـ أنا من عمال المناجم . حسناً ، وفى ألمانيا عمال مناجم أيضا . ومازلت أفكر حتى الآن : كيف حدث أن سمح عمال المناجم الألمان بوقوع مثل هذا الأمر الفظيع ؟ كيف حدث أن هاجمونا . . . نحن عمال المناجم الروس ؟ كيف حدث أن استخرجوا الفحم لإدارة تلك المصانع التى تنتج طائرات الجونكرز التى دمرت منجمى . . . منجمى الذى اشتغلت فيه طول عمرى والذى يملكه العمال الكادحون ؟ كيف خدع

www.alkottob.com

عمال المناجم الألمان إلى هذه الدرجة ؟ أؤكد لكم أنى ماكنت أعتقد أن هناك عامل مناجم يمكن أن يخدع إلى هذه الدرجة .

وتوقف ثانية ، ثم عاد يشرح الأمر وهو عابس :

ـ لقد أخذت عمال المناجم على سبيل المثال والحقيقة أنى أعنى جميع العمال . وعلينا الآن طبعاً ـ أن نظهر وعى الطبقة العاملة السوفييتية ، علينا أن نفهم « لماذا » ، « وكيف » نجح المضللون ؟ « لماذا » ، « وكيف » خدع المخدعون لكى نتجنب كراهية الألمان عامة . . لقد علمنا الرفيق ستالين هذه الدروس دائما . . .

وسأل لوبنسوف الكابتن تشوخوف هامساً وهو يومىء برأسه إيجابا :

ـ هل هذا واحد من رجالكم ؟

فأجاب تشوخوف :

ـ إنه المنظم الحزبى ساليفينكو .

قال لوبنسوف وهو يغمز بعينه بخبث :

ـ إنه على حق . إنه رجل بارع ، ليس كالآخرين .

واحمر وجه تشوخوف ، فقد فهم مايرمى إليه لوبنسوف . ومن الواضح أن ضابط الاستكشاف مايزال يذكر مقابلتهما الأخيرة .

فى تلك اللحظة توقف ساليفينكو فجأة . وصمت ، ثم صاح :

ـ انظروا ! إن الألمان يتحركون !

كان من الممكن رؤية أشباح صغيرة لجنود ألمان يجرون إلى جانب السكة الحديد .

وقال لوبنسوف :

ـ بلغوا المدفعية فوراً .

وذهب تشوخوف بسرعة إلى التليفون فى الخندق . وأطلقت مدفعيتنا ومدفعية الألمان نيرانها فى وقت واحد تقريباً . واستمرت المبارزة مدة عشر دقائق ، وتفجرت قنابل الألمان بالقرب منهم ، ولكن إلى اليسار قليلا .

وقال لوبنسوف وهو مايزال يراقب :

ـ انبطحوا !

كان لوبنسوف يلاحظ وميض الطلقات وينصت إلى صوت المدافع ويحسب قوة الإنفجارات ، ويستخلص من ذلك قوة مدفعية العدو ومواقعها ومداها . وليس هناك من يضارعه فى ذلك . وقد اعتاد رجال المدفعية أن يأخذوا رأيه فى مثل هذه الأحوال .

وأخذ يتمتم بهدوء وهو يراقب وينصت :

ـ نعم ... ٧٥ ملليمترا ... حسناً قذيفة أخرى من القوة نفسها بين المحطة والمخزن . . ، جميل أوهو . . يالله من انفجار رائع ! ليس أقل من مائة وخمسين ملليمتراً . . انتظر ، انتظر . . إنها ... انبطحوا يافتيان !

www.alkottob.com

ومال إلى الأمام . وملأ الجو صفير مخيف انفجرت على أثره قنبلة خلف الخندق وفرقعت شجرة بجور وحيدة لاتبعد كثيراً عن خندق تشوخوف ، وتناثرت أجزاؤها ، وأزت قطع الخشب المتفحمة فوق رؤوسهم . وكان تشوخوف يقف على مرتفع صغير وهو يدخن وقد برزت رأسه وكتفاه من الخندق وقد ارتسمت على وجهه النظرة المستهترة نفسها التى لاحظها لوبتشوف حين كانا معا فى العربة وابتسم لوبتشوف ابتسامة تجمع بين معانى الاعجاب والسخرية : ياله من متعجرف رذيل ! ولكن مهما قيل فيه فهو شجاع لايهاب . وقال :

— انحن يا كابتن ! لماذا تعرض نفسك لأخطار لاداعى لها ؟

وصدع تشوخوف بالأمر .

وانتهت مبارزة المدفعية فجأة كما بدأت فجأة .

وقال لوبتشوف موجها حديثه إلى رجال الاستكشاف :

— هيا بنا . يجب أن نقدم تقريرا إلى قائد الفرقة .

وشد على يد تشوخوف بحرارة ومودة ثم قال :

— إن المنظم الحزبى فى فصيلتك رجل رائع وشيوعى حق . .

وسرعان مااختفى رجال الاستكشاف عن بصره . ولكن تشوخوف استمر واقفاً فى الخندق بعض الوقت وهو يفكر فى لوبتشوف بإعجاب مناجيه .

كان تشوخوف شجاعا ، وهو يعرف ذلك عن نفسه ، ولكن لم يغب

عن فطنته أن شجاعة لوبتشوف كانت من نوع أعمق وأصدق .

لم يكن لوبتشوف يستعرض شجاعته . كان يقف فى الخندق — لا لأنه أراد أن يشهد الناس على بطولته ، بل لأن ذلك من صميم عمله

ولاحظ تشوخوف حب رجال الاستكشاف لضباطهم . كان رجال الفصيلة الثانية يحترمون تشوخوف ولكنهم لايكنون نحوه الثقة العمياء نفسها والعاطفة الحارة نفسهااللتين يحظى بهما ضابط الحرس من رجاله .

وتملكت تشوخوف رغبة كتلك الرغبة التى تتملك الشباب الناشىء حين يتشبه بالرجل الذى يملك عليه خياله . ولكنه طرد هذا الخاطر بسرعة فقد أحس فيه امتهانا لشخصه .

وفى الطريق إلى مقر القيادة لم يفكر الماجور كثيرا فى تشوخوف بقدر مافكر فى مقابلته لتانيا فى اليوم الأسبق والتى رسخ فى ذهنه أنها آخر مقابلة بينهما .

www.alkottob.com

١٨

لم يكن سوء الظن فى تانيا الذى عبرت عنه الممرضة فى حديثها مع لوبنتسوف — لم يكن مجرد مصادفة . فقد أصبح أفراد الأورطة الطبية لايرتاحون إلى طبيبتهم الجديدة بعد أن كانوا جميعا معجبين بها فى البداية .

فمنذ أكثر من شهر لوحظ أن الكولونيل سيمون سيميونوفيتش كراسيكوف — وهو أحد رؤساء الجيش — يبدى اهتماما خاصاً بتانيا وكراسيكوف ضابط يتميز بشجاعته وصرامته ، كما يتميز بمظهره الرائع وإن كان يبلغ من العمر ضعف سن تانيا . والجميع يعرفون أن له ابنة فى مثل سن تانيا تقريبا

ولو لم يكن أمر تانيا يهم زملاءها فى الفرقة لما قلقوا ، ولكنهم أحبوا تانيا وأحزنهم أن يخيب ظنهم فيها . وكانت ماريا إيفانوفنا ليفكوفا هى أعز صديقاتها وأكثرهن غضبا ، وهى قائدة سرية المستشفى ، شقراء طويلة القامة ممتلئة الصدر ، حولاء العينين ، لها وجنتان بارزتان كالتفاح طيبة كثيرة الكلام . والحقيقة أنها تعامل الرجال عموما بنوع من الحذر ولم تكن تكف عن توبيخ الممرضات اللاتى اتخذن لهن أصدقاء من بين الجنود والضباط . كانت تقول :

— هل تعتقدن أن الأمر سيمر ببساطة ؟ قد يقال : لا داعى للقلق فالحرب ستمر . ولكن هل تعتقدن أن الحقائق لن تعرف ، وأنكن ستبدأن حياة جديدة بعد العودة إلى الوطن ؟... لا ، لن يحدث شىء من هذا . فالعالم الذى نعيش فيه صغير يافتياتى . صدقنى !

ولايدرى أحد إلى أى حد أثمرت تلك النصائح فى فتيات الكتيبة . أما عن تانيا فقد واجهت ماشا صراحة بأنها لاتريد الاستماع إلى محاضراتها ومواعظها . وغالبا ماكانت ترد على أحاديث صديقتها الغاضبة بضحكة ناعمة .

وكانت هذه الضحكة تجرد ماشا من أسلحتها . فقد كان الناس يهدأون حين يسمعون ضحكات تانيا العامرة بالرقة والعذوبة ، وسرعان مايغيرون نظرتهم إليها . أما فى وقت الجد فكانت تبدو صارمة ويرتسم بين حاجبيها السوداوين خط مستقيم غائر فيظنها الكثيرون قاسية نافرة حادة المزاج . ولكن يكفى أن تضحك ضحكتها الرقيقة حتى تكشف عن روح شفافة حنون . وكان الجرحى الذين لايعرفون اسمها يسمونها : الطبيبة ذات الضحكة الحنون .

قبل أن تذهب تانيا إلى مؤتمر أطباء الجيش حاولت ماشا مرة أخرى أن تتبادل معها حديثاً قلبياً .

دخلت ماشا غرفة تانيا دون استئذان ووقفت برهة عند الباب على غير عادتها . ولسبب ماكانت تعبث بجيوب معطفها وكأنها تبحث فيها

www.alkottob.com

عن الكلمات . وفجأة احتضنت تانيا بقوة وعيناها تدمعان .

وضاقت تانيا بتلك الدموع المفاجئة ، وقالت باقتضاب :

ــ لماذا تبكين على ؟ لماذا تصمتين تفاقاً وهذه الابتسامة الماكرة على شفتيك ؟ ومن طلب منك السهر على حمايتي ؟ إن سيميون سيميونوفيتش رجل لطيف طيب القلب .

فصاحت ماشا :

ــ طيب القلب ؟ نحن نعرف هؤلاء الرجال الطيبين !

وضحكت تانيا :

ــ ما هذه التفاهات التي تملأ رأسك . احمقتي ، إن سيميون سيميونوفيتش يعاملني معاملة رفاقية طيبة .

وأخفت ماشا وجهها بيديها لكي لا تتأثر من ضحكة تانيا :

ــ أرجوك ألا تضحكي . ماذا تظنين ؟ أتعتقدين أنه يريد أن يتخذك ابنة له ؟ أم أنه يعطف على تانيا اليتيمة ؟ حسناً ، افعلي ما تشائين . لعل مما يرضى كبرياءك أن تحدى ضابطاً برتبة كولونيل يحوم حولك ، قائد صارم مع كل الناس ولكن رقيق معك ويعلمك قيادة السيارة . ولكن اعلمي أن هذا يثير اشمئزازي .

وخرجت ، وصفقت الباب خلفها بغضب .

أعجبت تانيا بكراسيكوف . وفي الحقيقة أرضى كبرياءها أن يعاملها رجل ذو خبرة واسعة بالحياة معاملة صديق وأن يكون طيباً معها ، بل

ربما كان مغرماً بها . كانت معجبة به لشجاعته التي سمعت عنها الكثير . لذلك كانت تانيا تقف بحزم في وجه أي محاولة من جانبه لكي يكون حديثه معها عاطفياً ، وتضع حداً لمحاولاته بضحكتها المألوفة .

وعندما عادت تانيا من مؤتمر الأطباء وهي ما تزال تحت تأثير تلك الرحلة العجيبة في « العربة » ومقابلتها غير المتوقعة بلوبتسوف ، ذهبت إلى قائد الأورطة الطبية الكابتن راتكوفسكي ، وهناك طلبها كراسيكوف تليفونياً وأعطاها راتكوفسكي السماعة

كان كراسيكوف مبتهجاً :

ــ هل عدت ؟ كيف كانت الرحلة ؟

وأجابت تانيا :

ــ جميلة للغاية ! لقد تركت وحدتي في بولندا وعدت إليها في ألمانيا هل تعرف كيف وصلت إلى ألمانيا ؟ ... لا ، لن تستطيع لقد دخلت ألمانيا في عربة ! ... في عربة حقيقية تجرها الخيل ويملكها كونت !

وسألها كراسيكوف :

ــ متى نتقابل ؟ هل تفضلين المجيء ؟ ... حسناً ، سأرسل إليك من يأتي بك إلى هنا ... ليس لديك عمل اليوم ؟ من الأفضل أن تقومي بجولة في السيارة .

وذهبت لتناول الغداء في الميس . كان الغداء قد انتهى ، وتفرق الأطباء ، وقامت الطباخة الأوكرانية ذات العينين السوداوين الصغيرتين

www.alkottob.com

بخدمة تانيا ، ووقفت بجانبها وقد عقدت يديها الداكنتين فوق صدرها . وقالت :

ـ إن الحرب تقترب من نهايتها . هل ذهبت يا تانيا فلاديميروفنا إلى بلدة زميرنيكا .

وكانت تانيا تحب الطريقة الأليفة التي تخاطبها بها الطباخة . وأجابت:

ـ لا لماذا ؟

فقالت الطباخة :

ـ إن زميرنيكا هي موطني .

وابتسمت في ارتباك وكأنها تتحدث عن شيء مقدس .

وسألتها تانيا :

ـ أنت تتوقين للعودة إلى بلدك ؟

ـ أجل .

ـ أما أنا فبلدتي هي بوخنوف ، وقد دمرت عن آخرها . كانت بلدة صغيرة جداً ربما لم تسمعي عنها أبداً .

ـ ولم لا ؟ لقد سمعت عنها بالطبع في مكتب الاستعلامات .

تركت تانيا غرفة الطعام وكانت السيارة في انتظارها . وكانت الثلوج تنهمر بغزارة على سطحها الأملس وتذوب فوقها ببطء وكان السائق يغالب النعاس وراء عجلة القيادة . وفتحت تانيا باب السيارة ، وجلست بجواره . فحفل ثم حياها ، وقال :

ـ هل ترغبين في قيادة السيارة بنفسك يا تانيا فلاديميروفنا ؟

ـ لا ، قدها أنت .

كانت تانيا تفكر في مقابلتها الأخيرة مع لوبنتسوف وهي تبتسم ابتسامة شاردة وتتطلع إلى الأشجار العارية على جانبي الطريق . وكفت عن الابتسام حين تذكرت فراقهما ذلك اليوم . لقد ودعها لوبنتسوف بشيء من الجفاف . لم يكد يرى بعض سيارات فرقته حتى أسرع إليها وكأنه لا يطيق الرحيل إلا في تلك السيارات بالذات .

كان كراسيكوف يقطن منزلا صغيراً محاطاً بسياج حديدي في القرية التي أتخذت مقراً لقيادة الفيلق . وفي النافذة بيغاء أصفر يرفرف في قفص كبير ورثه كراسيكوف عن أصحاب المنزل السابقين . وحين دخلت تانيا حياها البيغاء بصوت أجش : « الوداع ... الوداع ! »

لم يكن سيمون سيميونوفيتش بالمنزل ، ولكنه سرعان ما اتصل بها تليفونياً وكان من عادة كراسيكوف حين يتحدث في التليفون أن يتكلم بصوت مرتفع ولهجة واثقة ويجلجل ضاحكا . ولكنه في هذه المرة كان يهمس ويتكلم بسرعة :

ـ أعذريني يا تانيا ... لقد جاء الجنرال سيزوكريلوف فجأة .

وقالت تانيا :

ـ حسناً ، سأنتظر .

ـ لـ ... لا ... لا داعي لذلك . سأتأخر بعض الوقت .

www.alkottob.com

وأضاف بلهجة حازمة وكأنه يصدر أمراً إلى أحد الضباط .

ـ أمامنا عملية معقدة ، وعلينا أن نستعد لها . بلغى أورطتك أن تكون على استعداد هى أيضاً إلى اللقاء .

وصاح البغاء : « الوداع ... الوداع ! »

وعادت تانيا وهى فى حالة من القلق والضيق لا تتبين كنهها . فسيمون سيميونوفيتش لم يغضبها ، ولكن فى لهجته شىء لم يعجبها . ربما كان خوف كراسيكوف من عضو المجلس الحربى هو الذى أثارها . ولم تكن تانيا مخطئة فالحقيقة أن كراسيكوف كان خائفاً ، فحب الجنرال للانضباط ، وعيناه الناحصتان الباحثتان عن الأخطاء مضرب الأمثال . هذا إلى جانب أن سيزوكريلوف لم يكن يطيق « حب المعسكرات » . ومن المؤكد أنه فى كل مقابلة تتم بين كراسيكوف والجنرال كان هذا الأخير يسأله عن زوجته وابنته .

هل يتعمد الجنرال ذلك ؟ هل يعلم شيئاً عن إعجابه بتانيا ؟ ربما . فقد كان الجنرال يدهش الضباط بمعلوماته المفصلة الدقيقة عن عملهم وحياتهم الخاصة وكان سيزوكريلوف يزور قوات الدبابات فى مهمة عاجلة كلفته بها القيادة العليا ويصحبه جنرال من سلاح الدبابات ، يقود التشكيلات المصفحة التى وصلت لتوها إلى الجبهة . وقام بزيارة سريعة لمقر القيادة حيث قائد الفيلق ومعاونوه . وهكذا تحدث عضو المجلس الحربى مع كراسيكوف لمدة خمس عشرة دقيقة .

لم تكن لدى سيزوكريلوف أية فكرة سيئة عن كراسيكوف ، بل كان يقدره لطاقته وشجاعته ومقدرته على التنظيم .

صحيح أن الجنرال يعتبر كراسيكوف غير قادر على التفكير المستقل ولكنه يستطيع تنفيذ الأوامر بكل دقة

وكان سيزوكريلوف كثيراً ما تستثيره تلك الكفاءة الآلية . فهو حين يرأس اجتماعاً أو يصدر أمراً يتوق لسماع الاعتراضات المبنية على أسس عملية ، والتعديلات القائمة على التجارب الشخصية لمرؤوسيه . وكان يشترك فى المناقشات بحيوية ، ويجادل بحرارة ، وأخيراً يصل إلى القرارات واضعاً فى اعتباره جميع وجهات النظر .

جلس الجنرال أمام كراسيكوف ووجه جامد لا يفصح عن شىء . واستمع إلى تقريره وأعطاه التوجيهات اللازمة لتحسين أعمال المؤخرة وحذره من المشكلات الجديدة الناشئة عن التقدم فى الأراضى الألمانية . قال :

ـ هنا يجب اتخاذ أقسى الإجراءات ضد من يخرقون النظام العسكرى .

وأجاب سيمون سيميونوفيتش :

ـ أجل أيها الرفيق الجنرال .

ونظر إليه سيزوكريلوف من تحت حاجبيه المقطبين ، فقد ضايقه

www.alkottob.com

أن يسارع كراسيكوف إلى موافقته دون تمهل أو تفكير .

وواصل حديثه :

ــ قد يكون من الصعب كبح جماح جنودنا بعد الفظائع التى ارتكبها الألمان فى وطننا . مارأيك ؟

ــ تمام أيها الرفيق الجنرال .

ــ من المهم عمل ذلك . يجب شرح الأمر لهم بصبر وبالتفصيل : ستتخذ إجراءات نظامية بما فى ذلك عقد المجالس العسكرية ضد المخالفين . يجب ــ ونحن نحطم الفاشية ــ أن نعطى للشعب الفرصة لخلق ألمانيا ديمقراطية ، ونكتل القوى للنضال ضد الاقلية المالية المتحكمة ، ليس فى ألمانيا فقط ... ليس كل الألمان أعداء لنا ، ويجب أن يتعلم رجالنا التمييز بين الطيب والشرير .

قال كراسيكوف :

ــ أجل ، أيها الرفيق الجنرال .

وأنهى الجنرال حديثه وهو يتجه ببصره نحو النافذة ، وقد بدا عليه عدم الارتياح :

ــ ولكن يجب أن نلقن الألمان درسا لاينسوه حتى يتعلم أحفادهم ألا يحاربوا روسيا ، وروسيا السوفييتية بالذات .

ــ مفهوم أيها الرفيق الجنرال .

وسأله الجنرال سؤالا غير متوقع :

ــ ماذا فهمت ؟

فارتبك كراسيكوف ، وقال سيزوكريلوف مؤكدا :

ــ إن مهمتك ألا تسمح بأى خرق للنظام فى جيشك على الرغم من عدالة الرغبة فى الانتقام التى تملأ قلوب جنودنا .

وبعد فترة صمت سأله الجنرال :

ــ ماهى أخبارهم فى الوطن ؟ هل زوجتك وابنتك بخير ؟

ــ بكل خير .

ونهض الجنرال . وقال الكولونيل :

ــ هل أصحبك ؟

ــ لا ، لاداعى .

وسار كراسيكوف مع الجنرال إلى سيارته ووقف انتباها حتى اختفت فى الظلام وخلفها ناقلة الجنود المصفحة .

وأحس سيميون سيميونوفيتش بتأنيب ضميره بسبب ثانيا . وعلى الرغم من شوقه الشديد لرؤيتها ، إلا أنه لم يجرؤ على طلب الكتيبة الطبية تليفونيا فى ذلك اليوم

www.alkottob.com

١٩

بعد مسيرة اليوم التالى عسكرت الكتيبة الطبية فى قرية مخبوءة فى أعماق غابة شنيدموخ المعروفة باسم « ستاد فورست » . وضربوا الخيام فى الصباح وأفرغ رئيس مستشفى الميدان محتويات صناديقه الطبية وهو متذمر .

وفى الفجر اغتسلت تانيا وارتدت ملابسها وذهبت إلى خيمتها .

وقف راتكوفسكى عند التقاطع التالى وقد تجمع حوله عدد من الرجال والنساء العجائز يتمتمون بالألمانية . فعلى الرغم من أن أحداً لم يطلب منهم أن يرحلوا عن القرية إلا أنهم جاءوا يسألون الضابط الروسى هل بإمكانهم البقاء فى القرية أم عليهم أن يغادروها .

ودهشت تانيا لرؤيتهم . ولم يكن مصدر دهشتها أن ترى مثل هؤلاء الألمان العجائز لأول مرة ، وإنما لأنها اختزنت فى أعماقها قدراً كبيراً من الكراهية للألمان خلال تلك السنوات الأربع الرهيبة حتى لم تعد تعترف بأن للألمان أحاسيس وأفكارا وصفات مثل بقية البشر . فكلمة « ألمانى » كانت تذكرها بالقرى والمدن المشتعلة حيث عاش الروس فى مخابىء تحت الأرض ، وتذكرها بالطائرات السوداء التى تلقى

القنابل على النساء والأطفال ؛ وتذكرها بالقنابل التى دمرت المستشفيات والقطارات ، وتذكرها ـ أخيراً بزوجها الذى مات فوق تل مجهول على شاطىء نهر روسيا العظيم .

أخذت تتأمل ببرود هؤلاء الباكين . حقاً ، إنهم لا يخجلون ! وهل يحق لهم أن يبكوا بعد أن أسالوا كل تلك الدموع ؟

وأدهشها أن أشجار الصنوبر والبلوط نفسها التى تنمو فى بلدتها يوخوف تنمو هنا أيضاً فى ألمانيا . وأدهشها أيضاً أن ترى فى ألمانيا رجالا ونساء وعجائز على وجوههم تجاعيد وفى مآقيهم دموع وليس فى مظهرهم ما يذكرها بأحفادها إلا تلك الرطانة الغريبة التى يتحدثون بها والتى تؤكد — على الرغم من كل شىء — أنهم ألمان .

ومع ذلك فهم بشر . وشعرت تانيا بالأسف من أجلهم فى المدى البعيد . كان منظرهم يكشف عن مدى الكبت والخوف الذى تملكهم والذى يجاهدون من أجل إخفائه ، وكأنهم ينصتون بآذان أصمها الرعد إلى عالم مكفهر معاد لهم .

قال رجل عجوز أصلع شاكيا لتانيا باللغة الروسية وهو يكرمش قبعته بيده :

— يارفيقة ... يارفيقة ...

أين تعلم هذه الكلمة ؟ ربما تآخى مع الجنود الثوريين الروس عام ١٩١٨ . وكان بغيضاً إلى النفس أن يسمع الإنسان كلمة من لغة بلاده

www.alkottob.com

تخرج من فم كريه لألمانى معاد . هل هناك معنى وراء هذه الكلمة سوى العبودية والخوف ؟ وفكرت تانيا : لقد تأخرت أيها العجوز فى إدراك أننا رفاق .

ووصل أول جرحى المعركة .

من الممكن معرفة شخصية المقاتل من معرفة طبيعة جرحه . بدأت المعركة بهجوم على خطوط الدفاع الألمانية الحصينة ، وكانت الإصابات الغالبة فى الأرجل والأذرع بسبب انفجارات الألغام . وكان الجرحى يهدأون بمجرد رؤيتهم تانيا ، فليس من اللائق أن يصيح الرجل ويئن أمام سيدة صغيرة جميلة . وكان الجرحى الأكبر سناً والأكثر خبرة يتساءلون : أليست صغيرة أكثر من اللازم ؟ وهى تبدو فى زيها الأبيض أصغر من سنها الخمس والعشرين . ويظنها الجرحى ممرضة . ولكن ، لا إنها طبيبة . فالممرضات يتحركن من حولها باحترام . وتكفى نظرة أو كلمة منها لتكون أمراً مفهوما . وفى عينيها الرماديتين الثقة الراسخة التى يتصف بها من يجيدون عملهم . كان الجرحى يطمئنون إليها ، بل يحاولون الإبتسام ليحظوا منها بالرضى والعطف . كانت تقول : « أنت فتى طيب ، وجندى حق . أنت رائع برغم صغر سنك » ! أو تقول : أنت رائع برغم كبر سنك » .

وفى أثناء إجراء العمليات المعقدة كانت تتكلم كثيراً وتسأل الجرحى بلطف :

— ماذا يؤلمك ياعزيزى ... لا تنظر إلى الجرح فهو لا يستحق هذا الاهتمام كله ... وماذا تعرف عن الجراح ؟ إنها قد تبدو كبيرة مخيفة وهى لا تعدو فى الحقيقة أن تكون مجرد خدوش بسيطة .

واستمر تدفق الجرحى . وبدت المناشف الملطخة بالدماء وكأنها تسبح أمام عينيها . وكانت الممرضات اللاتى اعتدن على المرح تتنقل حول تانيا فى هدوء وكل يقظة وانتباه .

لمحت تانيا فى إحدى الخيام جريحاً ليس غريباً عليها . وعندما عادت إلى منضدة العمليات ظلت تحاول تذكر أين رأت هذا الوجه ، ولكن عبثاً .

وجاءوا برجل مصاب بجراح فى أمعائه ، ثم بمدفعى شوهت النيران وجهه . وأخذت تانيا تطل من فوق قناعها الطبى الأبيض بعينيها الرماديتين الكبيرتين وهى تنظر نظرات ثابتة هادئة إلى هذا العالم الصغير من الجراح والأنين المستسلم لإصابعها الماهرة .

ظل الأطباء والممرضات يأتون إليها يستشيرونها ويستعينون بها فتتحرك ببطء إلى المنضدة الثانية ، أو تطل من بعيد وتنظر بعناية إلى الجرح ثم تومىء برأسها علامة الموافقة ، أو تهزها كناية على الرفض ، وتقول بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم تعود إلى منضدتها .

وكانت ماشا تدخل أحياناً إلى خيمة تانيا وتنظر إليها بعطف

www.alkottob.com

وحنان ثم تعود ثانية إلى خيمتها وتقول :

ـ سوف تصح تانيا جراحاً بارعا إذا لم يدر الرجال رأسها .

وتبحث عن راتكوفسكى وتهمس فى أذنه بصوت مسموع :

ـ إنها تعمل منذ الصباح الباكر . دعها تتناول شيئاً من الطعام ، ولو فنجالا واحداً من الشاى . أنت ترهقها بالعمل !

وجاء كراسيكوف نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وسأل :

ـ حسناً ، ما الأخبار ؟

وقدم راتكوفسكى تقريراً عن عدد الجرحى الذين ضمدت جراحهم والذين لم يعالجوا حتى الآن . وسأله كراسيكوف :

ـ متى ترحلونهم ؟

ـ عند المغرب أيها الرفيق الكولونيل .

دخل كراسيكوف خيمة العمليات . كانت أول مرة يرى تانيا وهى تعمل . وكان أول ما لفت نظره هو أنها تبدو رشيقة فى هذا الزى الأبيض ، وحزامها مشدود حول وسطها . ولكن بعد أن راقب حركاتها الدقيقة الواثقة وسمع صوتها الهادىء أحس نحوها بشعور عميق من الإحترام ، بل أحس بمثل هذا الشعور نحو نفسه أيضاً ، وفكر مبهوراً : أنا لم أخطىء ... إنها امرأة رائعة حقاً ... ونظر طويلا إلى مؤخرة رأسها وإلى شعرها الناعم تحت قبعتها البيضاء ثم انسحب بهدوء .

ووضعوا على مائدة تانيا الجندى ذا الوجه المألوف . وعندما رفعت الأربطة عن ذراعه اليمنى رأت يده المهشمة وأدركت أنه قد يتحتم بترها . وقالت تانيا :

ـ لا تأبه بشىء . وكن صبورا . سأنظف جرحك الآن ، وستحس بالألم قليلا . لاتأبه ، يابو العيون السود ، .

وهمس الجريح :

ـ أنا ...

فى تلك اللحظة عرفته . إنه ، سائق العربة . وتذكرت مظهره المهذب فوق المقعد . ودق قلبها بعنف . ولاحظت الممرضة شحوبها المفاجىء ، فقالت :

ـ تانيا فلاديميروفنا ، أنت فى حاجة للراحة .

ـ أجل ، ربما .

وافقتها تانيا وهى تفكر فى لوبنتسوف وتمنت ألا يصيبه مكروه . ولكنها تغلبت على ضعفها العارض وبدأت تجرى العملية . ونام ، سائق العربة ، تحت تأثير المخدر وهو يعد بصوت مترنح :

ـ واحد وعشرين ... اثنين وعشرين ... ثلاثة وعشرين ...

وعندما انتهت العملية دخلت ماشا إلى الخيمة بهدوء وهى تخفى إعجابها وإشفاقها وراء قناع من الغضب المصطنع . قالت :

www.alkottob.com

ـ هل تتفضلين بالذهاب للنوم فى الحال . لم يبق سوى عدد قليل من الجرحى ، وفى وسعنا أن نضمد جراحهم دون ماحاجة إليك .

وأذعنت تانيا ، وغسلت يديها ، وخلعت رداءها الملطخ بالدماء ، وارتدت معطفها ، وخرجت من الخيمة . وكان الليل قد أرخى سدوله والريح الباردة اللاسعة تعوى حول المنازل . وسارت تانيا فى الشارع دون أن تفكر فى شىء . ولم تستجمع أفكارها إلا عند مشارف القرية حين سمعت من خلفها صوت راتكوفسكى :

ـ تانيا فلاديميروفنا ، من فضلك إذهبى للنوم فوراً .

وعادت أدراجها وهى تقول متوسلة :

ـ سأعود بعد قليل . دعنى استنشق الهواء قليلا .

واتجهت نحو المنزل الذى تعسكر فيه سرية المستشفى . وكانت أنات الجرحى وأصواتهم الخافتة تنبعث من كل مكان فى البيت حتى من الممر الضيق . ووقفت الممرضات النوبتجيات تقدمن لتانيا تقارير عن شكايات الجرحى وعمن ساءت حالتهم منهم .

وتنقلت تانيا ببطء بين الأسرة وهى تنصت إلى أحاديث الجرحى . كان أحدهم يقول وهو يلف سيجارة بيده اليسرى :

ـ إن الألمان مازالوا يقاومون .

كانت يده اليمنى مجروحة . وقد لفت بالضمادات . وكان يجلس فوق سريره وقد ارتسم الهدوء على وجهه وهو يقول :

ـ لن يستطيع إنسان أن يصمد أمامنا الآن .

وقال آخر :

ـ إن هتلر يفر حتى فى أرض بلاده ، فإلى أين يهرب الآن ؟ هل سيلجأ إلى الأمريكان ليختبىء عندهم ؟

وسمع صوت ثالث كالأنين ، كان صاحبه يرقد على سريره ويحاول أن يشترك فى الحديث ، وبيّن ويتنفس بصعوبة :

ـ إذا فكرنا قليلا فسنرى أن الفاشيست الألمان سينسحبون مع الأمريكان ، فكلاهما « زى الزفت » .

ورقد « سائق العربة » على سرير قصى وهو شاحب الوجه . وكان قد أخبر تانيا أن اسمه كاليسترات إيفجرافوفيتش . ولم يكن هذا الاسم الوقور الطويل يتناسب مع وجهه الشاب . وسألته :

ـ ألا تعرفنى ؟

وفى الحقيقة كان الجندى قد عرفها منذ الصباح ، ولكنه رأى أن الوقت غير مناسب لتذكيرها بنفسه . وقال بهدوء :

ـ لم يخطر ببالنا حينئذ أن هذا سيحدث .

وبعد أن توقف لحظة سألها بخجل :

ـ كيف حال يدى ؟ أنا من رماة الجيش . وفى وقت السلم أعمل نجاراً . ويجب ألا أفقد إحدى يدى .

www.alkottob.com

وأجابت إجابة ملتوية :

ـ سوف تتحسن .

كان الجرحى يئنون كالعادة . ولكن تانيا لاحظت لأول مرة شيئاً لم تلحظه من قبل . لم يكن الرجال يشعرون بالغبطة لنجاتهم من الموت بل كانوا يشعرون بالمرارة لأن جراحهم تمنعهم من مواصلة الحرب حتى نهايتها ، وتوقفوا هكذا وهم قيد خطوة من برلين .

وقصفت المدافع فى الفضاء ، وأنصت الجنود لصوتها وهم شاردون حالمون ، كأنهم عجائز ينصتون إلى قصص أيام الشباب الذهبية ، العامرة بالمتاعب والأمجاد !

٢٠

كانت فرقة الجنرال سيريدا تهاجم من كل جانب . وكان قائد الفيلق وقائد الجيش يتصلان به كل ساعة تقريباً ويسألانه عما إذا كان سيتأخر أكثر من ذلك فى الاستيلاء على شنيدموخ . أما الفرق الأخرى فقد وصلت إلى القرب من الأودر بينما سيريدا ما يزال عاجزاً عن الاستيلاء على ذلك « الجحر » الصغير الحقير .

كانت شنيدموخ تسمى فيما مضى بالقلعة عن جدارة . أما اليوم فيسميها قائد الجيش بسخرية لاذعة « الجحر الصغير » ، بل إنه نصح سيريدا صادقاً أن يقرأ كتيبات الجيب الشهيرة عن حرب الشوارع ، وعلى الأخص ذلك الكتيب الذى يصف إبادة الألمان المحصورين فى ستالنجراد .

وتقبل سيريدا تلك النصيحة وهو غاضب .

كان الجنرال يقود المعركة من البرج الذى اختاره ضابط الحرس لوبنتسوف مركزاً للمراقبة ، والذى انتصب فى طرف القرية على بعد كيلومتر ونصف كيلومتر من شنيدموخ . ومن هذا البرج ، ومن خلال منظار

www.alkottob.com

الميدان ، يمكن رؤية كل شيء في المدينة بوضوح : مراكز الألمان المنبثة بين المنازل التي دمرتها القنابل ، والمتاريس والحواجز الممتدة عبر شوارع الضواحي ، والكوبرى الكبير ، وشريط السكة الحديد الذى ركب عليه العدو المدافع الرشاشة .

وإلى اليسار تظهر مباني مصنع ألباتروس . وهذا المصنع هو محور خطة الدفاع الألمانية . فهناك نصبوا المدافع الرشاشة وحشدوا الجنود المسلحين .

ومن حين لآخر ترحف الدبابات من وراء المباني وتطلق بعض القذائف ثم تختفي من جديد في مكان آخر .

كان لوبنتسوف في برج المراقبة مع قائد الفرقة . وكان البرج يعج بطاقم ضباط القيادة المعهود ، ورجال المدفعية والإشارة ، وقد زود بالأطعمة في أواني الترموس ، وصحف موسكو التي مضى على صدورها سبعة أيام أو ثمانية . وتذكر لوبنتسوف صحف برلين التي قرأها في مكتب البريد فلم يتمالك نفسه من الابتسام حين فكر في المسافة الطويلة التي قطعها الجيش .

وفي مركز المراقبة كان الجنرال سيريدا لا يهدأ فهو أحياناً ينظر خلال منظاره ، وأحياناً أخرى يؤنب رجال الإشارة لخطئهم في تلقي الرسائل ويتدخل بنفسه لإحكام تصويب المدفعية على الأهداف . أما الآن فهو يجلس أمام خريطة بجوار نافذة البرج المعقودة .

كان المهاجمون يتقدمون شبراً شبراً والألمان لا يكفون عن شن الهجمات المضادة . وفي اليوم التالي أسقطت طائرة ألمانية وحيدة بعض المنشورات فوق المدينة . عثر لوبنتسوف على أحدها وأحضره للجنرال كان أمراً إلى حامية المدينة للدفاع عنها مهما كان الثمن . « لا تسلموا مفتاح برلين للبلاشفة » . ويختتم المنشور بعبارة مكتوبة بالبنط العريض وبلهجة تدعى الاعتزاز والثقة في النصر : « الدبابات في الطريق لنجدتكم » .

وانفجر الجنرال صائحاً :

— لا حياء عند هؤلاء الألمان . أي دبابات ؟ من أين ؟ آه يا كذابين .

وسادت لحظة صمت ثم قال بلوتنيكوف :

— دقيقة واحدة . يجب أن تفتح عيون هؤلاء الأغبياء المدافعين عن شتيدموخ . سأدبر ذلك .

والتفت إلى لوبنتسوف :

— إنني بأسيرين . أنت تعرف طبعاً ... من النوع العاقل .

وفي المساء سحب رجال القسم السياسي مكبراً للصوت إلى المراكز الأمامية . وذهب أوجانسيان معهم وكتب الماجور جارين بياناً إلى حامية شتيدموخ . وعكف أوجانسيان على ترجمة النص الروسي إلى الألمانية مدة طويلة وهو يتصبب عرقاً . وأخيراً تم إعداد كل شيء .

www.alkottob.com

وفى المساء وجد لوبنتسوف طاقم الإذاعة فى المراكز الأمامية من خنادق الأورطة وكان أوجانسيان يراجع النص . وأعطى الأسيرين الأقلام الرصاص ليسجلا أحاديثهما فى مفكرة جارين . وقرأ أوجانسيان ما كتباه وترجم لجارين وناقش بعض التفاصيل . وأظهر الأسيران « مبادرة طيبة » ، على حد تعبير لوبنتسوف ، فقدما مقترحات كثيرة «لجعل الإذاعة أعمق تأثيراً » .

بدأ أوجانسيان يتكلم .

أحدثت الكلمات الألمانية صمتاً رهيبا . وتوقفت المدافع الرشاشة عن إطلاق النار ، وحتى المدافع الصاروخية توقفت أيضاً .

وعادت دلائل الحياة تدب فى الصفوف الألمانية من جديد عندما بدأ أحد الأسيرين يتكلم . وترددت فى الضواحى أصداء انفجارات قنابل المورتر المعولة وانضمت إليها طلقات بندقية سريعة وهى تحشرج محاولة إغراق أثر الكلمات . ومع ذلك حاول الأسيران مواصلة حديثهما بين فترات إطلاق النار .

استدعى لوبنتسوف إلى برج مراقبة قائد الكتائب اللفتنانت كولونيل تشيتفيريكوف . ووصل قائد الفرقة إلى هناك ليتأكد من استعداده لهجوم الصباح .

كان الجنرال سيريدا والكولونيل تشيتفيريكوف موجودين فى برج

المراقبة ومعهما الماجور ميجايف وقائد مدفعية الفرقة اللفتنانت كولونيل سيزيخ الطويل القامة الضخم الجثة .

سأل الجنرال قائد الكتائب عما إذا كان الرجال قد احتشدوا بالقرب من العدو كى يختصروا مسافة الهجوم ، فأجابه الكولونيل : « نعم » فقال قائد الفرقة :

— هيا بنا .

ساروا نحو المراكز الأمامية فى صمت . الجنرال فى المقدمة ، وخلفه تشيتفيريكوف ثم سيزيخ ولوبنتسوف ، ووراءهم جنود المراسلة الذين يأتون بأنباء المؤخرة ، وظل الماجور ميجايف فى مقر القيادة بأمر من الجنرال .

توقف الجنرال عند مركز مراقبة الفصيلة الأولى — وكان خندقاً ضيقاً مبطناً بالقش على تل صغير منخفض . ولم يلاحظ قائد الأورطة وصول رؤسائه . وكان ضابطاً نحيلا فظاً برتبة ماجور . كان ينظر خلال منظاره المعظم إلى معالم المنازل المعتمة ويصيح فى التليفون :

— هل ترى منزلا أبيض بالقرب من البناية الحمراء إلى اليمين ، هناك مدفع رشاش فى البدروم . انسفه .. انسف هذا المدفع البغيض .. انسفه ، أرجوك كأخ .

وإذ لاحظ الماجور وجود الجنرال أخيراً ، ألقى سماعة التليفون وهب واقفاً يقدم تقريره :

www.alkottob.com

ـ أيها الرفيق الجنرال ، أنا الماجور فيسيلشاخوف قائد الأورطة الأولى . والأورطة الآن تهاجم قلعة شنيدموخ .

فأجاب قائد الفرقة متبرماً :

ـ قلعة ، قلعة ... أى قلعة هذه ؟ هذا الجحر الصغير القذر . لماذا لا تتقدم إلى الأمام ؟

وبدأ فيسيلشاخوف يشرح . ولكن بدا أن الجنرال لا يريد أن ينصت . وأخذ المنظار من قائد الكتيبة وجال به فوق خطوط العدو ولم يقل قائد الكتيبة شيئاً . وساد صمت ثقيل . ودعدم مدفع رشاش بالقرب منهم .

أنزل الجنرال المنظار ، وقفز بخفة فوق الحاجز وتقدم إلى الامام بخطى وئيدة . وذهبوا إلى منخفض صغير نمت فيه الشجيرات الصغيرة وقال الجنرال :

ـ أبقوا هنا . سأذهب إلى هذا الكوخ واتبعونى واحداً واحداً .

وقال سيزيخ :

ـ لماذا تذهب بعيداً إلى هذا الحد ؟ إذا عرف قائد الفيلق هذا فسيغضب ويتسبب لنا فى المتاعب .

فأجابه قائد الفرقة :

ـ حسنا ، إذا لم تخبره أنت فلن يعرف شيئاً .

ونصحه لوبنتسوف قائلا :

ـ أيها الرفيق الجنرال ، أخلع شارات رتبتك

ومشى الجنرال بخفة ـ دون أن يجيب ـ مجتازا البقعة المكشوفة إلى الكوخ الذى يوجد به مقر قيادة إحدى الفصائل . كانت جدران الكوخ كالغربال بفعل الرصاص ، وقائد الفصيلة يجلس مختبئاً بالموقد يكتب .

وإذ رأى الملازم أمامه قائد الفرقة هم بالنهوض لحذره الجنرال قائلا:

ـ خذ راحتك ! أين رجالك ؟ ولماذا لا يتقدمون ؟

وأخذ الملازم يشير إلى مراكز الرجال على الخريطة ، ولكن الجنرال قاطعه بصبر نافد :

ـ لاداعى لاستعمال الخريطة ، فلسنا فى مكاتب القيادة . هيا بنا .

ـ إن النيران مركزة وحامية هنا ...

كان الملازم حريصاً على سلامة الجنرال ، ولكن الجنرال كان قد سبقه بخطوات وئيدة ، فتبعه الملازم .

مر جنديان من حاملى الذخائر وقد أحنيا ظهريهما بشدة وهما يجران صناديق الطلقات ، وعندما رأيا الجنرال هبا واقفين . وقال الجنرال :

ـ لاداعى للوقوف . من أى فصيلة أنتما ؟

ـ الفصيلة الأولى .

ـ أين زملاؤكما ؟

ـ فى الجبانة ، هناك .

www.alkottob.com

قطب الجنرال حاجبيه وقال :

ـ لقد اختاروا موقعاً حسناً .

أز الرصاص من حولهم ، وهبط الظلام . وذهب الجنرال إلى حيث تكمن الفصيلة الأولى يتبعه الملازم والحالان . كان جنود الفصيلة يقعدون أو يرقدون فى الخنادق غير العميقة وظهورهم إلى الريح . سألهم الجنرال :

ـ لماذا تواجهون الألمان بظهوركم ؟

عرف الجنود قائد فرقتهم فهموا بالنهوض مسرعين . فقال الجنرال :

ـ انبطحوا .

وأنصت إلى أزيز الرصاص ثم سألهم :

ـ هل يبعد الألمان كثيراً عن هنا ؟ أم أنكم لاترون بأعينكم ؟

ـ إنهم قريبون من هنا ... وهم يمطروننا بوابل من رصاص مدفع رشاش .

ـ كم يبعدون ؟

ـ مائة متر .

ـ حسناً ، لنذهب ونر .

وتقدم الجنرال والجنود فى صف واحد ، وقطعوا نحو مائتى متر فى الظلام الدامس . ولفحت الريح وجوههم . وأنصت الجنرال ثم قال :

ـ فى وسعكم أن تحفروا خنادقكم هنا . أعتقد أن الألمان يبعدون مائتى متر من هذه النقطة ...

والتفت إلى أحد الجنود قائلا :

ـ أترى أن الألمان يمطرونكم بوابل من رصاص مدفع رشاش ؟ أليس كذلك ؟

ولم يحر الجندى جوابا .

وصل تشيتفيريكوف ، وسيزيخ ، ولوبنتسوف ، وقائد الأورطة ، وقائد الفصيلة ـ وصلوا الواحد بعد الآخر بهدوء . واستدار الجنرال على عقبيه دون أن ينظر إليهم . وتبعه الضابط فى صمت . وأخذت الرشاشات الألمانية تدمدم . يبدو أن العدو قد لاحظ حركتهم فى الظلمة أو ربما سمع أصواتهم

قال الجنرال حين وصل إلى مركز مراقبة قائد الاورطة :

ـ ستقوم كتيبتك بالاستيلاء على المصنع فى فجر الغد تؤازرك مدفعية الفرقة بأسرها . إن مصنع ألباتروس هو مفتاح الموقف ، ويجب الاستيلاء عليه بأى ثمن . سيستمر ستار النيران نصف ساعة ، وربما استمر ثلاثا وثلاثين دقيقة لمفاجأة العدو . وأنت يالوبنتسوف يجب أن تنظم عملية الاستكشاف . يجب معرفة مواقع مدفعية الألمان وبمنتهى الدقة .

وغادروا مركز مراقبة الأورطة .

www.alkottob.com

فى مقر قيادة الكتيبة رفض الجنرال تناول عشائه بإصرار .

والتفت إلى تشيتفيريكوف وميجاييف ، وقال وهو يبتسم ابتسامة مريرة :

— أتسمون هذا عملا ؟ وتصلنى التقارير عن النيران المركزة الحامية أى مفاجأة ! وهكذا لا يستطيع المشاة أن يتقدموا . لماذا أعد المشاة إذن ؟ يجب أن تكون هناك قيادة للمشاة ، يجب أن تؤمر . أم أنكم نسيتم هذه البديهيات ؟ أو ربما تظنون أن الزحف سيتم تلقائياً . ادفعوهم وانظروا النتائج .

عاد الجنرال إلى مركز مراقبته . وترك سيزيخ ولوبنتسوف يدخلان أولا ثم أحكم إغلاق الباب الصغير خلفه . والتفت إلى قائد المدفعية وقال :

— هل تعرف يا رفيق ، إن الرجال على حق . الحرب تقترب من نهايتها . وكل إنسان يريد أن يحافظ على حياته يا عزيزى قائد المدفعية . كل إنسان يريد أن يعود إلى بلدته ويستعرض نياشينه ثم يبنى حياة سعيدة . ليس هناك معنى لوقوفه أمام مدفع رشاش ، كما أن ذلك ليس أمراً ضرورياً . أفهمت؟ ليس ذلك ضرورياً ! نحن بحاجة إلى رجال . أتظن أن المشاة سينهضون بالعبء كله . لا ، على قدر معرفتى — هذا مستحيل . يجب أن تساعدهم بمدفعيتك ! حطم هذه الرشاشات الألمانية ، وعندئذ يتقدم المشاة . ما رأيك ؟ ليست مضطراً للوقف فى المراكز

الأمامية ، ألم تصل إلى مركز قائد المدفعية . أليس كذلك ؟ أعلم أن المدفعية يجب أن تصب غداً نيراناً حقيقية على المدينة ، نيراناً محكمة على الأهداف المطلوبة . يجب ألا يستجدى قادة الاورط تأييد المدفعية بالتليفون ... يجب أن يكون قادة بطاريات المدفعية إلى جانب قادة الكتائب فى المقدمة . فهمت ؟ وأنت يجب أن تكون إلى جانب تشيتفيريكوف . أتذكر ما قاله بعض المجلس الحربى ؟ يجب أن نقاتل لنهزم الألمان فى ألمانيا ، كما قاتلنا لنهزمهم فى فيليكى لوكى !

خرج سيزيخ مسرعاً من مكان قائد الفرقة وقد أحمر وجهه خجلا وتصبب العرق على جبينه ، وجرى ليصدر أوامره . وأمر لوبنتسوف مراسله شوبيريوف بإسراج الخيل للذهاب إلى كتيبة تشيتفيريكوف .

وترك الجنرال وحده . وعندما جلس إلى الخريطة أحس أنه يفقد شخصاً ما . وفجأة شعر أنه يفتقد ابنته فيكا . كانت قد ذهبت لتقيم فى خط الدفاع الثانى . هل يطلبها تليفونياً ؟ لا ، فالوقت متأخر ، وهو لا يريد إيقاظها .

ولكن فيكا نفسها طلبته بعد عشر دقائق . وأحس الجنرال من نبرات صوتها أنها تفتقده كما يفتقدها . يبدو أنها تشعر بالوحدة بعيداً عن والدها . ولكنها لم تتحدث عن شىء من هذا ، وخاطبت والدها طبقاً للأصول المرعية فى الميدان « الرفيق رقم ٣٥ » ، وسألته عن الأحوال ، وعما إذا كانوا قد استولوا على الهدف رقم ٢٧ (مصنع

www.alkottob.com

ألباتروس) . واهتز قلبه بشعور الحب والإشفاق على ابنته . إن فيكا محتاجة إلى أم .

كان الليل بارداً عاصفاً . وقذائف الصواريخ تتفجر فى سماء البلدة . ودمدمة المدافع الرشاشة تملأ الأسماع .

تذكر الجنرال جنود الفصيلة الأولى ، وابتسم بأسى : ربما كان لكل واحد منهم أيضاً مشكلاته الخاصة المعقدة . ولكن هذه المشكلات الخاصة يجب أن تأتى فى المرتبة الثانية فى هذه الليلة التى تسبق المعركة . إن أهم حقيقة فى الوجود الآن هى أنهم على بعد مائتين وأربعين كيلومتراً من برلين ، بينما الفرق الاخرى تشق طريقها إلى الأودر .

وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة قام الكولونيل كراسيكوف بزيارة الجنرال ، وبعد أن درس خطة معركة الغد سأل الجنرال بصوت قلق :

ـ هل ستحتل المصنع ؟

وأجاب قائد الفرقة :

ـ نأمل ذلك .

قال كراسيكوف بشيء من الخبث :

ـ لقد أبلى فوروبيوف بلاء حسناً . ألا تحتاج إلى مساعدة مدفعية الفيلق ؟

فأجاب الجنرال بغضب :

ـ سنعتمد على أنفسنا . من الافضل مساعدة فوربيوف .

وسرعان ما استدعى كراسيكوف إلى مقر قيادة الفيلق . وانفرد الجنرال بنفسه مرة أخرى .

غادر سيريدا مكمنه عند الفجر وذهب يتفقد ضباطه . وألقى نظرة فاحصة طويلة خلال منظاره المعظم ثم قال :

ـ هاهو ذا ... ذلك « الجحر الصغير » .

ونظر حوله فلاحظ أن الجميع واقفون ، فقال :

ـ إجلسوا . أيسركم أن تنهضوا وتتوقفوا عن العمل لأية مناسبة ، أيها الكسالى !..

وصمت قليلا ثم قال :

ـ أين سيزيخ ؟ آه ... إنه مع تشيفيريكوف . ونظر إلى ساعته وقال

ـ حسناً ، لقد حان وقت العمل !

---

www.alkottob.com

٢١

كمن لوبنسوف ورجاله فى فجوة بين بعض النباتات الشوكية ، ونظر إلى المنازل الصغيرة المسورة ، وأكوام الحجارة والحديد الخردة المبعثرة إلى يمينه ، ومبانى المصنع الكبيرة التى تظهر وسط سحب الدخان وإلى يساره كمن صف من القناصة لا يكاد يرى من بين الشجيرات . وقبع ميشيرسكى وفورونين إلى جوار ضابط الحرس .

كان رجال الاستكشاف يغالبون النوم . كانوا مبللين صامتين وعليهم عباءات ملطخة بالطين والأوحال ، وقد بدا عليهم الوخم والتبلد حتى يخيل للمرء أنهم عاجزون عن الحركة والتفكير .

نظر إليهم لوبنسوف وقطب حاجبيه بحنق ، فقد كان يغلى كالمحموم . كان يتوق إلى الانتهاء من معركة شنيدموخ ، والتقدم مع الفرق الاخرى ناحية الغرب ، إلى برلين .

وفى تمام الساعة السادسة صباحا بدأ قصف المدفعية . واشتعلت منازل البلدة . وتصاعدت أعمدة الدخان والتراب بين مبانى المصنع . واندفع الرماة إلى الأمام . وأز الرصاص فوق رؤوسهم . وتنقل جنود الكتيبة

الطبية بين الخنادق وهم يحملون المحفات وقد شحبت وجوههم .

نظر لوبنسوف إلى ساعته . وفى تمام الساعة السادسة والدقيقة الثالثة والثلاثين تردد فى الجو ذلك الصوت المهيج المألوف ، صوت مدافع الكاتيوشا المجلجل ، ومدافع المورتر ، ذلك الصوت الذى يبعث الشجاعة فى قلوب الجند ويشعرهم بقوتهم التى لا تقهر .

هذه هى إشارة الهجوم .

ودبت الحياة بسرعة فى رجال الاستكشاف ، وطار النوم من جفونهم فى لحظة . وألقوا عباءاتهم جانباً وهبوا وقوفاً فى ستراتهم الخفيفة المصنوعة من اللباد ، وحول وسطهم أحزمة مشدوده تتدلى منها القنابل اليدوية فتكسبهم مظهراً رهيباً كالنور الضارية ، مظهراً يتناسب مع كشافة محنكين .

وتنهد لوبنسوف تنهدة عميقة وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال :

— هيا بنا .

انطلق رجال الاستكشاف فى الحال بين الشجيرات الصغيرة ، وزحف خلفهم رجلان من رجال الإشارة وهما يحملان أجهزة التليفون ولفات الأسلاك . وأخذت اللفات تصر وهى تنفك . وامتدت الأسلاك متثنية على الأرض الموحلة — زحف مستأنية ، ثم تثور ، ثم تقفز بحسارة إلى الأمام ، وهى تثنى فروع الشجيرات .

www.alkottob.com

وإلى اليسار سمعت صيحات ، هوراه ، خافتة بين زمجرة الرياح ودمدمة المدافع الرشاشة .

أخذ لوبتسوف يراقب خطوطنا باهتمام . ورأى أشباح الجنود الصغيرة تندفع إلى الأمام ، ثم تسقط فى الوحل ، ثم تندفع إلى الأمام من جديد وسرعان ما عادت هذه الأشباح إلى الظهور وراء أكوام الحجارة . واستيقظ الألمان . وأخذوا يطلقون مدافع الميدان ومدافع المورتر على مراكزنا . ولكن الرجال كانوا قد ابتعدوا عن دائرة الانفجارات .

انصرف لوبتسوف إلى الاهتمام بالخط التليفونى الذى توقف وتمدد على الأرض صامتاً لا يتحرك وكأنه فارق الحياة .

قال لوبتسوف لميشيرسكى وقد نفد صبره :

— سأواصل الزحف إلى الأمام . وحين تستولى الكتيبة على المبانى الأولى للمصنع توجه أنت إلى مبنى المضخة ، وسيكون فورونين وأنا فى انتظارك هناك .

بدأ لوبتسوف يتتبع الخط التليفونى . وأخذ شيبيريوف معه .

إذا نظرت إلى ميدان المعركة من بعيد تراه شريطاً متصلا من النيران ، قاحلا ، رهيبا ، عظيم الخطر ولكن ما إن تصبح فى قلبه حتى تراه غنياً بالمناظر المختلفة : فيه المنازل والمخازن ، والطرق والأشجار ، والممرات والحفر ، بل فيه زهور الزنبق الطويلة البيضاء الجميلة ، وفيه

رجال يتكلمون — بل يضحكون أحياناً ، وإن كانوا لا يفعلون ذلك إلا نادراً .

وواصل الرجلان التقدم . ووجه شيبيريوف المربع ذو العينين الصغيرتين الحادتين اللتين تطلان من فوق كتف لوبتسوف وكأنهما قد سمرتا فى ذلك الوضع . وحتى فى اللحظات التى ينبطح فيها لوبتسوف على الأرض حين يسمع صوت قذيفة كان وجه شيبيريوف يبدو وكأنه فوق كتف لوبتسوف اليسرى .

أصبح من العسير على لوبتسوف وشيبيريوف مواصلة التقدم ، إما بسبب احتدام المعركة ، أو لأنهما دخلا منطقة احتدم فيها القتال . كانت الأرض تتفجر تحت أقدامهما .

فى حفرة على جانب الطريق جلس ستة رجال ، كلهم جرحى ، يتحدثون : قال أحدهم دون اكتراث :

— إن فرتيز ما يزال يقاوم .

وقال آخر :

— لابد أنهم يعتمدون على الله ، فهذا المكان يكتظ بالكنائس كما تكتظ سهول الكوبان فى بلادنا بأهراء القمح .

وقال رجل يكبرهما سناً :

— أى إله هذا الذى يعتمدون عليه . إن هتلر هو إلههم ومعبودهم .

وحكى الرابع حكاية :

www.alkottob.com

— زارنا بالأمس فى الفصيلة ضابط برتبة جنرال ، وتولى بنفسه قيادة الهجوم . كان يتقدم وهو منتصب القامة ويأمرنا بالإنحناء اتقاء للطلقات . قال : « هناك جنرالات كثيرون يستطيعون إرسال أحدهم بدلا منى ، ولكن بدون الجنود لا يستطيع الجنرال الجديد أن يواصل القتال . . . » .

بالقرب من مبنى المضخات تمددت جثتا رجلى الأشارة إلى جوار إحد صناديق الذخيرة . والتقط شيبيريوف جهاز التليفون ولفة الأســـلاك .

وفى مبنى المضخات التقى لوبنتسوف ببعض رجال الاستكشاف من جماعة فورونين ، وأخبروه بأن فورونين يواصل التقدم وتركهم ليقوموا بأعمال المراقبة فى هذا المكان ، وقد انتظروا مجىء رجلى الإشارة طويلا ، ولكن دون جدوى .

قال لوبنتسوف :

— لقد قتلا .

صعد لوبنتسوف البرج وأخذ يرقب المعركة . وكانت مبانى المصنع الأولى قد سقطت فى أيدى رجالنا . ورأى صفوفاً جديدة من قواتنا تتقدم من المؤخرة . كان يبدو أن تشيتفيريكوف قد ألقى بالكتيبة الثالثة فى المعركة . وتجمع الألمان خلف المبنى الرئيسى الذى وصلوا إليه عبر خنادق الاتصال . وظهرت أربع دبابات على الطريق الطويل المستقيم

بجوار المبنى الرئيسى . وأخطر لوبنتسوف مقر القيادة تليفونيا بمكان احتشادات قوات العدو . وأحس بالرضا حين رأى أن مدفعيتنا بدأت تضرب الدبابات الألمانية ومشاة العدو بعد بضع دقائق من مكالمته . وانفجرت إحدى الدبابات والنار تشتعل فيها .

سرعان ما أدرك الألمان أهمية المركز الممتاز الذى احتله المراقبون الروس فى مبنى المضخات ، فبدأت القنابل تنفجر حول المبنى فاهتز وكأنه على وشك الانهيار . وانبطح لوبنتسوف على الأرض المبلطة بالأسمنت ، ثم أخذ ينهض ببطء وحذر وسرعان ما رأى غريمه : رأى مدفعاً أوتوماتيكيا يصب نيرانه على البرج ، رأى ماسورته الطويلة تبرز من بين الأنقاض . وصاح فى التليفون :

— مدفع أتوماتيكى فى أحد أركان ميدان برلين .

ولم تمض دقيقة حتى انفجرت قنبلة ، تبعتها أخرى ، بالقرب من المدفع الأوتوماتيكى . ومسح لوبنتسوف العرق المنصب فوق جبينه الملتهب ، وأحس بالامتنان العميق لضابط المدفعية البدين سيزيخ ولقائد الفرقة الذى لقنه درساً مفيداً .

هدأ المكان قليلا . وابتعدت أصوات المعركة . وجاء ميشيرسكى ورجاله . وواصل لوبنتسوف تقدمه يصحبه شيبيريوف ومتروخين ، وأخذوا معهم التليفون . أما ميشيرسكى فكان لديه جهاز .

وعاد وجه شيبيريوف يطل ثانية من فوق كتف لوبنتسوف . وبعد

www.alkottob.com

أن تتدموا نحو ثلاثمائة متر وجدوا أنفسهم مرة أخرى فى قلب المعركة وسط مبانى المصنع . وحتى شيبيريوف كان يهمس كل دقيقة :

— انبطح أيها الرفيق الضابط .

وفكر لوبنتسوف وهو يجرى من ساتر إلى آخر كلما سكتت الرشاشات : إذا كنت مازلت تذكر رتبتى فستقيمنى وتواصل التقدم . وسرعان ما أصبح التقدم متعذراً إلا بالزحف على البطن . كانوا يقصدون منزلا من أربعة طوابق حيث يمكن مراقبة ميدان المعارك بشكل أوضح . وصلوا أخيراً إلى الباب وهم يلتقطون أنفاسهم بصعوبة ودفع لوبنتسوف الباب فانفتح على غرفة كبيرة بها أرفف ومناضد كبيرة . إنه محل تجارى . وجلس جندى ألمانى عند النافذة المحطمة ، كان ميتاً والدماء تنزف من رأسه ، ولم يمنعه من السقوط سوى حافة النافذة التى استند إليها ، وإلى جانبه بندقية وكومة من القنابل اليدوية ذات المقابض الخشبية . والتقط لوبنتسوف بعض القنابل ، وحذا متروكين وشيبيريوف حذوه .

صعد لوبنتسوف وتابعاه السلم ، ودخلوا شقة بالطابق الرابع ونظر لوبنتسوف من النافذة فبهره مارأى . كان الدفاع الألمانى كله فى قبضته . فركب التليفون بسرعة . ورد عليه ميشيرسكى من عنبر المضخات على الفور :

— بلغ القيادة هذه الرسالة : جماعة من المشاة الألمان فى مكاتب المصنع إلى اليسار . فى ميدان برلين . قد الألمان فى خندق الاتصال . . قتل ؟ . . . لا ، إنهم يحتشدون للقيام بهجوم مضاد . سأبقى هنا فى الموقع رقم ٦٥ . إنه مركز ممتاز للمراقبة من الدرجة الأولى . إرسل إلى بعض الرجال . . .

وتوقف الخط التليفونى . وقال لوبنتسوف :

— متروكين . عد من حيث أتينا ، واصلح الخال فى الطريق ثم جئنى بالرجال .

اختفى متروكين . وبعد خمس دقائق عاد الخط يعمل من جديد . وصاح لوبنتسوف بسرعة :

— أربع دبابات تتحرك فى ميدان كوبر ، وثلاث أخرى قادمة من وسط البلدة على طريق سيمن . إنها الآن فى محاذاة المبنى الرئيسى . بلغ الجنرال أن يقوم بالهجوم فى جميع القطاعات فى الوقت نفسه . هذا هو السبيل الوحيد . فى الوقت نفسه ! فهمت ؟ إنهم يجلبون القوات من القطاعات الأخرى . .

وتوقف الخط مرة ثانية .

رفع لوبنتسوف بصره فرأى شيبيروف يأتى بحركات غريبة . كان يحملق من النافذة باهتمام زائد .

وأطل لوبنتسوف من النافذة إلى أسفل فرأى صفوفاً من الجنود الألمان تقترب من المنزل . ودمدمت المدافع الرشاشة بعنف ،

www.alkottob.com

وقصفت المدفعية الثقيلة . وامتزجت هذه الأصوات الرهيبة فى زمجرة وحشية وأصبح الألمان فى محاذاة البيت . وانسابوا حوله من كل جانب ثم واصلوا التقدم .

وابتعدت أصوات المعركة .

قال شيبريوف :

— إن رجالنا يتراجعون .

وسمعا صوت جنود ألمان فى أسفل السلم . ثم انقطعت الأصوات .

وقال لوبنتسوف :

— لاتقلق ، سوف نخرج من هنا .

وأضاف وهو شارد :

— سيقول لهم متروكين . .

زايل لوبنتسوف الاضطراب الذى تملكه فى الدقائق السابقة . يجب أن يكون هادئا حاضر الذهن . وذهب إلى الباب وأنصت . كان الهدوء يشمل البيت . واستدار إلى النافذة . كان الثلج الخفيف يتساقط . ورأى إلى جانب المنزل محطة بنزين مبنية بالطوب الأحمر تحمل لافتة ضخمة (شل) . وفى نهاية الفناء رأى بعض السيارات القديمة موضوعة فوق كتل خشبية .

مر بمضخة البنزين نحو مائة من الألمان . كانوا يتحدثون بانفعال ويمشون بثقة بادية دون أن يحنوا ظهورهم . وقال لوبنتسوف :

— لاتقلق سوف نخرج من هنا .

وقال شيبريوف :

— سنعود عندما يهبط الظلام .

وأجابه لوبنتسوف :

— سيكون رجالنا هنا عندما يهبط الليل ، فيجب ألا نبرح هذا المكان . سنصلح الخلل فى الخط التليفونى تحت جنح الظلام ، ونواصل عملنا فى إرشاد مدفعيتنا إلى أهدافها .

وابتسم ثم قال :

— سيوبخنى الجنرال لأنى ابتعدت كثيراً عن خطوطنا !

وهمس شيبريوف :

— هش . . ش !

سمع وقع أقدام على السلم ، ولكنها توقفت قبل الوصول إلى الطابق الرابع . وفى سكون المنزل المهجور سمع شيبريوف الألمان يتكلمون :

— من أين حصلت على هذه الحلوى .

— من هنا . من المتجر بالطابق الأرضى .

— توجد جثة جندى هناك .

— أجل

وهمس شيبريوف :

— ليت أبصارهم تعمى عن سلك التليفون .

www.alkottob.com

وقال لوبتسوف :

— سيظنون أنه سلكهم .

ولكن وقع الأقدام وصوت الكلام لم يلبثا أن خفتا وتلاشيا .

لم يكن أمامهم سوى الانتظار حتى يهبط الظلام . وبدأ لوبتسوف يراقب ميدان القتال من خلال النافذة ، فازداد فى نظره وضوح نظام الدفاع الألمانى . كانت مقاومة الألمان ترجع إلى تنظيمهم لمناورات محبوكة يقوم بها المشاة والدبابات . فما يكاد ضغط المهاجمين يخف فى منطقة حتى يسارع الألمان إلى تعزيز القطاعات المهددة عبر الخنادق المحفورة فى جميع الشوارع ، وتندفع الدبابات إلى هناك مستترة بالمنازل .

كان الوقت يمر ببطء قاتل . وجلس شيبيريوف على الأرض بلا حراك وركبتاه بين ذراعيه .

بدأت القنابل الروسية تنفجر بالقرب من المنزل ، إلى يمينه ثم إلى يساره . وعلى الرغم من هدير المدافع المستمر غفا لوبتسوف تحت سلطان الكرى .

ويبدو أن الألمان اعتقدوا أن الروس على وشك القيام بهجوم جديد فى هذه المنطقة ، فجاء الجنود مسرعين من جميع أطراف المدينة المحاصرة وأخذت الدبابات تتجمع .

فتح لوبتسوف عينيه ونظر بصبر نافد إلى مايدور حوله . لم يسبق له ، فى أية عملية من عمليات الاستكشاف ، أن كان فى مثل هذا المركز

الممتاز ، ومع ذلك كان عاجزاً عن القيام بأى عمل !

ساد السكون من جديد . كان لابد من عمل شىء عند هبوط الظلام ولم يكن هناك سوى أمر من ثلاثة : إما اختراق خطوط العدو والعودة إلى خطوطنا ، أو إصلاح الخط التليفونى والبقاء فى المنزل لتوجيه مدفعيتنا إلى أهدافها ، أو الإنتظار هكذا حتى تصل قواتنا . وبدأ لوبتسوف باستبعاد الخاطر الأخير من ذهنه . وبعد قليل من التفكير استقر رأيه على فكرة إصلاح الخط التليفونى والبقاء فى المنزل .

وأخيراً هبط الظلام . وازدادت يقظة رجلى الإستكشاف وتنبههما وظل ينظر كل منهما إلى الآخر فى صمت حتى أخفت الظلمة ملامح وجهيهما ثم نهضا . وقال لوبتسوف :

— أصلح الخلل فى الخط ثم عد إلى . وإذا لم تستطع الإهتداء إلى الطرف الآخر عد ثانية على أية حال .

وذهب شيبيريوف . واشتدت الظلمة ومنع لوبتسوف نفسه من الإقتراب من سماعة التليفون . وأخذ يعد من الواحد حتى الخمسمائة . وأخيراً ، رفع السماعة فلم يسمع صوتا ولا نأمة . ولم يعد شيبيريوف . ودمدم مدفع رشاش فى مكان ما تبعه آخر من مكان قريب . وساد السكون من جديد .

ونهض لوبتسوف وأمسك السلك بيديه ، وأخذ يهبط السلم فى هدوء وانساب السلك ببطء من بين أصابعه .

www.alkottob.com

اجتاز لوبنتسوف باب المتجر المفتوح وخرج إلى الشارع .

فى تلك اللحظة دوى انفجاران قريبان من مدفع أوتوماتيكى أعقبهما انفجار قنبلة يدوية يصم الآذان ، ثم صرخات ذعر بالألمانية . أعقبتها صيحة ! ولا يمكن أن تصدر هذه الصيحة إلا عن شيبيريوف برغم أن الصوت لم يكن صوته ، بل كان صوتاً غريباً غير إنسانى . كانت صيحة رددت كلمة روسية واحدة ترددت أصداؤها فى جنبات هذا الحى الألمانى القذر الملىء بالجثث . . « ابتعد ... ! »

تجمد لوبنتسوف فى مكانه ، وقد أخذ ذهنه يعمل بوضوح : لماذا يصيح شيبيريوف فى الألمان . « ابتعد » ، وأدرك لوبنتسوف أن شيبيريوف لم يكن يوجه صيحته للألمان ، ولكنه كان يوجهها له . لقد صاح شيبيريوف بأعلى صوته حتى يتمكن لوبنتسوف من سماعه . فقد كان يظن أنه ما يزال فى الطابق الرابع . لم تكن الصيحة صيحة ذعر ، بل كانت فيها شجاعة خارقة ، وأمل عنيد فى أن تصل إلى لوبنتسوف .

وبدأت الرشاشات تدمدم بوحشية . وأطلق مدفع واحد عشر قذائف بدافع الخوف . وتفجرت الصواريخ فى السماء فأحالت ظلمة الليل نهاراً . وقفز لوبنتسوف جانباً : « لن أستطيع الوصول إلى خط الجبهة وإذا حاولت فسألقى مصرعى » ، وجرى حول ناصية البيت وزحف عبر محطة البنزين واندفع إلى الفناء وألقى بنفسه فى إحدى السيارات حيث جلس قليلا إلى أن خبت أضواء الصواريخ ، فقفز خارج السيارة متجهاً إلى

السور ، وتخطاه إلى الشارع . كان الألمان يتصايحون حوله . وانفجرت عشرات الصواريخ من جديد فأضاءت كل شىء . وجرى لوبنتسوف فى الشارع وقفز فوق خندق وفوق خندق ثان ، فثالث . وزحف بين العوائق المضادة للدبابات ، وقفز فوق الحواجز والمتاريس كالمطر . وألقى بجسمه على بوابة منزل فانفتحت . وزحف إلى حديقة مليئة بالأشجار وأحواض الزهور الجرداء . وهنا التقط أنفاسه ولاحظ لأول مرة أنه أصيب فى ساقه اليمنى . ولكنه لم يكن قد بدأ يشعر بالألم بعد .

وواصل تقدمه وسرعان ما وجد نفسه أمام حائط منزل كبير نصف مهدم . وزحف لوبنتسوف تحت الكمرات الحديدية وشق طريقه بين الأعشاب الشائكة الباردة ، ووصل إلى الباب الخلفى . كل شىء هادىء فى هذا المكان . وكان الماء يسح من الميزاب . وتفجرت الصواريخ وراءه بعيداً . وأخذ لوبنتسوف يرتقى الدرج . وكان حذاء قدمه اليمنى قد امتلأ بالدم .

www.alkottob.com

٢٢

عندما جاء متروكين يحمل أمر الماجور بإرسال الرجال إلى الموقع رقم ٦٥ لاحظ الكابتن ميشيرسكى أن جنودنا يتراجعون عن مبانى المصنع المركزية . وبعد عشرين دقيقة تبين حقيقة الموقف : انعزل لوبنتسوف ومراسلته عن رجالنا . صر ميشيرسكى على أسنانه ونظر حوله يائساً . وران الصمت على رجال الاستكشاف . وأخذ متروكين يستعيد كل شىء بالتفصيل ، أخذ يستعيد كلمات ضابط الحرس وكيف أخذوا القنابل اليدوية من المتجر الالمانى .

نظر ميشيرسكى إلى الباشجاويش مدهوشاً : كيف يستطيع متروكين الحديث بمثل هذا الهدوء وكأنه يسرد قصة عادية؟ ووجه رجال الاستكشاف أسئلة كثيرة إلى متروكين وهو يجيب عليهم إجابات تفصيلية هادئة .

وأخذ ميشيرسكى يتساءل وهو يحس بأنه يكاد ينفجر باكيا فى أية لحظة : لماذا يبدون على هذه الدرجة من الهدوء ؟ أليست لهم قلوب؟

قال متروكين :

— تطل نوافذ تلك الغرفة على شمال شرقى المدينة، وهى نقطة ممتازة بلا شك تستطيع أن ترى منها كل شىء ، ولو وضعت فيها مدفعا رشاشا

لفعلت الكثير . إن ضابط الحرس بخير ، وقد سبق أن اجتاز مواقف أسوأ من هذا بكثير . . . سيبقى هناك حتى الغد إن إطلاق النار حول المنزل لابعاد أنظار الألمان عنه — هى فكرة حسنة ، مافى ذلك شك .

تنبه الكابتن ميشيرسكى على كلمات متروكين الاخيرة : هل قدر لضابط الحرس الذى تحدى كل هذه الألغام وتلك الطلقات أن يلقى حتفه أخيراً فى هذا الجحر الالمانى الصغير . وانفجر قائلا :

— نعم ، هيا إلى رجال المدفعية لنعرف رأيهم !

وجروا إلى مراقبى المدفعية . وخصص قائد الأورطة بطارية بأكملها للتركيز على المنطقة المحيطة بالموقع رقم ٦٥ وحزن ضابط المدفعية حزناً شديداً بسبب هذا الحادث غير السار . كان يعرف لوبنتسوف معرفة وثيقة ، وكان أقل أملا من متروكين وميشيرسكى فى نجاة ضابط الحرس وقال وهو يهز رأسه :

— إن الخبرة ميزة كبيرة مافى ذلك شك . ولكن ألم يقتل رجال كثيرون من ذوى الخبرة الواسعة .

وصل الباشجاويش فورنين إلى عنبر المضخات ومعه بعض الأسرى ، واتصل من هناك بالكابتن ميشيرسكى ، وأبلغه أن قائد الفرقة يستدعيه ليقدم تقريره .

ذهب ميشيرسكى بسرعة إلى مركز مراقبة قائد الفرقة ،

www.alkottob.com

واستمع الجنرال إلى تقريره ، واكتفى بأن قال :

ـ حسناً ، يمكنك أن تذهب الآن .

ـ ولكن ماذا عن ضابط الحرس أيها الرفيق الجنرال ؟ ربما حاولت فصيلة الاستكشاف . . .

فقاطعه الجنرال بحدة :

ـ أنا لا أسمح بهذا !

وإذ رأى الجنرال نظرة ميشيرسكى المتوسلة أشاح بوجه وقال بجفاء :

ـ ضع اثنى عشر رجلا من رجال الاستكشاف فى الجبانة ـ ليست هذه فكرة سيئة . يمكنك أن تتصرف الآن .

ولم يقل كلمة واحدة عن لوبشسوف .

ترك ميشيرسكى الجنرال وقد تضايق من موقفه ، بل إنه كان غاضباً منه . وعندما هبط السلم أجاب على نظرة متروكين القلقة بإشاحة من يده .

وبعد انصراف ميشيرسكى انفرد الجنرال بنفسه بعض الوقت ، ثم طلب سيارة انطلق بها إلى مركز المراقبة الأمامى فى عنبر المضخات . وارتقى السلم الخشبى فهب رجال الاستكشاف واقفين . وتطلع الجنرال إليهم باهتمام . كانت وجوههم حزينة ، وملابسهم مبللة . وكان أنتوينوك بينهم .

قال الجنرال :

هات المنظار !

ونظر خلال المنظار ، ثم سأل بهدوء ـ دون أن يوجه سؤاله إلى شخص بعينه :

ـ أين ذلك المنزل ؟

وتولى متروكين الشرح . ونظر الجنرال إلى « ذلك المنزل » طويلا ثم قال :

ـ لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا ابتعدت عن رئيسك ؟ ستعود الليلة لتجىء به .

وقال أنتوينوك :

ـ هنالك بعض الفارين من الجنود .

لم يجب الجنرال ، وأخذ يهبط الدرج . وبعد أن خطا خطوتين توقف ، ثم استدار وسأل :

ـ ماذا قال بالتليفون ؟

فأعاد ميشيرسكى للجنرال ماذكره بالتقرير :

ـ قال لى : « بلغ الجنرال أن يهاجم جميع القطاعات فى وقت واحد » وقال ذلك بإصرار ، وكرره عدة مرات . ثم توقف الخط التليفونى .

وذهب الجنرال إلى سيارته التى كانت تقف فى منخفض قريب .

www.alkottob.com

وحين عاد إلى مركز مراقبته سأل عن بلوتنيكوف فقيل إنه فى القسم السياسى . واتصل به الجنرال هناك بالتليفون . قال :

ــ إن لوبنتسوف . . .

فقاطعه بلوتنيكوف بصوت متعب :

ــ عرفت كل شىء

وضع الجنرال السماعة وسرح بخاطره يفكر فى ابنته فيكا . كانت فيكا متعلقة بلوبنتسوف جداً .

فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم اجتمع كبار ضباط الفرقة فى مقر قيادة الجنرال وجلسوا حول المائدة فى انتظار الأوامر وكان اللفتانت كولونيل سيزيخ آخر من وصل ؛ وظل واقفاً بجوار الحائط .

وبعد أن أعطى الجنرال أوامر اليوم التالى قال :

ــ لقد أدت المدفعية واجبها بنجاح .

بلل سيزيخ شفتيه الجافتين بلسانه ، ثم جلس . وقال الجنرال :

ــ وكذلك قام رجال الاستكشاف بواجبهم

حضر أنتونيوك هذا الاجتماع وغادره وهو لايحس بالارتياح ، فقد شعر أن الجميع فى غاية الحزن من أجل لوبنتسوف . وإن كان لم يفصح أحد منهم بذلك . كما شعر أيضاً بالمفاضلة التى يعقدها الجنرال بينه وبين لوبنتسوف . والحق أن أنتونيوك كان حزيناً على لوبنتسوف

أيضاً . فقد كان ــ على الرغم من كل اعتبار ــ رجلا متزنا عادلا ، وقائد استكشاف بارعاً ، ولو أنه لم يتلق تدريباً خاصاً . واعترف أنتونيوك الآن ، وبينه وبين نفسه ، بأنه تعلم الكثير من لوبنتسوف . فقد كان الماجور يتفهم أعقد المواقف فى المعارك كما كان بارعاً فى تمييز الحقائق الصحيحة الهامة عن الأخبار الخاطئة والأمور التافهة .

ولو أن لوبنتسوف رحل إلى موسكو لظل حيا حتى اليوم .

وكان لوبنتسوف ممددا فوق سريره ، ولكنه لم يكن نائماً على غير عادته . وفى ركن الغرفة يقف المراسلة الجديد الذى استدعى من الفصيلة ؛ الأوتوماتى كابلوكوف ، وهو مشغول بمهماته ، وينظر بحزن إلى حقيبة الماجور بين حين وآخر .

وراقب أوجانسيان الضابط أنتونيوك من تحت جفنيه نصف المغمضين ، فرآه ــ كالعهد به ــ فظاً غليظاً متعجرفاً .

والحقيقة أن أوجانسيان لم يكن فى نفسه شىء تجاه أنتونيوك بسبب كسله المدنى ، إلا قليلا . ولكن المترجم لم يطق النظر إلى أنتونيوك فى هذه اللحظة . ولولا كسله وعزوفه عن تعقيد حياته ــ التى كان يعتقد أنها لا تحتمل مزيداً من التعقيد ــ لما يقول لأنتونيوك رأيه فيه بصراحة : « دع الاختيال يا صديق العزيز ! فلن تتولى رئاسة مجموعة الاستكشاف أبداً ! فادعاؤك وغرورك ، ورغبتك الجامحة فى الترقية

www.alkottob.com

لا تخفى على عين أحد ... لا تختل عجباً ، فسيرسلون ضابطاً آخر لتولى الرياسة من القيادة ، ولن يغير ما حدث من الأمر شيئاً ! »

وتمتم لاعناً بلغته الأرمنية وبكى . كم تبدو الحياة مستحيلة من غير لوبنسوف ! وعاهد نفسه على أن يكون دائماً مثل لوبنسوف : أميناً صريحاً ، حنوناً لطيفاً ، لا يعرف الملل أو التعب .

وقال لنفسه وهو يصر على أسنانه : سيكون هذا عسيراً على ، ما فى ذلك شك . ولكنى سأحاول . وعندئذ سأنضم للحزب ...

عاد رجال الاستكشاف عند الفجر . وجلسوا على الكراسى وأحذيتهم الملطخة بالأوحال تغطى الأرض بالطين . وقدم ميشيرسكى تقريره إلى أنتونيوك عن العملية التى قاموا بها أثناء الليل :

تسللوا بسهولة وزحفوا حتى وصلوا إلى المنزل ، ولكنهم لم يدخلوه فقد كان يعج بالألمان . وأطلق العدو عليهم النار وهم فى طريق العودة ، فجرح سيرجينكو . وقال أنتونيوك :

— يجب إبلاغ هذا الجنرال فوراً .

— إنه يعرف كل شىء .

— كيف ؟

— لقد جاء هو والكولونيل بلوتنيكوف إلى عنبر المضخات وانتظرونا حتى عدنا .

وصمت ميشيرسكى لحظة ، ثم أضاف هامسا :

— عندما زحفنا إلى المنزل الأبيض الصغير ووصلنا إلى مدخله سمعنا صيحة مروعة . وأعتقد أنها كانت صيحة شيبيريوف .

وقال فورونين وقد شرد ببصره خارج النافذة :

— إنها صيحة شيبيريوف ، ما فى ذلك شك .

وأكد متروكين وهو يلف سيجارة كبيرة :

— نعم ، لا شك فى ذلك .

وقال ميشيرسكى :

— صاح « ابتعد » ، أو « اذهب بعيداً » . ترى لمن كان يوجه هذه الصيحة ؟ إنه لم يرنا بالطبع .

وخمن متروكين :

— كان ينذر الألمان . « تراجعوا ، أنتم يا أولاد ... »

وقال فورونين :

— بل كان يحذر الماجور .

وسرد أحد رجال الاستكشاف ما حدث بصوت خفيض .

— أثار الألمان ضجة محمومة بعد تلك الصيحة . وكان علينا أن ننبطح أكثر من ساعة ونصف ساعة حتى هدأوا . كانت الصواريخ تنفجر فى السماء دون انقطاع . وكان الألمان يطلقون النار باستمرار .

دق جرس التليفون ، فرفع أنتونيوك السماعة . كانت المكالمة من

www.alkottob.com

خط الدفاع الثانى . وفوجىء بسماع الصوت الطفولى لابنة قائد الفرقة . كانت تسأل عن لوبتسوف . وأخبرها بأنهم لم يعثروا عليه بعد ، وانتظر أن تقول شيئاً آخر .

قالت أخيراً :

ـ هذا كل ما عندى .

كانت تقلد ، وهى تقول هذه العبارة ، ودون وعى منها ، كانت تقلد والدها الجنرال حين يتحدث فى التليفون . ولكن مقاومتها انهارت فجأة ، وانخرطت فى بكاء مرير .

٢٣

عندما نقلت الممرضة الصغيرة إلى تانيا خبر تلك الزيارة التى قام بها لوبتسوف إلى الأورطة الطبية ـ لم تخف الطبيبة ابتهاجها إلى درجة أن الممرضة شعرت بشىء من الإرتباك .

قالت تانيا بابتهاج :

ـ إنه صديق قديم ، تقابلنا مصادفة أول أمس .

ولم يكن من الصعب أن تستنتج تانيا أن الزائر لم يكن أحداً آخر سوى لوبتسوف من الأوصاف التى أدلت بها الممرضة : ضابط لطيف رتبة ماجور ، عريض المنكبين ، أزرق العينين .

ولكن تانيا أدركت ـ من الإرتباك البادى على الممرضة ، ومن انصراف لوبتسوف السريع دون انتظار ـ أدركت أن الحوار الذى دار بين الممرضة وضابط الحرس لم يكن طيباً . وتفحصت وجه الفتاة بعناية ثم انصرفت عنها بقلب حزين . وراحت تانيا تطمئن نفسها ـ كما يحدث غالباً فى مثل هذه الأحوال ـ زاعمة أن ما حدث كان يبعث على الرضى أكثر مما يدعو إلى الغضب ، فلو أن لوبتسوف مستعد لأن يصدق أية تخرصات تدور حولها فى الحال لكان أفضل لها أن تبتعد عنه .

ومع ذلك حدث مراراً أن تنبهت تانيا إلى نفسها وهى شاردة تنتظر

www.alkottob.com

لقاء شخص طال بعاده. وكان عليها فى النهاية أن تعترف بينها وبين نفسها بأنها تتمنى لو عاد لوينتسوف لزيارتها ثانية.

وسرعان ما احتدم وطيس القتال، وانغمست الأورطة الطبية إلى آذانها فى العمل. ومع ذلك، حدث مرة فى فترة بين العمليات، وحين كانت الممرضة تعد الآلات للعملية التالية، أن وجدت تانيا نفسها تسأل الممرضة بصوت هادىء يبدو فيه عدم الإكتراث:

— لماذا لم ينتظر الضابط؟

فأجابت الممرضة ببساطة مفتعلة:

— حين قلت له إنك خرجت انطلق يجرى بحصانه دون أن يقول شيئاً. اكتفى بأن لوى عنان حصانه وعاد مسرعاً، وهذا هو كل ما حدث وانطلق جندى المراسلة خلفه.

وعادت تانيا تسأل، وهى تفحص أنبوبة مليئة ببلازما الدم فى الضوء، وتظهر مزيداً من عدم الاكتراث:

— ألم يسأل حتى إلى أين توجهت؟

وأدركت الممرضة أن هذا هو أهم ما يشغل بال تانيا فلاديميروفنا وكانت على وشك أن تجيب إجابة لا تتفق ورغبتها فى استثارة هذه المتكبرة التى تظهر عدم الاكتراث. ولكنها أحست فجأة بالأسف من أجلها، وأجابت بحنو:

— لم يسأل عن أى شىء... ولم أقل له أى شىء، أؤكد لك.

وأخذت سيارات النقل تفد إلى القرية لترحيل الجرحى. وذهبت تانيا إلى فصيلة المستشفى لتشرف هى وماشا على إمكانية نقل الجرحى ذوى الحالات الخطيرة. واتجهت أيضاً إلى كاليسترات إيفجرافوفيتش قائلة:

— والآن، ستذهب أنت أيضاً.

وبينما هم يفحصون الجرحى أخذ رجال الوحدة الطبية ينقلونهم الواحد بعد الآخر. وجرت تانيا إلى غرفتها وأحضرت كيساً من الحلوى وهو نصيبها الذى تحصل عليه كضابط طبيب، وأعطته إلى سائق العربة، ليتسلى بما فيه فى رحلته. فرفضه الجندى خجلا، ثم عاد وتقبله قائلا:

— حسناً. أشكرك أيتها الرفيقة الكابتن. لن أنساك أبداً.

وبرد جو الغرفة بسبب فتح الباب مرات عديدة.

قالت تانيا:

— أتذكر ذلك الماجور الذى كان مسافراً معنا فى العربة؟ كان هناك بالأمس فى الأورطة الطبية...

شعر كاليسترات إيفجرافوفيتش بالرضا وهو يرى جراحاً بارعاً، مثل تانيا — تجلس إلى جواره وتتحدث معه حديث الند للند أمام جميع الجرحى. وسأل:

— كيف حال ماجور الحرس؟ إنه رجل طيب وبسيط ولكنه

www.alkottob.com

يعرف كل شيء . أرأيت كيف يتحدث الألمانية ؟ هل هو بخير ؟

وقالت تانيا :

— إنه بخير .

وأخذت تانيا تتحدث عن لوبنتسوف بحب وألفة ، وكأنها كانت معه منذ لحظات وتبادلا معاً حديثاً طويلا . قالت :

— إذا جاء إلى هنا ثانية فسأخبره أنك كنت هنا .

وسأل سائق العربة :

— هل سيحضر إلى هنا قريباً ؟

وأردف يجيب على سؤاله بنفسه :

— بالطبع سيعود ... وإلا ذهبت أنت إليه لرؤيته ... إن الرجل يستحق أن تمنحيه قليلا من السعادة ...

واحمر وجه تانيا خجلا وسألت إن كان كاليسترات إيفجرافو فيتش بحاجة إلى أى شيء . فطلب الجندى منها أن تعطيه قلماً رصاصاً لأنه يريد أن « يتمرن على الكتابة بيده اليسرى أثناء الرحلة » .

وبعد أن أخذ كاليسترات القلم توجه إلى الأتوبيس مستنداً إلى أحد رجال المستشفى . واختفت السيارات ـ ولكن تانيا ظلت واقفة فى مكانها وهى تفكر فى حزن أن لوبنتسوف ربما لن يعود ثانية . والآن ، ها هو كاليسترات يرحل . فتنقطع آخر صلة بينها وبين لوبنتسوف .

قابلت ماشا الطبيب الضابط رانكوفسكى ، وقالت له غاضبة :

— هل رأيت كولتسوفا ؟ إن منظرها فظيع . إنها لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها . يجب أن تعطيها بضع ساعات للراحة . إنه لأمر مخجل حقاً أن تتركها هكذا !

وأصدر رانكوفسكى أمره إلى تانيا بأن تستريح تماما فى اليوم التالى . فقد كان الجميع يشهدون حالة الإنهاك الفظيعة التى بدت عليها .

وإذ وجدت تانيا نفسها بلا عمل ، راحت تتجول طول الصباح فى القرية دون أن تدرى ماذا تصنع بنفسها . ثم تذكرت نصيحة سائق العربة . وفكرت : ما المانع فعلا فى أن تذهب لترى لوبنتسوف ؟ ولن تعتذر عن شيء بدر منها ، لن تقول شيئاً عما يمكن أن يكون قد ساورها من شكوك . إلى أين ذهبت ؟ ومع من كانت ؟ فهذا من شئونها الخاصة . قررت أن تقول ببساطة إنها علمت بزيارته لها فى الأورطة الطبية فجاءت لمقابلته .

وحين أتخذت تانيا هذا القرار شاعت البهجة فى نفسها وأحست بشجاعتها واستقلال شخصيتها .

ارتدت معطفها وعلقت مسدساً صغيراً فى حزامها استكمالا لمظاهر الشجاعة ، وغادرت الأورطة الطبية ودخلت الغابة فى طريقها إلى مقر القيادة . والتقطها فى الطريق سائق مازح يحمل حمولة من القنابل أو الـ « إين زفى درى » كما يسميها .

www.alkottob.com

وفى مقر قيادة الفرقة أجرت تانيا محادثة حذرة عن مواقع الفرق القريبة . وأخذ رئيس قسم العمليات يشرح لها الموقف بسرور بالغ . وأشار بإصبع غليظة على الخريطة وهو يقول :

— هذه هى نقط الهجوم . هنا قوات سيريدا ... وهنا ...

ولم تلق تانيا بالا إلى بقية الحديث ، على الرغم من أن الفتنانت كولونيل ظل منهمكا فى شرح تفاصيل الموقف . وبعد أن عرفت القرية التى يقيم فيها الجنرال سيريدا مقر قيادته همت بالانصراف ، ولكن قائد سلاح الإشارة استوقفها شاكيا من جرح فى ساقه . وجاءها جرحى آخرون كثيرون فشغلوها حتى الظهيرة .

وأخيراً تركت تانيا القرية . ونجحت فى توقيف سيارة تابعة لفرقة الجنرال سيريدا ، ومن حسن حظها أن السيارة كانت فى طريقها إلى مقر القيادة . وقفزت تانيا من العربة فى وسط الشارع الرئيسى للقرية ورأت سيارة سيدان تقف أمام أحد المنازل ، فتوجهت تانيا إلى السائق الذى كان مشغولا بتفحص ماكينة العربة ، وقالت :

— قل لى من فضلك ، أين يعسكر رجال الاستكشاف ؟

وسألها السائق :

— ومن أين جئت ؟

ولم تدر بماذا تجيب . وفى هذه اللحظة خرج من المنزل جنرال طويل القامة أسود الشارب ، يرتدى بابا غا . وانتاب الجنرال شىء من

الدهشة حين رأى سيدة صغيرة السن ترتدى عباءة ألمانية واقية للمطر ، فسألها :

— هل جئت لمقابلتى ؟

— إننى أبحث عن وحدة الاستكشاف فى فرقتكم .

واستطردت وهى تنظر فى عين الجنرال نظرات جريئة :

— أريد مقابلة ضابط الحرس لوبتسوف .

وسكت الجنرال قليلا ثم قال :

— ادخلى معى من فضلك .

وتبعته إلى داخل المنزل . واجتازا ممراً قصيراً يجلس فيه جندى إلى النافذة . وهب الجندى واقفا عند قدومهما . ودخلا غرفة كبيرة عالية بها مكتب صغير عليه تليفون ميدان .

توقف الجنرال ... وسألها مرة أخرى :

— ضابط الحرس لوبتسوف ؟

وتوقف مرة أخرى ، ثم أردف يقول :

— أرجوك أن تجلسى .

ولكن تانيا ظلت واقفة مكانها .

وكرر الجنرال بعناد :

— أرجوك أن تجلسى .

وأخذ يجوس فى حقيبته الموضوعة على المنضدة وكأنه يبحث بداخلها عن ضابط الحرس لوبتسوف .

www.alkottob.com

ولم تشعر تانيا بالارتياح وهو يتفحصها بنظراته الغريبة فى اهتمام ، وشعرت أن الأمر بحاجة إلى نوع من الإيضاح . فقالت وهى تجلس على طرف الكرسى :

ـ إن الماجور وأنا صديقان قديمان ، منذ ١٩٤١ . اخترقنا حصار الألمان سويا بالقرب من موسكو . وقد جاء الرفيق لوبنتسوف لزيارتى منذ وقت قريب فى الأورطة الطبية . وهذا دورى لرد الزيارة — إن صح هذا التعبير . أرجو ألا تتعب نفسك من أجلى ، فسأهتدى إلى وحدة الاستكشاف بنفسى . أرجو قبول اعتذارى عن تعطيلى لك .

ولم تستطع تانيا فهم صمت الجنرال العنيد ، مع يقظته الغريبة . كانت تنظر إلى حقيبة الجنرال وهى تتكلم ، ولكنها رفعت ناظريها أخيراً والتقت عيناهما . رأت فى عينيه شيئا جعلها تصمت . ففى هاتين العينين الذكيتين اليقظتين معنى غريب حزين . وقال الجنرال :

ـ يبدو أن لوبنتسوف قتل . حدث هذا بالأمس .

ودق جرس التليفون ولكن الجنرال لم يرفع السماعة . واستمر رنين التليفون .

وقالت تانيا :

ـ كم يحزننى هذا النبأ .

وظلت جالسة فى مكانها لا تتحرك على الرغم من إدراكها أنها لا بد أن تنصرف ، ولم يعد ثمة داع لبقائها وتعطيلها للجنرال . ولكنها لم تجد

فى نفسها القدرة على النهوض ، ولا الرغبة فى عمل أى شىء — ولا حتى القيام من مقعدها . كان المنزل ساكناً إلا من جرس التليفون الذى يسمع رنينه بين حين وآخر .

وأخيراً نهضت تانيا ، واستأذنت ، ثم انصرفت .

وفى الطريق انتابتها نوبة عصبية وأخذت أسنانها تصطك . كانت تخفى رعشتها بصعوبة وهى تمر إلى جوار الضباط الذين كانوا منتشرين فى أنحاء القرية وهم يهرولون . كانت تريد أن تنفرد بنفسها فى أى مكان ، ولكن أين ؟ من المحتمل أن تجد أناساً فى كل منزل .

ثم وقع بصرها على مخزن غريب ، ذى فناء تحيط به الأسلاك الشائكة . وكان المبنى معتماً هادئاً . فدخلت وجلست على القش الذى يغطى الأرض .

واصطكت أسنانها بصورة أفظع من ذى قبل .

وقالت لنفسها : يجب ألا أستسلم للهستيريا . ورفعت رأسها ورأت على الحائط كلمات روسية كتبت بالفحم والطباشير ، منها :

« لن نخرج أبداً من هنا . الوداع يا بلدتى فولين ! » ، وبدأت إحدى العبارات بكلمة : « أمى العزيزة ! ... » ، وتعذرت قراءة بقية الجملة . ورأت اسم « ستالين » مكتوباً فى أكثر من مكان وبخطوط متباينة .

www.alkottob.com

واستمدت ثانيا قوة خارقة من هذه العبارات التى ذكرتها بالآمال ، والآلام التى لا حد لها لآلاف البشر . لقد جعلتها هذه الذكرى تستصغر نفسها ، ولكنها هدأت فى الوقت نفسه ـ من روعها . وخرجت من المكان ، وسارت فى الطريق بخطى وئيدة ، وانخرطت فى بكاء مرير كبكاء الأطفال ، دون أن تلق بالا لإنسان ، أو تلتفت إلى المارة الذين ارتسمت الدهشة على وجوههم .

٢٤

بعد أن جر لوبنتسوف نفسه فوق مجموعتين من الدرج سمع أصوات رجال ونساء تأتيه من أسفل ، فزحف مسرعاً ، وفتح بابا ، فوجد نفسه فى دهليز مظلم . وفتح باباً ثانياً . فرأى شارعاً يمتد أمامه . وبعبارة أخرى وجد نفسه فى غرفة عادية بها أريكة ومكتب وشيفونيرة ودولاب وعدد من الكراسى ، وحتى بعض الصور المعلقة على الحائط . ولكن الغرفة كانت مفتوحة على الشارع حيث تقف شجرة وحيدة ، ومنزل مرتفع مهدم على الجانب الآخر .

لم يكن للغرفة حائط أمامى . وغطيت الأرض والأثاث بقطع من الطوب وطبقة كثيفة من التراب وزحف لوبنتسوف إلى هذا المكان الذى يشبه الغرفة ، وكأنه ممثل يدخل المسرح .

أما الغرفة ذاتها فلم تصب إلا بتلف طفيف . لقد انهار الحائط الأمامى بفعل تفريغ حدث من انفجار قريب ، وليس نتيجة لإصابة مباشرة . وانبعث من المنزل المقابل الريح العفن المتصاعد من الجثث المتعفنة . وأضاء وميض الصواريخ المتفجرة فى السماء ، الخرائب المحيطة ، وزخارف ورق الحائط ، وصور بعض الألمان والألمانيات الكبار

www.alkottob.com

الموضوعة على المكتب ، وصورة امرأة عارية معلقة على الحائط .

زحف لوبنتسوف إلى حافة الغرفة وأطل على الشارع . كانت الغرفة فى الطابق الأرضى ، وكانت نوافذ البدروم تتكدس أمامها أكياس الرمل . وفى الجهة المقابلة حائط حجرى كبير يتبع المنزل المهدم ، وعلى الواجهة المتبقية منه إعلان ضخم لمصانع أحذية « سلاماندر » : صورة هائلة لساق امرأة تلبس حذاء . وتكومت محتويات المنزل السابقة فى كومة هائلة من القمامة موضوعة فى هيكل المنزل الحجرى ، ترتفع حتى تصل إلى الطابق الثانى . وتبرز منها أعمدة الأسرة المصقولة .

امتد أحد الخنادق بطول الشارع . واستطاع لوبنتسوف رؤية خندقين للاتصال فى فناء المنزل المقابل يؤديان إلى المبنى الرئيسى لمصنع ألباتروس . وتذكر لوبنتسوف هذا المبنى حين رأى برج الساعة الذى يعلوه ، واستطاع أن يحدد موقعه : كان فى ميدان كوبر ، وإلى يساره ميدان برلين . وعند ناصية الشارع عمودا نور تهشم مصباحاهما .

كانت الشوارع خالية . وقد تصل إلى الأسماع بين حين وآخر وقع خطوات الألمان وهم يتنقلون غير بعيد عن المكان .

وقرر لوبنتسوف خلع حذائه وتضميد جرحه . ولكن خلع الحذاء كان متعذراً ، فقد التصق كل شىء بالدم اللزج . كان يجب تمزيق الحذاء .

وطلع لوبنتسوف حتى وصل إلى الدولاب حيث وجد بعض الملابس

بينها جاكتات وكرافتات . قربط ساقه بإحدى الكرافتات ربطة تمنع النزيف ، وألقى معطفا على كتفيه اتقاء البرد ، ثم تمدد على الأريكة . ومرت أمام عينيه أحداث اليوم كلها . من العسير تصديق أن كل هذه الأحداث وقعت فى يوم واحد . ففى صبيحة ذلك اليوم كان يجلس — إلى جوار ميشيرسكى وفورونين — فى حفرة تنمو فيها الشجيرات الصغيرة . ومنذ بضع ساعات فقط كان وجه شيبيريوف المربع يطل من فوق كتفه اليسرى . أما الآن فقد مضى شيبيريوف ولن يعود أبداً .

قفز شبح صغير أسود أمام عينيه . كان قطاً يجرى مجنوناً على ميزاب الماء ، وحملق فى وجه لوبنتسوف بعينين تشعان بنوع من الذكاء البشرى ثم واصل فراره إلى أسفل الميزاب .

كان لوبنتسوف فى حاجة ماسة إلى شىء يشربه . وفكر أنه لابد من وجود مطبخ فى هذه الشقة . وتحامل على نفسه بصعوبة ، ونهض وزحف إلى الدهليز وهو يجر ساقه الجريحة إنه لايدرى حتى الآن متى أصيب .

كان الدهليز مظلماً . فأشعل لوبنتسوف عود ثقاب رأى على ضوئه الأصفر الجدران القاتمة ، والصناديق ، وقبعة حربية عالية ، ومقبض مظلة لامعا ، يتدلى برشاقة من المشجب .

ورأى باباً ثالثاً صغيراً إلى يمين الباب الأمامى ، ودفعه فلم ينفتح . ودفعه مرة ثانية دفعة أقوى فانفتح قليلا . كان هذا الباب هو باب المطبخ

www.alkottob.com

ولكنه كان مليئا بالقامة . وتدلى السقف الذى سقط نصفه إلى الداخل ، وقد ظهرت الأسياخ الحديدية الملتوية . وفى أرض المطبخ حفرة سوداء فاغرة فاها ، تأتى منها أصوات خافتة .

زحف لوبنتسوف بهدوء إلى الحفرة وأطل منها . رأى عدداً من الناس يجلسون فى البدروم حول مصباح غازى ، بينهم رجل أصلع نحيل ذو أنف طويل يتمدد وهو نصف نائم فوق كرسى (هزاز) ، وامرأة ألمانية تلبس نظارة طبية ترقد على كنبة صغيرة . وإلى جوارها ، وعلى الوسائد واللحاف نام الأطفال .

وتحرك لوبنتسوف بأقصى ما يستطيع من حذر ، وتفحص المطبخ بعناية . فوجد فى الدولاب جرارا بها بقايا مربى وصلصة تجمدت على جوانبها وتحسس لوبنتسوف موضع صنبور الماء بالقرب من الدولاب كانت المياه مقطوعة عن المنزل ، ولكن تجمعت فى الصنبور والمواسير القريبة كمية ضئيلة من الماء مختلطة بالرمال . كان كل شىء فى المكان مختلطاً بالرمل والتراب ، وتنبعث منه رائحة المصيص .

وعاد لوبنتسوف إلى الغرفة ذات الأريكة حيث تمدد راقداً ، ولسبب لم يتبينه سرح خاطره إلى وطنه ، إلى مسقط رأسه — قرية فولوتشايفكا — وتذكر تل إيون كوران الذى قضى أيام طفولته إلى جواره .

كانت المدرسة التى تلقى فيها دروسه الأولى مبنية فوق ذلك التل

وفوق ذلك التل أيضاً تمثال حجرى لرجل يحمل راية مرفرفة . وهذا الرجل حامل الراية ، والذى يرى تمثاله من جميع الاتجاهات ، من على السفوح والتلال المغطاة بالغابات ، والمنحدرات المليئة بالمستنقعات ، كان هذا الرجل هو الذكرى الأولى التى يعيها من أيام الطفولة المبكرة .

واعتاد لوبنتسوف على رؤية هذا التمثال فى صغره ، اعتاد على رؤية هيئته وهو يهم دائماً بالتقدم إلى الأمام ، اعتاد عليه حتى خيل إليه حينئذ أنه لم يعد يحس بوجوده على الإطلاق . ولكن لابد أن هذا التمثال الذى نحت تخليداً لذكرى إحدى المعارك المجيدة التى نشبت فى الشرق الأقصى قد رسخ فى أعماق نفسه ، وإلا لما قفزت صورته أمام عينيه وهو فى مكان تفصله عنه اثنا عشر ألفاً من الكيلومترات ، بل تفصله عن الحياة بأسرها خطوط جبهة القتال كلها .

أحلماً كان هذا أم حقيقة ؟

فى المنزل الخشبى الأسود تجلس أمه والنجاعيد تغطى وجهها : تجاعيد تحمل معنى الحنان حول عينيها ، وتجاعيد تحمل معنى الأسى حول شفتيها وشالها مربوط تحت ذقنها . وأبوه يتنقل فى أرجاء فناء المنزل فى هدوء وقد لبس خفيه الناعمين . وكان أبوه رئيساً لفرقة عمال فى إحدى مزارع الدولة ، وكان فيما مضى صياداً ومتطوعاً فى فرق الفدائيين . وكان كثيراً ما يأخذ ابنه سيرجى أصغر أبناء العائلة إلى غابات التايجا ، ويتجولان معاً فى دروب لم تطأها قدم إنسان ، ويشترك الرجل الأشيب والصبى

www.alkottob.com

الأشقر ، يشترك الكهل والفتى فى نصب الفخاخ لطائر الدراج ، ويقتنصان حيوان الراكون .

لقد أنجبت أسرة لوبتسوف للشرق الأقصى قاطعى أخشاب ، وصيادين ، وباحثين عن الذهب ، وبنائى سفن - كما قدمت بعد الثورة ربابنة لسفن نهر الأمور ، وحراس حدود ، وميكانيكيين ، بل وأحد قوميسيرى الشعب . وأحس لوبتسوف منذ صغره بأنه يملك العالم الذى نشأ فيه . ألم يقاتل والده عند فجر الثورة ضد اليابانيين دفاعاً عن الشرق الأقصى السوفيتى ؟ ألا ينتشر آل لوبتسوف فى معظم مدن وقرى هذه المنطقة المترامية الأطراف ، ووصل أحدهم إلى مركز قوميسير الشعب فى مدينة موسكو ؟

ومن هنا كان إحساسه العميق بأى مشكلة فى المدرسة ، أو أى ارتباك فى مزرعة الغابة ، أو اضطراب فى المنطقة أو حتى فى العالم بأسره ، وتمثله لها جميعاً وكأنها مشكلاته الشخصية . إن التصرف غير الأمين من أى شخص ، أو إهمال محصول القمح فى مزرعة للدولة يتلف فى مطر الخريف دون حصاد ، أو فظائع النازى فى ألمانيا ، أو رجم الزنوج فى أمريكا ... إن أياً من تلك المظاهر يستثير سخطه العميق ورغبته العنيدة فى وضع الأمور فى نصابها بأسرع مايستطيع ، ومعاقبة المذنب ، وإقرار العدالة .

. . ومضت ساعات الليل ببطء رهيب . ودارت رأسه ، ورن

صفير طويل كالصراخ فى أذنيه . لاشك أن الجنرال سيحتسب ضابط الاستكشاف من بين قتلاه . لا ، لم يحدث شىء من هذا القبيل ياتاراس بتروفيتش ! هل تظن أن قتل لوبتسوف أمراً هيناً إلى هذه الدرجة ؟

وابتسم لوبتسوف ابتسامة شاحبة لهذه الأفكار ، ترى ، هل سمع ميشيرسكى كلماته الأخيرة عن ضرورة الهجوم فى جميع القطاعات ، وهل وعى أهميتها ؟

وطافت الرؤى أمام ناظريه : وجوه رجال الاستكشاف ، والجرحى ، ومقتل رجلى الإشارة ، وأخيراً وجه شيبيريوف — آخر وجه إنسانى رآه . لا ، بل إنه يذكر صيحة شيبيريوف أكثر مما يتذكر صورته ، تلك الصيحة التى رنت فى أذنيه وكأنها أسطوانة مسجلة تكرر النغم نفسه دون انقطاع .

ومن حين لآخر يضىء وميض الصواريخ الغرقة بضوء باهت ، وتدب خطوات عجلى فوق الرصيف . ويسمع صوت شخص يبكى فى مكان قريب وآخر يسب بالألمانية .

نسى لوبتسوف آلامه وعطشه حين دوت مدافعنا فى الصباح . وتفجرت القذائف بالقرب من مبانى المصنع الرئيسى وكذلك فى ميدان سيمنار حيث انهار أحد المنازل تتصاعد منه ألسنة اللهب وأعمدة التراب .

وجرى الجنود الألمان فى خنادق الإتصال المقابلة ، وهم يظهرون

www.alkottob.com

بين الحين والحين من خلال فتحات فى الحائط الحجرى الذى يعم الخندق من تحته .

وصل أحد الضباط إلى الخندق وهو فى غاية الاضطراب ، وكان الجنود يتوقفون كلما انفجرت قنبلة وينبطحون أرضاً . وساد السكون لحظة ، ثم دوت المدافع وتبدد الهدوء من جديد . وقصف رعد مخيف وعلا صفير قنبلة ، ودوى انفجار بعيد . كان الألمان يردون على مدفعيتنا . وسمع لوبتسوف هدير المحركات وتوقفت دبابة ألمانية خارج الغرفة ، بجوار لوبتسوف مباشرة ، وأخذت تقذف بالقنابل واحدة بعد أخرى فى سرعة مخيفة ، فاهتزت صورة المرأة العارية فى الإطار الأحمر وسقطت على الأرض .

اتضحت مواقع مدفعية الألمان وطريقة عملها عن ذى قبل . فعند مفترق الطرق التى لا يبعد عن المنزل الذى فيه لوبتسوف إلا بمنزلين نصب مدفع رشاش ثقيل يطلق النار بجنون . وفى المنزل القائم فى الركن القصى من ميدان سيمنار نصب مدفع آخر . وكانت الدبابة تتبع التكتيك المألوف فى حرب الشوارع ، فتطلق النار مدة قصيرة ثم تختفى وراء المنزل الأحمر فى ميدان سيمنار .

كان لوبتسوف على استعداد للتضحية بنصف عمره مقابل جهاز لاسلكى أو آلة تليفون .

ومرت فى الشارع مجموعة من الجنود الألمان قوامها نحو ستين رجلا . كانوا خليطاً متنافراً من العجائز والغلمان ، على أكمامهم أشرطة

حمر وسود ، يرتدون الملابس المدنية ولكنهم مسلحون بالبنادق المختلفة الأنواع . وتفاوتت أطوال الرجال وأحجامهم تفاوتاً بالغاً ، فبدوا كسياج غريب صنع من ألواح متباينة . كانوا يوقوقون بانفعال كسرب من البط يسبح فى مستنقع .

واستدار الضابط فجأة إلى الجمع المختلط وفح بصوت كريه من بين أسنانه المطبقة وأخذوا ينشدون . واختلط النواح العالى الشاذ ، الكئيب المملول ، المنبعث من حناجر العجائز والصبية الصغار — اختلط بالأصوات الغليظة المرتجفة . يا للسماء ! أى أغنية هذه ؟ إن شعر الإنسان ليقف فزعاً منها . أما كلماتها فهى دعوة صارخة للحرب . كان هذا هو نشيد « هورست فيسيل » الذى وضعت ألحانه فى حانات ميونيخ .

ودوت مدافعنا من جديد ، فقفز الألمان إلى الخنادق غير آبهين بالأوامر وهم يتدافعون بالمناكب . وخيل إلى لوبتسوف أنه يسمع صيحات « هوراه » من بعيد . ودمدمت رشاشات الألمان بجنون ، وجروا عبر الخنادق إلى المبنى الرئيسى قادمين من المناطق الأخرى . وظهرت ثلاث دبابات من وراء المنزل الأحمر ، وأخذت تطلق قنابلها بسرعة مخيفة . وأعقبت ذلك فترة هدوء . كان لوبتسوف محموماً . وتعلقت الشمس الباردة فوق رأسه .

ومرت فى الشارع الجانبى مجموعة من الضباط وفى مقدمتها رجل من فرقة العاصفة ، طويل القامة ، يرتدى بزة سوداء وقبعة سوداء ونظارة

www.alkottob.com

سوداء . كان يسير بخطى ثابتة يتبعه الآخرون على مسافة قريبة . واقتربت منهم جماعة ثانية . كان بعض الجنود المسلحين يسوقون جنديين مجردين من السلاح .

توقف ضابط فرقة العاصفة ذو النظارة السوداء عند هذه المجموعة الثانية وصاح ببضع كلمات . وسقط أحد الجنديين — وكان رجلا سميناً كبير السن ، حاسر الرأس — سقط على ركبتيه . وانخرط الآخر — وكان فتى طويلا نحيلا لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره — انخرط فى بكاء مرير ووجهه ملطخ بالدماء .

وسحب الجنديان إلى مفترق الطرق . وارتفعت بعض الأصوات وظهر سلم خشبي وبعض المناضد بجوار عمودى النور .

وأشار ضابط فرقة العاصفة بيده فعلق الجنديان فى عمودى النور وقد قيدت أقدامهما . وجلس أحد الجنود إلى المنضدة تحت الغلام المشنوق وأخذ يكتب بقلم حبر على ورق أبيض ، ويده ترتجف . وصعد جندى آخر على المنضدة بتثاقل ، وثبت الورقة فوق صدر الغلام المعلق ثم نقل المنضدة إلى العمود الثانى وعلق ورقة ثانية على صدر الرجل البدين . ثم وقفوا جميعاً دقيقة واحدة ثم انصرفوا . وسرعان ما زحف كثير من الرجال والنساء من المخابىء إلى حيث تدلت الجثتان ، ووقفوا هناك ، وقرأوا المكتوب ، ثم تفرقوا صامتين .

وهبط الليل مرة ثانية . إن أمام لوبنتسوف ليلة طويلة من الأرق والترقب . ماذا يكون الحال إذا لم يأت رجالنا فى الغد ؟

ولأول مرة غزت ذهن لوبنتسوف فكرة خبيثة : من يدرى ماذا أعد الديطان فى جعبته ؟ ربما لن يخرج من شنيدموخ هذه أبداً ! ولكنه منع نفسه من الاسترسال وراء هذا الخاطر . إن رجالنا سيأتون حتما غداً . وربما سأل قائد الفيلق وقائد الجيش والمارشال زوكوف وقد نفد صبرهم : « هل ستتوقفون أكثر من هذا أمام شنيدموخ ؟ » .

ومهما كان من ضآلة شأن شنيدموخ بالقياس إلى الجبهة المترامية الأطراف ، فلا بد أنها موجودة على خريطة ستالين أيضاً ، والأرجح أن القائد العظيم والرئيس الأعلى للقوات المسلحة سيسأل هو أيضاً قائد الجبهة وعضو المجلس العسكرى ، سيسأل سؤالا عابراً إلى جوار المسائل الأخرى ذات الأهمية البالغة :

— كيف حال الحصار المضروب حول شنيدموخ ؟

انقضى الليل ، وجاء الصباح . والهدوء الشامل يعم كل ما يحيط بلوبنتسوف . وأنصت لوبنتسوف دون جدوى ليسمع صوتاً حبيباً من العالم الخارجى ، ولكن مدفعيتنا ظلت صامتة . وأخذت حركة المرور تزداد فى الشوارع . وأحس الألمان أنه لا داعى لأن ينحنوا وهم يسيرون فى شوارع البلدة ، وأخذوا يتكلمون بصوت وكأن الخطر الذى كان يتهددهم قد زال تماماً .

www.alkottob.com

٢٥

عند المساء ظهرت فى سماء شنيدموخ طائرات النقل الألمانية ج ـ ٥٢ . وزحف الألمان من البدرومات والمخابىء إلى الشوارع ولوحوا بمناديلهم مرحبين . وتساقطت من الطائرات المحلقة فى سماء المدينة عشرات المظلات البيض والحمر . وهبطت ببطء وهى تتأرجح فى هبات الريح الباردة . وقد علقت فيها الصناديق،صناديق الذخيرة والطعام لنجدة المدينة المحاصرة .

كان الهدوء شاملا ، وصمتت حتى المدافع الرشاشة . وخطرت برأس لوبنتسوف ـ وهو ينتفض من الحمى ـ فكرة غريبة : ماذا يكون الحال لو نفض رجالنا أيديهم من حصار هذه المدينة الليلة ؟ ودون سبب واضح تذكر لوبنتسوف وجهاً نحيلا غير حليق رآه منذ مدة وجيزة . يبدو أن الرجل كان يدعى شفالب . نعم ،هلوت شفالب من رجال فرقة المشاة الخامسة والعشرين . وعندما كانوا يستجوبونه قال بصوت خفيض كصوت المحتضر :

ـ فى الأعماق المظلمة لأحد المناجم يعدون سلاحاً سرياً سينقذ ألمانيا.

وصاح لوبنتسوف :

ـ كلام فارغ !

وقرر أن يوقع على نفسه عقوبة بسبب هذه اللحظة التى ضعف فيها وذلك بالصعود عندما يهبط الليل إلى مكان مرتفع من المنزل . إن رجل الاستكشاف لايطيق البقاء ملقى فى خرابة دون أن يدرى أو يراقب مايدور حوله .

أحصى عدد قنابله اليدوية ، فوجدها أربعا . كما وجد فى مسدسة سبع رصاصات . حسنا ، بإمكانه أن ينسف نفسه بإحدى هذه القنابل إذا دعت الضرورة . واختار القنبلة التى سيحتفظ بها لنفسه . كانت قنبلة مميزة ، ففى مقبضها الخشبى دائرة داكنة صغيرة تذكر المرء بأن هذا الشىء القاتل كان فى يوم من الأيام جزءا من شجرة خضراء مورقة ، ترك أحد فروعها هذه العلامة الداكنة الصغيرة . ووضع هذه القنبلة فى جيبه بمنأى عن القنابل الأخرى .

عندما هبط الظلام نزل لوبنتسوف من على الأريكة ووضع المعطف الألمانى على كتفه وزحف إلى خارج الغرفة وفى الدهليز التقط المظلة من على المشجب ليتوكأ عليها . وترامت إلى سمعه بعض الأصوات الغامضة ، ثم فتح باب الصالة فوجدها هادئة ، ورطبة ومظلمة . وزحف مرتقياً السلم ببطء ، لا بسبب الحذر ، ولكن لافرط الأعياء والألم .

وفى الطابق الثالث رأى لوبنتسوف نجوم السماء فوق رأسه . كانت إحدى القنابل قد هدمت نصف الطابق ، وتهدمت بعض درجات السلم

www.alkottob.com

ولكن أسياخ الحديد العارية كانت متشابكة من فوقه وحواليه وقد تعلقت بها كتل كبيرة من الجدران المنهارة. وتخطى لوبنتسوف هذه العقبة بصعوبة متعلقاً بأحد الأسياخ.

وكان الطابق الرابع يئن ويقرقع. ووجد فى غرفة بلا جدران بعض الأثاث: وجد مقعداً ذا مساند وسرير طفل صغير. وأضاء أحد الصواريخ الغرفة، فرأى لوبنتسوف على ضوئه دمية تدلت من فستانها الأزرق بالحائط المهدم.

سار إلى نهاية الدهليز فوجد بابا مفتوحا على شرفة، فدخلها حيث رأى سلماً حديديا معداً للهرب من الحريق. كان السلم يؤدى إلى السطح وطوله مترات. أخذ لوبنتسوف يتسلق السلم وهو يتعلق بمعارضيه ممسكا بيديه المتجمدتين.

كان هذا الجزء من السقف سليما. وعلى مسافة منه ثغرة مظلمة كانت الريح نشيطة. ووقف لوبنتسوف مشدود القامة ملتصقاً بالمدخنة وهو يحاول أن يسمع أو يرى أى شىء. ولكن السكون الشامل يلف كل ما يحيط به. لو أنه سمع طلقة مسدس أو طلقة واحدة من إحدى البنادق! ولكنه لم يسمع شيئاً على الإطلاق.

جلس لوبنتسوف فى انتظار الفجر. وانثنت صفائح حديد السقف تحت قدميه. وتذكر لوبنتسوف كيف كان وهو طفل صغير يحب تسلق

الأسطح ويدق على حديد السقف بمرح، متخيلا نفسه كشافاً أو فدائيا وهو يستتر خلف المدخنة ويزحف ببطء من ورائها.

انتظر لوبنتسوف مطلع الفجر. ومرت الدقائق ببطء فظيع. وظهر القمر مرة من خلف السحاب، ولكنه اختفى فى الحال. وتساقط الثلج الندى. وانهار حائط فى مكان بالقرب منه، وتردد صوت الإنهيار فى الشوارع الخلفية الخربة الخالية من مظاهر الحياة — ثم تبدد الصدى فى الفضاء. وجلس لوبنتسوف ساكناً وهو يكاد لا يفكر فى أى شىء، جلس ينتظر. وازداد الجو برودة. وسمع سعالا عنيفاً يأتى من أسفل المنزل. وبدأ وجه السماء يشحب تدريجياً؛ وتراجع الظلام إلى الشوارع الخافية المعتمة؛ فازدادت ظلمة على ظلمة. وبينما دب الشحوب فى وجه السماء أخذت معالم المنازل تتضح شيئاً فشيئاً. وظهر عند الأفق الشرقى خلف الغابات حيث توجد تانيا، شريط طويل من الضوء البرتقالى. وظل الأفق الغربى غارقا فى الظلام، بينما ازداد الشريط البرتقالى اتساعاً وشفافية وفقد صبغته الكئيبة بالتدريج وتحول إلى اللون الأصفر، وازداد الجو دفئاً.

وانعكست أشعة الشمس المشرقة فوق أبراج الكنائس الألمانية.

وظل لوبنتسوف ساكنا فى مكانه منتظراً انتشار الضوء فى الغرب. وأخذ الأفق الغربى يتكشف شيئاً فشيئا.

ونهض لوبنتسوف واقفا. كانت هذه أول مرة يرى فيها المواقع

www.alkottob.com

السوفييتية من مثل هذا الارتفاع ومن وراء خطوط العدو . كانت الخنادق تمتد فوق سطح تل منخفض ، وتحرك الرجال بسرعة كالنمل بين مبانى المصنع البعيدة . ولم يستطع لوبنسوف أن يميز ملامحهم أو ملابسهم ، ولكنه أحس على الفور أنهم روس . ورأى عبر المضخات وقد دمرتها قابل الألمان . وخيل إليه أنه يرى عدسة تليسكوف فى ضوء أشعة الشمس المشرقة .

كان لوبنسوف محموما . وكانت ساقه المجروحة تنبض بالألم . ولكنه نسى كل شىء ، فقد تملكته قوة أعظم وأكبر من قوة الألم : لم يعد وحيداً ضائعا فى أرض العدو . وسارت فيه هزة سرور واعتزاز بشعبه وقائده والقوة القاهرة التى سبكها . وخيل إلى لوبنسوف فى نوبة الحمى أنه يقف — ليس فوق منزل ألمانى متهدم ، ولكن فوق ذلك التل البعيد بالقرب من فولوتشايفكا ، وأنه هو نفسه حامل الراية المندفع إلى الأمام .

كان الجنود السوفييت يحرون المدافع بأيديهم ، ويشدونها بإصرار حتى مبانى المصنع . وبدا من هذا الإرتفاع وكأن الجنود قد سهم السحر ، وأن قوة مجهولة قد حصنتهم ضد الموت . ولكن مدفعية الألمان ورشاشتهم ازدادت قوة وعنفا . وهاهم جنودنا يسقطون لينهضوا من جديد . والحقيقة أنهم لم ينهضوا جميعا ، ولكن لوبنسوف لم يستطع أن يتبين ذلك من مكانه . كانوا كالبقع الصغيرة السوداء تظهر تارة هنا

وتارة هناك ، وهم يجرون ويزحفون بإصرار ويتقدمون بعناد ، ويختفون فى الحفر ثم يعاودن الظهور ، ويسترون خلف أكوام الطوب ثم يبرزون ، ويدخلون المنازل ثم يخرجون منها حين لا يتوقعهم أحد وحيث لا ينتظرهم إنسان .

وأصابت قنبلة عمودى النور ، فسقطا على الأرض ومعهما الجثتان المشنوقتان .

علت دمدمة مجنونة لمدفع رشاش فوق أصوات المعركة ، وعويل مدافع الهاون ، ودوى الانفجارات ، وقرقعة المبانى المنهارة ، وتباح مدافع المورتر . رنت دمدمة هذا المدفع الرشاش فى أذن لوبنسوف أحد وأقرب من أى صوت آخر . كان هو المدفع الرشاش نفسه الذى الذى رآه لوبنسوف بالأمس فى البدروم عند مفترق الطرق على بعد مائتى متر من المنزل الذى يقف على سطحه .

بدأ لوبنسوف يهبط عائداً من حيث أتى . كان البيت مايزال مظلماً وأحس كأنه فى كهف عميق تزأر من حوله العواصف .

دس لوبنسوف قبعته فى جيبه ، وارتدى المعطف الألمانى وزرره ثم هبط السلم متوكئاً على المظلة ، وخرج إلى الفناء .

ومرت به فتاة صغير مسرعة تحمل صرة على كتفها ، وجهت إليه كلاماً ، ولكنه واصل السير ، واختفت الفتاة .

واستمر يسير وهو يظلع ويصر على أسنانه ، وتسلق حاجزاً ، فوجد نفسه فى فناء آخر حيث رأى بعض عجائز الألمان يتكلمن . ولاحظ

www.alkottob.com

أحدهم أنه يطلع بشدة فخاطبه بكلمات ألمانية، ولكنه واصل السير فى صمت متخطياً جماعة المان، واجتاز الحاجز الثانى أمام أعينهم بمساعدة المظلة وهو مايزال يصر على أسنانه.

هذا هو الفناء الذى نصب فيه المدفع الرشاش.

كان يفصل الفناء عن الشارع سور حفر بطوله خندق. وامتد من الخندق إلى الفناء خندق اتصال ينعطف قرب نهايته إلى اليسار ثم ينتهى فى حديقة صغيرة، وفى هذا الخندق الأخير وقف اثنان من الألمان. كانا يجران صندوقاً يبدو أنه ملىء بالرصاص، ثم توقفا ليستريحا قليلا. ولفت نظرهما شىء غريب فى مظهر ذلك الرجل الأعرج الذى يزرر معطفه حتى العنق، وهو حاسر الرأس، أشعث الشعر، فنظرا إليه باهتمام. ومر بهما دون أن يتوقف لحظة. تخطى لوبنتسوف الرجلين وتركهما خلفه، وعندئذ فقط تنبه إلى أنه من الممكن رؤية سرواله السوفيتى من أسفل المعطف. وهنا تعمد السير بخطوات أشد بطئاً.

وواصل سيره فى الفناء بوجه جامد وهو يحس بالبرودة تسرى فى قفاه تحت وقع نظرات الألمانيين. لا، إنهما لم يلحظا شيئاً.

ولحسن الحظ أخذت القنابل تنفجر حوله فى تلك اللحظة. واختبأ الجميع حيثما استطاعوا، وبدأ الجنود يجرون هنا وهناك: يبدو أن الروس وصلوا إلى مكان قريب. ولم يعد غير ذلك الرجل ذو الشعر الأشقر الأشعث يسير ببطء عبر الفناء متجها إلى الباب الخلفى للمنزل.

حين دخل لوبنتسوف المنزل رأى مجموعتين من السلالم، الأولى

صاعدة والثانية هابطة على يساره. وعلى مسافة منه رأى باباً إلى اليسار يفتح على البدروم. وهنا كان المدفع الرشاش ينفث نيرانه بعنف، فيتساقط البياض من السقف.

فتح لوبنتسوف الباب، وأغلقه خلفه، واستند عليه حتى يسترد أنفاسه ويريح ساقه الجريحة. ورأى فى العتمة ظل جنديين منحنيين فوق مدفع رشاش. وقد رسمت صورتهما الداكنة على نافذة البدروم المضيئة من خلفهما. واتجه لوبنتسوف إلى اليمين ملصقاً ظهره بالحائط، ثم توقف لإعداد القنبلة اليدوية. ودمدم المدفع الرشاش، فاهتز البدروم اهتزازاً خفيفاً.

وألقى لوبنتسوف القنبلة وانبطح على وجهه، وهز الانفجار أرجاء البيت كله، وقلب لوبنتسوف على أحد جانبيه، وأصم أذنيه. وثاب إلى وعيه بعد دقيقة، فأعد قنبلة أخرى وزحف إلى النافذة. كان الألمان يتدافعون عند مفترق الطرق، ويفرون حيثما استطاعوا، فألقى عليهم قنبلة تبعها بأخرى. وفكر قليلا وأخرج من جيبه القنبلة الأخيرة المميزة وألقى بها فى الشارع على جموع الألمان الهاربين...

• • •

أقتحم الكابتن تشوخوف على رأس الكتيبة الثانية أفنية المنازل الخلفية متجها إلى ميدان برلين. وإذ رأى انفجارات القنابل اليدوية

www.alkottob.com

ظن — والغيرة تملأ قلبه — أن هناك من سبقه إلى اقتحام المدينة . ومع ذلك لم يفته أن يستفيد من هذه المعونة غير المنتظرة ، واندفع إلى الأمام . واحتلت الكتيبة مفترق الطرق وواصلت الزحف إلى الشارع التالى .

عثر الجنود فى بدروم أحد المنازل على ضابط مجموعة الاستكشاف بالفرقة الماجور لوبتسوف الذى كان فى عداد المفقودين منذ ثلاثة أيام كان مصابا بجرح فى ساقه وقد نال منه الضعف والإعياء الشديدان ، وإلى جواره جثتا رجلين ألمانيين ومدفع رشاش محطم .

وجاءوا بالنقالة ليحملوه عليها .

وقال تشوخوف مودعاً لوبتسوف :

— أرجو لك شفاء عاجلا . كم أنا مسرور لنجاتك .

استمرت معركة المدينة ثمانيا وأربعين ساعة أخرى . وتوقف إطلاق النار فى مساء اليوم التالى . وظهرت مجموعة من طائرات النقل الألمانيه ، وسر جنودنا سروراً عظيما عندما ألقت بالمظلات طروداً كبيرة من الزبد والجبن .

كانت الليلة دافئة بشكل غريب . والتقى المهاجمون فى ميدان هندنبرج بزملائهم من رجال الفرقة التى تهاجم المدينة من الجنوب . وظهر الجنود من وراء مبنى الكاتدرائية الهائل فتعرف من بينهم الجندى السيبيرى ذى

الشارب الأحمر الذى كان معه فى العربة ، وتعرف الجندى عليه أيضاً ، فى الحال ، فحياه .

وسأله تشوخوف :

— هل مازلت حياً ؟

وأجابه ذو الشارب الأحمر وهو يبتسم ويمسح العرق المتصبب من فوق حاجبيه :

— طبعاً

— لقد تخطينا الموت الآن . سنواصل السير إلى برلين ، أليس كذلك؟

— سيأتى دور برلين حتما ، من الأفضل أن نفكر فى الانتهاء من شنيدموخ أولا .

— شنيدموخ ، شنيدموخ ؟ لقد انتهينا من شنيدموخ بالفعل . .

ولحق تشوخوف برجاله ، بين الخرائب والأنقاض .

www.alkottob.com

www.liilas.com
منتديات ليلاس
florist

الجزء الثاني

www.alkottob.com

الأعلام البيضاء

١

استقبلت البلدان والقرى الألمانية الساكنة الجنود الروس بالأعلام البيض . التى رفرفت على الشرفات ومن النوافذ وفوق الطنف ، أو تدلت مترهلة تحت وابل الأمطار والثلوج المتساقطة ولمعت أطيافها فى ظلمة الليالى . لم تكن ألمانيا قد استسلمت بعد ، ولكن المنازل الألمانية كانت تسلم واحداً واحداً وكأنها تريد أن تتقى شر اليد المنتقمة ولسان حالها يقول : « إفعلوا ما شئتم بالنازيين ولكن لا تقربونى ! . »

وكلما أوغلت الجيوش فى تقدمها ناحية الغرب كلما ظهرت معالم الحياة أكثر من ذى قبل فى شوارع البلدان والقرى الألمانية .

وقابلت القوات الألمانية طوابير من البولنديين والإيطاليين والنرويجيين والصربيين والفرنسيين والبلغار ، والكروانيين والهولنديين والبلجيكيين والتشيك ، والرومانيين والدانمركيين ، واليونانيين والسلوفينيين والسلوفاك .

كان من بينهم الرجال والنساء والأطفال والعجائز والغلمان والفتيات ، بعضهم يركب دراجات وبعضهم يجر عربات صغيرة ذات عجلتين ، ومعهم حقائبهم وصناديق ملابس وأمتعة ، وشعارات كل الدول والقوميات معلقة على ستراتهم أو على حلل عسكرية متنوعة يخطئها الحصر ، أو على المعاطف والسترات والقمصان . كانوا يغنون ويتحادثون بعشرات اللغات واللهجات وهم يواصلون سيرهم - فى جميع الاتجاهات ، ولكن إلى الوجهة نفسها - إلى الوطن .

وبمجرد أن يروا جنودنا من بعيد أو يسمعوا هدير آلات الدبابات ذات النجمة الحمراء ، كان التشيك يصيحون : « تشيكى » ، والفرنسيون يصيحون « فرنسى ! » ، ويصيح كل فى دوره وباغته يعلن عن جنسيته كعلامة للتآخى ورغبة فى الإحتماء .

وحتى الإيطاليون والمجريون والرومانيون الذين كانوا حلفاء لهتلر إلى وقت قريب لم يترددوا فى الإعلان عن جنسياتهم وإن كان بنبرة تنم عن الإحساس بالذنب . كانت أوروبا فى فرح لإحساسها بأنها أصبحت حرة وكانت محمورة بالقوات السوفييتية التى جاءت لتحريرها ، وهى تتدفق فى سيل لا تستطيع قوة أن تقف فى طريقه عبر الطرق الألمانية جميعها .

ولكن هناك ، وعند انحناءة فى الطريق يرى جمع من الناس تحت علم أحمر .

كانوا جماعة من الروس ، بينهم عدد من أسرى الحرب يتوكأون

www.alkottob.com

على عكازاتهم ، وفيهم نساء وأطفال وفتيات صغار من سمولنسك وخاركوف وكراسنودار، وفيهم فتيات تلبسن شيلان بيضاء مربوطة أسفل ذقونهن .

وتوقف كل شيء . أحاط بهم الجند . وتبادل الجميع القبلات والأحضان ، وذرفوا الدمع الغزير . وتوقفت فتاة من القوات المسلحة تعمل منظمة مرور ، ودلت على الصغير ، ووقفت ساكنة مأخوذة وقد تحدر الدمع على خديها .

وتتابعت الأسئلة والإستفسارات السريعة : من من سمولنسك ، ومن من بولتافا ومن من الدون ؟ وتعرف الناس على بلدياتهم . كان بعضهم يكاد يكون من أقرباء البعض الآخر ، وكان فيهم « أبناء عمومة وأبناء خئولة » . وكان الروس الذين أبعدوا كثيراً عن وطنهم يتحسسون الأشرطة والشارات على أكتاف الجنود والضباط فى دهشة واستغراب ، وصغار الغلمان يتحسسون فى نشوة وحب مواسير البنادق والرشاشات الروسية ، واحمرت وجنات الفتيات تحت نظرات الجنود المبتهجين .

لا ، ليس فى هذه الدنيا معجزات أو مستحيلات ! لقد قفز جاويش كبير السن من أحد اللوريات التى تجر خلفها مدفعاً هائلا . وفى تلك اللحظة اندفعت نحوه فتاة صغيرة شقراء الشعر وكأنها كانت تنتظره وتتوقع رؤيته . وتجمع حول الوالد وابنته المتعانقين رجال كتيبة

المدفعية جميعهم ورددت حناجرهم هتافاً دوى كالرعد « هوراه » .

وإلى جوار هذا الجمع سارت فتاة أخرى ، جميلة قمحية اللون ، على كتفيها شال أبيض ، أخذت تردد باللغة الأوكرانية :

— يا للحظ السعيد ! ترى هل أبى هنا أيضاً ؟

وأخذت تعدو على طول الطابور وهى تتفرس فى وجوه رجال المناة والمدفعية وتسأل طول الوقت :

— أليس والدى هنا ؟

ورد صوت شاب من فوق أحد اللوريات :

ألا تريدين زوجاً ؟

وأطل وجه الباسم الأحمر ذو الأنف المنمش المضحك ، أطل من تحت غطاء من القماش الثقيل المشمع .

وفى هذه الأثناء كانت حركة المرور قد توقفت تماماً .

عندئذ وصلت سيارة — تتبعها مدرعة — إلى مفترق الطرق ، ونزل منها ضابط برتبة جنرال شق طريقه وسط الجمع المحتشد إلى أن وصل إلى منظمة المرور ، وقال لها بلهجة قاسية :

— يجب ألا يلهيك شيء عن القيام بمهمتك !

تعرف كثير من الضباط على الجنرال . كان هو عضو المجلس الحربى وسرعان ما شمل الصمت الجميع . والتفت سيزوكريلوف إلى الروس

www.alkottob.com

الذين تحرروا ، وقال :

ـ يجب ألا تعوقوا تقدم الجنود يارفاق ؟ فأمامهم مهمات جسيمة .

وأضاف :

ـ جميع قادة الوحدات يأتونني هنا .

وصدع قادة المدفعية والمشاة جميعهم بالأمر وأحاطوا بعضو المجلس الحربي الذي عنفهم بشدة لسماحهم بحدوث مثل هذه الفوضى . وسأل :

ـ أين قائد كتيبة المدفعية ؟

وجرى أحدهم ليبحث عن قائد الكتيبة ، ووقف الجنرال جانباً حتى يتمكن الضباط من إعادة النظام . ودوى النداء :

ـ إنتباه !

ـ كل في مكانه . في عربته أو مدرعته !

وبدأ كل شيء يتحرك ببطء . ولم يعد هناك في وسط الطريق سوى الأب وابنته . كان يحاول ـ دون أن يقوى على ذلك ـ أن يزيحها من طريقه برفق وهو يهمس إليها ببضع كلمات وينظر بقلق ناحية الجنرال .

سأل سيزوكريلوف كولونيل المدفعية الذي جاء يعدو :

ـ لماذا توقفت الكتيبة ؟

ـ إنها غلطتي يارفيق جنرال !

فرد الجنرال ببرود :

ـ أنا أعرف أنها غلطتك . إنكم لم تتسببوا في تعطيل أنفسكم لحسب ، ولكنكم جعلتم من هذا الجزء من الطريق عنق زجاجة يعوق حركة المرور كلها . إن قائداً مثلك لا يساوي مليما !

ووصل إلى المكان عدد من السيارات بها بعض الجنرالات من قادة القوات التي تستخدم الطريق ، وكانوا يرغبون في تقديم تقرير إلى الجنرال ولكن سيزوكريلوف لم ينصت إليهم ، وسار إلى الجاويش الواقف في منتصف الطريق مع ابنته ، وقال :

ـ حسناً ، لقد كنت حسن الحظ أيها الجندي ، ولكن يجب أن تتذكر أن الحرب لم تنته بعد !

ورفع الجاويش يده بالتحية مسرعاً ، وألقى نظرة أخرى على ابنته وصعد إلى اللوري . واختفى الوجه الأحمر ذو الأنف المضحك خلف القماش المشمع .

خلا المكان من الحشود في الوقت المناسب ، فقد ظهرت طائرتان ألمانيتان من قاذفات القنابل وإن كانتا لم تتمكنا إلا من إلقاء قنبلتين ثم أبعدتهما المقاتلات السوفييتية في الحال .

والتفت عضو المجلس الحربي إلى الجنرالات والقادة السياسيين وقال :

ـ إن السرعة هي أهم شيء الآن ، يجب أن نحافظ على المواعيد

www.alkottob.com

المحددة للزحف ، ويجب أن يظل العائدون إلى أوطانهم على جانبي الطريق بحيث لا يعوقون تحركات القوات . والإدارات السياسية للوحدات مسئولة عن العمل بين العائدين إلى الوطن ، وعن تنظيم الاجتماعات . ولكن كل هذا يجب أن يتم دون أى إخلال بزحف القوات صوب الأودر .

وبعد أن ركب عضو المجلس الحربى سيارته وذهب ، وقف الضباط والجنرالات يتشاورون قليلا ، ثم — وهـــذه هى الحقيقة — هزوا رؤوسهم : « أوه ! كم هو صارم ! لا يمكن أن تجعله يتزحزح شعرة ! »

عندما وصل الجنرال سيزوكريلوف إلى لاندسبرج اتصل تليفونياً بالكولونيل المسئول عن إعادة المواطنين الروس إلى بلادهم . وجاء الكولونيل لمقابلة الجنرال بالطائرة . ولم يدخل الضابط إلى غرفة الجنرال سيراً ، وإنما دخلها عدواً ، وكل ملامح وجهه المتألق تنطق بما كان يحس به الرجل من فخر وسعادة لأنه وكل إليه القيام بمثل هذه المهمة التاريخية : ألا وهى إعادة المواطنين السوفييت المحررين إلى أرض الوطن .

قال عضو المجلس الحربى :

— لقد سألت بعض العائدين عن وجهتهم ، وقد لاحظت — مع الأسف — أن كثيراً منهم لا يعرفون مراكز التجمع . كما لاحظت أن بعضهم لم يتلق تعيينات الغذاء المخصصة لهم . هـذا فى الوقت الذى لا ينقصك الإمدادات أو الضباط أو وسائل الانتقال .

ونظر الجنرال إلى الكولونيل بشىء من الاحتقار : وواصل كلامه بصوت أكثر ارتفاعاً :

— إن ضباطك يا كولونيل أصبحوا عاطفيين إلى درجة تسىء إلى سير العمل . واعذرنى إذا قلت أنهم أصبحوا عاطفيين بشكل غبى . قد يسمح للجنود فى مثل هـذه الأحوال بأن يعبروا عن مشاعرهم ، فمن الطبيعى أن يحس الشعب السوفيتى بالسعادة لنجاحه فى تحقيق رسالته . ومع ذلك ، فليس فى كل هـذا ما يجعل القادة البلشفيين يحسون بانفعالات عاطفية غير متزنة . يجب أن نسير قدماً من أجل تنفيذ المهمة التى عهد إلينا الحزب بها . يجب أن تنظم العمل بحيث تضمن أن يكون مواطنونا المحررون فى المعسكرات فى حالة جيدة من التغذية والاكتفاء ، وأن يكونوا مطمئنين إلى أنهم سيعودون إلى أرض الوطن فى أقرب وقت . ويجب أن يتم ذلك بشكل لا يسمح بأى تعطيل فى تحركات القوات ، التى يتوقف على سرعة زحفها وضع حد لكل عذابات الحرب وكوارثها .

« لابد أن هذا الرجل قدمن حجر صوان » ، بهذا فكر الكولونيل وهو يقف وقفة انتباه أمام عضو المجلس الحربى .

وواصل الجنرال سيزوكريلوف رحلته .

وكان الرجل يبذل مجهوداً خاصاً لينصرف بفكره إلى الأمور العديدة التى يجب الاهتمام بها ليكبت موجة الأحاسيس الجارفة التى تجيش فى

www.alkottob.com

نفسه (وغير المرغوب فيها) كلما رأى الجنود والمواطنين الروس المحررين وهم يسيرون فى الطرق . والحق أنه لم يكن دائماً ينجح فى ذلك .

كان سيزوكريلوف — وهو الرجل الذى ارتبطت حياته كلها بالحزب — يحس بالسعادة لأن القوات السوفيتية تحرر العالم من الفاشية . وكان يعتبر ذلك مسألة طبيعية ، ومن الأمور البالغة الضرورة أن يضرب الشعب السوفيتى المثل لكل الشعوب الأخرى فى إنجاز واجباته ، وفى نقائه الخلقى ، وفى كل تلك الصفات التى اكتسبها بفضل حياته فى بلد متحرر .

أهو حب الشعب الذى ملأ عليه حياته ؟ نعم . ولكنه حب إيجابى فعال وذو هدف محدد . إنها حرب ضد الشر ، حرب تنهض بها دولة يقودها حزب قوى . فى هذا المقام أثبتت التجربة التاريخية أن النوايا الطيبة وحدها لاتجدى . لاينفع هنا سوى التنظيم الحديدى سواء فى السياسة أو الحرب .

وعلى الرغم من أن الجنرال لم يسمع تعليقات مرءوسيه على أوامره وتعليماته وتحذيراته الصارمة إلا أنه تخيل كل مايقال عنه وأحس بالألم بسبب ذلك . وليس صحيحاً أنه لايعنيه مايقوله عنه هذا الجاويش الذى قابل أبنته فى الطريق ، أوما يقوله الضباط والجنرالات ، ولكن هذا لم يكن ليثنيه عن النهوض بمهماته بكل صرامة ، فلم يكونوا على علم ، بل لم يكن

بمقدورهم أن يكونوا على علم بكل مايعرفه هو .

وكان الموقف فى الجبهة يتلخص فى الآتى: كانت المهام التى حددها القائد الأعلى قد نفذت ـ فشقت وحدات الدبابات طريقها إلى الأودر وتمكنت ، بالاشتراك مع وحدات المشاة الزاحفة ، من احتلال رؤوس جسور على ضفته الغربية . وكان الألمان يلقون باستمرار قوات جديدة ضد وحداتنا التى احتلت مراكز على الضفة الغربية . والمهمة الأساسية الآن هى الاحتفاظ برؤس الجسور وتوسيعها . لذلك كانت السرعة فى استجلاب القوات أمراً حاسماً للغاية .

وكان سيزوكريلوف قد استدعى قائد الجبهة فى الليلة السابقة حيث عرف منه أول أخبار وصلت عما يدور عند الأودر . وجلس الرجلان صامتين فى انتظار أخبار جديدة تؤكد ماورد فى التقارير المبتسرة الغامضة وكان مبنى القيادة الهائل ساكناً هادئاً . وأخيراً بدد الصمت أصوات أبواب تصطفق ، ورجل يسأل منفعلا :

— أين القائد ؟

فصاح القائد وهو يفتح الباب بعنف :

— أدخل .

كان رئيس أركان الحرب قد وصل بصحبة ضابط من قسم العمليات جاء من الأودر على متن طائرة حربية سريعة ، وأحضر معه خريطة قيمة — وهى الخريطة الوحيدة — للجبهة ، موضح عليها تخطيط سريع لمواقع الوحدات .

www.alkottob.com

كان هناك رأس جسر فعلا ! كان لا يزال شريطاً متعرجاً مضطرباً ملتصقاً بالأودر ، ولكنه كان موجوداً بالفعل .

وأخذت الأخبار تترى فى سيل لاينقطع كما يحدث دائماً فى مثل هذه الأحوال : فهناك ضباط الاتصال ، والاتصال اللاسلكى والتليفونى والتلغرافى ، وأخذت تفصيلات الموقف تتضح أكثر فأكثر .

واستدعى القائد للتكلم بالتليفون مع الرفيق ستالين .

وأمر القائد الأعلى ، بعد أن استمع إلى التقرير الأخير ، أمر بأن تعمل القوات على توسيع رأس الجسر ، أمر بأن تغطى غطاء جوياً وتدعم دعماً قوياً . كان واضحاً أنه من الأفضل ألا تنطلق القوات فى زحفها نحو برلين قبل إجراء الإعدادات الكافية ، وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الفرص التى أمام العدو بسبب كشف الجناح الأيمن لقواتنا . وقد ألقى القائد الأعلى ثقلا خاصاً على هذه الحقيقة الأخيرة .

وسأل ستالين عن أشياء عديدة أخرى من بينها سؤال عن حصار شنيدموخ ، وأجاب القائد أن العملية ستنتهى فى ظرف يومين أو ثلاثة .

هكذا كان الموقف فى الجبهة .

وفى اليوم التالى استقل سيزوكريلوف السيارة وتوجه إلى الأودر .

٢

مرت القوات الزاحفة بعدد لايحصى من القرى والبلدان التى تبدأ أسماؤها بمقاطع ألمانية مثل : التـ . . ، ونيو . . ، وكلين . . ، وجروس . . واوبر . . ، وتنتهى بمقاطع مثل . . برج ، . . دورف ، . . ستات ، . . . فالد . . . هوسن ، . هوف ، . . هوس . مرت البلاد الصغيرة بمنازلها ذات الأسقف المبلطة ، وفى كل منها نصب لتخليد ذكرى فردريك الثانى أو وللم الأول أو بسمارك أو كيرفورست أوف براندنبرج ، وكل واحد من هؤلاء مرفق باسمه صفة هى إما « الأكبر » أو « الحديدى » أو « الذى لايقهر » . وفى كل بلدة تقريباً ترى نصب تذكارية للجنود الألمان الذين قاتلوا فى حرب ١٨١٣ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، مكتوب عليها عبارات إهداء من « الوطن العارف للجميل » أو من « المواطنين الأوفياء » .

وعلى الرغم من أن هذه النصب بنيت حديثا إلا أنها كانت محملة بكل مايذكر الإنسان بالقرون الوسطى ، فعليها سيوف صدئة ودروع وسترات من الزمرد ، ونسور من حديد تحلق فوق القواعد الحجرية .

ولكن لايرى الإنسان تمثالا أو نصباً واحداً يخلد ذكرى شاعر

www.alkottob.com

أو موسيقار . فالعالم الخارجي يعرف أن ألمانيا كانت يوماً وطنا لجوته وبتهوفن ودورر ، ولكن هنا يسود فردريك وبسمارك ومولتكه . وحتى أولئك الذين هزموا من معركة المارن أقيمت لهم النصب وصنعت من أجلهم أكاليل الغار وأحييت ذكراهم وكأنهم المنتصرون المظفرون .

كان الجنرال سيزوكريلوف يتفحص ماحوله باهتمام بالغ ويتأمل بشغف أرض ألمانيا .

ولم يكن من السهل طبعاً تكوين فكرة واضحة عن هذه البلاد من مجرد الانطباعات الطارئة . وكان الجنرال على سفر طيلة الوقت . وكان يتوقف بين حين وآخر : فى إحدى الوحدات مرة ، وأخرى فى أحد مطارات الميدان . كما أنه يعلم تماماً أن القيادة « الروحية » لهذا البلد لاتزال بعيداً ، وراء الأودر — على نهرى الإلب والراين . أما ألمانيا التى يسودها اليونكر ، والتى تمتد على طول الأودر وإلى شرقه فلم تعد تمد ألمانيا — منذ وقت طويل — إلا بالخنازير والجنود .

وعلى أية حال فهناك حقيقة واضحة وهى أن سكان هذه الأقاليم ، أصحاب هذه المنازل المهجورة ، الناس المصورين فى ألبومات العائلات هؤلاء الناس المجدون المنتظمون الذين لهم صفات المتعلمين — هؤلاء الناس أنفسهم أصبحوا أداة رهيبة فى أيدى عصابة هتلر الغاشمة المحاربة .

فكيف انتهت أمة عظيمة كهذه إلى مثل هذا المصير ؟ لقد بدأ الطريق الذى اختطه تاريخها يدور فجأة كالدوامة الكئيبة المزعجة ، ولم يحدث هذا طبعاً دون الاعتماد على الوابل الذهبى للديون الأمريكية والبريطانية .

لم يتمكن الألمان من أن يدينوا — من خلال جنبات الكلمات الجوفاء ، والصيحات المجنونة ، والخدع المضللة ، والوعود البراقة — حقيقة أن هتلر لم يأت لإنقاذ ألمانيا من « قيود معاهدة فرساى » كما زعم ، ولكن جىء به لإنقاذ الرأسماليين وكبار الملاك الألمان من العمال والفلاحين الألمان . لم يتمكن الألمان من تبين هذه الحقيقة لأن القادة الاشتراكيين الديمقراطيين المنحلين نجحوا فى تخديرهم بالوعود الجوفاء وبتركهم نهباً لأحط الغرائز والصفات التى اكتسبوها من تربية سيئة استمرت أعواماً عدة .

ونجح هتلر أخيراً فى سحق الحركة العمالية وتحويل طاقة الشعب الألمانى وجهة أخرى — ضد كل شعوب أوروبا .

وتذكر سيزوكريلوف — طبعاً — خيرة أبناء ألمانيا المتغيبين خلف قضبان السجون وفى معسكرات الاعتقال . ولكن الشىء الذى لم يستطع هضمه هو أن الطبقة العاملة الألمانية لم تقو على الصمود فى المحنة . كانت هذه الفكرة تعذب سيزوكريلوف بل إنها كانت تجرح كبرياءه البلشفية القديمة . كان يحب الشعب الكادح ويؤمن إيماناً راسخاً

www.alkottob.com

بمستقبله العظيم . كان قد تنشأ على أيدى لينين وستالين على الاحترام والتقديس للشعب العامل من كل بلد وجنس . ومع ذلك فكان عليه هنا أن يجابه الحقائق وأن يفكر فى المستقبل .

كانت هزيمة ألمانيا يجب أن تتحول إلى انتصار لطبقتها العاملة ، انتصار على الأفكار الرجعية والمصالح الأنانية .

وكان من عادة سيزوكريلوف أن يشاطر زوجه وابنه كل أفكاره وانطباعاته ، ولكن ابنه اليوم لم يعد على قيد الحياة . وعلى أية حال فقد مات الإبن من أجل نفس القضية التى استشهد فى سبيلها العامل الألمانى ارنست تالمان من مدينة هامبورج فهل يفهم العمال الألمان هذه الحقيقة أوهل سيأتى اليوم الذى يفهمونها فيه ؟ نعم ، إنهم سيفهمون .

كذلك لم يكن فى مقدور الجنرال أن يراسل زوجته . كان يعرف أن عليه أن يكتب لها بنبأ وفاة ولدهما ولكنه ظل يسوف ويؤجل الأمر . كان يشعر بالخوف ، فقد كان يحس بأنها لن تحتمل الصدمة ، وأن الحزن ربما يودى بحياتها . وكان كلما حاول طمأنة نفسه بفكرة أن العالم اليوم ملىء بالأمهات الثكالى الحزانى عاد يفكر بأمى قائلا : لا ، إنها لن تجتاز المحنة .

وسرعان ما انتزعته الأنباء الهامة من كل هذه الأفكار . جاء بالأنباء ضابط موفد خصيصاً من قائد الجبهة .

نعم ، لقد كان تحذير ستالين دقيقاً وفى الوقت المناسب بالضبط .

كانت أحداث على أكبر جانب من الأهمية تدور على الرقعة الواسعة الواقعة بحذاء شاطىء البلطيق إلى شرق الأودر . لم تكن هذه المنطقة قد سقطت بعد فى أيدى قواتنا على حين كانت الوحدات الألمانية المتقهقرة إلى سوينموند وستيتن تتجمع فيها .

ودلت أجهزة الاختبارات اللاسلكية على وجود ثلاثين مركزا جديدا للقيادة فى منطقة ستارجارد — ستيتن . وجاءت تقارير من السلاح الجوى تشير هى الأخرى إلى أن دبابات ومدفعية العدو تتحرك بقوات لايستهان بها من مشارف برلين صوب الشمال الشرقى . ورصدت وحدات من الدبابات الألمانية لأورطة من دباباتنا أرسلت للقيام بأعمال الاستكشاف بالقرب من بيرلين .

وعلاوة على ذلك جاءت أخبار من موسكو تؤكد أن مخابرات البحرية البريطانية أرسلت إنذاراً من النوع المخيف يشير إلى تجمع الخطر فى الشمال ، وذكر رقم رهيب : ألف وخمسمائة دبابة ألمانية تتجمع على الشاطىء .

وتعجب سيزوكريلوف لهذا الخوف المفاجىء وهذا الجزع غير المفهوم من جانب الحلفاء ، ولكنه سرعان ماتبين أنهم كانوا غير مرتاحين لرأس الجسر الذى أقامه السوفييت على الضفة الغربية للأودر . من الواضح أنهم كانوا يظنون أن القيادة السوفييتية ستحول قواتها الرئيسية إلى الضفة الشرقية حين يتملكها الخوف من الخطر الآتى من الشمال ،

www.alkottob.com

وهكذا تحرم القيادة السوفييتية من بدء هجوم عاجل للاستيلاء على برلين . كان البريطانيون والأمريكيون يتوقون للإستيلاء على العاصمة الألمانية لأسباب لاتتعلق بالمكانة والسمعة العسكرية فحسب ، ولكن لأهداف أعمق غوراً وأبعد مدى .

وأضاف قائد الجبهة إلى ما سبق أنه أمر بنقل بعض القوات إلى الشمال وأنه سيتوجه إلى هناك بنفسه . وفى الوقت ذاته أرسل القائد الأعلى تعليماته بضرورة التشبث برأس الجسر على الضفة الغربية للأودر وتوسيعها ، وكذلك بالمضى فى العمليات العسكرية بهدف الإستيلاء على القلعتين الألمانيتين : كوسترين وفرانكفورت — أودر .

وقرر سيزوكريلوف أن يواصل رحلته إلى الأودر حيث يتقرر مصير ومستقبل الزحف على برلين .

وقبل أن يرحل إستدعى قادة فرق مقاومة الجاسوسية وأخبرهم أنه شاهد — أثناء ترحاله خلف الخطوط الأمامية — شاهد مجموعات عديدة من الناس المتجولين المنتمين إلى السكان المحليين . وفى هذه الجماعات المتنقلة عائلات تحمل حقائب وأمتعة وتسير فى الطرق التى تحف بالقرى . وهذه الحالات تعتبر عادية فى مثل هذه الظروف . ولكن ، هناك أيضاً عدد كبير من الشبان ، وعلى الرغم من ملابسهم المدنية إلا أن العين ، حتى العين التى لا خبرة لها ، لا تخطىء فى الكشف عن طبيعتهم العسكرية . قال الجنرال :

— بين هؤلاء الرجال مجرمو حرب ، كما أن فيهم مجرد جواسيس عاديين . إن القيادة الألمانية لا تزال موجودة ولا داعى للتراخى أو الاعتماد على أنها مشلولة أو عاجزة عن العمل .

وأبلغه الضباط أن هناك إجراءات قد اتخذت فعلا لمقاومة الجاسوسية ، وأنهم نجحوا فى القبض على عدد من ضباط الألمان المتخفين فى ملابس مدنية فى شويرين ولاندسبرج وكونيجسفالد وكونيجسبرج فى نيومارك ، كما ألقى القبض على جاسوسين ألمانيين فى إحدى المزارع وأنهما أدليا بمعلومات هامة . وأعتقل كذلك أحد رجال الصناعة الهتلريين من ذوى النفوذ وهو يحاول الهرب من سيليزيا ، وهو أحد عمد احتكار هيرمان جورنج ، وأعتقل كذلك عدد لا بأس به من الضباط القياديين السابقين . وكل هذه الأصناف من الناس كانوا متجهين للحاق بالأمريكيين الزاحفين من الغرب .

قال أحد ضباط مكافحة الجاسوسية ، وهو قائد برتبة كولونيل :

— يبدو أنهم يعتقدون أن حلفاءنا الأمريكيين سيأخذونهم تحت جناحهم .

ونظر الجنرال إلى الضباط نظرة ذات مغزى ، ثم هز رأسه ، وقال :

— لهم الحق فى أن يعتقدوا ذلك ، مع الأسف ...

وبعد انتهاء الحديث مع ضباط مكافحة الجاسوسية استقل الجنرال سيارته وتوجه بها إلى معسكر ملىء برجال الطيران من الحلفاء ، ممن

www.alkottob.com

حررتهم قواتنا .

كان المعسكر عبارة عن منزلين من طابقين ملحقين بأحد المصانع وسمع الجنرال صخباً شديداً صادراً من غناء الرجال وصيحاتهم وهو لا يزال على مسافة كبيرة من المعسكر .

كان الفرح الصاخب على أشده فى المعسكر ، ورجال الطيران الأمريكيون والبريطانيون منطلقون فى الشارع وهم يتعانقون ويصيحون ويتكلمون ويثرثرون بصوت عال . وكانت فرحتهم صادقة محقة . فقد كان الألمان يتهيأون لترحيلهم فى اللوريات ناحية الغرب مع الجيوش الألمانية المنقهقرة ، وعندئذ اقتحمت دبابة روسية وحيدة أرض المعسكر ولم يتحقق الرجال فى البداية من أنها دبابة روسية ، فعندما ظهرت الدبابة استعد الأمريكيون للفرار لاعتقادهم أن الألمان سيبيدونهم قبل الانسحاب .

وقفت الدبابة ساكنة نحو دقيقة وكأنها تتشمم الجو الذى يحيط بها بفوهة مدفعها الهائل ثم أخذت تطلق قذائفها فى قلب صفوف الحرس الألمانى . ثم تراجعت الدبابة ، وزمجرت قليلا ، وهاجمت المنزل الذى كان الألمان محتبئين فيه وقد تملكهم الذعر ، ولم تلبث أن سوته بالأرض ، وكأنها ملاكم قوى كال لخصمه ضربة قاضية على الفك . واستدارت الدبابة ، وأطلقت قذيفتين على سيارات اللورى الواقفة فى الطريق فى انتظار الأسرى ، وانطلقت بعد ذلك بعيداً .

واندفع الأمريكيون والبريطانيون خلف هذا العملاق الفولاذى ، وهم يصيحون بعبارات الشكر والعرفان بالجميل ، ويودون لو يخرجوا من جوفه هؤلاء الفتية الرائعين الذين حرروا مائتين من رجال الطيران بهذه الطريقة المفاجئة الهادئة المفرحة . ولكن محاولات الأسرى المحررين ذهبت هباء ، فقد اتضح أن هؤلاء الفتية كان أمامهم مزيد من الأعمال ، فقد حقوا فى طريقهم مدفعاً ألمانياً مضاداً للطائرات ، وسرعان ما اختفى العملاق الفولاذى خلف انحناءة فى الطريق .

وعندما وصلت القوات السوفيتية إلى المعسكر ألح رجال الطيران الأمريكيون والبريطانيون على الضباط الروس الذين زاروا المعسكر فى السؤال لكى يعرفوا من كان فى تلك الدبابة . كان من الطريف حقاً أن يعتبر هؤلاء الإنجليز والأمريكيون أن انقاذ مائتين من الأنجلو ساكسون هو أعظم انتصار تحقق فى الحرب .

ولم يعط الضباط السوفييت هذا السؤال أى اهتمام قائلين :

ـ أوه ، وما أهمية مثل هذا الأمر ؟!

وأخبر رجال الطيران أن هناك سيارات عدة معدة لنقلهم إلى المطار فى أسرع وقت .

وعندما وصل الجنرال إلى المعسكر اصطف رجال الطيران وحيوه وهم وقوف (انتباه) ، كل فريق على طريقته الخاصة : حياء الأمريكيون بحركة خفيفة من يدهم اليمنى إلى جباههم ، وحياء البريطانيون

www.alkottob.com

برفع أيديهم إلى قلنسواتهم ، وأكفهم مقلوبة قليلا إلى الأمام ، وأذرعهم تدور بحركة خشبية .

نزل سيزوكريلوف من سيارته وصافح ضباط الطيران الذين اصطفوا لاستقباله ، وسألهم — بواسطة المترجم — إن كانوا بحاجة إلى أى شيء .

وتولى الإجابة على أسئلة الجنرال إنجليزى طويل القامة ، هو السير ريجنالدتانجلى ، قائد السرب فى سلاح الطيران الملكى البريطانى .

لم يكن رجال الطيران بحاجة إلى أى شيء ، وهم يشكرون القيادة السوفييتية على الرعاية الأخوية والمعاملة الرفاقية الحقة ، ولكن لهم رجاء واحداً : كانوا يودون — لو أمكن — إرسال برقيات إلى ذويهم لإبلاغهم أنهم أحياء أصحاء . ووافق الجنرال على هذا الطلب ، واقترح أن يأخذ مساعده قائمة بأسماء ورتب جميع الموجودين ، وأن يبرق بهذه القائمة إلى البعثتين العسكريتين البريطانية والأمريكية فى موسكو .

وتقدم ضابط أمريكى برتبة ماجور بطلب آخر : هل يمكن ألا يتم ترحيله فى الحال ؟ وقال إنه لشيء مخجل أن يرحل ويتقاعد فى هذه اللحظات ! وإذا لم يكن هناك اعتراض عند الجنرال فإنه يود أن يلحق بالخدمة مؤقتاً فى سلاح الطيران السوفيتى إلى أن يتمكن من الالتقاء بالقوات الأمريكية عند نهر الأودر . وسأله الجنرال :

— عند نهر الأودر ؟ ولكن ليس هناك أمريكيون عند نهر

الأودر ، بل إن الألمان هم الذين لا يزالون هناك : من الأرجح أننا لن نلتقى بالأمريكيين إلا عند نهر الألب .

وسأل ضابط آخر برتبة ماجور ولكنه ضابط انجليزى :

— هذا يعنى أنكم ستستولون على برلين .

فنظر إليه الجنرال نظرة نافذة وأجاب بكلمة واحدة :

— نعم .

واستمر الحديث بين الجنرال والضباط فى هدوء وأدب ، ولكن حدث اضطراب مفاجيء فى صفوف ضباط الحلفاء . فقد اندفع الجاويشية والضباط الصغار الذين كانوا واقفين خلف الضباط الكبار وقد لعبت الخمر برءوسهم قليلا ، اندفعوا يزيحون رؤساءهم ويحيطون بالجنرال ويصافحونه بحرارة ويسلمون على الضباط المصاحبين له . وهنا فقد اللقاء الجو الرسمى ، وامتلأ الجو بالصيحات والنداءات المرحة .

— نشكركم أيها الإخوان !

— عاشت روسيا !

وهز قائد السرب السير ريجنالدتانجلى رأسه علامة عدم الموافقة على ما يجرى ، ولكنه سرعان ما استعاد ابتسامته المؤدبة متبسطاً ، وكأنه يبتسم لطفل عاق . وازدادت ابتسامته اتساعاً عندما لاحظ أن الجنرال كان يرقبه . ووصلت ابتسامته إلى أذنيه عندما رأى الجنود السوفييت المارين فى الطريق يلوحون بأيديهم لتحية ضباط الحلفاء المحررين

www.alkottob.com

كان الجنود الروس يتدفقون على الطريق فى سيل لا ينتهى . وقرأ تانجلى فى وجوههم اللطيفة الودودة شيئاً يعبر عن إحساسهم بقوتهم . كان الروس يسيرون فى غير عجلة ، ولكن فى ثقة وإصرار ، وهم يتفحصون بعيون فيها دهاء وهدوء كل ما يحيط بهم . وكانت عباءاتهم القصيرة الملقاة على أكتافهم ترفرف فى الهواء بصوت مسموع .

وتذكر تانجلى المناقشات الكثيرة بين كبار الضباط البريطانيين الذين كانوا يذهبون فيها إلى القول بأن روسيا ستخرج من هذه الحرب وقد استنزفت دماؤها تماماً . ورأى الرجل أن هذا القول هو أبعد مايكون عن الحقيقة ، وداخله إحساس بالقلق والإنزعاج : لقد توغل هؤلاء الروس كثيراً فى أوروبا .

وأخذت الإبتسامة تغيض من على شفتيه .

ثم بدأ الجنرال يبتسم واتضح أن تعبيرات وجه هذا الإنجليزى الصارمة وابتسامته الباهتة أخذتا تكشفان عما يداخله من أحقاد ، وما يتمثل فى ذهنه من فهم دقيق للحقائق . وأحس الرجل بشىء من عدم الإرتيـــاح .

فى هذا الوقت وصلت عربات الأوتوبيس التى أرسلت لنقل ضباط الحلفاء إلى المطار واستقل سيزوكريلوف سيارته وواصل رحلته .

٣

بعد التطورات التى طرأت على القطاع الشمالى صدرت الأوامر للقوات التى احتلتها ، والتى لاتزال موجودة بها ، بالتحرك إلى الأمام .

وصل الماجور ميجايف أركان حرب الكتيبة من قيادة الفرقة ليلا وجمع قواد الأورط والفصائل والبطاريات وقرأ عليهم الأمر .

كان القواد جالسين بوقار فى كراس وثيرة من الجلد فى مكتب مدير أحد بنوك شنيدموخ حيث مقر قيادة الكتيبة ، وكانوا يسجلون فى مفكراتهم وعلى خرائطهم البيانات الضرورية جميعها ، ولم يوجهوا أية أسئلة ، فقد كانوا معتادين على الطاعة والنظام وأصدر ميجايف تعليماته المفصلة عن التحركات وهو يؤكد على كل فقرة من كلامه كعادته بقوله « هذا هو الوضع » . وأخيراً سأل وفى صوته نبرة تنم عن شىء من الحزن :

ـ أية أسئلة ؟

وأجاب قائد الأورطة الثانية نيابة عن الجميع :

ـ كل شىء واضح تماماً .

ولم يرتفع سوى الصوت الصيانى الكئيب للقائد الجديد ، صوت قائد

www.alkottob.com

الفصيلة الثانية ، من ركن قصى فى الفرقة . ولم يكن ماقاله سؤالا ولكنه كان تقريراً لحقيقة واقعة :

– إننا لن نتجه إلى برلين إذن .

وتململ ميجايف فى وقفته ، فقد كانت هذه هى المشكلة التى كان يفكر فيها وهو يحس بالمرارة وقال :

– تماماً . هذا يعنى أننا لن نتجه إلى برلين . هذا هو الوضع .

وفكر الضباط جميعاً أن كل هذا كان بسبب شنيدموخ ، ولعنوا البلدة ألف لعنة .

وفى الصباح بدأت الأورطة الأولى تتحرك من ميدان هندنبرج ، وهو الميدان الرئيسى للبلدة . وأخذوا يرددون بين الحين والحين أغان جماعية ، والأطفال الألمان يحملقون فيهم بأعين شاخصة من الشبابيك ومن أسفل البوابات الكبيرة

وكان فيسيلشا كوف يتقدم الأورطة على ظهر جواد . كذلك كان قواد الفصائل يتقدمون فصائلهم المبعثرة على ظهور الخيل . وخلف المشاة تقدمت وحدات المورتر وهى مجلوة متألقة ومظهرها سلمى لايخيف . أما المدافع الرشاشة فقد بدا مظهرها منذراً بالشر ، حتى وهى موضوعة على عرباتها وفوهاتها موجهة إلى الخلف . وتبع ذلك قافلة العربات ، وأخيراً سارت جلاشا على ظهر جواد ، ووجهها المورد يتألق ، وهى تبتسم ابتسامتها الودودة للعالم بأسره

وعلى الرغم من أن الجنود كانوا يتوقعون إستراحة طويلة إلا أنهم شعروا بالغبطة لهذا التحرك المفاجىء . ولكنهم هزوا رؤوسهم بأسى حين عرفوا وجهتهم قائلين : أوه ، لسنا ذاهبين إلى برلين ! وأخذوا يتفحصون القرى والبلدان الصغيرة والسقوف المبلطة والأسوار والأعمدة التى كانت الأعلام البيضاء ترفرف عليها بفعل الريح القوية .

وأخذ الجنود يتحدثون فى غير عجلة ، وهم ينصحون كل واحد للآخر عن أحاسيسهم بالنسبة لألمانيا .

كانت الزراعة هى أهم مالفت نظر الباشجاويش جودونوف ، فهو رائد فرقة مزارعين فى إحدى المزارع التعاونية ، وقد توارث العمل فى الأرض أباً عن جد . كان يتناول قبضة من الأرض الألمانية السوداء ويتفحصها بين أصابعه ، ويلقى النظرات الخبيرة على الملكيات الصغيرة أو المزارع الشاسعة التى يملكها كبار الملاك العقاريون . وكلما عسكروا فى إحدى القرى ينهمك فى تفحص الأفنية والمبانى الملحقة بالمزارع الكبيرة .

قال وهو يحك مؤخرة رأسه الأشعث :

– إن كل فئة منهم تحيا حياة مختلفة عن الأخرى . إن المالك الكبير فى هذه القرية يمتلك وحده ألفى هكتار من الأرض على حين يبلغ مجموع مايملكه الآخرون جميعاً خمسمائة هكتار . يالها من فوضى .

ونخر بأنفه باشمئزاز واحتقار وواصل سيره فى صمت ، وأيقن الجميع أنه سرح بفكره إلى مزرعته التعاونية ، طريق لينين ، فى منطقة ألفاى

www.alkottob.com

الثانية ، وهى المزرعة التى حدث جودونوف زملاءه عنها كثيراً . وبعد فترة صمت قال باعتزاز :

ـ عليهم أن يأتوا ليتعلموا منا .

ثم صاح بصوت جهورى وكأنه تنبه فجأة لواجبه فى الوقت الراهن :

ـ ضموا الصفوف ! ... أسرعوا الخطى ... يابتشوجين لاتتلكأ فى السير ، تقدم ! ...

وعقب ساليفنكو وهو يخلص لعادته القديمة فى تعميم مغزى الأحداث :

ـ ومن العجيب أنهم كانوا لا يكفون عن الشكوى من ضيق الأرض ... إلى درجة أنهم شنوا الحرب علينا ليسلبونا بعضها ! ... أما كان يجدر بهم أن يحاربوا ضد سادتهم من أجل الأرض ، لو أنهم اختاروا هذا الطريق لكلفهم الأمر قليلا ولكان فيه شىء من المنطق !

كان تشوخوف يهتز فوق ظهر جواده الهائل وهو يصغى بنصف سمعه إلى حديث الجنود على حين سرح خاطره فى شئونه الخاصة .

كان الماجور ميجاييف قد جاء إليه منذ برهة يبلغه أنه مرشح لتقلد وسام العلم الأحمر لحسن بلائه فى معركة شنيدموخ ، فقد كان الكابتن هو أول من اقتحم البلدة على رأس فصيلته واستولى على المبانى الأساسية لمصنع ألبازوس وميدان كوبر .

وامتلأ قلب تشوخوف المتكبر بموجة من الإحساس الدافىء ، ولكنه لم يتكلم ، فسأله ميجاييف وهو يحدجه بنظرة جادة :

ـ مارأيك ؟

وأجاب تشوخوف :

ـ لاشىء .

يالغر التافه ! كان ميجاييف يتمنى لو حمل تشوخوف على الكلام وقول أى شىء ، فقد كان قلبه يئن إشفاقاً على الكابتن وبخاصة بعد أن قرأ من أجل خدمته كل شىء عن ظروف حياته الخاصة .

ولكن تشوخوف ظل ينظر إلى ميجاييف فى ضجر وهو لايقول شيئاً .

فقال ميجاييف وقد نفد صبره :

ـ حسناً ، إلحق بفصيلتك .

وأجاب تشوخوف وهو يهز لجام جواده :

ـ حاضر .

ومع ذلك فقد أخذ الكابتن يفكر مغتبطاً فى هذا الوسام الرائع ذى الشريط الأحمر والأبيض الذى وعد به منذ قليل . ولكنه سرعان ماكبح جماح عواطفه قائلا : كفى ، لاتستسلم للرقة !

وعاود التفكير وهو يحاول أن يتغلب على عواطفه : إن الفضل فى

www.alkottob.com

الاستيلاء على ميدان كوبر بهذه السرعة يرجع إلى لوبنتسوف الذى نال من قوة الألمان بقنابله اليدوية . . .

وتذكر لوبنتسوف وقلبه مفعم بالعطف والتقدير . ترى هل أصيب بجرح خطير ؟ وهل سيعود ثانية إلى الفرقة ؟

كان الجنود ينظرون إلى تشوخوف نظرة احترام ، بما فى ذلك الذى كان ينظر إليه فى البداية نظرة عدم ثقة . فالمنظم الحزبى يرى فى القائد الجديد الآن شاباً طيباً على الرغم من جوانبه العجيبة ، على الرغم من تخلفه السياسى . وكان ساليفنكو لايقر بصفة خاصة إصرار تشوخوف على الاحتفاظ بمركبته العجيبة حتى هذه اللحظة . والحقيقة أن العربة كانت لا تزال تواصل رحلتها خلف تشوخوف فى المؤخرة بعيداً عن أعين كبار الرؤساء والقواد .

وقد تأثر الجنود — أثناء معركة شنيدموخ — بجسارة قائدهم وبرود أعصابه . لقد ظهر فى هذه المعركة وكأن به حصانة ضد الرصاصات وكانت تصرفاته كلها توحى بأنه قد دهن فى طفولته بمرهم سحرى يحميه من المكاره — كما قص عليهم فى إحدى الأمسيات وهم معسكرون . وقال لهم فى تلك الأمسية بشىء من الأسى أن نقطة ضعفه الوحيدة هى كعبه الذى كانت أمه تمسكه منه وهى تدهنه بذلك العقار السحرى .

وضحك سميجلاف قائلا :

— إنك تتحدث الآن عن شخص آخر ... عن كعب أخيل .

كانت هناك ريح قوية تهب من الشمال ، وأخذ الجنود رؤوسهم وهم يواصلون السير . ورفرفت معاطفهم وعباءاتهم القصيرة فى مهب الريح . وتساقط الثلج الرطب على مواسير مدافع المورتر وزأرت الرياح وهى تضرب الأشجار التى تحف بالطريق ، وهبت واطئة فوق الحقول ، ومزقت الخرق البيض المعلقة على الشرفات والنوافذ .

توقفت الفصيلة عند مزرعة كبيرة فى اليوم الرابع من المسيرة ورأوا خلف سور هائل من الحجر الأبيض تطل من فوقه الفروع العارية لأشجار باسقة ، رأوا منزلا قديماً ذا سقف مدبب . وكانت جدران المنزل مغطاة بنبات اللبلاب الملتفة فى أشكال بديعة ، وكأنها زعارف متقنة نقشت على شبابيك الشتاء .

وإذ اطمأن الباشجاويش جودونوف إلى إسكان جنوده ذهب كعادته يتفقد المبانى الملحقة بالمزرعة . حسناً ، كانت الاصطبلات وحظائر الماشية مبنية ومجهزة على أحسن طراز ، لايقل عن نظائرها فى مزرعته التعاونية فى ألتاى . هذا ، على الرغم من أن كل هذه الثروة يملكها رجل واحد . وعند هذه الفكرة تخر جودونوف معبراً عن احتقاره واشمئزازه . ووجه حديثه إلى المنظم الحزبى قائلا :

— إنهم يتكلمون كثيراً عن الثقافة الألمانية ... فهل يسمون هذا ثقافة ، عندما يمتلك رجل واحد كل هذه الثروات على حين لا يملك آخرون درهما واحداً يتبركون به ؟

www.alkottob.com

وعثر جودونوف بين الأبنية الخارجية المطلية بالمصيص على سيارة ماركة مرسيدس بنز ، وقد ربط إليها عريشان خشبيان ليشد إليهما زوج من الخيل . فسارع جودونوف إلى دعوة جميع الجنود ليشهدوا هذا المنظر الفريد .

وضحك الجنود ملء قلوبهم ، وقد سرهم أن يروا مجاعة البترول التى أصبحت فيها ألمانيا إلى درجة اضطرت كبار الملاك أنفسهم إلى السير بقوة « بترول الخيل » .

وإلى جوار هذه المركبة الحديثة التى تنتمى إلى عهد هتلر أوقف جودونوف عربة تشوخوف العتيقة التى تنتمى إلى عهد القيصر ولهلم الأول . ثم أعطى أوامره لإعداد العشاء وتوجه إلى مساكن الفلاحين المجاورة . حيث قابله الألمان ببسمات ذليلة خائفة . ولما كانت كل معلومات جودونوف فى اللغة الألمانية لاتزيد عن كلمتى « قف » و « سلم » فإنه لم يكلف نفسه مؤونة محاولة الحديث معهم واكتفى كالسائح — بأن ألقى نظرة على بعض أفنية منازل الفلاحين الملطخة بروث البهائم المتناثر . كانت المنازل صغيرة موحشة . وإذ اكتفى جودونوف بهذا التفتيش السريع صاح بصوت جهورى :

— كل شىء واضح تماماً .

ولكن الابتسامة الراضية سرعان ما اختفت من على وجه الباشجاويش حين اكتشف عند عودته إلى الفصيلة أن أحد الجنود

(يشوجين) كان متغيباً . وتبين أن هذا الجندى تخلف بعد وقفة نهارية طويلة فى بلدة شونبرج . وتضايق الباشجاويش جداً من جراء هذا . وكان عليه أن يبلغ الأمر إلى الكابتن . وقال تشوخوف :

— ابحث عنه !

وكلف جودونوف الجندى سميجلاف بالتوجه إلى شونبرج للبحث عن زميله . وفى ساعة متأخرة من الليل عاد سميجلاف أخيرا ومعه يشوجين .

وسأله الباشجاويش الذى كان قد تأثر بطريقة الكابتن المختصرة الواضحة فى الكلام :

— أين كنت ؟

كان يشوجين رجلا ضئيل الجسم متقدما فى السن من إقليم كالوجا . ووقف الرجل أمام الباشجاويش وهو يطرف بعينيه الصغيرتين الزرقاوين . قال :

— لقد أخذنى النعاس يارفيق الباشجاويش ، ولم أستيقظ إلا بعد رحيلكم ، ولم أدر ماذا أفعل ، وإلى أين أذهب ففضلت الانتظار إلى أن ترسلوا أحداً للبحث عنى .

وأعاد الرجل القصة نفسها على الكابتن ، وأضاف :

— أشكرك لأنك أرسلت أحد الرجال من أجلى ! ...

كان الرجل يتكلم بتواضع وبساطة ، ولكن بشىء من الخبث ، وكان

www.alkottob.com

واضحاً أنه لايذكر الحقيقة وأجابه تشوخوف :

— إنك لم تسبب لنا أية متاعب على الإطلاق . ولكن إذا تكرر هذا منك فلن نرسل رجلا ، ولكننا سنرسل رصاصة .

وانصرف الكابتن ، تاركا الرجل يتأمل بهدوء فى هذا الإنذار .

وحك بيشوجين شعره الخفيف الأحمر ، ومس إلى سميجلاف بخوف :

— مارأيك ؟ أنه لن يتردد فى قتلى ! فهذا لا يستبعد من مثله !.

كان السكون يلف المزرعة بأسرها . وخرج بيشوجين يتجول فى الفناء ، ثم عاد ثانية إلى المنزل وأخذ يحملق فى وجوه الجنود النائمين كانوا جميعاً يغطون فى سباتهم . ولكنه رأى فى الغرفة الكبيرة المكتظة بصناديق الكتب ، رأى ساليفنكو راقداً على ظهره وهو يدخن لفافة هائلة من الماخوركا . وكان الوهج الصادر من اللفافة يضيء الوجه المفكر للجاويش كلما جذب منها نفساً .

سار بيشوجين على أطراف أنامله إلى المنظم الحزبى ، ووقف إلى جواره برهة ساكتا ، ثم قال :

— أنظر ماذا أحضرت معى .

وخرج مسرعاً من الغرفة ثم عاد فى الحال وهو يحمل لفة مربوطة فكها بسرعة ثم ابتسم بخبث كالمتآمر وقال بصوت رفيع مرتعش :

— أنظر يافيودور أندريتش ، أنظر فى جربندتى القديمة لترى أى

شىء حصلت عليه .

رأى ساليفنكو فى الحقيبة لفائف من جلد العجل المدبوغ . فسأله وهو ما يزال شارداً فى أفكاره الخاصة :

— وما حاجتك إلى هذه ؟

— إنها لا تعنى شيئا بالنسبة للجندى ، نعم ، أنت محق فى هذا يافيودور أندريتش أما بالنسبة للفلاح وقت السلم فإنها ثروة . إننا اليوم نقترب من نهاية الحرب . حسناً ! إن هذه اللفائف لا يقل ثمنها عن ثلاثة آلاف روبل فى كالوجا . لقد سرق الألمان كل شىء ، واغتصبوا كل شىء . أليس كذلك ؟ وهناك أناس ما يزالون يسيرون فى أحذية من الليف كما كانت الحال قبل الثورة . حسناً ، ما رأيك ؟

لوح ساليفنكو بذراعه قائلا :

— إرم هذا من فضلك ! ... ليس بإمكانك أن تصنع أحذية لكل الناس من قطعتين من الجلد .

وأحس بيشوجين بأنه أهين ، وقال :

— ولم تقول كل الناس ؟ وما شأن كل الناس بى ؟ إن عندى مايكفينى أنا ! إن عائلتى مكونة من ستة أفراد يافيودور أندريتش !

— عائلتك ؟

ونظر إليه ساليفنكو ولم يضف شيئاً . ولكن بيشوجين لم يتوقف عن الكلام . قال :

www.alkottob.com

ـ وهذا عمل سليم ، إنه نوع من التعويضات التى نستحقها من الألمان هذا هو رأيى إن كنت تريد أن تعرف رأيى .

ضحك ساليفنكو واستدار فى رقدته . ربما لأنه يريد أن ينام . وعلى أية حال فهو لم يستجب لمحاولات بيشوجين الاستمرار فى الحديث .

وخرج بيشوجين واستلقى على سريره فى الغرفة المجاورة ولكنه لم يستطع النوم .

كان كلما رأى المنازل الخالية والمحلات المهجورة والثروات الطائلة التى خلفها الألمان وراءهم بغير حراسة تتحرق نفسه للإستيلاء عليها . وكانت الدموع تكاد تطفر من عينيه كلما تذكر كوخه الخشبى الخرب . كان يرغب فى أن يحمل معه عندما يعود إلى الوطن كل ما تقع عليه عيناه من أخشاب وطوب وكراس وآنية وخيل وأبقار . كان يحلم بحيازة عربة كبيرة فى حجم الأتوبيس . آه ، لو أنهم أعطوا كل جندى عربة وزوجاً من الخيل ! وأخذ يتقلب فى السرير والعربة الهائلة المثقلة بالأحمال تلوح أمام ناظريه . إنه يراها تدخل إلى قريته ويستقبلها الأطفال بالصيحات الفرحة المبهجة .

وكان من الطبيعى أن يبحث عن تبرير ذهنى للخلاف القائم بينه وبين ساليفنكو الذى كان يحترمه احتراما كبيراً . إنه لشىء جميل حقاً أن يصنع المرء أحذية تكفى الناس جميعا ! ... ولكن ما أنا إلا رجل صغير ! ... أنا لست منظماً حزبياً !

وعلى جدران الغرفة علقت صور كبيرة فى براويز مذهبة . وأطلت وجوه غريبة تحيط بها خطوط باهتة على بيشوجين فى سريره .

كان الديدبان يذرع المكان جيئة وذهاباً عند البوابة . وفى الدور الأسفل امرأة عجوز تتنقل من مكان إلى آخر . وباستثناء الديدبان الساهر لم يكن بالمكان سوى شخصين فقط لم يذوقا طعم النوم . هما بيشوجين ، وسيدة المنزل العجوز .

كانت السيدة نهباً لنوبات متقطعة من الخوف الذى قد يصل إلى درجة الجنون . وهى لم تهرب مع ابنها إلا لأنها لم تجد الوقت الكافى أو لأنها لم تكن راغبة فى الهرب . وربما اعتقدت أن أحداً لن يجرؤ على المساس بسيدة عجوز فى مثل سنها .

كانت المرأة من سلالة أسرة بروسية نبيلة ، جالسة فى غرفة الخدم الصغيرة وهى ترتجف عند سماع أى صوت ، وتتوقع الموت فى أية لحظة على يدى أحد البلاشفة ذوى الذقون المخيفة . وعلى الرغم من حقيقة السكون الذى يلف المكان بأسره ، والسجاد المعلق على الجدران الذى لم يغير شيئاً من الرسوم المنقوشة عليه ، والرءوس البرونزية لأبى الهول المحفور على مساند الكراسى ، هذه الرءوس التى لم تغير نظرتها الهادئة الراضية ، على الرغم من كل ذلك فإن المرأة العجوز أحست وكأنها مهددة بعالم جديد رهيب ، عالم معاد وغير مفهوم ليس فيه أية قيمة من القيم التى اعتادت عليها وألفتها .

www.alkottob.com

إنها لم تنظر إلى مقدم الروس كنظرتها إلى مقدم جيش من الغزاة ، ولكنها اعتبرت هذا الحدث هو نهاية العالم ، نهاية العالم الذى عاشت فيه كل حياتها .

لم يأت أحد للسؤال عنها ، وهذا ما ملأ قلب المرأة بمزيد من الرعب والفزع .

وظلت على حالها تلك حتى الفجر عندما انفتح الباب وظهرت على عتبته امرأة روسية ضخمة الجثة ترتدى بزة عسكرية . وكان ظهور امرأة روسية ، بدلا من البلشفى المخيف ذى اللحية ، الذى كانت تتوقعه الألمانية العجوز مفاجأة جعلت المرأة تذعر إلى درجة الغثيان . ونظرت إلى العينين الكبيرتين المتألقتين للمرأة « القومسيرة » ! وأخذت تتمتم بصلاة ودعوات بشفتين ميتتين .

كانت جلاشا - التى وصلت مع حلاق الأورطة - مشغولة إلى درجة ألهتها عن السؤال عن سبب الفزع الذى رأت عليه المرأة الألمانية ، وأمرتها بأن تعد حمامات المنزل لكى يستحم الجنود . ولكنها اكتشفت أن القرية كلها لم يكن بها حمامات فإن من عادة الألمان أن يستحموا فى الطشوت والبراميل والأحواض . وتأوهت جلاشا من فرط الدهشة ، وأمرت بتسخين الماء . وجرت المرأة الألمانية لتصدع بالأمر ، وهى تعتقد أن معجزة سماوية هى السبب فى إنقاذها من موت محقق .

٤

نزل الكابتن تشوخوف إلى الطابق الأرضى .

وأنبأته جلاشا أن الكتيبة ستظل هنا بعض الوقت لأن الفرقة كلها تنتظر وصول قوات إضافية لتعزيزها .

وساد الفناء صخب ومرح : كان الحلاق يعمل مقصه فى شعر الرجال ، ويجرى توزيع الصابون والملابس الداخلية النظيفة . وأصدرت جلاشا أوامرها المشددة للرجال بألا يناموا فى المستقبل إلا فى الملابس المخصصة لذلك . قالت غاضبة :

- كفاكم ما كنتم فيه حتى الآن . لقد أخذتم نصيبكم من النوم فى الحفر والخنادق ! سيأتى قريباً الوقت الذى يجب أن تتعودوا فيه من جديد على الحياة المهذبة .

كانت سيدة المنزل العجوز ترتدى فستاناً طويلا أسود ذا أهداب وكرانيش وكانت تجىء وتروح إلى مطبخ كبير قائم فى الفناء ، وتدور حول فرن هائل مصنوع من الطوب حيث كانت تسخن المياه فى البراميل وكانت تساعدها خادمتان شابتان قد سرحتا شعريهما إلى أعلى ،

www.alkottob.com

ولا يكفان عن إلقاء نظرات مضطربة من زوايا عيونهما إلى الجنود .

وإذ رأى تشوخوف أن الفصيلة أصبحت الآن تحت إمرة امرأة تراجع إلى مقر قيادته فى الطابق الأعلى وهو غير راغب فى الإذعان لسلطة امرأة حتى فيما يتعلق بالشئون الصحية .

ألقى تشوخوف نظرة عابرة على الصور الكبيرة الموضوعة فى البراويز المذهبة وجلس إلى النافذة . وعن له فجأة أن تلك المرأة العجوز ذات الرداء الأسود ربما تكون من كبار ملاك الأراضى . وإذ مر بذهنه هذا الخاطر استدارت عيناه فى دهشة بالغة .

هذه إذن مالكة أرض حية ترزق ! وكان هذا أمراً غريباً حقاً ! هل يمكن أن تكون هذه المرأة ذات الرداء الأسود مالكة لكل هذه الثروة ، لكل هذه الأراضى الزراعيه والغابات والمراعى والمبانى ؟

وتمعن تشوخوف باهتمام أعظم فى الأجنحة القائمة عند طرف المزارع الداكنة المغطاة بالثلج المتناثر . وقد كان غريباً حقاً أن تكون هذه الأجنحة العادية من أشجار الحور الصغيرة ، وهى أجنحة لا تختلف عن كثيرات مثلها ، كان غريباً أن تكون هذه الأجنحة ملكاً لشخص واحد ، وأن هذا الشخص ليس إلا تلك المرأة العجوز .

ونزل تشوخوف إلى الفناء ثانية . كانت جلاشا قد انتهت من الفصيلة الثانية وانتقلت إلى الثالثة . وكان الجنود يستحمون ، وأصوات ضحكاتهم وطرطشة الماء والصابون تصل إلى أسماع الكابتن . والحلاق

يقص شعر الجنود فى الشرفة حيث نقل مرآة كبيرة من غرفة الاستقبال حتى بدا المكان وكأنه صالون حقيق . والخادمتان تحملان قدور الماء الساخن والماء البارد إلى داخل المنزل .

وكانت سيدة المنزل ، بثوبها الطويل الأسود ، ما تزال واقفة أمام الموقد ، ووجهها الشاحب ذو الزغب مندى من البخار المتصاعد .

يا للشيطان ! إنها لا تعدو أن تكون امرأة عجوزاً ذات مظهر عادى جداً ! إنها مجرد شىء عجوز كريه — وهذا هو كل شىء .

فى هذه اللحظة لمح تشوخوف حين رأى رجلا عجوزاً طويل القامة ذا ساقين طويلتين رفيعتين يرتدى شراباً صوفياً يغطى سرواله ويرتفع إلى ركبتيه وعلى رأسه قبعة خضراء تتأرجح عليها خصلة مضحكة من الريش الأخضر الناعم . وتبين تشوخوف أن هذا الرجل هو مدير المزرعة .

وانحنى الرجل أمام تشوخوف وهو لا يكف عن القول كل دقيقة :

— اسمح لى يا كولونيل ...

وفكر تشوخوف : كولونيل ؟ إن هذا الأفاق العجوز يتملقنى .

وظل تشوخوف يتأمل المرأة العجوز . نعم ، إنها لم تكن سوى مجرد شىء عجوز كريه . فكيف يصدع الألمان الأصحاء لأوامر هذه الساحرة الشمطاء الخبيثة السمينة ؟ ولكن لا غرابة ، ألم يصدع الألمان لأوامر هتلر أيضاً ؟ ...

www.alkottob.com

ربما يكون من الواجب تصفيتها كطبقة . وعزم تشوخوف على أن يتعرف على رأى المنظم الحزبى فى هذا الموضوع . وكان ساليفنكو قد فرغ من حمامه وخرج إلى الفناء . ودعاه تشوخوف إلى الجلوس إلى جواره على الأريكة ، وقال بلهجة غامضة بعد أن صمت قليلا :

— هل رأيت هذه المرأة صاحبة الأراضى ؟ ..

وأجاب ساليفنكو وهو ينظر دون اكتراث إلى هيكل المرأة العجوز الذى يظهر من خلال باب المطبخ :

— نعم .

ولاحظ ساليفنكو نظرة الاهتمام الزائد البادية على وجه تشوخوف وفهم ما يدور بذهنه . فعلى الرغم من أن تشوخوف كان ضابطاً برتبة كابتن إلا أنه لم يكن يعدو أن يكون فتى ناشئاً ، كما كانت هذه هى أول مالكة أراض يراها فى حياته .

وانفجر ساليفنكو ضاحكا :

— حسناً ، وماذا ترى ؟ قد تكون فكرة إرسالها إلى أقاربها الروس فكرة ليست سيئة .

— نعم .

قالها تشوخوف وهو ينهض ، ربما لإعطاء الأوامر اللازمة .

ومع ذلك ظل ساليفنكو جالساً فى مكانه . وقال وكأنه يشعر بالكسل :

— إن الأمر لا يستحق .

وكرر مرة ثانية بلهجة أكثر إصراراً :

— إن الأمر لا يستحق .

وقال تشوخوف بلهجة فيها تساؤل :

— والأرض يجب أن توزع على الفلاحين .

فرد ساليفنكو :

— كل شىء فى موعده المناسب .

وأضاف بالأوكرانية بشىء من الخبث :

— يا رفيق كابتن ، ليس من مهمات الفصيلة أن تقرر مثل هذه المسائل .

صدمت هذه الملاحظة الأخيرة الكابتن تشوخوف ، وذكرته بأنه لا يعدو أن يكون قائد فصيلة . وعلى الرغم من أنه وافق فى صميمه مع المنظم الحزبى على أن المشكلات المتعلقة بالتغيرات الاجتماعية لم تكن من اختصاص قائد فصيلة فناصة ، إلا أنه قطب جبينه متجهماً .

وإذ لاحظ ساليفنكو شرر الغضب يتطاير من عينى الكابتن نهض وقال بلهجة منذرة :

— سأرسل إلى القسم السياسى ليقرروا ما يرونه مناسباً .

وأقبل الباشجاويش بعد أن انتهى من حمامه وهو يبدو فى منتهى

www.alkottob.com

النظافة والتألق . وعندما تبين أن المرأة العجوز ذات الرداء الأسود هى صاحبة الأراضى أصابه من الدهشة أكثر مما أصاب تشوخوف . والحق أنه وافق هو أيضاً على ما ذهب إليه الكابتن من ضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة لمواجهة الحالة . وزمجر بصوت جهورى :

ـــ أو . . وه . يا للساحرة اللعينة !

ورن صوته فى الفناء إلى درجة أن المرأة استدارت ناحيته فى فزع .

ـ يجب أن تجرد من الملكية !

ولكن المنظم الحزبى تمكن من رده إلى صوابه هو الآخر وبعد أن سلم الباشجاويش بوجهة نظر ساليفنكو قال للكابتن :

ـ حسناً ، دعها تقدم لنا فطوراً على أية حال .

ـ بإمكانها أن تقوم بهذا العمل .

وأضاف الكابتن وهو يحدج ساليفنكو بنظرة من ركن عينه :

ـــ لقد استملت الآخرين بما فيه الكفاية .

فى هذه اللحظة صاح سميجلاف من الشباك منادياً الكابتن الذى كان مطلوباً للحديث مع قيادة الأورطة . وسرعان ما أسرج أحد الخيل وانطلق تشوخوف إلى القرية المجاورة على حين ذهب جودونوف ليطلب الإفطار من صاحبة المنزل .

بعد أن انتهى الجنود من تناول الإفطار بدأوا فى الغناء . وكانت شبابيك المنزل مفتوحة على مصاريعها وصوت الغناء يرن من خلالها

فى جميع أرجاء القرية . كانت الأغانى حزينة رخيمة مفعمة بالحنين إلى أرض الوطن .

وعلى الرغم من أن الجنود أخذوا يرددون الأغانى التى يحفظونها منذ أيام الطفولة إلا أنهم سرعان ما شعروا بالتناقض بين روح هذه الأغنيات وبين روح المكان الذى هم فيه . وبشكل ما أخذوا ينصتون إلى اللحن المألوف وكأنهم بعيدون عنه . أو كأنهم ينصتون إليه من وجهة نظر الألمان القابعين فى بيوتهم . ولكن ، لما كان الجنود يستمعون إلى أغنياتهم كما هى فإنهم وجدوا سحراً وقوة جديدة تماماً لم يسبق أن عهدوها فيها من قبل .

بدأ سميجلاف الأغنية :

« تدق الأجراس ...

وأخذ يتمعن من جديد فى هذه الكلمات وهو يحس بغبطة تغمره . وفكر : يالله ! ما أجمل هذه الكلمات .

وتخلى الباشجاويش جودونوف عن وقار رتبته وانضم إلى المغنى بصوت عميق خفيض . وأخذ يستمع إلى الأغنية وقد حركه النغم الطروب وأعاد إلى ذاكرته مزرعته التعاونية وحقول الحنطة التى لاحدود لها وغابات الألتاى الكثيفة وشعر بالاعتزاز والفخر لأنه هنا ولأن الجميع ينصتون إليه .

وجلس بيشوجين الحزين إلى النافذة يشترك فى الغناء بصوته الرقيق الصادح :

www.alkottob.com

« افكر فى الليالى التى راحت ...

غنى جوجو بريدز هذا اللحن بطريقة شرقية وبصوت أجش وهو ينتزع النغمات من حنجرته ، وكانت تتخلل غناءه فقرات رقيقة ناعمة .

وعلى الرغم من أن الأغنيات كانت روسية خالصة إلا أنها ذكرته بجورجيا الجميلة وبلدته كاخيتيا وتكعيبات العنب الخضراء على شواطىء الألازان ، ورفع صوته وعيناه الملتهبتان تبرقان بريقاً شريراً ، لكى يصل صوته إلى آذان الجالسين فى بيوتهم بشكل أحد :

« أفكر فى الليالى التى راحت

فى الغيطان والغابات الجميلة

والعيون التى جفت من زمان

دمعت دمعة كبيرة

كنجمة منورة »

وأحس ساليفنكو بالحزن يملأ قلبه فخرج دون أن يلحظه أحد ، وكان الديدبان يقف عند البوابة يستمع فى حسد إلى المغنين .

خرج ساليفنكو إلى الطريق ، وكان خالياً فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . واستند الرجل إلى الجدار الحجرى وراح يدخن لفافة من الماخوركا .

ووقف جماعة من الناس فى مكان غير بعيد إلى جوار الجدار الحجرى ،

وكانوا ينصتون إلى غناء الجنود الروس . وإذ تنبه ساليفنكو إلى وجودهم اقترب منهم وسأل :

ـ ماذا تريدون ؟

تقدم من الجماعة شاب يرتدى بلوفراً قديماً وقلنسوة من الفانلة الزرقاء يتدلى غطاء أذنيها على الجانبين ، وقال بلهجة فرحة خجولة وبلغة هى الروسية ولكن بلهجة هى أبعد ما تكون عن الروسية ـ قال :

ـ أنا تشيكى ... تشيكى .

مد ساليفنكو يده للشاب فتناولها مصافحاً إياه بحرارة وعنف جعلت ساليفنكو يبتسم . وإذا ابتسم ساليفنكو رأى الجميع روحه الطيبة ونفسيته البسيطة . وأحاطت الجماعة بالجندى الروسى وأخذوا يصافحونه بحرارة ويربتون على كتفيه فى حب .

وفهم ساليفنكو من الشرح الذى قام به الشاب التشيكى أن هؤلاء الجماعة من العمال المسخرين فى أراضى المالكة ـ البارونة فون بوركاو ، وأنهم جاءوا لشكر الروس الذين حرروهم ، ومن بين هؤلاء العمال هولنديون وفرنسيون وبلجيكيون وأحد الدانمركيين وهو ـ هذا الشاب التشيكى .

وعرف ساليفنكو أيضاً أن البارونة قد بدأت تهتم منذ الأمس بتحسين غذائهم وأنها قدمت لهم اليوم ـ ولأول مرة طيلة السنوات العديدة الماضية ـ بيضاً فى الإفطار . ولكن الأمر كان يتطلب مجىء

www.alkottob.com

الجيش الروسى كله إلى أرض ألمانيا لكى يحمل البارونة فون بوركاو على تقديم البيض للعمال .

وترجم الشاب التشيكى ملاحظة أدلى بها أحد الفرنسيين ، قال :

— كان الأمر يتطلب الجيش الروسى ، والجيش الروسى فقط ، ولا جيش غيره فى العالم !

وسأل ساليفنكو :

— هل هنا أى عمال من الروس ؟

وأجاب التشيكى فرحا :

— لا ، ليس هنا روس !

كان الشاب التشيكى أزرق من شدة البرد ولكنه كان مبتهجاً ، وهو يتحدث عن كل شىء بلذة وسرور ، حتى عن ذكرياته فى أحد معسكرات العمل النازية منذ عام . لقد كان الفرح الذى يملأ قلبه يطغى حتى على أفظع وأقسى ذكرياته .

وأخبروا ساليفنكو أن العمال الروس كانوا هنا ولكنهم رحلوا منذ عشرة أيام بمجرد أن ظهرت الدبابات الروسية الأولى فى هذه المناطق . ولكن لم يكن من حظ جميع الروس أن يعيشوا ليروا يوم مواطنيهم ، فقد حدث أن توفيت فتاة روسية من العمال عند نهاية العام المنصرم وأنها دفنت فى مكان قريب . قال التشيكى :

— كانت الفتاة الروسية تبكى وتبكى . . إلى أن ماتت .

وسادت لحظة صمت ثقيلة ، وانتظر الجميع كلمة من ساليفنكو . كان الرجل بادى الحزن . ولكنه لم يلبث أن قال بصوت مكتئب :

— هيا بنا .

دخلوا إلى الفناء فى جمع بهيج ، ولكن ما إن رأى العمال المرأة الألمانية العجوز واقفة عند النافذة فى ثوبها الأسود حتى انتابهم جميعاً شعور بالجبن وساروا بخطوات مترددة . وإذ لاحظ ساليفنكو ذلك قال لهم مشجعاً :

— تقدموا ، تقدموا . لا تخافوا .

وحدج المرأة بنظرة حادة تفيض كراهية جعلتها تضطرب وتسارع إلى الاختفاء .

أحاط الجنود بالعمال المحررين وأخذوا يتجاذبون معهم حديثاً حياً بإشارات من أيديهم وأعينهم . ووقف الباشجاويش جودنوف بقامته المديدة الهائلة وألقى أوامره إلى الخادمتين الألمانيتين لكى يحضرا طعاماً للعمال . قال :

— إحضروا كل ما يطلبونه . فاهمين ؟ !

ولكنه لم يكتف بهذا ، بل أصدر أوامره بأن تأتى المرأة العجوز وتتولى خدمة العمال وهم جلوس إلى المائدة . وهكذا أخذت المرأة تتنقل من المطبخ إلى غرفة المائدة وبالعكس ، وهى تحمل أطباق

www.alkottob.com

الطعام بيديها السمينتين المرتعشتين .

وخرج ساليفنكو مع الشاب التشيكى إلى الجزء الخلفى من الفناء ، وهنا وقف قليلا فى سكون ثم سأل .

— ومن هى هذه الفتاة ؟ .. الفتاة الروسية ؟ ..

وأخبره التشيكى أنها كانت تعمل فى حظيرة خنازير المزرعة وأنها من مواليد أوكرانيا .

وردد ساليفنكو — وهو يلف سيجارة من الماخوركا :

— من مواليد أوكرانيا ؟ ..

— نعم .

جلس ساليفنكو على الأريكة ودعا التشيكى إلى الجلوس إلى جواره وسأله :

— هل تريد لفافة ؟

تبغ ! دخان ! إن العمال لم يعرفوا التدخين طيلة هذه الفترة ، وربما كان ذلك بالنسبة لبعضهم أسوأ من الجوع الذى عانوه . وأفرغ ساليفنكو نصف محتويات كيسه الحريرى على كف الشاب التشيكى .

نعم . لقد كانت الفتاة من أوكرانيا — كانت سمراء البشرة ذات ضفيرتين سوداوين طويلتين . وكانت تجلس على تلك الأريكة القريبة من حظيرة الخنازير فى الأمسيات ولا تكف عن البكاء إلى أن تلحظها

البارونة أو يشاهدها مدير المزرعة الحرفوجت . وهنا تصفق البارونة وتقول باشمئزاز : « هاهى الفتاة الروسية تجلس دون أى عمل » ، ويسأل المدير فى دهشة : « ولكن لماذا تبكى هذه البنت ؟ »

قال ساليفنكو :

— هل كانت لها ضفيرتان طويلتان ؟

— نعم . وقد جاءت هنا مع آخرين فى ١٩٤٢ ، وكانوا جميعا فى غاية الأسى .

— فهمت .

وأخيراً ، سأل بصوت أجش :

— ما اسمها ؟

لم يكن الإسم جاليا ، ولكن اسمها كان ماريا .

وانصرف التشيكى إلى المائدة ، ولكن ساليفنكو ظل جالسا وهو حزين على الأريكة نفسها القريبة من حظيرة الخنازير ورأسه على كفيه . لم تكن الفتاة هى ابنته جاليا . ولكن ، أهذه هى المزرعة الوحيدة فى ألمانيا ؟ وهل هذا هو القبر الوحيد الذى يضم رفات روسية ؟

كان ضجيج الجنود قد تزايد وارتفع .

وأحاط الشبان بفتاة هولندية صغيرة السن هيفاء القوام ذات شعر ذهبى يخطف الأبصار يميل إلى الإحمرار ويتهدل على الكتفين .

www.alkottob.com

كانت جميلة جمالا مفرطا . وعيناها المتألقتان الزرقاوان ترسلان نظرات كلها إغراء من تحت رموشها السود الطويلة ، والجنود من حولها يذوبون من فرط النشوة . ولكن الفتاة — مع الأسف — عرفت الجنود على زوجها ، وهو شاب هولندى هادئ الطبع باهت الشخصية وقد صب هذا دشاً من الماء البارد على رأس جوجو بريدز الذى كان فى حالة عاطفية مشبوبة .

قال بيشوجين ، وقد لاحظ خيبة الأمل التى حطت على جوجوبريدز :

— حسناً ، إنها امرأة ، امرأة متزوجة ، ولكن يجب ألا تفوتك الفرصة على أية حال . . .

فأجاب جوجوبريدز مبتئساً :

— لا . إنه هولندى ، إنه حليف . فهمت ! . . .

استعرض بيشوجين النساء بعين جريئة ، وتأمل بصفة خاصة امرأة فرنسية تخطت سن الشباب — ، وهى السن المطلوبة تماما ، — وأخذ يتحدث إليهن بلا توقف ، وهو يخرج الكلمات الألمانية بلهجة روسية .

كانت النساء العاملات فى منتهى السرور ، وأخذن يرقبن النساء الألمانيات وهن ينظرن إليهن بنظرات مليئة ، وأطلقن ضحكات متشفية حاقدة . كما تلذذن بمنظر السيدة البارونة وهى تجر قدميها ببطء

من المائدة إلى المطبخ ومن المطبخ إلى المائدة . وكم أسفن لأنهن لم يتعلمن فى حياتهن كلمة واحدة من اللغة الروسية !

ولكن مارجريت الجميلة ، ذات العينين الزرقاوين والشعر الذهبى كانت قد تعلمت أغنية من زميلاتها اللاتى كن يعملن فى المزرعة ، وهى الآن تردد الأغنية بصوت رقيق ، وهى تصوب نظراتها الجريئة إلى أعين الجنود دون أن تشعر بذرة خجل . وكانت تنطق الكلمات الروسية بلهجة غريبة لا تقبلها الأسماع . وضج الجنود بالضحك عند سماع هذه اللهجة الغريبة .

www.alkottob.com

٥

عندما وصل تشوخوف إلى مقر قيادة الأورطة علم أن هناك اجتماعاً من هذه الإجتماعات العاجلة التى تعقد لإعطاء التعليمات الخاصة بالمسير أو بلفت النظر إلى بعض النقائص التى تتطلب عناية خاصة .

وقدلاحظ الجميع حالة الإكتئاب التى كان عليها قائد الأورطة . وعلى الرغم من أنه كان يردد التعليمات المألوفة عن مهمات الجند وتنظيف الأسلحة وتشحيمها .. الخ ، إلا أنه كان مشغولا بالتفكير فى شىء آخر . وتخلل حديثه كثير من السكون والتلعثم ، وأصبحت التهتهة الخفيفة التى أصابت لسانه بسبب صدمة انفجار قنبلة فى ١٩٤١ — أصبحت واضحة تماماً فى هذا الحديث .

دخلت جلاشا الغرفة بعد أن انتهى الاجتماع ودعت قواد الفصائل إلى تناول الغداء ، وقالت وهى تغتصب ابتسامة :

— إنها المرة الأخيرة التى نتناول فيها غذاء نافعاً أيها الرفاق الأعزاء .

والحقيقة أن أمراً وصل فى صباح ذلك اليوم ينص على أن تضع جلاشا نفسها تحت تصرف الضابط المسئول عن الخدمات الطبية فى الفرقة ، لإرسالها للعمل فى مكان آخر » .

وقد جاء هذا الأمر مفاجأة تامة لفسيلشا كوف وجلاشا . لقد أكد لها الماجور جارين الذى استطلع الأمر أكثر من مرة ، أكد لهم أن كل شىء على ما يرام وأن لاخوف من التفرقة بينهما .

وفجأة يجىء هذا الأمر !

كان فسيلشا كوف إنساناً خجولا لايحب ولا يعرف كيف يتحدث مع رؤسائه عن شئونه الخاصة . ومع ذلك فقد اضطر الرجل تحت إلحاح جلاشا إلى أن يتصل تليفونياً بنائب قائد الكتيبة . وأجاب نائب القائد ، كما أجاب أركان حرب الكتيبة الماجور ميجايف بأنه إذا صدر أمر بخصوص مسألة من المسائل انتهت المناقشة ووجب تنفيذ الأمر ، وهذا هو كل ما لديهم .

عندئذ اتصلت جلاشا بالماجور جارين بمقر قيادة الفرقة ، فعبر الرجل عن ارتباكه وقال إنه لا يستطيع عمل شىء لأن الأمر جاء من قيادة الجيش ! وتعتبر قيادة الجيش بالنسبة لفسيلشا كوف وجلاشا قمة لا يتصوران الوصول إليها ، مكاناً يعلو على السحب . ومن أجل ذلك جزع الإثنان لأن « مسألتهما » واسميهما البسيطان كانا محل مناقشة فى قيادة الجيش !

جلس الجميع إلى المائدة ، ولكن الجلسة كانت تنقصها الحيوية المعهودة على مائدة جلاشا المضيافة . وجرى الحديث هادئاً متعثرا يتناول بعض المسائل البعيدة .

www.alkottob.com

وكان فيسيلشا كوف صامتاً ، واكتفى بأن كان يلقى نظرة على جلاشا بين وقت وآخر ويقول بغير اكتراث :

— حسناً ، هذا أمر لا يهم .. هذا أمر لا يهم ...

وجىء بعربة وضع عليها مراسلة قائد الأورطة أمتعة جلاشا . وقبلت جلاشا قواد الفصائل ، وساعد قائد الأورطة وأركان حربه ومراسلته وجميع الجنود الذين يعملون فى مقر قيادة الأورطة . قبلت كل واحد منهم ثلاث قبلات على كل من الخدين ، وذلك وفقاً للتقاليد الروسية عند الوداع ، ثم جلست على العربة .

وقف الضباط على درج المنزل وهم يرقبون رحيلها صامتين وقد شد السائق أعنة الخيل ، وسار فيسيلشا كوف إلى جوار العربة ثم قال جلاشا :

— ستجد وريش الحذاء وفرشاته فى الجربندية ، فى جيبها الأيسر . ويعرف سيريوزا المكان . والمشط فى جيب جاكتتك ، يجب ألا تنسى إعادته بعد استعماله بحيث يظل دائماً فى مكانه ، عندك دستة مناديل ، استعمل واحداً نظيفاً يوماً بعد يوم . وقد أصلحت أحذيتك القديمة وستكون جاهزة للاستعمال اليوم ، وعليك أن تسلم أحذيتك القديمة لإصلاحها ، إن كعب حذائك الأيمن متآكل تماماً . بمجرد مجيء المساعدة الطبية الجديدة سلمها الكحول والسلفا ، فقد خبأتها فى صندوق الملابس .

وعندما دارت العربة حول التل وأصبحت القرية بعيدة عن مرمى

البصر أوقف السائق العربة ونزلت جلاشا منها وانفجرت باكية وهى تعانق فيسيلشا كوف .

لم يكونا — حتى هذه اللحظة — يتصوران أنهما سيفترقان ، وسارا معاً قليلا خلف العربة ، حيث يجلس السائق وهو يوليهما ظهره ويثبت ناظريه على ذيل الحصان .

فى هذه الأثناء كان تشوخوف قد بدأ طريق العودة إلى فصيلته . وأخذ الجواد يخب على الطريق المرصوف بالأسفلت . وكانت الريح تثير فوق الحقول التى تغطى الثلوج مساحات وأماكن عديدة منها . وكان المرور على الطريق نادراً ، وبين فترة وأخرى تمر سيارة مفردة ومرت بها إحداها وتوقفت على مسافة قريبة من تشوخوف ، وقفز منها ثلاثة رجال وواصلت السيارة طريقها ، ولكن الرجال أقبلوا عليه فى غير عجلة وهم يدخنون . وصاح أحدهم :

— كابتن !

أوقف تشوخوف جواده ، ورأى أمامه الوجه الأليف لضابط الإستكشاف الكابتن ميشيرسكى : كان طويلا ، معتدل القامة ، وكان كعادته دائماً — جم الأدب . قال ميشيرسكى :

— أنا سعيد جداً لرؤيتك ، هل أنتم معسكرون بالقرب من هنا ؟

فرد تشوخوف وهو يشير ناحية المزرعة :

— نعم ، فى القرية المجاورة . هل توقفت الفرقة لمدة طويلة ؟

www.alkottob.com

قال ميشيرسكى :

— من يدرى ؟ إننا فى طريقنا إلى الأورطة الطبية . إن قائدنا الماجور هناك .

ثم واصل حديثه بصوت عال وكأنه تذكر شيئاً :

— يارفيق كابتن . لقد كنت أنت الذى أنقذته . تعال معنا ، سيسره جداً أن يراك . لقد كان يسأل عنك أول أمس .

قال تشوخوف بجفاف :

— أنا لم أنقذه . بل ربما كان هو الذى أنقذنى ، كان يضرب فى مؤخرة الألمان .

قال ميشيرسكى :

— حسناً ، هذا شىء بديع ! أوه . معذرة إن كنت لم أقم بواجب التقديم ... هذا هو الرفيق أوجانسيان مترجمنا ... وهذا هو الباشجاويش فوروتين ... الكابتن تشوخوف .

أدار تشوخوف عنان جواده وسار إلى جوارهم ، وسرعان مادلفوا فى طريق جانبى ، ورأوا من بعيد أسطح المنازل ذات البلاط الأحمر وبرج الكنيسة الذى لا تخلو منه قرية ، ثم ظهرت خيام المستشفى كبقع بيضاء صغيرة ، تعلوها سحب الدخان المتصاعدة من الأفران الحديدية .

وامتلأ قلب تشوخوف بإحساس عميق بالاحترام عند رؤية خيام

المستشفى ، شأنه فى ذلك شأن كل جندى سبق أن جرح . والوحدة الطبية هى المكان الذى يخلف أبقى الذكريات وأحرها فى قلوب الرجال . فالجندى الجريح يؤتى به إلى هنا من لهيب المعركة فيوضع على ملاءة نظيفة ، وتغير ملابسه بملابس بيضاء ناصعة ، ويعطى قدحاً كبيراً من الفودكا ، وتتناوله الأيدى الرقيقة فتضمد جراحه وتمسح الدم المتجمد بالقطن الناعم ، وتبرد الجبهة الملتهبة بالماء البارد . إن الفرق بين مايراه الإنسان هنا وبين ما يكابده فى أتون المعركة فرق ضخم إلى درجة مذهلة والإحساس بالارتياح عظيم إلى درجة أن المرء يحس بالامتنان العميق عند مجرد رؤيته خيام المستشفى .

وأسرع تشوخوف إلى الترجل وسحب جواده من عنانه . ورأى الرجال نساء فى أردية الممرضات البيض وهن يتنقلن من مكان إلى آخر بسرعة وخفة ، وابتسمن لهم مرحبات وقلن وهن يسرعن الخطى :

— إن الماجور ينتظر مجيئكم منذ الصباح !

— لقد غيرنا الضمادات للماجور هذا الصباح !

وقف ميشيرسكى إلى جوار إحدى الخيمات ، وقال مخاطباً تشوخوف:

— إن ماجور الحرس هنا ياكابتن .

ربط تشوخوف حصانه إلى أقرب سياج وتبع رجال الاستكشاف إلى داخل الخيمة . وأعطتهم الممرضة الشابة ذات الوجنتين المتوردتين

www.alkottob.com

أردية طبية ليلبسوها قبل أن يتخطوا الحاجز الكاتفاس .

كان لوبنتسوف جالساً فى سريره وقد بدا أكثر نحافة وأشد صرامة وإذ رأى تشوخوف وتذكره قال مرحباً :

ـ هالو ! هذا صديق لم أكن أتوقع رؤيته اليوم .

جلس الجميع على كراس حول السرير . وخرج ميشيرسكى إلى خلف الحاجز حيث همس إلى الممرضة سائلا عن صحة الماجور . فقد كان من عادة والدة ميشيرسكى أن تفعل ذلك كلما مرض أحد أفراد الأسرة وجاء الطبيب إلى المنزل . وبالطريقة نفسها ، ودون وعى منه ، أخذ الضابط يسأل عن جرح الماجور دون أن يغفل أدق التفاصيل .

أعطى أوجانسيان آخر أعداد وصلته من البرافدا والنجم الأحمر للوبنتسوف . وأخذ فورونين يتلفت حواليه فى حذر ، ونظر من وراء الستار ليتأكد من عدم وجود أى أطباء فى المكان ـ ثم دس زجاجة نبيذ تحت وسادة لوبنتسوف .

وقال لوبنتسوف محتجا :

ـ لا ، لا تفعل هذا . لماذا تخبئها ؟ لنشربها جميعاً سوياً .

كان الماجور يرقد فى الخيمة وحده ولم يكن معه جرحى آخرون . وكان قد ترك ليستشفى تماما من جرحه فى الأورطة الطبية على الرغم من أن هذا لا يسمح به فى العادة . فقد رأى الجنرال ألا يفترق عن ضابط استكشافه عندما تبين أن جرحه ليس خطيراً ، لأنه كان يخشى

أن ينقل الماجور للعمل فى فرقة أخرى إذا هو سمح بترحيله إلى إحدى مستشفيات المؤخرة ، فإن هذا يعتبر خسارة كبيرة لفرقته .

عندما عاد ميشيرسكى مع الممرضة همس فورونين فى أذنها ببضع كلمات ، فهزت رأسها ولكنها خرجت فى الحال . وعندما عادت بعد قليل كانت هى الأخرى تتلفت حواليها خشية أن يكون هناك أطباء بالقرب من المكان ، لأنها أحضرت معها عدداً من الأكواب .

جلس الجميع يشربون فى صمت وقد استرخت أبدانهم وهدأت نفوسهم كما يحدث دائماً للرجال المحاربين فى الخطوط الأمامية عندما يجدون أنفسهم بعيدين عن أتون المعركة لمدة وجيزة .

كانت قطع الخشب تئز فى نار المدفأة ، وقد انحنت الممرضة تلقى بكتل جديدة من خشب الصنوبر الجاف فى النار بين وقت وآخر . وكانت الخيمة دافئة مريحة مهدئة للأعصاب .

وفجأة اهتز قماش الخيمة ودخلت فتاة ترتدى معطفاً عسكرياً بلا أشرطة على الكتفين إلى الخيمة وهى تعدو . كانت شاحبة الوجه كبيرة العينين ذات شعر أسـود ناعم مقصوص كشعر الصبية . قالت بسرعة :

ـ إن الألمان يركزون عند قطاع مادومى ـ ستارجارت .

ثم ابتسمت ثغتاها فقط وهى تصافح الجميع وقدمت نفسها للزائر الغريب (تشوخوف) قائلة باختصار : فيكا .

www.alkottob.com

تبين تشوخوف أن هذه هى ابنة قائد الفرقة . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يراها فيها .

كانت فيكا مع والدها منذ برهة وجاءت إلى لوبتسوف بهذه الأخبار التى حاولت أن تتذكر تفاصيلها بدقة . وأعطت الماجور ورقة تحمل أمر القائد الأعلى الذى يثنى فيه على القوات التى احتلت شفيدموخ . وقالت :

— إن والدى فى غاية السرور . لقد كتب ستالين نفسه أن شفيدموخ كانت مركزاً حصينا من مراكز الدفاع الألمانية فى شرق بوميرانيا ... هذا فى الوقت الذى كان قائد الجيش يقول إنها مجرد جحر صغير ! ...

ضحك لوبتسوف . وخفضت فيكا صوتها قائلة :

— هل تستطيع أن تخمن من أرسل إليك بتحياته الخاصة ؟

ونظرت إلى من حولها نظرات المنتصر ثم قالت بلهجة رصينة :

— إن اللفتنانت جنرال سيزوكريلوف يرسل بتحياته الشخصية لك ولى أيضاً ...

واستطردت بنبرة حزينة :

— لقد قتل ابنه فى المعركة .

صمتت فيكا وجلست إلى جوار الممرضة بالقرب من المدفأة . وقال لوبتسوف موضحاً :

— لقد صاحبت عضو المجلس الحربى إلى فرقة الدبابات . كان يقوم بجولة فى الجبهة ورافقته لأقوم بمهمة الدليل . .

والتفت إلى تشوخوف قائلا :

— ولا بد أنك تذكر هذه الرحلة . . . لقد مررنا بتلك العربة التى تملكها . . وقطب الماجور جبينه ثم سأل متردداً :

— وماذا تم فى أمر هذه العربة ؟ هل مازالت تحتفظ بها أو أنك خلفتها وراءك الآن ؟

خفض تشوخوف بصره وأجاب محاولا التملص :

— إننى أتنقل الآن على ظهر جواد .

وقال لوبتسوف وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة :

— إن ما فعلته هو الصواب بعينه ، فالعربات لا تجلب الخير لأحد

ولم يملك رجال الاستكشاف إلا أن يلحظوا أن الماجور كان مستغرقاً فى التفكير جداً فى ذلك اليوم ، بل إنه كان مكتئباً . وأرجعوا ذلك إلى موت شيبيريوف . ولكن كان هناك سبب آخر . فقد حدث أثناء نوبة التفتيش بالأمس ، وحين كان لوبتسوف يتحدث إلى الكابتن ميشكين كبير الجراحين ، أن ذكر هذا الطبيب اسم جراح كتيبة طبية أخرى ، الطبيبة كولتسوفا ، وقال إنها طبيبة شابة موهوبة وبارعة . وحكى له عن عملية معقدة فى البطن أجرتها هذه الطبيبة لأحد الجرحى . وعلى الرغم من أن لوبتسوف لم يسأل أية أسئلة واكتفى بأن

www.alkottob.com

حافظ على استمرار الحديث ، إلا أنه علم من ميشكين فى ملاحظة عابرة أن كولنسوفا كانت على علاقة بأحد قادة الجيش .

وسأل لوبنتسوف وقد احمر وجهه :

ـ ما اسم هذا القائد ؟

ـ كراسيكوف .

تأثر لوبنتسوف بصفة خاصة لعلمه أن الرجل هو كراسيكوف . لقد قابل لوبنتسوف هذا الكولونيل فى مناسبات عديدة . وهو يعرف فيه رجلا كبير السن ، خشناً ، شديد الاعتداد بنفسه ، وذلك على الرغم من شجاعته ونشاطه الجم . وأحس لوبنتسوف بأنه كان دائما يكره كراسيكوف ، على الرغم من أن هذا لم يحدث فعلا .

والتفت إلى ميشيرسكى وقال ـ محاولا أن يبعد ذهنه عن التفكير فى الموضوع :

ـ ساشا ، إقرأ علينا شيئاً مما تحفظه ، أنا فى حالة نفسية غريبة ، ومهيأ لسماع بعض الشعر .

وأحس ميشيرسكى بشىء من الارتباك ، وقال :

ولكن ، لقد أزف الوقت ، ويجب أن نرحل ...

وهم بالقيام ، ولكن لوبنتسوف أوقفه .

وشعر تشوخوف بالدهشة التامة . وفكر : إذن فهو يكتب الشعر ، ولم تخل نظرته للضابط من احترام لهذا السبب . وتكلم أوجانسيان ،

الذى كان منطويا على نفسه فى أحد الأركان ، تكلم لأول مرة مؤيداً طلب لوبنتسوف وانضمت إليه فيكا أيضاً ، قالت :

ـ نعم أرجوك أن تتلو علينا شيئاً من الشعر ، نحن جميعاً نرجوك .

فأذعن ميشيرسكى قائلا :

ـ سأتلو عليكم قصيدة تيوركين للشاعر تفاردوفسكى . لقد نشرت فقرات منها فى صحيفة (رجال الجيش الأحمر) .

وسر الجميع لهذا الاختيار . فقد كانت شخصية تيوركين ، وهو ذلك الجندى الخصيف الشجاع الذى تستطيع يداه وعقله المتوقد أن تفعل أى شىء ـ كانت هذه الشخصية محبوبة لدى جميع الرجال ، وكان مجرد ذكر اسمه يجعل كل جندى تقريباً يبتسم تلك الابتسامة المرحة الماكرة التى تنم عن الكبرياء والاعتداد بالنفس ، وكأن كل واحد يرى فى نفسه صوره من الأنموذج الذى جعل منه الشاعر بطله فاسيلى تيوركين .

بدأ ميشيرسكى يقرأ الأبيات ، وسرعان ما أحس الجميع بسحر نغمة الحوار التى لامثيل لحلاوتها والتى تكمن فى هذه السطور البسيطة :

لكل إنسان يحيا عمل
والخدمة العسكرية عمل الجندى
ينتهى من نوبة الحراسة الأخيرة
ويروح فى نوم عميق
ويدوى بروجى الصباح

www.alkottob.com

فهب واقفاً على قدميه
ويدعو داعي القتال
فيمضى يخوض المعارك
وإذا لم يجد سوى كسرة
تبلغ بها دون أن يشتكى
وتعطى إشارة الزحف
فينطلق الجندى إلى الأمام
ويصدر أمر بخوض الردى
فيمشى إلى الموت مستبسلا

* * *

لقد أخطأته المنايا . . . ولكن
لا توجد تعويذة تحميه
من شظية لعينة حمقاء
أو رصاصة طائشة عمياء
تحمل الموت ظمآى للدماء

* * *

الريح عاتية قارصة
والحياة ريشة فى مهب الرياح

وفى كل يوم
وفى كل ساعة
يئز الرصاص
ولا يدرى أحد من يصيب

* * *

تنهد فورونين بصوت مسموع واستزاد . وتلى ميشيرسكى أشعاراً أخرى متداولة ومحبوبة من الجند — مثل قصيدة سيمونوف «انتظرنى» وعندما انتهى من تلاوتها قال لوبتسوف :

— قل لنا شيئاً من شعرك ياساشا . هذه القصيدة التى نظمتها عن رجال الاستكشاف .

عندئذ تجهم وجه ميشيرسكى ، واستغرق فى التفكير قليلا ثم بدأ يتلو بصوت هادىء ، وليس بذلك الصوت العالى الحماسى كما كان يتلو من قبل :

فى هدأة السكون الحزين الكئيب
رحلوا يطرقون الطريق الغريب
وخطت يد الأمهات الحبيبة
رسائل تحكى عذاب الوطن
وتقطر بالحزن كل السطور
رسائل . . . لكنها لم تصل
لأنهم راحوا . . . ولن يرجعوا

www.alkottob.com

وتحت ظلال الشربين الحانية
ينام الرجال . . . ولن يرجعوا
شباب أعزاء لن ينطقوا
ويبكى عليهم سحاب الربيع
وتسهر عليهم حتى الصباح
نجمة وحيدة فانية
تحترق فى سماء غائمة .

* * *

وأبدى الجميع إعجابهم بهذا الشعر . وقال فوروتين :

— هذا كلام يشبه ما نقرأه فى الكتب .

وأحس ميشيرسكى بالخجل والحرج من الإطراء الذى عبر عنه المستمعون ، ونظر إليه لوبنتسوف بحب وأحس نحوه بشىء من الخوف . وقرر لوبنتسوف بينه وبين نفسه ألا يرسله فى أية مهمة خطيرة بعد ذلك . . قال لنفسه : لو قتلت أنا لما كان الأمر مهماً ، ولكن هذا شاعر مفتوح أمامه طريق الشهرة ، وربما نجح فى كتابة أشعار عظيمة بعد انتهاء الحرب .

وقال بصوت عال :

— أنتم أيها الناس المشغولون ، ليس لديكم وقت للتفكير والخيال . ولكننى أستلقى هنا على سريرى طيلة يومى ولا عمل لى إلا الاسترسال فى التفكير يوماً بعد يوم . هل تعلمون أنه حتى نحن لم نتبين بالضبط قيمة

عملنا ولا عرفنا القوة التى وصلنا إليها ! هل تعلمون أننى أحسد ميشيرسكى لأنه يكتب الشعر ! ؟ . . . ولو أن المرء قال كلمات لها معنى جميل للناس ولكن ليس لها جرس طيب إذن لحسبوه كلاماً جارحاً أو اعتبروه حديثاً مضحكاً . وإنك لتشعر أحياناً بأنك تحب الناس جميعا وأنك بحاجة إلى أن تحتضنهم جميعاً وتقبلهم ولكن الأمر يبدو فى الوقت ذاته لامعنى له . فقد أقدم على احتضان الممرضة الصغيرة الجالسة فى هذه الخيمة معنا لولا أننى أخشى أن تظن بى سوءاً .

عندئذ صعد الدم إلى وجه الممرضة وانطلقت خارجة من الخيمة كالسهم .

وضحك الباشجاويش فوروتين وقال :

— يبدو أنها لاتعترض على قليل من الأحضان .

واغتصبت فيكا ابتسامة مبتسرة على هذه النكتة التى اعتبرتها نكتة خارجة ومفسدة للجو فقد كانت تستمع إلى لوبنتسوف باهتمام بالغ .

وسرعان ما شعر لوبنتسوف — الذى لم يكن معتاداً على الإفصاح عن مكنوناته — شعر بالحرج ، وحول الحديث إلى المسائل العسكرية ، وسأل أوجانيسيان عما إذا كان المرشد الألمانى لاستخدام (الفوستباترون وهى صنف من القنابل الألمانية) قد احتفظ به ، فقد كان الألمان يتركون كميات هائلة من هذه القذائف المضادة للدبابات ، ولكن كثيراً من جنودنا لم يكونوا على معرفة بكيفية استخدامها .

www.alkottob.com

وقال :

ـ إن هذا المرشد يجب أن يترجم إلى الروسية وأن يطبع فى مطبعة فرقتنا ويوزع على الجند . يجب أن يدرسوه ، فهو مناسب لهم تماماً .

فوعد أوجانسيان وميشيرسكى بنقل اقتراحه إلى قائد الفرقة .

ولسبب ما أحس تشوخوف أنه لايريد الرحيل من هذا المكان ، فقد كان الجو المحيط بالماجور مشبعاً بنوع خاص من السلام والتعاطف والصداقة الحقيقية المتبادلة .

ومع ذلك فإن ساعة الرحيل قد دقت . وسأله لوبنتسوف :

أين تعسكر أورطتك ؟

ـ ليس بعيداً من هنا . فى منزل إحد كبار الملاك . إنها ساحرة شمطاء فاحشة الغنى ! وبيتها ملىء بالصور المعلقة فى كل مكان .

ما الذى حدث فجأة للمترجم الذى ظل طوال الوقت ساكتاً ؟ ! لقد قفز من مكانه وأمسك يد تشوخوف بعنف وصاح سائلا :

ـ صور ؟ أى نوع من الصور ؟

ولم تكن لدى تشوخوف إجابة على هذا السؤال الغريب . قال :

ـ أى نوع ؟ لا أدرى . هناك صور من جميع الأنواع .

ـ أين هى ؟ سآتى اليوم لزيارتكم .

وضحك الجميع لما لحق بالناقد الفنى من اضطراب بالغ .

وقال تشوخوف :

ـ تعالى إذن . إننا فى القرية المجاورة ، بإمكانك رؤية برج الكنيسة من هنا .

خرج تشوخوف من الخيمة ، وحل رباط جواده ، وقفز فى سرجه ، وأنطلق إلى حيث تعسكر فصيلته .

www.alkottob.com

٦

عندما اقترب تشوخوف من المزرعة سمع ضحكات الجنود وأصوات النساء المرحة ، فقطب جبينه وألهب ظهر جواده وانطلق ماراً بالديدبان الذى ارتاع لرؤيته ، وتوقف فجأة فى وسط الفناء .

وقفز جوجوريدز — الجندى النوبتجى فى الفصيلة — قفز بعيداً عن الفتاة الهولندية الحسناء وكأن ناراً لسعته وصاح بأعلى صوته :

— انطباه !

سكت الضحك فى الحال ، ونهض الجميع وقوفاً . وهب الضيوف أيضا على أقدامهم وقد انتابهم شىء من الخوف .

وجه تشوخوف حديثه إلى الباشجاويش دون أن يترجل من على ظهر جواده :

فيم الهرج والمرج ؟

وأسرع جودونوف إلى الإجابة دون أن يتلعثم أو يضطرب :

— هؤلاء ليسوا من الألمان يارفيق كابتن . إنهم من الفرنسيين والهولنديين . . كانوا يعملون هنا عند صاحبة المزرعة . إنهم منا ،

عنى أنهم من الشعب الكادح يارفيق كابتن ، وقد قاسوا الكثير على أيدى النازيين .

— خذوا راحتكم .

قفز تشوخوف من على ظهر جواده ودخل إلى المنزل . ورأى فى إحدى الغرف ساليفنكو يجلس قبالة المرأة العجوز ، وإلى جوار الكرسى الذى يجلس عليه ساليفنكو يقف شاب لايعرفه تشوخوف ، يرتدى « جرسياً » ممزقاً وقلنسوة زرقاء . ولولا وجه المرأة المصفر الشاحب من شدة الخوف لظن المرء أنها كانت مقابلة ودية

وقف ساليفنكو عندما رأى الكابتن ، وقال وهو مكشر الوجه :

— لقد كنت أتبادل حديثاً سياسياً مع سيدة المنزل والأرض . وهو حديث طريف وممتع حقاً ! لقد سألتها : لماذا تستخدم العمل المسخر ، قائلا : إن هذا شىء غير إنسانى . فأجابت قائلة : « ياإلهى الطيب ، ماهى السخرة ؟ إن الناس يجب أن يشتغلوا ليكسبوا قوتهم ، كما تعلم . » ثم سألتها ثانية عن طريق هذا الرفيق الذى يترجم الحديث إنه تشيكى ويفهم كل ماتقول ومايقولون . سألت « ومارأيك إذا كانوا يجبرون على العمل قسراً ويجرون إلى هنا من الدول الأخرى » . فهل تدرى بماذا أجابتنى هذه الساحرة العجوز ؟ قالت : « إنهم لو لم يأتوا إلى العمل هنا لماتوا جوعاً . فقد كفت المصانع هناك عن الإنتاج بسبب الدمار الذى حدث ، أما البذر والحرث فهو قليل لايكفى ... » ثم سألتها : « ولماذا

www.alkottob.com

توقفت المصانع هناك عن العمل ؟ ولماذا حدث كل هذا الدمار . إنها لاتريد أن تقول إن السبب هو أنهم — هؤلاء الخنازير — قد سيبوا كل هذا الدمار بأيديهم .

وأنهى سالينكو حديثه بإشارة عصبية من يده .

في هذه اللحظة انفتح الباب ودخل العمال الأجانب في مجموعة متزاحمة وعلى رأسهم الفتاة الهولندية الحسناء ، وعيناها الزرقاوان تشعان ببريق لطيف . ومدت الفتاة يدها إلى تشوخوف وهي تقول بضع كلمات ، وقد احمر وجهها وبدا عليها الاضطراب .

قام الشاب التشيكي بالترجمة ، فقال إن مارجريت — بالنيابة عن الأجانب جميعهم وعن عائلاتهم أيضاً — تشكر الكابتن كما تشكر الجيش الروسي الباسل .

صافح تشوخوف اليد الصغيرة الرقيقة الممدودة إليه . ولكنه لم يدر بماذا يجيب .

أحس كأنه — وهو في هذه الغرفة الكبيرة المعتمة المكتظة بصناديق الكتب — كأنه واقف أمام العالم بأسره وقد سلطت عليه الأضواء ، وأن عليه أن يقول كلاماً له وزنه ، ليس من الضروري أن يكون شعراً بطبيعة الحال ، ولكنه كلام كالشعر . لقد كان من المستحيل على هذه الفتاة الهولندية وعلى الناس الواقفين وراءها والآتين من مختلف بلاد أوروبا أن يدركوا أنه مجرد ضابط صغير برتبة كابتن ، وعلاوة على ذلك فإنه

ضابط ليس له تقدير كبير عند القيادة . كان هذا مستحيلا ، وهم يرونه عظيماً لا ترقى قوة إلى مقامه ، ومن خلفه يقف الجيش السوفيتي بأسره .

قال .

— هذا ماجئنا إلى هنا من أجله .

وأحس برغبة في أن يجري ويهرب إلى غرفته ، ولكن هؤلاء الأجانب كانوا قد أحاطوا به وسدوا عليه المنافذ .

وقام الشاب التشيكي بتقديمهم إليه واحداً واحداً . وعجب تشوخوف إذ رأى أناسا ذوي أسماء غريبة ، أسماء رومانتيكية لايصادفها إلا في الروايات والقصص ، عجب إذ رآهم أناساً عاديين تماماً لايختلفون عن الروس في شيء . وكانت دهشته بالغة حين عرف أن اسم أحد الفرنسيين كان شبيهاً قريباً من دارتانيان ، ولكنه لم يكن سوى شاب هادىء الطبع ، شاحب الوجه ، يرتدي بنطلوناً ممزقاً .

وسألوا : أهم سيرحلون إلى أوطانهم بسرعة ، وكيف أو ليس هناك بد من الإنتظار إلى حين مجيء السلطات السوفيتية أم أن عليهم أن يبدأوا الرحيل بأنفسهم دون انتظار ؟ وأرادوا أن يعرفوا أيضاً إن كان لابد لهم من الحصول على جوازات مرور من القيادة السوفيتية ، وإن كان الأمر كذلك أفلا يرجون أن تصرف لهم هذه الجوازات في أسرع وقت ؟

وسأل أحد الهولنديين ، واسمه روز ، سأل المستر كابتن أن يقول

www.alkottob.com

لهم متى ستنتهى الحرب بالضبط . كذلك أرادت مارجوت ميلير ومعى فرنسية أرادت أن تعرف ما إذا كان بالإمكان طلب وسائل انتقال من الألمان ، وأرادت أن تعرف كذلك مدى إمكانية الإتصال بباريس بالراديو أو بأية وسيلة أخرى ، وطلبت أن يأمر (مسيو لى كابتين) بإجراء مثل هذا الاتصال .

وكلما كثرت الأسئلة زاد ارتباك تشوخوف وأصبح فى حيرة من أمره : هل يقول لهم ماهو إلا قائد فصيلة من القناصة . ولكنه ، على أية حال ، كان حامیهم الشرعى ، وكانوا هم يعتقدون فى قدرته على مساعدتهم ، ولم يكن باستطاعته ، بل لقد كان من واجبه ألا يخيب آمالهم فيه . ومن يدرى ، ربما أحس هو نفسه فى تلك اللحظة بأنه قادر على كل شىء

كانت إجاباته : انتظروا . انتظروا حتى تصدر التعليمات . والتعليمات ستصدر فى الوقت المناسب عندما ترى القيادة السوفيتية أن ذلك ضرورى .

وأحس بالرضا والاغتباط لأنه أجاب هذه الإجابة النيرة .

وشكر المسيو جاردونيه — وهو فرنسى من ستراسبورج — شكر السيد الكابتن باسم زملائه جميعا ، وواصل كلامه ليسأل عن صحة المارشال ستالين وطلب أن ترسل التحيات إلى ستالين من المجموعة المحلية للعمال المحررين ومنه شخصياً — من المسيو جاردونيه .

ولم يخطر ببال تشوخوف أن يبتسم لأنهم ذهبوا إلى أنه قريب من ستالين إلى هذه الدرجة . بل العكس ، أحس الكابتن بدفء فى صدره لم يحس به من قبل . وقال :

— إن القائد الأعلى يتمتع بصحة جيدة ، ولاشك فى أنه مسرور لأن جنوده وصلوا إلى هنا ، إلى ألمانيا . وسنرسل له التحيات . . .

وسكت قليلا ثم أضاف العبارة التالية (لكى يكون دقيقاً جدا :

— إذا سمحت الظروف بذلك .

كان المنظر أشبه بمؤتمر صحفى كبير . وملأ تشوخوف صدره بنفس عميق وغمرته مارجريت بنظرات فرح وإعجاب . أما ربة البيت العجوز فقد ظلت جالسة فى كرسيها لاتجرؤ على الحركة .

عندئذ همس ساليفتكو إلى تشوخين يقول له إن العمال كانوا يلبسون أسمالا بالية ، وأن النسوة لم يكن لديهن سوى قباقيب خشبية لاتقى من البرد . فنظر تشوخوف إلى المرأة العجوز نظرة قاسية وقال :

— اصرفى لهم ملابس وأحذية .

وتطوع الشاب النشيكى بالترجمة فرحاً ، فنهضت المرأة العجوز مسرعة وأخرجت من جيبها ربطة كبيرة من المفاتيح ، واتجهت ناحية الباب .

وتبعتها النسوة الثرثارات ليخترن الملابس والأحذية التى تناسبهن من دولاب السيدة . وأرسل تشوخوف معهن الباشجاويش جودونوف

www.alkottob.com

حتى لايلق أعداء الشعب « هؤلاء » — كما يسميهم تشوخوف — بالملابس القديمة المهلهلة إلى العمال الأجانب .

وجمعت النسوة أكداساً من الفساتين والأحذية وجرين إلى غرفهن وهن يضحكن ويتكلمن بصوت عال ، وكان عليهن أن يدخلن على هذه الملابس التعديلات التى تجعلها تصل ولو إلى طرازات ١٩٣٩

أوه ، كم تكلمت هؤلاء النسوة وثرثرن ! أنهم ، إن هؤلاء الروس قوم فى غاية الروعة ، إنهم يعلمون حقاً ما تحتاجه المرأة وبخاصة وهى تتأهب للعودة إلى بلدها بعد غياب خمس سنوات .

أما الرجال فقد ظلوا واقفين يتحدثون مع الكابتن ، ولكن سمع فى هذه اللحظة صوت آلات يصم الآذان آت من الشارع . كانت المدفعية السوفييتية الثقيلة المغطاة بأغصان الصنوبر لتعمية تسير عبر القرية . وخرج الجميع ليتفرجوا على هذه المدافع الهائلة .

وترك تشوخوف وحده ، فأخذ يذرع — بخطوات بطيئة — غرفة الاستقبال الضخمة وقد علقت على جدرانها قرون الوعول وكأنها نياشين المجد التى تتوج جهود وبراعة سيادة صاحب المزرعة فى ميدان الصيد . ومن أسفل هذه القرون علقت صور فى إطارات ذهبية . وأحس تشوخوف بالاعتزاز والفخر ، ليس بشخصه فحسب ، ولكن بالجيش — بالجنود . وبالماجور لوبنسوف ، والكابتن ميشيرسكى وكان هذا الشعور جديداً على تشوخوف ، الأمر الذى استرعى انتباهه العظيم .

وجاءته من النافذة أصوات محركات المدرعات ، وقرقعة الفولاذ ،

وأصوات الناس المرحة وتحياته الصاخبة .

فتح الباب فجأة ودخلت مارجريت وغمغمت ببضع كلمات وهى تشير إلى حذائها الأسود اللامع الجديد . من الواضح أنها كانت تشكر الكابتن .

ووقف الإثنان وجهاً لوجه .

كانت الفتاة جميلة ، وكانت تعلم أنها جميلة . كما كانت أنيقة المظهر أيضاً وإن كانت لاتعى هذه الحقيقة . كانت هى هى ، تبتسم له ابتسامتها المثيرة . أما هو فقد كان يحس بأنه ممثل لشعب عظيم ولجيش عظيم ويحاول أن يظهر بمظهر الانسان الصارم الذى لا ينال .

أشارت بإصبعها الدقيقه إلى ذقنها قائلة :

— مارجريت ... وأنت ؟

— فاسيلى ماكسيموفيتش .

لم تتبين الفتاة الاسم الطويل فرفعت حاجبيها مستفسرة . فقال محاولا اختصار اسمه بحذف لقبه :

— فاسيلى .

فرددت خلفه :

— فاسيل .. فاسيل

ولسبب ما أخذت تضحك وكأن الاسم قد سرها سروراً بالغاً .

www.alkottob.com

ووقف الاثنان صامتين لمدة دقيقة ، ثم شعر كلاهما بعدم الارتياح دون أن يدرى لذلك سبباً معيناً . وفكر تشوخوف : ربما تريد أن تسألنى عن شىء ما . وحاول ألا يركز بصره عليها لفترة طويلة . وفكرت مارجريت : قد يكون الكابتن مشغولا وأنا أعطله دون أن أقول له شيئاً بعينه .

وقالت الفتاة كلمة أو كلمتين وهى خجلى ولكنه لم يجب بشىء لسبب بسيط — هو أنه لم يفهم لغتها . وأخيراً انحنت البنت انحناءة كبيرة فى دلال وخرجت من الباب عدواً . وفتح تشوخوف عينيه دهشاً فهو لم يعرف هذا النوع من التحية إلا على صفحات الكتب والروايات .

وقف مارجريت دقيقة خارج الغرفة ثم انطلقت إلى صديقاتها لتحكى لهن كيف أن هذا الكابتن إنسان حبوب وغير مفهوم وأن اسمه فاسيل .

كانت مارجريت من مواليد بلدة زانذام الصغيرة التى تقع شمال غرب مدينة أمستردام . والبلدة تقع على شاطىء المحيط بالقرب من سد قديم . وهذه البلدة مليئة بالنوارس وجوها مشبع برائحة السمك المالحة . وكانت هذه البلدة تسمى قديماً ساردام . وقد حدث فى أغسطس من عام ١٦٩٧ أن زارها قيصر روسيا ودوقها الأعظم بطرس الأكبر . وما يزال هناك حتى اليوم نصب مقام فى البلدة تخليداً لذكرى هذه الزيارة ، كما أن المنزل ذا السطح المبلط الذى قضى فيه أيام الزيارة مايزال قائماً هناك .

وفى المنطقة المجاورة للبلدة ورشة لنشر الخشب اسمها ورشة (دى جروتفورست) أى (ورشة الدوق الأعظم) لتخليد هذه الذكرى أيضاً .

وعندما كانت مارجريت فى صباها تفكر فى روسيا النائية كانت تتخيل هيكلا هائلا لرجل غريب مر ظله الضخم يوماً بالشوارع الجانبية لبلدتها زانذام . وحتى عندما قامت الحرب بين ألمانيا وروسيا كانت بالنسبة إليها حدثاً بعيداً أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، وليس هناك صلة مباشرة تربطه بها أو بمواطنيها . وكان من الطبيعى أن يطرب الهولنديون المستعبدون للأخبار التى وصلتهم عن هزائم الألمان فى روسيا ، فقد كانوا يكرهون الألمان تماماً كما كان أجدادهم يبغضون الأسبان أيام الملك وليام الصامت . ولكنهم لم يكونوا يرون صلة مباشرة بين هذه الأحداث وبين مصيرهم كشعب وأمة .

وفجأة تفجرت هذه الأحداث فى صميم حياتهم ، واتضح أن الشعوب الفسيحة فى الشرق ليست بعيدة إلى الدرجة التى تصوروها ، وأنها ليست فى كوكب آخر ، كما كانت تتخيل مارجريت رين — هذه الفتاة ذات الثانية عشر عاماً التى نشئت على احتفالات موالد القديسين والصحافة الرخيصة والروايات المبتذلة التى تعرضها الأفلام السوفييتية .

وهؤلاء هم الروس يحررون مارجريت وعدداً من مواطنيها . وبفضلهم سترى مارجريت والدتها ثانية وستعود إلى بلدتها وتستمتع

www.alkottob.com

بشاطىء البحر .

كانت تشعر بالامتنان العميق نحو الروس ، فقد أحست أنها لأول مرة فى السنوات الثلاث الأخيرة — أحست أنها فى حماية قوة صديقة قادرة . وقد تجسدت هذه القوة فى ذلك الضابط الشاب القوى البنية الداكن العينين .

نظرت إليه مارجريت وهى منتشية . وأحست بسرور عظيم لأنه لم يكن طويل القامة ، فلم يكن يزيد عنها فى الطول إلا قليلا ، ولم يكن ولله الحمد — فى حجم بطرس الأكبر ، الذى كان من الأرجح أن تخشاه إذا صادفته فى الحياة .

كانت تحس فى حضرة الكابتن بأنها فى أمان من أذى البارونة فون بوركاو التى كانت الآمرة على العدد الغفير من الرجال الذين تبدأ أو تنتهى أسماؤهم وألقابهم بـ « امت » ، « وراث » و « ليتر و » فوهرر » — هذه الجوقة الغريبة التى تشتتت كما تتشتت الأرواح والأشباح الشريرة عندما تبزغ شمس الصباح .

٧

جاء أوجانسيان إلى المزرعة فى اليوم التالى وهو يستحث الخطى متعجلا المتعة الكبيرة التى تنتظره .

أحس وكأنه يعود إلى شىء عزيز عليه طال بعاده عنه ، وإن كان لم يتكبد ألما أو مشقة عند فراقه ، أحس بأنه يعود إلى عمله كدليل فى متحف — وهو عمل غير هام على أية حال . وتبين أوجانسيان ، وقلبه يدق من فرط الانفعال ، تبين الأحاسيس القديمة التى قاربت النسيان أيام عمله الأولى ، وقت أن كان يقضى أيامه بين اللوحات التى تتألق عليها الألوان الدافئة ، وقيمتها التى لا تقدر بالنسبة له . وتذكر الرحلات المدرسية التى لا تحصى ، وزيارات العمال ورجال الجيش الأحمر للمتحف الذى كان يشتغل فيه .

وقد كان أوجانسيان يحب أن يشرح معروضات المتحف لرجال الجيش الأحمر ، وكانت الصور فى تلك الأيام أقرب إلى قلبه وعقله من هؤلاء الشبان الرائعين الجادين الممتلئين باحترام الفن . وإنه لتبدو عليهم الدهشة حين يعلمون كم من الأسرار والأفكار تكمن فى اللوحات

www.alkottob.com

الصامتة الملونة. وكانوا ينصتون — وهم الممتلئة قلوبهم بالإيمان بالتقدم الإنسانى المطرد — كانوا ينصتون وهم متشككون فى أحاديث أوجانسيان عن الأسرار المفقودة التى طويت بموت كبار الفنانين القدماء وبإبداعهم الذى لا يبارى فى عالم التكوين والتلوين. وهاهو ذا اليوم يرى زائرى متحفه أناساً يسعون فى الحياة وينهضون بواجباتهم العسكرية فى خط النار.

كانوا يبدون الاهتمام بكل شىء فى العالم، ويتطلعون إلى معرفة وتفهم كل شىء. إن الرغبة التى لا تحد هى إحدى سماتهم الأساسية، وقد أحبوا المترجم أيضاً لأنه كان «يعرف كل شىء». كانوا يحبون القصص التى يحكيها عن الفنانين، وبخاصة عن ليوناردو دافينشى الذى كانوا يقدرونه تقديراً زائداً — وهم الرجال ذوو العقول العملية — لعبقريته فى العلوم الرياضية والتكنيكية.

وقد سر أوجانسيان من حقيقة أن الجند كانت لهم اهتماماتهم الثقافية وكان يتخيل لأول وهلة أن الحياة العسكرية لا مكان فيها إلا لحفر الخنادق واختيار مواقع المدافع والتعامل مع الأسرى الألمان المتعبين، والسهر فى الليالى العاصفة الكئيبة والمخابىء القذرة. ولكنه تبين أن الجند كانوا أكثر حصافة منه هو، لقد كانوا على بينة من حقيقة لم يتبينها هو نفسه إلا متأخراً: إن المستقبل الكبير ما يزال أمامهم، إن حياة كاملة تنتظرهم بعد العودة، وأنهم من أجل هذه الحياة قد حملوا السلاح.

وأحس بقلب متجدد وهو على وشك أن يرى عدداً من الصور بعد قليل — أن الفن لا يمكن أن يفصله فاصل عن الحياة فى الجبهة بكل صعوباتها ومآسيها، وأنه ليس مفصولا عن الضباط والجنود المحيطين به. إن الصور ليست إلا نصف المتحف، أما النصف الآخر فهم الزائرون.

دخل أوجانسيان بخطوات وئيدة إلى غرفة الاستقبال فى صحبة تشوخوف وبالجاويش ذى شارب أسود يبدو أنه المنظم الحزبى، وفى الغرفة علقت الصور أسفل قرون الوعول العديدة.

رأى أوجانسيان نسخاً جيدة لبعض اللوحات الشهيرة مثل: «موناليزا» لليوناردو دافينشى، و «فينوس» الموجود أصلها فى متحف فيينا، و «برزيوس وأندروميدا» من متحف ليننجراد للفنان روبينز، و «فينوس» للفنان جيورجيون والموجود أصلها فى متحف درسدن. وإلى جانب هذه الصور توجد عدة مناظر طبيعية ولوحات طبيعية صامتة لعدد من الفنانين الألمان.

وأحس أوجانسيان بفرحة من التقى بأصدقاء وأعزاء قدامى. كان يحفظ تاريخ كل لوحة بكل تفصيل. أين تبخر خموله وحبه للنوم؟! لو أن أنتونتوك رأى هذا الرجل المبتسم النشيط لما عرف فيه مترجم وحدة الاستكشاف، الذى بدا الآن أصغر كثيراً من سنه.

ورأى ساليفنكو فى وجود أوجانسيان فرصة نادرة لن تكلفه شيئاً

www.alkottob.com

الرفع المستوى الثقافى لرجال فصيلته فاستدعى جميع الرجال الذين ليست لديهم مهام أو وردیات عمل .

أخذ أوجانسيان يشرح فكرة كل صورة وتكوينها للرجال المحيطين به ، بتلك اللهجة الجادة الوئيدة المميزة لأدلاء المتاحف المتخصصين .

وساد الغرفة جو غريب من الهدوء والسلام ، وكأن ليس فى الدنيا حرب تدور ، وكأنه ليست هناك معارك دموية مقبلة سيشترك فيها هؤلاء الجنود المنصتون فى اهتمام بالغ إلى شرح الصور التى رسمت منذ خمسة قرون فى إيطاليا — التى أصبحت الآن على مقربة منهم .

ونما خيال أوجانسيان عندما وقف أمام الجيوكوندا وأخذ يتأملها فى نشوة وحب بادیين . قال :

— فى ربيع ١٥٠٣ رسم ليوناردو صورة لموناليزا . الزوجة الثانية للمواطن الفلورنسى الشهير السيد فرانسسكودى بارتولوميو دل جيوكوندا فكيف كان يمكن أن يخلد اسم هذا الرجل وزوجته لولا فرشاة الفنان العظيم ؟ ولدت موناليزا فى مدينة نابولى عام ١٤٧٩ وتزوجت وهى فى السادسة عشرة من عمرها . وهى تجلس هنا فى رشاقة ودعة على كرسى وثير تسند مرفقيها على مسنديه . أرجوكم أن تنظروا جيداً إلى وجهها . أنظروا بعناية .

واستطرد :

— أى نوع من الوجوه هذا ؟ ولم ظل الناس يكتبون ويتحدثون

ويتجادلون حوله لمدة تزيد على خمسمائة عام ؟ إن وجه الجيوكوندا يعبر عن معان كثيرة . يقول البعض إنه يعبر عن التواضع ، ويقول آخرون : بل عن الرقة ، ويقول غيرهم : بل إنه يعبر عن شىء من الخجل الممزوج بالرغبات الخفية . وتعتقد فئة رابعة أنه يعبر عن نوع من الكبرياء ، ويذهبون إلا أنها غطرسة . وهناك نقاد ينسبون إلى هذا الوجه التعبير عن التحدى والسخرية ويذهبون إلى حد القسوة ! إن غموض هذه الابتسامة الجميلة ذهبت مضرب الأمثال على مر الأجيال . أى هذه التفسيرات هو الصحيح ؟ ربما تكون كلها صحيحة . لقد نجح الفنان فى أن يعبر فى ابتسامة هذه المرأة التى من فلورنسا عن الجوانب المتعددة فى شخصية المرأة : إنها عنيفة فى تواضع ، رقيقة فى قسوة ...

مسح أوجانسيان العرق المتصبب على جبينه وهو يتفرس فى وجوه الرجال المحيطين به بعين المنتصر . لقد وصل إلى ما يريد : فلم تعد المرأة المرسومة على اللوحة مجرد صورة مرسومة ، ولكنها أصبحت الآن حدثاً ومشكلة تستوجب التفكير العميق . وأخذ الرجال يدرسونها بعناية متزايدة .

قال أحد الجنود دون عجلة :

— لقد افتتحوا فى بلدتنا متحفاً قبل الحرب ، وعرضت فيه لوحات كثيرة حسنة . وهذه الصورة معروضة هناك أيضاً . إنها من اللوحات المشهورة ، حولها دائماً عدد كبير من المتفرجين

www.alkottob.com

وقال سميجلاف :

ـ لقد رأيت لوحة موناليزا هذه فى موسكو عندما كنت فى إحدى الرحلات . لقد قصوا علينا قصة سرقة الأصل من أحد المتاحف .

وقال أوجانسيان مؤكداً :

ـ نعم ، لقد سرق الأصل من أحد متاحف باريس عام ١٩١١ ، ولم يكتشفوا مكانها إلا بعد عامين من حادث السرقة ، فى مدينة فلورنسا .

وسأل جندى كبير السن قصير القامة ذو شعر أحمر :

ـ وكم يبلغ ثمن مثل هذه اللوحة ؟

فسارع الجند إلى إسكاته ، ولكن أوجانسيان كح غاضباً ، ثم أجاب :

ـ ثمن باهظ . لايقل عن نصف مليون .

وقفز الجندى فاه . وقال ـ ظناً منه أنهم يسخرون منه ـ :

ـ نصف مليون مارك ألمانى ، أليس كذلك ؟

وهنا شحب وجه أوجانسيان امتعاضاً ، وأخذ يثبت لبيشوجين أن نصف مليون قد لايكون الرقم المناسب ، وأن مثل هذه اللوحة الثمينة قد لايقل ثمنها عن المليون ، والدفع بالذهب ، وليس بالمارك !

وصدق بيشوجين بعد لأى . ووقف قبالة المرأة المبتسمة ذات الذراعين المتربعتين وقد استغرق فى التفكير ، ثم هز رأسه فى أسى . وكأنه يأسف من أجل غباوة الإنسان . وانتقل الجميع إلى الصور الأخرى أما

بيشوجين فقد ظل واقفاً أمام موناليزا .

وأحب الجند صور النساء التى رسمها روبين وجيورجيون .

وصاح الباشجاويش جودونوف الذى جاء ليتفرج قليلا :

ـ هذه امرأة فى غاية الجمال يارفيق !

واحمر وجه أوجانسيان سروراً ، وكأن الإطراء كان لشخصه .

وقال ساليفنكو :

ـ وكل هذه الصور ملك لصاحبة الأرض ، وهى وحدها التى لها الحق فى التمتع بها . بالساحرة النمطاء !

وتذكر أوجانسيان فجأة أين هو ، وأنه كان يتفرج على صور تملكها إحدى صاحبات الأراضى الألمانيات . وغمغم :

ـ حقاً ، ما أخف هذا الوضع .

ودعا تشوخوف أوجانسيان لتناول الغذاء .

ورأى أوجانسيان أن يلقى نظرة على أرجاء المنزل إلى أن يفرغوا من إعداد الطعام ، فدخل إلى الغرفة المجاورة التى كانت عبارة عن مكتبة ، وأخذ ينقب بين الكتب الكثيرة . لم تعد فيها أية مطبوعات هتلرية إذ يبدو أنهم أعدموها فى الوقت المناسب . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى رأى المترجم على المنضدة ، وفى مكان واضح للعيان ، نسخاً من تراجم ألمانية لروايات من تأليف دستوفسكى وجوجول ، ومجلداً صغيراً من مؤلفات هين ، جيء بها من الدولاب ووضعت فى هذا المكان البارز

www.alkottob.com

تحية لمقدم الروس . حقاً ، إن مدام فون بروكاو امرأة شديدة الحصافة .

ونزل أوجانسيان إلى الطابق الأرضى فرأى فتاة شقراء ترقى الدرج بخطوات بطيئة . وإذ لحظت الفتاة هذا الضابط الجديد توقفت ، واتكأت على الدرابزين ونظرت إليه نظرة خجل ممزوج بشيء من الوقاحة .

وقص ساليغنكو الذى كان برفقة أوجانسيان — قص عليه كل مايعرفه عن مارجريت .

كان أوجانسيان يقدر الجمال فى الطبيعة كما يقدره مرسوماً على اللوحات فنظر إلى مارجريت باغتباط وكلها . وكانت مفاجأة سارة لمارجريت أن ترى هذا الضابط الداكن البشرة يتحدث إليها بألمانية سليمة .

وإذ علم أوجانسيان أن الفتاة هولاندية أخذ يحدثها عن الفن (الفلميش) وعما انتهت إليه متاحفهم . ولكن معلوماتها عن هذا الموضوع كانت ضعيفة . واعترفت الفتاة بهذه الحقيقة دون أدنى شعور بالحرج . وقد كان لها عذرها فى أنها أخذت من هولاندا وهى مازال فى سن السادسة عشرة .

وظهر الكابتن تشوخوف عند عتبة الباب فى الطابق العلوى . وقال :

— الطعام جاهز .

وطلب أوجانسيان من تشوخوف أن يدعو مارجريت للغداء معهم ، فقال :

— حسناً ، ادعها أنت إذا شئت .

والحقيقة أنه كان فى غاية السرور ، على الرغم من أنه لم تكن لديه الشجاعة لكى يقوم على مثل هذا العمل بنفسه .

جلست مارجريت بين تشوخوف وأوجانسيان . وقد تألق وجهها من فرط الزهو لأنها تتناول الغداء مع ضابطين روسيين وأخذت تجيب بطلاقة على الأسئلة التى يوجهها إليها أوجانسيان وتطلب إليه — بين حين وآخر — أن يترجم إجاباتها إلى الكابتن فاسيل . وكم كانت آسفة لأن صديقها ، الكابتن لم يكن يعرف الهولندية أو الألمانية .

فى عام ١٩٤٢ أخذت مارجريت هى وشبان كثيرون غيرها وأرسلوا إلى ألمانيا لفترة الحصاد — أو هكذا قيل لهم وقت أن رحلوا ، ولكن ها هى ذى الآن بعد أن قضت ثلاث سنوات على أرض بلد غريب . واعترفت بأن الألمان كانوا يعاملون الهولنديين معاملة أفضل بكثير مما يعاملون غيرهم ، فقد كان فى رأيهم أن الهولنديين ينتمون إلى الجنس الألمانى . وهكذا كان يسمح لهم بالتجوال فى الشوارع والاختلاط بالسكان الألمان ولم تعلم ملابسهم برقع خاصة على الظهور كما كان الحال بالنسبة للروس والبولنديين . كذلك كان يسمح لهم بمراسلة أهليهم .

ومع ذلك فقد كانت حياتهم مهينة شديدة القسوة . فقد ظلوا يعيشون كعمال مسخرين غرباء ينقلون من إقليم إلى إقليم ومن معسكر إلى آخر .

لقد تنقلت مارجريت فى نصف الأقاليم الألمانية ، واشتغلت مرة فى

www.alkottob.com

مصنع للطائرات تحت الأرض عند أسفل جبال هارز ، وعملت أخرى فى تعبئة الخراطيش فى مدينة ستيتن ، ومرة ثالثة فى جنى المحصولات الزراعية فى ضياع إقليم تورينجن .

وجاءت إلى هذه المزرعة منذ نحو عام .

لقد رأت هذه الفتاة الجميلة الرقيقة المشردة طيلة السنوات الثلاث الماضية مايجل عن الوصف ! وكم مر عليها رجال بلا أخلاق ، ونساء بلا حياء ، وملاحظون بلا رحمة ، وأصحاب عمل بلا ضمير .

كما قضت فترة فى أحد سجون ألمانيا .

فقد حدث أن طالب عمال مصنع الطائرات من الإدارة أن تدخل بعض الإصلاحات فى مساكنهم ، إذ كانوا يسكنون فى ثكنات خشبية متداعية الأسطح مليئة بالجرذان الهائلة ولكن سرعان ماقبض على متزعم الحركة ، كما قبض على مارجريت وصديقتها الفتاة الروسية أنيا ، من مدينة سمولنسك .

وقضت أنيا نحبها فى السجن . فقد عذبت عذاباً رهيباً ، وهم يحاولون إجبارها على الاعتراف . أما مارجريت فلم تضرب ضرباً شديداً - ربما بسبب دمائها الألمانية . كانت محنة قاسية حقاً .

كان أوجانسيان يصغى بانتباه بالغ . واستشف فى كلماتها - أو إن شئت فى نبرات صوتها - نوعاً من الاستهتار المرير ، وعدم الثقة فى الناس ، وفى إخلاصهم وحسن أدبهم . والأرجح أنها أفسدت بما فيه

الكفاية بحيث لم تعد تعبأ بأى شىء على الإطلاق . ولكن ربما كان هذا موقفاً دفاعياً من ناحيتها ، ونتيجة طبيعية لثلاث سنوات من الحياة المهنية والرغبة فى العيش بأى طريقة كانت ، وهى فى قطيع من المتشردين الذين يعيشون فى مصيدة فئران كبيرة .

وإذ فرغت مارجريت من حكاية كل شىء عن نفسها راحت تمطر أوجانسيان بالأسئلة . كانت تريد أن تعلم ما الذى سيحدث بعد انتهاء الحرب وهل حقا سيشنقون هتلر .

وهل ليس هناك فى روسيا ملاك كبار وأغنياء بشكل عام ؟ وهل صحيح أن كل مواطن روسى شيوعى ؟ وهل الكابتن فاسيل شيوعى ؟ وهل هناك زواج فى روسيا ؟ فقد قرأت فى الصحف أن الروس لا يتزوجون ولكن يعاشر بعضهم بعضا بلا زواج ولا أسرة .

وهنا استشاط أوجانسيان غضباً وقال إن هذه كلها أكاذيب وقحة وأن الصحف تختلق هذه الافتراءات ، وما هذا إلا لأنه ليس فى روسيا ملاك الأرض وأصحاب رؤوس الأموال . وسألته مارجريت إن كان هو نفسه متزوجا فأجابها بالإيجاب وأراها صورة زوجته . وأخذت مارجريت تتأمل صورة المرأة الجميلة ذات العينين الواسعتين التى ترتدى معطفاً من الفراء ، وقالت بصوت خفيض :

- إن زوجتك فاتنة .

وسكتت الفتاة برهة ، ثم سألت : هل الكابتن فاسيل متزوج ؟

www.alkottob.com

ترجم أوجانسيان السؤال لتشوخوف الذى أجاب : لا .

وإذ فهمت مارجريت الإجابة صعد الدم إلى وجنتيها وسألت بسرعة :

ـ هل صحيح أن الجو فى روسيا دائم البرودة ؟

فانفجر أوجانسيان ضاحكا . وأخذ يشرح كيف أن أشجار الليمون والبرتقال تنمو فى جنوب روسيا الدافىء ، وأن البردة شديدة بالفعل فى أقصى الشمال على شاطىء المحيط المتجمد أما فى الوسط فالجو يشبه الجو العادى فى بلاد أوروبا . وانطلق لسانه يتحدث بفصاحة وهو يتكلم عن روسيا وأخذ صوته يرتعش من فرط الانفعال وهو يصف جمال وطنه ثم أخذ يتحدث عن جبال القوقاز التى تغطى الثلوج قممها فى بلاد القوقاز ، وعن شوارع لينينجراد وموسكو الضخمة الجميلة ، وعن المزارع الجماعية المزدهرة والحقول الفسيحة المترامية .

وكانت الفتاة تنصت باهتمام بالغ ، وهى تقاطعه أحيانا بأسئلة من نوع « صحيح ، أو « أيحدث هذا ؟ » أو تقول وكأنها تحدث نفسها : « لا بد أن أحدثهم بهذا عندما أعود إلى بلادى »

وسألت إن كان بإمكانها أن تزور روسيا ، وأضافت :

ـ إنها بلاد جميلة حقا .

وفكر أوجانسيان قليلا ثم قال :

ـ من المحتمل أن يحدث فى كل بلاد العالم مثلما حدث فى روسيا .

فقالت الفتاة وقد أدهشتها وحدة الفكر بين رجال الجيش الأحمر :

ـ هذا بالضبط ماقاله لنا الجاويش ذو الشارب الأسود ، لقد قام ماريك بترجمة كلامه لنا . إنه العامل التشيكى الذى يتكلم الروسية .

ونهضت لتستأذن وتتركهم ولكنها توقفت فجأة عند الباب وقالت فى خجل ، ورموشها الطويلة تغطى عينيها الزرقاوين الجميلتين فى تأثر بالغ :

ـ لقد أبلغت رفاقكم أننى متزوجة من أحد الهولنديين الذين كانوا يعملون معنا هنا . والحقيقة أنه ليس زوجى . إن اسمه وليم هارت من أوتريخت وهو عامل معنا ـ ليس إلا . وإنما قلت ذلك لرغبتى فى ألا يضايقنى الجند . . . والحقيقة هى أننى لست متزوجة .

وانطلقت مارجريت تاركة الغرفة عدواً .

وقال أوجانسيان بعد أن ترجم كلماتها الأخيرة لتشوخوف :

ـ يالليفت المسكينة . يمكن رسم لوحة لهذه الفتاة موضوعها : « أوروبا التى اغتصبها الثور » ... ولكن الثور يجب ألا يكون قويا حسن المنظر كما اعتاد الفنانون أن يرسموه ، ولكنه هزيل ، نحيف ، متوحش ، منفر ، بغيض كالفاشية .

ولكن هذه الموضوعات الأسطورية لم تكن من النوع الذى يهم تشوخوف ، الذى ظل جالساً فى مكانه إلى المائدة بعد أن انصرف أوجانسيان ، وذهنه ملىء بالأفكار الغامضة الكئيبة عن نفسه وعن العالم الذى يحيط به .

www.alkottob.com

٨

تقدمت فرقة الكولونيل فوروبيوف غيرها من وحدات الجيش وحمل الجرحى الذين جيء بهم إلى الأورطة الطبية أنباء هجمات عنيفة عنيدة قامت بها الدبابات الألمانية.

وسرعان ما ظهرت قاذفات القنابل الألمانية فى سماء القرية التى تعسكر فيها الأورطة الطبية وألقت عدداً من القنابل.

ودبت الحياة — المليئة بالمزعجات — فى خطوط القتال الأمامية.

وفى ساعة متأخرة من مساء هذه الليلة وصلت إلى القرية أوامر من قيادة الفرقة إلى رئيس الجراحين ليتوجه إلى مركز مراقبة قائد الفرقة.

وأصر الضابط على استعجال تانيا دون أن يذكر شيئا عن موضوع الاستدعاء، واكتفى بأن طلب منها أن تأخذ معها جميع المعدات اللازمة لإجراء عملية جراحية عاجلة.

وانطلقت السيارة، وبعد أن مرت بعدد من القرى المخربة انعطفت فى طريق ضيق للمشاة ثم أخذت تتعثر فوق أكوام من الأتربة والثلج المتراكم فوق أرض الحقول. وكان المكان بأسره يضج ويهدر، وأصوات المدافع الرشاشة تصل إليهم من مكان قريب.

وتوقفت السيارة فى أسفل تل صغير مغطى بأشجار الشربين الصغيرة وقفز الضابط من السيارة وساعد تانيا على الهبوط. وقال:

— سنواصل طريقنا سيراً على الأقدام.

بدأ الإثنان يصعدان التل، والقذائف تتفجر أمامهم وعلى يمينهم وسرعان مالاحظت تانيا وجود خندق حديث الحفر يرقى إلى أعلى التل.

قال الضابط وهو يلوح بذراعه وينحنى قليلا — وكأنه يدعو سيدة إلى دخول مقصورة فى دار الأوبرا:

— تفضلى بالدخول هنا.

سارت تانيا فى الخندق المبال المليء بالطين إلى أن وصلت إلى مدخل مخبأ مغطى بكتل الخشب.

كان هناك عدد من الرجال يجلسون على أرض الغرفة المعتمة وفى فتحات جدرانها. وكان أحدهم يتحدث بصوت خشن فى التليفون.

وسمع صوت يخرج من الظلمة:

— هل هذه هى الطبية؟

— نعم.

وفتح باب خشبى صغير. وسمعت تانيا صوت قائد الفرقة يقول:

— أدخلى ياتانيا.

www.alkottob.com

كانت شمعة صغيرة موقدة فوق نضد خلف بارفان ، ورأت تانيا على ضوء الشمعة الباهت الكولونيل فوروبيوف يرقد فوق أريكة . ومد الرجل إليها ذراعه الأبيض الضخم وقد خلع كم قميصه ، وقال بهدوء :

— شش ، لاتخبرى أحداً بهذا الحادث وإلا أحدثوا ضجة حوله وأرسلوا يستدعوننى إلى المؤخرة ، والأمر لايعدو أن يكون مجرد خدش . انظرى .

واتضح أن الجرح لم يكن بهذه الدرجة من التفاهة . كانت الرصاصة الألمانية — على الرغم من أنها كانت منطلقة من مسافة بعيدة — كانت قد اخترقت الجلد واستقرت فى الأنسجه الرقيقة أسفل الكوع .

قالت تانيا فى لهجة حازمة :

— يجب أن تنتقل إلى الكتيبة الطبية .

— لن أنتقل إلى أى مكان خارج هذا المخبأ .

— لا ، بل من واجبك أن تنتقل يارفيق كولونيل .

لن أفعل . إن فرقتى مشتبكة فى قتال مرير والألمان يضغطون علينا بعنف وأنت تقولين يجب أن أنتقل .

— إن لم تطعنى فسأبلغ قائد الفيلق وقائد الجيش فى الحال ، وسيصدرون إليك الأوامر الواجبة التنفيذ .

فأجاب فوروبيوف بلهجة المتأفف :

— لن أسمح لك . أنا السلطة الآمرة فى وحدتى .

— إلى أن تصاب بالجرح الأول . فبمجرد أن تصاب برصاصة فى ذراعك أصبح أنا السلطة الآمرة .

— ولكنى لن أسمح لك بمغادرة هذا المكان .

— لا ، لن تستطيع فلدى فى مستشفى الميدان جرحى كثيرون غيرك .

وهنا قال فوروبيوف متوسلا :

— كواتسوفا ياعزيزتى ! أرجوك ! .. لاتتحمسى معى ! . . . كيف يمكننى أن أغادر هذا المكان إلى الكتيبة الطبية . اعملى العملية هنا .

وأضاف بصوت خفيض :

— إن خسائر الفرقة جسيمة . . .

ترددت تانيا قليلا ، ثم طلبت ماء لتغسل يديها .

وبدأ جميع الرجال يتحركون من حولها وفى خدمتها . وأخرجت تانيا معداتها وبدأت العملية . ولم تفلت أنة توجع واحدة من القائد . ودق جرس التليفون فتناوله فوروبيوف بيده السليمة ، وأخذ يجيب على أسئلة قائد الجيش وهو يتصنع المرح والانشراح على حين يتلوى من الألم الفظيع — قال :

www.alkottob.com

— نعم سأنفذ، يجب أن يتم هذا فوراً. أنا ألقى بالاحتياطى فى المعركة. سيكون كل شىء على مايرام. سأردهم على أعقابهم.

عندما انتهت العملية ألقى الكولونيل بنفسه على الأريكة وهو شاحب الوجه، يتصبب جسده عرقاً. وقال فى تفاخر صبيانى:

— إننا قوم شديدو المراس! نحن رجال الحدود! أشكرك ياتاتشكا! لاتذكرى شيئاً لأى إنسان! وسآتى إليك بنفسى لتغيير الضمادات بمجرد أن نفرغ من ضرب النازيين ضربة قاضية.

وصاح بأحد مساعديه فى الغرفة المجاورة:

— اعتن بأمر الطبية. وصلها إلى السيارة عن طريق خندق الاتصال.

وسمعت تانيا القائد وهى عند المدخل يقول:

— والآن، هيا إلى العمل! ماهى أخبار قوات سافلييف.

عادت تانيا إلى الأورطة الطبية ومعنوياتها مرتفعة. فقد حركت مشاعرها الحياة فى خطوط النار الأولى وجعلتها تنسى أحزانها الخاصة.

وعلمت عند عودتها أن كراسيكوف زار الكتيبة منذ قليل وسأل عنها. وعندما علم أنها رحلت إلى جهة غير معلومة وأنها لم تعد بعد، ظهر عليه عدم الارتياح، على الرغم من أنه حاول إخفاء ذلك.

وعاد كراسيكوف ثانية فى اليوم التالى. وكانت تانيا قد فرغت

لتوها من إحدى العمليات العادية. وسرت لرؤيته وأخذت تسأله عن الحالة فى الجبهة.

ولم يجب على أسئلتها على غير عادته. ونظر إلى وجهها ملياً دون أن يخلع معطفه، وقال لها بعد فترة من التأمل:

— معذرة ياتانيا فلاديميروفنا. أنا لست إلا جندياً وأفضل أن تكون أفكارى وتصرفاتى صريحة. لقد قيل لى إن ضابطاً برتبة ماجور سأل عنك وقت أن كنا عند شيدموخ وأنك تغيبت أمس حتى أثناء الليل أنا طبعاً ليس لى الحق فى أن أسألك... ولكننى أعانى بسبب ذلك. أنا نفسى لم أكن أتوقع كل هذا الشعور... أترى هل ستضحكين منى ثانية؟

ولكنها لم تضحك، كما أنها لم تجب.

وفجأة طلب منها كراسيكوف أن تقبله زوجاً، وقام يذرع الغرفة جيئة وذهابا وقال إن الحياة بدونها أصبحت مستحيلة وطلب منها أن تقطع صلتها بالرجل الذى قامت بزيارته بالأمس.

ولم تتمالك نفسها من الضحك على هذا الطلب. فصاح غاضباً:

— ها أنت تعودين إلى الضحك ثانية!

وبدت عليه دلائل الحيرة والابتئاس.

وتأثرت تانيا لمنظره، فلم تكن تتصور أن سيمون سيميونوفيتش

www.alkottob.com

يحبها إلى هذه الدرجة ، وأن الحب يمكن أن يغير - إلى هذه الدرجة - طباع هذا الرجل الدائم الاتزان الشديد الاعتداد بنفسه .

وأحست بالأسف العميق من أجله . وإذ شعرت بعجزها عن التظاهر بما ليس فى نفسها قالت ببساطة :

- لن أقول لك أين كنت بالأمس . فأنا مرتبطة بكلمة شرف ألا أبوح بذلك . وعلى أية حال فلم أكن فى مشوار يتعلق بشخصى . أما عن الماجور .. فهو لم يعد ثانية ، ولن يعود أبداً ، لقد لقى حتفه .

وهنا دعوها لإجراء عملية جراحية ، فدخلت إلى خيمة العمليات مسرعة .

٩

وعلى الرغم من أن تانيا لم تعط سيميون سيميونوفيتش رداً حاسماً إلا أنه اعتبر المسألة منتهية . وقد سره هذا ولكنه - مع ذلك أحس بشيء من الخوف ، وندم على العرض الذى تقدم به فى لحظة انفعال . وفكر مذعوراً فى زوجته وابنته . أو أنه ذعر أكثر من الطريقة التى سينظر بها الجنرال سيزوكريلوف إلى الموضوع بأسره .

وعلى الرغم من شكوكه ومخاوفه إلا أنه ألح فى رؤية تانيا بعد الحديث بشكل أكثر من ذى قبل . لقد كان الشك والحيرة ينالان منه ، وكان من الأفضل طبعاً أن ينسى كل علاقته بها ، ولكن هذا أمراً كان قد خرج عن طاقته تماماً .

ولم تكن تانيا تدرى ماذا يدور فى ذهن سيميون سيميونوفيتش وردت على مكالماته التليفونية بحرارة وهى تعده بالزيارة ، ولكن ضغط العمل فى الكتيبة الطبية عطلها عن ذلك فترة من الزمن .

وأخيراً وجدت تانيا فسحة من الوقت لتقوم بزيارته .

لمحت تانيا ، وهى تجلس إلى عجلة القيادة ، القرى الألمانية وهى

www.alkottob.com

تعدو من خلال النافذة ، والأعلام البيض ترفرف فى مهب الريح على الأسوار والطلف . كان الجو دافئاً ورائحة الربيع تملأ الهواء .

دخلت تانيا البلدة التى تعسكر فيها قيادة الفيلق ومرت بأعداد غفيرة من الجند والأسرى المحررين الذين يمشون فى شوارع البلدة ، ثم انعطفت فى أحد الشوارع الجانبية الهادئة . وقال السائق :

— لقد وصلنا .

وأشار إلى سور حجرى خلفه حديقة صغيرة فى وسطها منزل له برجان عاليان .

قادت تانيا السيارة إلى أن وصلت إلى البوابة حيث وجدت أحد جنود المراسلة فى الانتظار ، وجاء الجندى يعدو عندما سمع صوت السيارة وهبط الدرج وقال لها :

— سيعود الكولونيل بعد قليل ، وهو يرجوك أن تنتظريه .

دخلت تانيا المنزل وخلعت معطفها وجلست إلى المنضدة التى يضع عليها كراسيكوف حقيبته ونظارته . ورأت تانيا على المنضدة تقريراً رسمياً مكتوباً على الآلة الكاتبة ، وإذ وجدت نفسها بلا عمل أخذت تتصفحه .

كان التقرير يحتوى على بحث لحالة أحد قادة الأورط — الماجور إليا بتروفيتس فيسيلياكوف والباشجاويش الممرضة كروتشنكوفا جلافيرا بتروفنا ، اللذين كانا يعيشان كزوج وزوجة فى إحدى الأورط

الأمر المنافى للتعليمات العسكرية .

وقد سجل الضابط المكلف ببحث الحالة أن فيسيلياكوف كان من أحسن قادة الأورط فى الفرقة . وأنه يتقلد ثلاثة نياشين تقديراً لبطولته ، وأنه جرح أربع مرات فى المعارك . وأنه عامل وعضو فى الحزب منذ ١٩٣٨ وأن ملفه نظيف تماماً منذ اليوم الأول للحرب ، وأنه اشترك فى معارك هالخين جول فى فنلندا قبل الهجوم النازى على الاتحاد السوفيتى . وجاء فى التقرير أن الماجور فيسيلياكوف أحب كروتشنكوفا وأبدى رغبته فى التأهل بها فى المستقبل بمجرد أن تنتهى الحرب الوطنية الكبرى . وأكد أعضاء الحزب الذين أخذ رأيهم فى هذا الموضوع أن فيسيلياكوف وكروتشنكوفا نموذج للحب الصادق المتبادل ، وأن العلاقات بينهما تقوم على أساس متين من الاحترام والصداقة الرفاقية الحقة . أما عن كروتشنكوفا (وهى ليست عضوا فى الحزب) فقد استدعيت إلى الخدمة العسكرية فى عام ١٩٤٢ ، وجرحت فى أثناء المعارك وحازت وسام « النجم الأحمر » وميدالية « الخدمة الحربية » ، وعلى الرغم من العروض الكثيرة التى قدمت لها لتعمل كرئيسة ممرضات من الدرجة الأولى وفى مركز أقل خطورة فى الأورطة الطبية أو مركز إسعاف الكتيبة إلا أنها رفضت هذه العروض على طول الخط وأمضت أيام خدمتها كلها مع كتيبة فيسيلياكوف فى خط النار الأول . وفى ملفها تسعة تقارير تطرى عملها وممضاة من قيادة الكتيبة ، تصف

www.alkottob.com

عملها وسهرها على تنظيم الخدمات الطبية للأورطة بشكل نموذجي .

واختتم التقرير بأن كاتبه يعتبر نقل كروتشكوفا من عملها في الأورطة عملا غير مناسب .

بعد أن فرغت تانيا من قراءة التقرير المقدم عن هذه المشكلة الشائكة ابتسمت ولكن سرعان ما اختفت الابتسامة من فوق شفتيها واستغرقت في تفكير عميق .

ومن النافذة وصلها صوت محرك سيارة وأصوات رجال . ودخل كراسيكوف إلى مقر القيادة ومعه ضابط آخر ، فانتقلت تانيا إلى الغرفة المجاورة رغبة منها في تحاشي المقابلة مع زملاء الكولونيل . جلست تانيا على كرسي بجوار النافذة التي تطل على الحديقة حيث الأرض مغطاة بالثلوج البيض المتسخة المبتلة . ولم تملك تانيا إلا أن تنصت إلى الحديث الذي بدأ بين كراسيكوف وضابط آخر برتبة كولونيل - هو فينجيروف رئيس القسم السياسي للفيلق ، الذي عرفته تانيا من صوته .

قال كراسيكوف :

— هل قرأت يا كولونيل هذا التقرير عن فيسليا كوف ؟ هذا أمر غير معقول ولا يقبل بالمرة ! هل قرأت النتيجة التي ينتهي إليها ؟

وأجابه فينجيروف بهدوء :

— أنا أعلم بالموضوع .. لقد قص علي بلوتنيكوف قصتهما . إنهما زوجان طيبان متفانيان في القتال . اعطني هذا الملف أتصفحه .

— ولكن يجب أن تسلم معي بأنه لا يمكن السماح باستمرار مثل هذه الأعمال . إن هذا شيء سيء . لقد تقابلا وتعارفا في الجبهة ! . لقد سمعت عن مثل هذه الصداقات من قبل ! ويجب أن توقف فوراً ، لكي تكون عبرة للآخرين وبخاصة المتزوجين . وليس مثلي من ينبهك إلى أهمية العنصر الأخلاقي .

ثم انتقل الاثنان للحديث عن تحركات القوات . وأخيراً نهض فينجيروف لينصرف ، وخفتت الأصوات ثم سمع صوت محرك سيارة . وسادة الهدوء المكان ثانية . وسمع وقع أقدام سيميون سيميونوفيتش الثقيلة . كان يجول في الغرفة وينادي بصوت رقيق :

— تانيا ، تانيا ، أين أنت ؟

كانت جالسة في الظلمة ولم تكن بها رغبة للرد عليه ، بل لم تكن بها رغبة في رؤية وجهه .

ولكن فتح الباب وظهر كراسيكوف على عتبته بهيكله الضخم . كان من الواضح أنه معجب بنفسه إلى أقصى درجة . ودخل إلى الغرفة المظلمة فلم يلحظ وجود تانيا واستمر ينادي :

— تانيا تانيا أين أنت ؟

وحين لم يتلق رداً تلمس طريقه إلى الباب ففتحه ووقف في فتحته يحملق في الظلمة وهو يضحك وينادي :

— أوه . أنت أيتها الماكرة يا تانيا . أين أنت يا تانيا ؟

www.alkottob.com

ظلت تانيا صامتة . وعندما اختفى كراسيكوف فى الغرفة المجاورة نهضت ودخلت غرفة المكتب حيث الحقيبة والتقارير موضوعة على المنضدة . وبعد ذلك بدقيقة عاد كراسيكوف من إحدى الغرف وهو يضحك .

وأصيب الرجل بدهشة بالغة حين رأى النظرة الباردة التى استقبلته بها تانيا . وحين عرف سبب غضبتها لعن نفسه للكلام غير الحريص الذى تفوه به وأخذ يتلمس المعاذير . قال وهو يحاول إخفاء ارتباكه :

ـ لماذا تقارنين بين الحالتين ؟ إن الأمر لا يعدو محاولة منى لإنقاذ قائد أورطة ممتاز من مضايقات امرأة !

قالت :

ـ لا فائدة من محاولة تلمس المعاذير . إن ما قلته عنهما قد يكون سليما تماماً . ولكن النقطة الهامة هى أن كل ما قلته ينطبق عليك . ولا يمكن وجود مقياسين لأخلاق الناس ، يطبق أحدهما على البعض ويطبق المقياس الثانى على الآخرين .

ونظر إليها وهى تزرر معطفها وتربط حزامها نظرة صامتة يائسة . وإذ تحقق من أنها اعتزمت الانصراف حقاً قال بصوت جاف أجش :

ـ يجب ألا تنصرفى .

واقترب منها بشدة ، ولكنها لم تبد أى خوف ، وابتسمت على غير ما يتوقع ، وقالت :

ـ إحذر . سأكتب إلى سيزوكريلوف .

وتراجع كراسيكوف فوراً إلى النافذة . وعندما استدار بعد برهة كانت قد غادرت الغرفة . وخرجت تانيا إلى الفناء . كان مقعد السائق خالياً أما مفتاح السيارة فكان بارزاً فى مكانه ، فصعدت إلى السيارة دون تردد ، وجلست إلى عجلة القيادة ، وأدارت المحرك .

كان الطريق يبدو أمامها حالك الظلمة إلى أن تنبهت إلى أنها لم تضىء الكشافات الأمامية ، فعرفت أنها أصيبت بصدمة أقوى مما كانت تحسب . وداست على المفتاح فأضاء الطريق أمامها ، وأخذت السيارة تهتز فى الشوارع المظلمة للبلدة الصغيرة .

ثم أحست تانيا بحركة خفيفة خلفها فتبينت أن السائق كان نائماً فى المقعد الخلفى . وكان ذلك أمراً حسناً لأنه سيعود بالسيارة ثانية .

وضحكت تانيا فجأة حين تذكرت الأثر الذى تركه ذكر عضو المجلس الحربى على كراسيكوف . ولكن هذا أمر لا يدعو إلى الضحك . والحق أنها شعرت بحزن عميق .

لم يكن كراسيكوف ـ على الرغم من كل حدث ـ مجرد رجل طيب تعرفه ، وإنما كان شخصاً شغل مكاناً فى حياتها . وقد تعودت ـ فى غمرة العمل المنهك ، والمصاعب المضنية ـ تعودت أن تتذكر أن لها صديقاً ودوداً ، مسئولا يعتمد عليه ـ هو سيميون سيميونوفيتش . وأحزنها أن تخطىء فى تقدير الرجل إلى هذا الحد . وأحست بمزيد

www.alkottob.com

من الوحدة والوحشة .

فى هذه الأثناء كان المرور قد أخذ يتزايد فى الطرقات ، وأخذت ظلال كثيرة تصطدم بى والسيارة . وكانت الأمطار تنهمر فوق رؤوس الجند وعباءاتهم ترفرف فى مهب الريح ، وأحذيتهم الثقيلة تضرب الأرض . وكشافا السيارة يلقيان الضوء على عربة تارة ، وعلى ماسورة مدفع مضاد للدبابات تارة أخرى ، ومرة على بندقية مضادة للدبابات ، ومرة أخرى على أحد الوجوه الهادئة التى تضرب على الطريق الطويل . وخطر ببالها أن هذا الوجه ربما جاءها على منضدة العمليات قريباً ، وعندئذ تصبح ثانيا أكثر من مجرد امرأة عادية وتتحول إلى إنسان لا غنى عنه للمحاربين — إلى جراح . واستيقظ السائق وسأل بصوت وسنان :

— أهذه أنت يا تانيا فلاديميروفنا ؟

— نعم .

— هل كنت مستغرقاً فى نوم عميق ؟

— نعم .

— سأصل إلى وحدتى بعد قليل وستعود أنت بالسيارة .

١٠

حزنت جلاشا كثيراً عندما أبلغها ضابط الخدمة العسكرية فى الفرقة أن عليها أن تمثل أمام رئيس القسم الطبى فى الفيلق . وهذا يعنى أنها لم تنقل من الأورطة فحسب ولكنها نقلت من الفرقة بأسرها .

كمش ضابط الخدمة العسكرية فى الغرفة فى كرسيه وهو يتوقع أن يرى امرأة متوسلة باكية أمامه ، وكان الرجل قد تعب إلى حد المرض من هذه المشكلة من بدايتها إلى نهايتها . ولما كان رجلا ضئيل الجسم فقد أحس بشىء من الخوف عندما رأى المرأة بجسمها الضخم . ولكن جلاشا اكتفت بأن تنهدت فى أسى بعد أن قرأت الأمر ، ونظرت إليه نظرة اهتمام لا تخلو من التعاطف ، وبعد أن سألته الأسئلة المألوفة عن مكان مقر قيادة الفيلق وكيف تذهب إليه انصرفت شاكرة .

وأحست بنوع آخر من الحزن يثقل كاهلها علاوة على حزنها على فراق فسيلاكوف . ولم تفهم جلاشا فى البداية حقيقة مشاعرها ، ولكنها تبينت بعد قليل أن هذا هو ثانى يوم لها بلا عمل ، ولم تكن معتادة على هذا النوع من التبطل ، فأحست بمزيد من الاكتئاب والأسى .

وبينما وقفت تنتظر عربة مارة فى الطريق تحملها إلى مقر قيادة الفيلق

www.alkottob.com

رأت جنديا يلف رأسه فى ضمادات . فنادته قائلة :

ـ ماخطبك ياعزيزى ؟ هل جرحت ؟

فأجاب الجندى بغير اكتراث وبجفاف :

ـ لا ، دمامل . كورونكولوزيس .

فصححت له جلاشا اسم نوع الدمامل التى يشكو منها :

ـ فورونكلوزيس .

كانت الضمادة قد انزلقت قليلا من مكانها ، ولم تجد جلاشا صعوبة فى إقناع الجندى بإصلاح وضعه ، وبالفعل قامت بإعادة ربط الضمادة بسرعة وبراعة جعلتا قلب الجندى يرق لها .

وصعد الإثنان إحدى السيارات ولم تحس جلاشا بمرور الوقت فى طريقها إلى مقر قيادة الفيلق ، فقد ظلت تنهال على زميلها بالنصائح الصحية والطبية ، كما أخذت تسأله عن بيته وأسرته . وعندما كان الجندى يحكى لها عن حادث سىء ـ مثل وفاة أخيه أو مرض ابنه ـ كانت تهز رأسها أسفاً وتتنهد بصوت مسموع . وعندما يذكر حادثاً سارا ـ كصيد ثمين قام به يوماً فى البحر الأبيض أو عن شفاء ابنه ـ كانت تبتسم وتهز رأسها فرحاً وتسأل بلهفة :

ـ صحيح ؟ أحدث هذا فعلا ؟ هذا شىء عظيم !

وأتضح أن الرجل كان من أقصى الشمال ، عند شواطىء البحر الأبيض ولفت نظر الآخرين بلهجته الغريبة .

بعد أن قضت جلاشا يومين فى مقر قيادة الفيلق جاءها الأمر بالعمل فى إحدى الفرق الأخرى ، فبدأت على الفور رحلتها إلى مقر عملها الجديد .

وكم أسفت جلاشا لأنها افتقدت رفيق طريقها ـ ذلك الجندى الآتى من ساحل البحر الأبيض الذى اتخذ طريقاً آخر إلى وحدته فى الجبهة ـ أما رفيق الطريق الجديد فكان ملازماً شاباً يربط خده الأيسر بضمادة . وكان لايكف عن وضع يده على خده ويسب ويلعن متأوها متوجعاً .

أخرجت جلاشا قنينة كحول من حقيبتها وسقت قطعة من القطن بالكحول ليضعها الملازم على ضرسه المريض ، بل إنها أعطته قليلا من الكحول ليشربه . وقالت له كذباً إنها كثيراً ماجربت هذا الألم ، الذى لايفوقه أى ألم آخر ـ كل ذلك لتدخل إلى نفسه شيئاً من الهدوء .

أطلق هذا الكحول عقال ألسن الجنود الصامتين ـ الذين كانوا معها فى السيارة . واعتبر كل منهم أن من واجبه أن يحكى لجلاشا الرقيقة القلب عن رأيه فى آلام الأسنان وقالت جلاشا :

ـ لايفوق وجع الأسنان إلا آلام الولادة .

(وذلك على الرغم من أنها لم تجرب الولادة قط) ـ واستطردت :

ـ ومع ذلك فهذا أمر لا مفر منه ، وهذا هو نصيبنا نحن النساء ، لايمكننا أن نتملص منه . إننا نتألم عند ولادتهم ونبكى عند دفنهم .

واهتزت مشاعرها عندما قالت هـذه الكلمات ، وتذكرت

www.alkottob.com

فسيليشا كوف، وكأنها ولدته يوماً، وهى الآن تدفنه.

وعندما وصلت إلى الأورطة الطبية عينوها كبيرة ممرضات فصيلة الجراحة. وكان عليها أن تمثل أمام كبير الجراحين.

دهشت جلاشا عندما رأت أن كبير الجراحين شابة جميلة الوجه رشيقة القوام رقيقة المعشر، كما لاحظت أنها حزينة شاحبة، وكان تفصيل معطفها الطبي محكماً لدرجة أنه أقرب إلى معاطف الخروج فى المدينة منه إلى معاطف العمل، ولم ينقصه إلا فراء ثعلب ثمين من آخر طراز!

ولاحظت جلاشا وهى مسرورة أن هناك شيئاً فى هاتين العينين الواسعتين الداكنتين — شيئاً ينم عن نوع من القوة والصرامة، ويدل على أن صاحبتهما على شيء من الجدارة بالرغم من مظهرها الأنيق.

وعرفت أن اسمها تانيا فلاديميروفنا كولسوفا.

وعندما علمت تانيا أن الممرضة الجديدة اسمها جلافيرا بتروفنا كرتشكوفا نظرت إليها فى دهشة، ونهضت وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم قالت أخيراً.

— أين كنت تعملين أخيراً؟

وبدأت جلاشا تقص قصتها، ولكن تانيا راحت تتأمل فمها القرمزى الدقيق ويديها الصغيرتين البضتين المتناسقتين، اللتين تنمان عن أن صاحبتهما ذات قلب بالغ العطف والرقة.

وفكرت تانيا: إذن فهذه هى صفاتك. وتذكرت تانيا ما قاله كرابيكوف عنها إنها المرأة التى كان كرابيكوف يريد، إنقاذ، قائد الأورطة الممتاز من مضايقاتها.

حقاً، إن المظاهر كثيراً ما تكون خداعة.

قالت لها تانيا بجفاف:

— حسناً، أنت على قدر كبير من الخبرة. بإمكانك أن تتسلمى عملك فى الحال.

ظلت تانيا ترقب ممرضة فصيلة الجراحة الجديدة بعين يقظة طول الوقت. وتبين أن جلاشا امرأة كثيرة الكلام مسلية، وأنها كانت تقضى الليالى الكثيرة دون نوم. كانت تحس بالعطف والأسى من أجل الناس جميعاً، كما كانت على استعداد دائماً للتطوع بدلا من أى شخص فى أى عمل وكانت تقول فى شيء من الزهو:

— ليس هذا عملا بالنسبة لما كنا نقوم به فى أورطتنا.

وتحملت المرأة فراقها من زوجها دون كلمة شكوى. ربما لأن الأمر كان بالنسبة إليها سيان. وربما لأنها كانت تحب كل الناس، وأنها وجدت الجميع يحبونها فى الأورطة الطبية فعوضت بذلك حب فسيلشا كوف الذى افتقدته.

ولكن حدث مرة واحدة أن ضبطتها تانيا فى الخيمة منفردة بنفسها وهى تبكى، فسألتها:

— هل آذاك أحد ؟

فنهضت جلاشا ، ومسحت دموعها بظهرى يديها ، وقالت :

— لا ، وهل هناك من يريد إيذائى . كل ما فى الأمر أن المرأة ماخلقت إلا لتبكى بين حين وآخر ، ولا حياة للمرأة بدون البكاء . وإن صح هذا بالنسبة للنساء عموماً فهو يصح على بدرجة أعظم . ماذا يمكن أن يقع من أحداث لو أننى لم أبك ؟

انتهت جلاشا من كلمتها هذه وقد استردت سيطرتها على نفسها تماما ، بل إنها الآن تبتسم . وقد أحست تانيا أن هذه الكلمات تمس أوتار قلبها . فقالت :

— هل تشعرين بالوحدة ؟

— نعم . أنا أشعر بأنى وحيدة .

ونطقت كلمة « وحيدة » بلهجة أهل موروم ، فخرجت الكلمة شديدة التعبير عن الأسى والوحدة . وقالت بعد قليل :

— وهل هناك من لا يشكو من الوحدة اليوم . إن زوجى — على أية حال — مايزال على قيد الحياة ... ولكن هناك آخرين ... وزوجك أيضاً ياتانيا فلاديميروفنا ، لقد قيل لى إنه قتل . . .

فى هذه اللحظة أحست تانيا ، وهى دائماً المرأة الصارمة المتماسكة أحست بحاجة جارفة لأن تبوح لجلاشا بمقابلتها مع لوبنسوف ومعرفتها بخبر موته . ولكنها فوجئت بجلاشا وقد احمر وجهها خجلاً ، وقالت :

— أنا آسفه إن كنت قد قلت شيئاً آلمك . سأنصرف .

وفهمت تانيا هذه الإشارة ، وأحست بجرح عميق فى أحاسيسها ، وظلت صامتة على حين سارعت جلاشا إلى ترك الخيمة وهى تتمتم بكلمات الاعتذار .

هزت تانيا رأسها بأسى . وتخيلت كم هى سعيدة حقاً هذه المرأة الضخمة الجثة الرقيقة القلب . لقد كانت تحب وتحب . وسينتهى فراقها عمن تحب فى القريب العاجل — مع انتهاء الحرب .

www.alkottob.com

١١

كان بيشوجين يذرع الفناء وهو شارد الذهن باذى السرور . ولاحظ الباشجاويش جودونوف ذلك فسأله :

ـ لم أنت مسرور هكذا يابيشوجين ؟

وأجاب بيشوجين ، وقد انتابه شيء من الذعر :

ـ أنا ، أنا لست مسروراً ، إننى ...

وحاول الجندى أن يظهر بمظهر جاد ، ولكن الابتسامة تسللت من خلال شاربه الأصفر الأشعث وفمه الدقيق الماكر الذى تفوح منه رائحة التبغ .

وفكر : لماذا أتسكع هنا وهناك ؟ وسرعان ماتبين أنه يبحث عن ساليفنكو . كان بيشوجين يحس أخيراً بحافز قوى ليصارح ساليفنكو بكل شيء ثم يكشر وينصت إلى إجابات ساليفنكو .

وأخيراً عثر على المنظم الحزبى .

كان المساء قد أقبل . وكان ساليفنكو قد عاد لتوه من القسم السياسى للكتيبة حيث حضر اجتماعاً للمنظمين الحزبيين لمناقشة الواجبات فى

المعارك المقبلة .

وعاد إلى الفصيلة محملا بالكتيبات والصحف والاستمارات الفارغة الخاصة « بأخبار المعارك » . وصادف وهو فى طريق عودته جمهرة كبيرة من الروس العائدين إلى وطنهم وهم يضجون بصيحات الفرح والابتهاج .

وشعر ساليفنكو بالسعادة تغمره على الرغم من أنه لم ير ابنته فيهم . والتهبت شفتاه من كثرة القبل وأنهكت يده من كثرة من صافح منهم . ورأى فتاتين كانتا تعملان فى أحد المناجم بالقرب من فورشيلوفجراد . ولم يكن لها من أمنية بعد أن حررتا إلا أن تنخرطا فى سلك الجيش . وقد أعادت هاتان الفتاتان الطويلتا القامة الداكنتا البشرة القويتا البنية أعادتا إلى ذاكرته صورة صديقات جاليا اللائى كن يزرنها للاستذكار وقراءة الشعر .

وأثبت ساليفنكو حضوره أمام الباشجاويش ثم توجه إلى السكن حيث قابل بيشوجين على السلم . ولما كان عند كل منهما أخبار وأشياء يريد أن يسردها ، فقد جلسا معاً إلى جوار النافذة . بدأ ساليفنكو بسرد ما عنده أولا ، فقد قرر بيشوجين أن يتكلم أخيراً ، لأنه اعتبر أن ماعنده هو الأهم .

ولكن قصة ساليفنكو عن الروس المحررين استثارت مشاعره .

قال ساليفنكو وهو يفتل شاربه ويفكر :

www.alkottob.com

أمامنا عمل ضخم . هذه البلاد المخربة والقرى التى أحرقت فى وطننا يجب أن نعيد فيها الأمور إلى نصابها بسرعة ونوجد ملابس وأغذية لكل الناس ...

وغمغم بيشوجين :

ـ ... م نعم لقد قاسى الشعب كثيراً ... أوه ، حسناً لابأس . سيصبح كل شىء على مايرام !

ودق على صدره بقبضته الصغيرة ووضع حقيبته أمام ساليفنكو ، وقال :

ـ هاك . انظر هذا !

ـ أهذا جلد مدبوغ آخر ؟

فرد بيشوجين وهو بادى الاغتباط :

ـ أوه ، لا ! لقد رميت الجلد .

ودهش ساليفنكو :

ـ حقاً ؟ أتعنى أنك رميت هذا الجلد بالفعل ؟

وحدج بيشوجين زميله بنظرة المنتصر ، وفتح حقيبة مهماته حيث رأى ساليفنكو أوانى صغيرة بيضا فيها أشياء أسطوانية صغيرة تشبه رصاص الأقلام ، فقال ساليفنكو مدهوشاً :

ـ حجارة ولاعة ؟

وأخذ يداعب بأنامله الحجارة الصغيرة وينقلها من يد إلى أخرى . وقال :

ـ هاك الآن ! أنا لم أحصها كلها بعد . لقد حصيت الحجارة فى الأحقاق التى عليها صلبان ، أما الباقية فلم أحصها بعد .

ثم نظر إلى وجه ساليفنكو المتجهم وانفجر قائلا :

ـ لماذا تنظر إلى هكذا ؟ إنك تعلم الحال التى ستؤول إليها قرانا بعد العدوان الألمانى . لن تجد عيدان الثقاب ! لن يجد الناس ما يوقدون به النار إلا « الكاتيوشا » . هل تعى ما أقول ؟ إن حجراً واحدا من هذا الحجم لن يقل ثمنه عن خمسة روبلات .

فقال ساليفنكو وقد تملكه الاحساس بالاشمئزاز والدهشة :

ـ حسناً . إنك لست إلا أفاقاً !

ولم يرد بيشوجين على هذا الهجوم بهجوم من جانبه واكتفى بأن ضحك ضحكة رجل كبير من بلاهة طفل صغير .

وتكلم ساليفنكو بصوت حزين عاتب :

ـ إن الدنيا تحترق وتدمر أمامك ، والقبور تدق وتلفظ نزلاءها وأنت تفكر فى الحصول على خمسة روبلات من حجارة الولاعات . لقد حددت السعر من الآن ، أليس كذلك ؟ ربما فكرت فى تخفيض السعر عند البيع بالجملة ! أيها المبتز الجشع ! إغرب عن وجهى !

www.alkottob.com

وانتفض ساليفنكو واقفاً واختتم كلامه قائلا :

ـ جرب إن شئت أن تضارب فى السوق السوداء ! لقد سبق أن صنعنا كفئة من أناس يرتكبون مثل هذه الأعمال ، ونحن على استعداد لعمل ذلك مرة ومرات .

ارتجف بيشوجين ، وأمسك حقيبته القديمة بكلتا يديه وجرى إلى خارج الغرفة ، ولكنه توقف عند العتبة والتفت إلى ساليفنكو وسأل بهدوء :

ـ أنت لن تبلغ الكابتن ، أليس كذلك ؟

وأجاب ساليفنكو بعد لحظة صمت :

ـ انتظر لحظة . لماذا أتيت لتحدثنى عن هذه الحجارة ؟ هل كان فى ذهنك أن تقدم تقريراً إلى المنظم الحزبى ؟ أو أنك أردت أن تعرف أكنت على صواب أم أنك أخطأت ؟

قرد بيشوجين وهو يتحاشى الإجابة الصريحة :

ـ ربما .

وضحك ساليفنكو . واقترب من بيشوجين وقال :

ـ إنك ترتكب خطأ كبيرا يابيشوجين ! لقد صنعنا كل هذه المدفعية الجبارة وكل هذه الدبابات والطائرات ، وأعددنا كل هذا الجيش الضخم وزودنا رجاله بالعتاد والملابس والأحذية وزودنا الفلاحين فى الحقول بالجرارات الآلية ، وها نحن نبطش بالألمان الذين اغتصبوا كل أوروبا ، ها نحن على أبواب برلين ـ وبعد كل هذا أراك

تفكر فى عيدان الثقاب ! أم أنك تفكر فى اقتناء ثروة من هذه الحجارة؟ أيها الغبى الملعون ! ثم سرعان ما ترميها وتتخلص منها ! أما فيما يتعلق بى فهذا رأيى : لا يمكننى أن أريش عنى على حين حال الآخرين حولى سيئة. لم يكن ذلك باستطاعتى فى يوم من الأيام ، ولن يكون أبداً . أنا أعلم أن هناك من يستطيعون ذلك . وبإمكانك أن تحاول إن أردت . أما أنا ، فلا !

أحس بيشوجين بالأسى العميق بعد أن ترك ساليفنكو ، واختفت الابتسامة من فوق شفتيه . لقد جرحته كلمات ساليفنكو إلى درجة لم يكن يتصورها . وسعل بعصبية ثم تمتم فى سره قائلا :

ـ لقد أخطأت حين صارحته ! إن كلماته أثرت فى تأثيراً بالغاً .

وحين وصل إلى الفناء ناداه الكابتن من النافذة فتجمد فى مكانه هلعاً . ولكن تبين أن الكابتن لم يكن يعلم شيئاً عن غيابه . قال :

ـ لماذا لم تنظف بندقيتك ؟ إنها قذرة ولم تشحم .

ثم سكت الكابتن قليلا ، واستطرد بطلاقة غير معهودة ، وهو يخرج كلماته بجهد ظاهر :

ـ إن الجندى السوفيتى يجب أن يكون مثلا يحتذى به لأنه يمثل قوة وجيشاً تحريرياً عظيما . حسناً ، بإمكانك أن تنصرف يا بيشوجين .

تهد بيشوجين بارتياح ، وانصرف لينظف بندقيته .

وأطل تشوخوف من النافذة فرأى مارجريت .

www.alkottob.com

كانت تقف بين عدد من الجنود وهي تشرح شيئاً مستعينة بإشارات يديها وابتسامات عينيها المتألقتين. وإذ لاحظت أن تشوخوف يطل من النافذة ابتسمت له أيضاً. فهز تشوخوف رأسه محيياً وانصرف من عند النافذة.

كان شديد التحفظ معها، الأمر الذي أثار دهشتها. وكان الجند يحسون بالحرج من وجود زوجها (وقد أطلق عليه جوجوريدز اسم «الجبنة الهولندي»، سخرية منه)، ولكن الكابتن كان على علم بأنها غير متزوجة.

لم يكن تحفظ الضابط الروسي أمراً مفهوماً بالنسبة لهذه الفتاة التي لم تكن سوى مخلفة حرب، والتي ظلت إلى سنوات عديدة ذرة تراب في دوامة الاحتلال والحرب وحياة المعسكرات، والتي تعودت أن ترى كل الأمور بنظرة فضفاضة من الاستهتار والتحلل.

قالت لها صديقتها وحميمتها، المرأة الفرنسية ذات الأعوام الثلاثة والثلاثين مارجوت مليير:

— إن كل ما في المسألة هو أنك لم تعودي على الاحترام الإنساني. إن الأمر ببساطة هو أن هذا الكابتن المرح يحترمك. وأنت تعلمين أن الجنود هم الجنود، ولكن ها أنت ترين ظاهرة تدعو إلى مزيد من الدهشة — وهي أنهم يحترموننا.

وأضافت وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى:

— وهم يحترموننا أكثر من اللازم في بعض الأحيان!

وأياً كان الأمر، فقد أحست مارجريت بأن حياتها أصبحت ممتعة سعيدة. وعلى الرغم من أنهم بدأوا في عمل قوائم للمجموعات التي سترحل إلى بلادها، إلا أنها أحست في صميمها برغبة وأمل في أن تصاحب الكابتن إلى حيث يذهب، وأن يأخذها معه إلى بلاده المدهشة. وعلى الرغم من أن المناقشات كانت تدور بين الغرباء عن برامج السفر وقوائم المسافرين إلا أن العودة إلى الوطن بدت لها بعيدة، وبعد كل الآخرين. وبدأ التشيكي ميريك يعلمها اللغة الروسية، فأصبحت تعرف بضع كلمات منها، اعتزمت أن تفاجئ الكابتن بها في الوقت المناسب.

أي سعادة يشعر بها الغرباء حين يتنقلون ويجرون هنا وهناك في الأماكن التي كان عليهم أن يسيروا فيها بحذر وهدوء وخوف من أن يسمعهم السكان الألمان! أي سرور يحسون به حين يرون نظرات التقرب والزلفى في أعين المهاجرين الألمان الآتين من برلين إلى الريف وقد كانوا من قبل لا يعاملونهم إلا بالاحتقار والإهمال، وكأنهم أبناء أجناس منحطة متخلفة.

كان الجو يزداد دفئاً، ونسمة من نسمات الربيع تهب في شوارع القرية، وأصوات الناس، وضجيج الشارع الرئيسي، والأعلام البيض على منازل القرية — كل ذلك جعل القرية كلها وكأنها في فرح كبير، وبدا كأن الناس منتشون، فرحون مضطربون، شديدو

www.alkottob.com

الحساسية والحنان .

وفى المساء أخذت السماء تمطر ، وسرعان ما هطل المطر مدراراً كأفواه القرب . وجرت مارجريت — التى كانت جالسة تحيك بعض الثياب — خرجت تجرى إلى الشوارع ، وسقطت قطرات كبيرة من مطر الربيع الدافىء على وجهها .

وأحست مارجريت — لأول مرة منذ سنوات عدة — بأنها فتاة صغيرة . أخذت تعدو وتقفز هنا وهناك وهى تردد بصوت مرتفع الكلمات الروسية القليلة التى تعلمتها .

وتبادلت بضع كلمات روسية مع عدد من الروس فى الفناء ، وارتكبت بعض معاكسات صغيرة مع الجندى الداكن البشرة الذى تعود أن يحدجها دائماً بنظراته الجريئة ، ثم قفزت على الدرج صاعدة إلى « ضابطها » .

عثرت عليه فى غرفة المكتب التى كان يملكها ابن البارونة الذى هرب . وكان الكابتن يجلس وظهره إلى الباب ، وهو يقلب صفحات كتاب صغير . وقفت دقيقة دون حراك ، ثم سعلت بخجل ، فالتفت ناحية الباب ، ونهض واقفاً .

كانت الغرفة هادئة مريحة ، وعلى المنضدة مصباح كبير .

ابتسمت مارجريت . وابتسم تشوخوف أيضاً . وتشجعت ، واقتربت منه ، ثم — وبشكل مفاجىء غير متوقع — قبلته وقبلها قبلة

سريعة مشبعة برائحة المطر الحديث .

ودق جرس التليفون فى الغرفة المجاورة ، حيث كان هناك من يسهر على الحراسة . وظل يدق بإلحاح وبصوت مرتفع . وأفاق تشوخوف إلى نفسه بسرعة ودفعها برفق جانباً ، وخرج .

كانت المكالمة من فسيلشاكوف الذى أصدر أوامره بأن تستعد الفصيلة ، وتنزل إلى الطريق فى الحال ، وترسل عربة لأخذ الذخائر .

وضع تشوخوف سماعة التليفون وعاد إلى غرفته . كانت مارجريت تجلس بهدوء على حافة النافذة ، ومشى تشوخوف عبر الغرفة إلى حجرة الاستقبال ، ثم اجتاز عدداً من الحجرات الخالية إلى أن وصل إلى غرفة الحراسة التى كانت فيما مضى غرفة للنوم ، وأصدر التعليمات اللازمة للجاويش جودنوف .

ظلت مارجريت جالسة على حافة النافذة مبللة الشعر ، سعيدة ، تنظر إلى المطر المنهمر فى الظلمة المتجمعة .

تناول الجند بنادقهم ورشاشاتهم وتفحصوها بسرعة وخرجوا إلى الفناء ليقفوا فى الصفوف . وهنا ، وصلت إلى أسماعهم من جهة الشمال دمدمة المدافع البعيدة .

إن الحرب ما تزال دائرة الرحى وبيشوجين تحت شجرة قريبة يربط حالات إلى حقيبته ، وسيمجلاف يسرج جواد الكابتن . وبدأت السجائر تتوهج فى الظلام .

www.alkottob.com

ولحظ الجنود أن الأرونة واقفة تمد عنقها الرخو السمين ، وهى تنصت لأصوات المدافع البعيدة . وحين تنبهت إلى أنهم يراقبونها تحت جانباً واختفت بسرعة .

فتح الديدبان البوابات فصرت بصوت كالأنين . واندفعت عربة الذخيرة إلى قلب الظلمة .

وخرج العمال إلى الفناء متجمهرين وقد أزعجهم صوت المدافع والطريقة الصامتة التى كان الروس يتجمعون بها فى الفناء وهم — كما يبدو — يستعدون للرحيل .

صاح جودونوف بصوت يصم الآذان :

— فصيلة ، انتباه !

خرج تشوخوف من المنزل . كان يرتدى معطفاً عسكرياً ويتمنطق بحزام ميدان . وسحب سميجلاف الجواد إلى خارج الحظيرة .

قال جودونوف وهو يضرب كعبيه بعنف ويقف أمام الكابتن :

— يارفيق كابتن ، الفصيلة على استعداد ، وهى متجمعة بكامل هيئتها . ليس فيهم مريض أو متخلف . ذهب الجاويش جوجوريدز فى طلب الذخيرة كما أمرت .

استعرض تشوخوف الصفوف وهو يمر بينها بهدوء . وقصفت المدفعية البعيدة مرة ثانية . وقال :

— خذوا راحتكم .

ثم التفت إلى العمال الأجانب الواقفين عند البوابة وقال :

— راقبوا صاحبة الضيعة جيداً . وإذا أقدمت على أية فعلة فبإمكانكم تصفيتها كطبقة . هذا أمر مسموح به .

ثم أضاف :

— ليس هنا ما تخشونه . أنتم السادة هنا .

وسأل التشيكى وهو مضطرب : هل يمكن أن يسمح لهم بالرحيل مع الروس وأن تصرف لهم أسلحة . فأجاب تشوخوف باقتضاب :

— لا

وأصدر جودونوف أمره إلى بيشوجين :

— أسرج العربة

ولكن تشوخوف قال باختصار :

لا اتركها .

فصاح جودونوف وهو يخفى دهشته بالصياح الشديد :

— حاضر !

فى هذه اللحظة ظهرت مارجريت على العتبة واقتربت بهدوء من تشوخوف . لم يستطع أن يرى وجهها فى الظلام ، ولكن كيانها بأسره وثوبها الذى يرفرف فى مهب الريح ، وشعرها المشعث — كل ذلك كان يكشف عما تحس به من جزع .

www.alkottob.com

فقال لها بصوت مضطرب قليلا :

ـ لا تخافى سنعود ثانية .

وهمس لها التشيكى بترجمة هذه الكلمات فى الحال ، ولكنها بدت وكأنها لا تسمع شيئا ، ووقفت فى مكانها تمد يدها للكابتن .

شعر تشوخوف بمزيد من الارتباك ، وصاح بالأمر :

ـ إلى الأمام ، مارش !

اختفى الطابور الصغير خلال البوابات . وانهمرت الأمطار تضرب أرض الفناء المبلطة . وقف الباتجاويش ماسكا بعنان الفرس . وفجأة ، وعلى الرغم من الناس المتجمعين ، طارت مارجريت إلى تشوخوف وقبلته . وتعثرت على شفتيها الكلمة الروسية الغريبة التى أجهدت نفسها فى تذكرها

أحبك !

دهش الكابتن دهشة بالغة ، وارتد قليلا إلى الوراء ، ثم قفز بخفة على السرج ، وسرعان ما ابتلعته الظلمة ، ولكن وقع حوافر جواده على الأرض ظل يسمع لمدة طويلة فى هدأة الليل الشاملة .

١٢

فى ساعة متأخرة من المساء استقل الجنرال سيريدا سيارته ليلتق بالفرقة فى الطريق . كان يرغب فى رؤيتها بنفسه قبل المعركة كعادته أثناء المسيرة ، فتمتلىء نفسه بالغبطة حين يرى رجاله بشراً أحياء يمشون ويتكلمون ويدخنون الماخوركا ، لا مجرد دوائر حمر صغيرة أو سهام مرسومة على خريطة .

وكان يعتقد أن هذا العمل من جانبه مفيد له ولجنوده على السواء . وبدا له ـ وهو المحارب القديم المحنك أن نظام السير ، واحترام الأوامر الخاصة بتعاطى الخمر ، وسلوك الجند ، بل مجرد التعبيرات المرتسمة على وجوههم ـ بدت كلها أمورا على جانب كبير من الأهمية . كان يحس ـ من وقع خطوات الجند ـ بما ستكون عليه المعركة المقبلة ومدى استعداد الفرقة لها .

واعتاد الجنود أيضاً على الالتقاء بقائدهم أثناء المسيرة فى أى مكان بالطريق . كانوا يفاجأون به يجوس بين الصفوف ويتبادل النكت مع الجند ، وقد يؤنب أحدهم بقسوة . كانوا يحبون فيه بساطته وقامته المديدة ولحيته الأبوية ، ويحسون حبه لهم واهتمامه بهم . ربما ينسون كل شىء

www.alkottob.com

عنه بمجرد رحيله ، ولكن مكانته فى قلوبهم لاتتغير أبداً ، وثقتهم فى خبرته العسكرية لاتتزعزع .

لم تتوقع الفرقة رؤيته فى تلك الليلة المظلمة الممطرة . والحقيقة أن الجنرال تردد قليلا لانحراف ألم بصحته .

ولكنه قرر الذهاب فى اللحظات الأخيرة ، لأنه أحس بالقلق لإدراكه أن أمامهم معارك قاسية . كان يعرف أن الجنود والضباط اعتادوا على فكرة هزيمة الألمان فى الحرب ، وقد انقضت مدة طويلة منذ أن خاضوا آخر معاركهم الجدية مع الألمان ، وخشى أن يؤخذ الجنود على غرة فيفقدوا توازنهم .

وهز تاراس بتروفيتش رأسه بأسى وحدث نفسه قائلا :

— إن الأمريكيين هم الذين يحدون أمامهم الاحتفالات لا المعارك . فالألمان غير جادين فى قتالهم بالجبهة الغربية ، وفرق بأكملها تستسلم . وتسلم مفاتيح المدن ... ولن يمضى وقت طويل «حتى يجعلوا من إيزنهاور «نابليون» آخر !. لقد اتضح بجلاء من الذين يخشاهم هتلر أكثر من غيرهم ! حسناً ، على أية حال نحن على ثقة بأن قضيتنا عادلة ، ومادمنا واثقين من ذلك فسنقاتل !

أدرك الجنرال أن المعركة ستكون مريرة . وبرغم أنه لم يكن مسئولا إلا عن فرقة واحدة ، وأنه غير ملم بالحالة فى كل الجبهة إلا أنه تبين أنه من الأفضل للألمان أن يشنوا هجوماً من الشمال إلى الجنوب على خطوط

مواصلات السوفييت الممتدة على مسافات طويلة . ومن الواضح أن فرقته مكلفة مع غيرها من الفرق بمواجهة هذا الخطر .

أحس البعض فى مقر قيادة الفرقة بالأسى لإرسال الفرقة إلى الشمال وليس فى اتجاه برلين . أما الجنرال المحنك فقد تظاهر بأن الأمر لديه سيان : إن واجبهم هو أن يحاربوا ، ومن اختصاص الرؤساء وحدهم تحديد أين يحاربون !

فى تمام الساعة ٢٣,٠٠ استقل الجنرال سيارته وبصحبته اللفتنانت كولونيل سيزيخ .

ولحق به بلوتنيكوف بعد نصف ساعة ، وكان قد بعث برجال القسم السياسى إلى الكتائب ليزكوا روح الهجوم عند الجند . كان يعرف مخاوف الجنرال ، وكان هو نفسه يحس بالقلق .

أوقف قائد الفرقة ورئيس القسم السياسى سيارتيهما تحت شجرة عجوز عند ملتقى ثلاث طرق رئيسية ، ووقفا جنبا إلى جنب للمرة الألف أثناء الحرب .

سارت طوابير القوات الداكنة على الطريق المبتل المرصوف بالأسفلت وكان الضباط السائرون أو الراكبون على رأس وحداتهم يلتفتون خلفهم بانتباه حين يلمحون القائدين ويصيحون فى الجنود :

— شدوا ظهوركم يافتيان ، لقد جاء الجنرال !

www.alkottob.com

ويرفع الضابط أيديهم إلى جباههم بالتحية ويعلنون وهم يمرون بالجنرال :

« المجموعة الخامسة تمر ... »

« الفصيلة الثانية للرشاشات فى طريقها إلى المواقع المحددة ... »

« فصيلة المدفعية المضادة للدبابات ... »

وتبددت الأسماء والرتب فى ظلمة الليل وخرير المطر وضجيج السيارات ووقع أقدام الجند وضربات حوافر الخيل المختلطة .

أما قواد الكتائب فكانوا يقفزون من فوق جيادهم ويقدمون التقارير إلى الجنرال ويقفون معه إلى أن تمر وحداتهم ، وإلى جوارهم تقف جيادهم تقرض شكيمتها وتهز أعنتها التى يمسك بها جنود المراسلة . وبعد أن تمر الكتيبة يقفز قائدها فوق السرج الميلل ويختفى فى الظلمة ليلحق بها .

كان الجنرال يتكلم بصوت مرتفع وفى سرور واضح مخاطباً الضباط الذين يمرون أمامه فوق صهوات الخيل :

ـ حسناً ، كيف الحال ؟ هل كل شىء على مايرام ؟

ويتوجه إلى الجند أحياناً ويسألهم :

ـ هل تعبت أقدامكم من المشى ؟ كيف حال مدفعك الرشاش ؟ لماذا لاتغطون رشاشاتكم ؟ شد حزامك حول وسطك . تذكر أنك ذاهب إلى القتال لا إلى نزهة خلوية .

وإذ لاحظ الجنرال أن الظلمة والأمطار تشعان الكآبة فى صفوف الجند ـ قال :

ـ لماذا لاتدخنون ؟ نحن لم نعد فى عام ١٩٤١ وقت أن كنا مانزال نخشى الألمان . لقد تغير الزمن الآن .

وأشعل الجنود لفافاتهم بسرور ، وواصل الطابور مسيرته وقد تألق بوميض السجائر المشتعلة .

ومرت طوابير الفرقة الواحد بعد الآخر ، فتهلل وجه الجنرال وعاد إلى جانب الطريق حيث يقف بلوتنيكوف وسيزيخ ، وقال :

ـ إنهم من رجال ، أشداء محنكين . إنه جيش عظيم ! لاخوف من إغلاق القسم السياسى بافل بتروفيتش ! .. إنهم يدركون كل شىء بأنفسهم . إنهم يسيرون وكأنهم ذاهبون إلى عملهم اليومى . إنه جيش ستالين يارفيق العزيز !

وأخيراً مرت كتيبة المدفعية وهى ترعد . ووصل أنتوبنوك فى سيارة ملطخة بالأوحال ، بعد أن قام بزيارة فرق الخطوط الأمامية ليجمع المعلومات عن العدو ، فأمره الجنرال بأن يتبعه إلى القرية التى اتخذت مقراً للقيادة .

سرعان ما لحقت السيارات بطوابير الفرقة . ومرة ثانية رأى الجنرال وبلوتنيكوف لمحات من وجوه مألوفة تمر إلى جوارهم فى الظلام . منها شارب أسود لقناص مر عليهم من قبل . وماسورة مدفع رشاش غير معتدل على حمالته . وجواد أحد قواد الكتائب الأبيض . وقبعة شتر فيريكوف

www.alkottob.com

الكوبانية المصنوعة من القراء .

اعتزم بلوتنيكوف أن يرافق إحدى الكتائب الزاحفة ، ولكن الجنرال تخطى الفرقة وانحرف عن الطريق الرئيسى وسرعان مادخل القرية التى كانت كغيرها من القرى الألمانية مزينة بالأعلام البيض المنعكسة بأسى تحت وابل المطر المنهمر .

وعلى طول الطريق لافتات تحمل الحرف الأول من اسم قائد الفرقة (س) . ووقف الديدبان خارج المنزل المخصص للجنرال ، وأخذ رجال الإشارة يجرون الأسلاك ويحدثون ضجيجاً بأحذيتهم فوق الأرض المبتلة .

وفى داخل المنزل انهمك الملازم نيكولسكى واثنان من رجال الإشارات فى تركيب التليفون ووضع جهازه على منضدة . وانطلقت إشارات جهاز اللاسكى .

وأمر الجنرال الضابط أنتونيوك بتقديم تقريره ثم جلس إلى المنضدة دون أن يخلع الباباخا ، وأخذ ينصت باهتمام لقصف المدافع البعيدة .

وبينما أنتونيوك يخرج الخريطة من حافظته ، وجه الجنرال سؤالا إلى نيولسكى :

— بمن يمكن الاتصال بهذا التليفون ؟

أجاب نيكولسكى وهو يرفع يده بالتحية :

— ليس هناك اتصال تليفونى بالكتائب الآن ، لأنها ماتزال على الطريق .

فابتسم الجنرال وقال :

— أعلم ذلك ، ولكنى أريد أن أعرف بمن يتصل هذا التليفون .

— بمقر قيادة الفيلق ، وقيادة المؤخرة ، والأورطة الطبية .

وسمع جهاز اللاسلكى يقول :

— تم الاتصال بالكتائب .

وقال أنتونيوك إن الألمان ركزوا فى منطقة نوجارت وستارجارد وبحيرة مادوسى — ركزوا القوات الآتية : الفرقة البحرية الأولى ، ومجموعة الفرق « ديلبك » ، وفرق العاصفة « لانجمارك » و « نوردلاند » ووحدات غير معروفة من الدبابات . وكان الألمان يهاجمون بقوات كبيرة من الدبابات والمشاة .

أنهت الجنرال نتائج تقرير رجل الاستكشاف على الخريطة ، ودعا قادة الوحدات المضادة للدبابات وكتيبة المدفعية الأتوماتيكية الملحقة بها وسرعان ما اجتمعوا . وظل الجنرال يؤجل افتتاح الاجتماع انتظاراً لمجيء بلوتنيكوف الذى كان عنده الكثير ليدلى به إلى القواد . ولكن بلوتنيكوف لم يحضر على الرغم من مرور الوقت .

وأخيراً قرر الجنرال أن يبدأ الاجتماع بدونه . وحدد لرجال المدفعية مواقع إطلاق النار وأمرهم بأن يقوموا بالاستطلاع فى الصباح

www.alkottob.com

وفى هذه الأثناء كانت التقارير تصل باللاسلكى عن تقدم المسيرة . كانت إحدى الكتائب قد وصلت بالفعل إلى القطاع المخصص لها واقتربت الكتائب الأخرى من مواقعها .

واستأذن القواد ، ثم انصرفوا .

وصل بلوتنيكوف فى ساعة متأخرة من الليل ، شاحب الوجه ، شارد الفكر ، مهموم البال . وأمر الجميع بمغادرة الحجرة بمافيهم عامل اللاسلكى وجندى المراسلة ، وكان صوته حاداً على غير عادته . وبعد أن ترك وحده مع قائد الفرقة ، قال :

ـ إلبس معطفك ياتاراس بتروفيتش . سنذهب لنرى ماذا فعل جنودنا . ماكنت أتصور أن نعيش حتى نرى هذا ياتاراس بتروفيتش .

كان الجنرال يعرف بلوتنيكوف حق المعرفة ، فلم يتطرق إلى ذهنه الشك فى خطورة الأمر ، فلبس معطفه دون توجيه أى سؤال ، واستقلا السيارة .

أمر بلوتنيكوف سائق السيارة بالتوقف فى قرية تبعد عشرة كيلومترات عن مقر القيادة ، وهى قرية كبيرة فى وسطها بركة ماء يقف على حافتها عدد من الرجال يدخنون السجائر .

ألقى الرجال بسجائرهم فى البركة حين رأوا السيارة وتوجهوا للقاء الجنرال . كانوا هم ضباط المخابرات فى الفرقة .

وتبعهم الجنرال صامتاً .

فى منزل طويل من طابق واحد ، يرفرف فوقه علم أبيض ، عثروا على جثث أسرة ألمانية مكونة من ستة أشخاص . كانوا جميعاً مذبوحين بطريقة وحشية وإلى جوارهم قبعة من قبعات الجيش الأحمر فى بركة من الدماء .

وأدلى ضباط المخابرات بالبيانات التالية :

فى المساء دخل ثلاثة من الجنود السوفييت هذا المنزل الذى يملكه الفلاح هانز كروجر ، وكان الجنود سكارى يصخبون ويشتمون .

سأل الجنرال :

ـ ألم يكن هناك جنود غيرهم فى القرية ؟

لا . فى المنزل المجاور عسكرت جماعة من سلاح الإشارة وقد رأى قائدهم ـ الجاويش فلاديكين ـ رأى الجنود الثلاثة بنفسه ، واستاء من سلوكهم الشائن ، فذهب إلى المنزل وطالبهم بالهدوء .

ونام رجال الإشارة بعد أن تركوا ديدبانا منهم ساهراً . وفى منتصف الليل سمع الجندى إبراجيموف صرخات حادة وصياحاً يندفع من المنزل المجاور فأيقظ الجاويش فلاديكين . وعندما دخلا المنزل لم يكن الجنود الثلاثة هناك ، ووجدا هؤلاء الألمان قتلى .

كان البحث جاريا عن القتلة . أخطرت جميع الوحدات وبدأ تحقيق عاجل دقيق .

www.alkottob.com

قال بلوتنيكوف .

ـــ من يصدق هذا ؟ جنودنا ! يقتلون الأطفال ! ...

وأخذ يكرر ثانية

ـــ من يصدق هذا ! ...

وظل الجنرال صامتا حزيناً . ولم يتبادل القائدان كلمة واحدة أثناء العودة .

فى ساعة مبكرة من الصباح ـــ وكانت الكتائب قد بدأت العمل ـ تلقى الجنرال قبل ذهابه إلى مركز المراقبة برقية بالشفرة مذيلة بتوقيع سيزوكريلوف .

ألقى الجنرال نظرة على بلوتنيكوف وتناول الرسالة وهو على شيء من القلق .

ودهشا عندما اكتشفا أن الرسالة لاتحتوى على أى لوم ، بل كانت رسالة غريبة . كانت تتضمن سردا لقصة مقتل العائلة الألمانية وفيها تعليمات إلى قواد الفرق بتشديد الحراسة فى مناطق المؤخرة ، وألا يغيب عن ذهنهم أن هناك عددا من الهتلريين بجرى الحرب ، وغيرهم من الشخصيات المريبة يسيرون مختلطين بحشود اللاجئين التى تجوب الطرق فى مؤخرة قواتنا .

والحقيقة أن تاراس بتروفيتش لم يلحظ الصلة بين هذه التعليمات وبين مقتل العائلة الألمانية ، وإن كانت هذه الصلة موجودة بالفعل .

١٣

كان كوزاد وينكل يتجول مع جماعة من تلك الحشود التى لفت إليها سيزوكريلوف أنظار ضباط المخابرات وقادة الفرق .

كانوا مجموعة من العائلات الألمانية التى استوطنت على أراضى البولنديين المبعدين ومنازلهم ، وبعض أهالى بوميرانيا الذين انتزعتهم السلطات الهتلرية من منازلهم . كانوا يهيمون على وجوههم كأوراق فى مهب الريح ، لا يدرون أين يتوقفون أو ماذا يصنعون . كانوا يسيرون كالآلات الصماء وقد أودعوا كل ما بقى لهم من قوة فى حركات أرجلهم الرتيبة ، وكأن المشى هو كل ما يعنيهم فى الحياة .

كان بعضهم يتجه ناحية الغرب حيث لهم أقارب وأصدقاء فى مكان ما . وآخرون يفرون من وجه البولنديين العائدين إلى أرضهم التى كانت ملكاً لهم ولأجدادهم منذ القدم . وآخرون غيرهم يفرون لمجرد أنهم يرون الكل يفر ويخشون أن يتخلفوا فى هذه البقاع وحدهم . أما القليل فقد رحلوا لمجرد أنهم لم يتلقوا أمراً بالبقاء حيث هم .

وفى الطريق قابلوا جماعات أخرى من الألمان رحلوا بأمر من هتلر ثم لحقت بهم القوات الروسية فكروا عائدين إلى مواطنهم .

www.alkottob.com

إنه خليط مضطرب من مصائر مظلمة متباينة ، وآمال كاذبة مضيعة وندم لا ينفع — جاء بعد فوات الأوان .

واندس فى تلك العائلات — بين العجائز الطاعنين والأطفال الذين فقدوا آباءهم ، والآباء الذين فقدوا أبناءهم — اندس فيهم عدد وفير من الجنود الذين تخفوا فى ملابس مدنية . ولم يفعلوا ذلك لأنهم يريدون اختراق الخطوط الروسية والانضمام إلى القوات الألمانية وحمل السلاح ، فقد ألقوا به طائعين ، بل كان كل أملهم أن يكونوا على مقربة من بيوتهم عندما تنتهى الحرب .

كانت هذه الجماعات تسير متجهة ناحية الغرب ببطء تحت ستار الظلام ، متحاشية أن تلتقى بالوحدات الروسية أو بالمحررين من نير ألمانيا . وأحياناً تلتقى مجموعتان منهم فيتوقف الجميع عن السير وقد تملكهم الرعب ، ثم يدركون من خوفهم المشترك أنهم أمام جماعة من بنى جنسهم ، وحينئذ يتقاربون ويتبادلون الهمس :

« من أين أنتم ؟

« إلى أين تذهبون ؟ »

« هل الطريق مأمون ؟ »

« هل معكم طبيب ؟ »

« لماذا ؟ »

« لدينا طفل مريض »

« ستجدون مستشفى روسياً فى ولدنبرج ، اذهبوا به إلى هناك »

« إلى الروس ؟ »

« نعم ... فقد أخذت طفلى إليهم »

« وهل قاموا ... »

« نعم ... قاموا بعلاجه »

« الروس ؟ »

« نعم »

ثم تذهب كل جماعة فى طريقها ، ويمشى الناس فى صمت ، وقد أثقلتهم أفكارهم الحزينة . كانوا لا يتكلمون بصوت عال إلا بضع كلمات مقتضبة عند الضرورة ، عن الطريق والأحذية والطعام . ولكن رجلا عجوزاً ، طويل القامة ، كان يتمتم بين حين وآخر :

— إنه عقاب من عند الله ! ... الخطيئة ! ... سفك الدماء ! ...

كان وينكل يقصد مدينة لاندسبرج حيث مركز الاتصال الثانى فى منزل أرشده إليه بوهم . وكانت نقطة الاتصال الأولى فى شنيدموخ ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها لأنه وجد الروس يحاصرون المدينة .

لم تكن الرغبة فى مواصلة نشاطه كجاسوس هى الدافع لوينكل لكى يواصل مسيرته إلى لاندسبرج ، بل إن كل ما يريده — ببساطة — هو أن يلتقى بواحد من معارفه لينبئه ببعض الأخبار . أو ربما لأن

www.alkottob.com

الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا هدف ، وكان ذلك المنزل فى لاندسبرج يمثل هدفاً بالنسبة إليه .

لم يكن قد انقضى شهر منذ أن أعطاه الكولونيل بوهم عناوين مراكز الاتصال ، ولكن بدا لوينكل أنه قد انقضت سنوات — بل قرون — منذ ذلك التاريخ . لقد أصبح وينكل اليوم شخصاً آخر غير ذلك الشخص الذى كان يقف منذ شهر أمام رئيسه يؤدى التحية العسكرية .

لقد أصبح اليوم ، وهو فى طريقه إلى لاندسبرج ، يخشى أن يرغموه على القيام بمهمة أخرى .

لم يعد مستعداً للقيام بأية مهمة من أجلهم . فمهما كان الأمر ، لم يكن فى يوم من الأيام رعية ألمانية ، بل إنه مواطن من مدينة دانزج الحرة التى لها دستورها الخاص ووضعها الدولى المتميز . لم يعد وينكل يعترف باغتصاب ألمانيا لمدينة دانزج !

كم كانت الحياة هنيئة فى مدينته قبل أن يستولى النازى على السلطة ! كان وينكل موظفاً بالجمارك وقتذاك ، ولكنه لم يكن قانعاً بهذه الوظيفة . أما اليوم فإنه يتذكر بمزيد من التأثر والحب البطاقات الصفراء الملصقة على البالات والصناديق !

هكذا واصل وينكل مسيرته بين غيره من الألمان وقد وضع كل منهم شارة بيضاء على ذراعه إعلاناً لنواياه السلمية .

كانوا يسيرون حتى مطلع الفجر . وفى الصباح تتفرق الجماعة وتقيم كل أسرة منها تحت شجرة حيث يطهون ويأكلون ، ويتبادلون الحديث همساً . وقد يذهب الأطفال إلى القرية المجاورة ليعودوا ببعض الخبز والدهن والأغذية المحفوظة ، فقد كان الجنود الروس كرماء يعطون مما لديهم للأطفال عن طيب خاطر .

وكان الشيوخ يذهبون هم أيضاً إلى القرية ليستجدوا بعض الطباق ، ثم تراهم يسعلون ويشهقون وهم يدخنون المأخور كا الروسية النفاذة .

أما الآباء والفتيان فكانوا يجوسون خلال الغابة بحثاً عن « صيد » . و« الصيد » عندهم هو الخراف والأبقار التائهة فى الغابة ، فيمسكون بها ويطعنونها بالسكاكين ويسلخونها ، ثم يشوون اللحم فوق النار ، ويستثيرون الحسد الشديد من أولئك الذين لم يسعدهم الحظ بأى صيد ، ويتجول الشيوخ والأطفال فى أعقاب « الصيادين » ويلقون بأنفسهم فوق ما بقى من الجثة ، ويتخاطفون كل شىء — حتى العظام ، ويعدون فطورهم على بقايا النيران ، وهم يتبادلون الحديث بانفعال زائد .

كانت الرابطة الوحيدة التى تجمع بينهم هى السير معاً ، وفيما عدا ذلك كانوا أفراداً مشتتين . لم يتقاسموا الطعام فيما بينهم كجماعة مترابطة وكل واحد يفكر فى مستقبله هو فقط . ففى غمرة الكارثة التى حلت بالجميع لم يكن واحد منهم يجهد نفسه بالتفكير فى زميله .

www.alkottob.com

وقد يتجمعون فى المساء أيضاً ليناقشوا أنسب طريق يسلكونه . ثم يواصلون المسيرة . وكان فى الجماعة أمباشى سابق من مواليد لاندسبرج يعرف المنطقة المجاورة تمام المعرفة ، فتولى قيادة الجماعة .

واصلوا السير عبر الغابة كعادتهم فى الليالى السابقة ، فقد كانت الطرق مكتظة بالقوات الروسية . وأخطر من ذلك ، كانت تكتظ بجموع الغرباء المحررين الذين يخشاهم اللاجئون الألمان أكثر من خشيتهم الجنود الروس .

كان القمر يطل من وراء السحب . وأقدامهم تدوس بخفه على أوراق الصنوبر الإبرية الميلة . ومرت الجماعة بمصنع من مصانع القار ، وبورش مهجورة لنشر الأخشاب ، ومراكز للصيد ، ودوروا حول بحيرة كبيرة وفى الفجر وصلوا فجأة إلى حافة الغابة فلاحت أمام أبصارهم قرية كبيرة ترتفع فى ضاحيتها الجنوبية مداخن المصانع .

توقفوا . وظلوا يطلون من وراء الأشجار على القرية الخالية . ثم جلسوا فى الغابة تحت أشجار الشربين ، وأخذوا يجوسون فى الغابة ، وأكلوا ، وناموا ، وتهدوا ، وسعوا وراء الصيد . وفى المساء واصلوا السير .

وبينما كانت الجماعة تعبر الطريق الرئيسى جنوبى قرية فوجارتن سمع الألمان كلاماً وضحكا . كان بعض الناس يمضون الليل معسكرين تحت الأشجار على جانب الطريق - وكأنهم قبيلة من الغجر

وسمعوا صوتاً نسائياً مرحاً يسأل بالفرنسية :

- أى دولة تمر من هنا ؟

ولما لم تلق السائلة جواباً ، وهى امرأة فرنسية شابة تقف مستندة إلى شجرة وفى فمها سيجارة ، أخذت تدقق النظر فى معالم السائرين . وفجأة بصقت سيجارتها وقالت بالألمانية بلهجة اشمئزاز بالغة :

- أو .. وه ! . الرايخ الثالث .

ثم صاحت بعد دقيقة سكوت :

- هايل شيكلجروبر !

وأطلق أحدهم صفيراً يصم الآذان ، فاجتاز الألمان الطريق على عجل ، كما اجتازوا حقلا محروثاً وهم يستحثون الخطى ، ثم لاذوا بالغابة ، ومن وراءهم صوت جاد يطاردهم وهو يردد فى سخرية :

- هكذا قال زادشت .

وتمتم الرجل الطويل العجوز الذى يسير بجانب وينكل :

- إنه عقاب الله .

ترك وينكل الجماعة فى لاندسبرج وراح يبحث عن مركز الاتصال . وبعد شىء من العناء وجد المنزل ذا الطوابق الثلاثة الذى كان يبحث عنه . كان الظلام والصمت يلفان المنزل ، وترفرف فوقه على سارية طويلة قطعة كبيرة من القماش الأبيض .

فتح وينكل الباب الأمامى وأنصت . ثم صعد إلى الطابق الثانى . كان

www.alkottob.com

الظلام حالكا ، فأشعل عود ثقاب ورأى فى الحال لافتة بيضاء نظيفة كتب عليها :

كارل فرنر ، طبيب أسنان .

ضغط وينكل على جرس الباب فوجده معطلا ، فأخذ يدق الباب بيده ، ولكن أحداً لم يرد . فدفع الباب ، ودخل . وأشعل عوداً آخر من الثقاب . كان كل شيء فى الشقة مقلوباً رأساً على عقب . وتبعثرت على الأرض قطع الأثاث والأوانى المهشمة . ومن كرسى طبيب الأسنان يلمع بريق النيكل .

فتح وينكل باب الغرفة المجاورة قليلا ، ثم ارتد إلى الوراء مذعوراً فقد رأى شيئاً — كبيراً صامتاً — يتحرك داخل الغرفة . وبعد دقيقة من الانتظار الرهيب اعتزم وينكل أن يعاود النظر إلى داخل الغرفة .

وبيد مرتجفة أشعل عود ثقاب آخر

فى ركن الغرفة القصى رأى وينكل كلباً ضخماً من نوع سان برنار يرقد على الأرض . وتململ الكلب . ولكنه لم ينهض . كان يتنفس بصعوبة . كان الكلب العجوز يحتضر .

غادر وينكل الغرفة مسرعاً ، وأغلق الباب خلفه ، وخرج من الشقة ثم هبط الدرج . وإذ كان يهم بمغادرة المنزل إلى غير رجعة سمع فجأة صوت امرأة ينبعث من الظلام

— هل تبحث عن الهر فرنر ؟

— نعم .

— هل أنت أحد أقاربه ؟

— أنا قريب لزوجته .

— هل اسمك كارل فيشر ؟

— لا .

— هل جئت من سيبريا ؟

لا .

وبعد أن سألته المرأة هذه الأسئلة أشعلت عود ثقاب وظلت تنظر إليه حتى احترق العود ، ثم قالت :

— ادخل .

دخل وينكل الشقة المقابلة لشقة فرنر وقدمت له المرأة العجوز ذات الشعر الأشيب الأشعث ، كرسياً ، وتوارت خلف ستار حيث أخذت تعد شيئاً ما على ضوء مصباح الغاز .

وسألته من وراء الستار :

— إذن فأنت أحد أقارب السيدة هيلد فرنر ؟

وواصلت كلامها دون أن تنتظر الجواب :

— إذا قابلت السيدة هيلد بلانها تحيات السيدة كلينرنج . إنها تعرفنى فقد كنا جيراناً . فليبارك الله روحى ، إخبرها أن الهر فرنر قد رحل يوم الجمعة ، قبل وصول الروس بيوم واحد . لقد رحل فى الليل . إخبرها

www.alkottob.com

أيضاً أنه أراد أن يعهد بالشقة إلى ، ولكن عندى مايكفينى من المتاعب . لقد رفضت طلبه فى الحال . بلغها ذلك ، نعم ، فى الحال . فإذا عادت يوماً ما ووجدت بعض ممتلكاتها عند السيدتين مولروسيلفيتر فى الطابق الأول أو رأت جواربها على ساق السيدة لينز المكتئرتين فى الطابق الثالث فلا لوم على ... ليس هناك مايلزمنى بأن أرعى ممتلكات غيرى فى مثل هذه الأوقات . هذا كل ما أريد قوله للسيدة هيلد . إن آخر ما أعرفه عنها هو أنها رحلت إلى ستيتن ...

وخرجت العجوز من وراء الستار والمصباح فى يدها فوضعته على منضده وأخذت تمسح بعض الأطباق بمنشفة كانت تحملها ، ثم سألت :

ـ إلى أين تقصد ؟

فأجاب وينكل :

ـ لست أدرى .

فحكت المرأة الأطباق بعنف ، وقالت وقد تملكها الغضب فجأة :

ـ أنت لاتدرى ؟ لقد أثرتم العالم كله ضدنا ، ودمرتم كل شىء ، ثم « لست أدرى » ! يالإلهى . انظر ماذا صنعوا ! لقد سحقت الحرب الشباب ، ودمرت المدائن ... ! لو أننى صادفت أحد رؤسائك لسلته للروس فى الحال ! . ولن تأخذنى به شفقة مهما بدا تعساً بائساً .

واختتمت كلامها بنظرة حادة ألقتها على وينكل . وتمتم وينكل :

ـ أنا لست نازياً .

فقلبت العجوز شفتيها بازدراء وقالت :

ـ لم يعد أحد نازيا اليوم ! حتى الهر فرنر قبل فراره جاء إلى ليحدثنى بخصوص شقته وقال هو الآخر : « أنا لست نازياً » ... لقد تنصل من نازيته حتى قبل وصول الروس إلى البلدة . قال لى : « لقد أجبرونى على ذلك » . قال ذلك ولم يكن قد وصل جندى روسى واحد إلى البلدة ، وكان يريد أن يعهد إلى بكلبته أيضاً . صحيح أن الكلبة لم تكن نازية فى يوم من الأيام ولكن ليس عندى طعام لها .

بدأت الظلمة تتبدد . وتسلل نور الفجر من خلال ستارة الإظلام المصنوعة من الورق ، فأطفأت المرأة المصباح ورفعت الستارة وأطل على الغرفة ـ من خلال النافذة ـ صباح ممطر كئيب .

قال وينكل :

ـ هل تسمحين لى بالنوم فى شقتك حتى المساء ياسيدة كليندنج ؟ . وفى المساء سأرحل .

وزمجرت العجوز بعنف :

ـ تنام ... تنام ! ياليتنى أنام إلى الأبد فلا أرى كل هذا .

وفتحت باب الغرفة الثانية بحركة عصبية ، وقالت :

www.alkottob.com

ـ بإمكانك أن تنام هنا بشرط ألا تنام على السرير ، ربما لم تستحم طول الطريق ـ من ستالينجراد إلى هنا .

رقد وينكل على الأرض . وعلى الرغم من الإجهاد الشديد لم ينم إلا بعد فترة طويلة . ولم تفارق مخيلته صورة العجوز وهى فى طريقها إلى القائد الروسى لتسليمه .

١٤

غادر وينكل شقة السيدة كليردنج فى المساء ، وخرج إلى الشارع . كانت القوات الروسية تخترق البلدة ، والسماء تمطر مدراراً ولكن الهواء دافىء تفوح منه روائح الربيع . ومشى وينكل ببطء مستتراً بالمنازل .

وسرعان ما وجد نفسه خارج البلدة . ووصلت إلى أسماعه من كل مكان على اليمين وعلى اليسار أصوات قرقعة المصفحات ، ووقع الأقدام غير المنتظم .

فأسرع وينكل للاختباء فى غابة قريبة . وتمهل عندما وصل إلى الأشجار . وسمع أصواتاً خافتة تنبعث من خندق : لو أنهم يهمسون لكانوا من الألمان . وقد كانوا فعلا جماعة من الألمان والألمانيات يستريحون هناك . توقفوا جميعاً عن الكلام عندما سمعوا وقع أقدام وينكل . وعرفوا من الشارة البيضاء على كمه ، ومن تصرفاته الحذرة الوجلة ، عرفوا أنه ألمانى هو الآخر . وبعد أن علموا أنه آت من لاندسبرج أمطروه بوابل من الأسئلة عما يدور فى البلدة . هل قابل جماعات من الأجانب ؟ هل أصيبت البلدة بتدمير بالغ ؟

www.alkottob.com

وبعد أن أجاب وينكل على أسئلتهم أخذ يسألهم بدوره : هل فيهم من سيتجه إلى كونجسبرج فى نيومارك ؟ لا ، ولكن بعضهم كان متجهاً إلى سولدين وبادشونفليس ، وكلا البلدتين على الطريق المؤدى إلى كونجسبرج . وسأل وينكل :

ـ هل تبعد كونجسبرج كثيراً عن هنا ؟

ـ سبعون كيلومتراً .

ـ هل وصل الروس إلى هناك ، أم ..

ـ نعم ، إن الروس فى كل مكان ...

ـ وهل يبعد رجالنا كثيراً عن هنا ؟

ـ رجالنا ؟

ـ الجيش ؟

ـ نعم ، رجالنا ، الجيش .

ـ بعيداً جداً ...

ـ بعيداً جداً جداً ...

وانضم وينكل إلى السائرين فى اتجاهه نفسه .

كانت مع الجماعة امرأة لم تكف عن البكاء طول الطريق . كانت تسير خلف الجماعة وهى تئن فى صمت .

وظل السائرون يجرون أقدامهم حتى الصباح كالعادة .

وعند الفجر تفرقوا فى المنطقة ، وأكلوا ، ثم ناموا .

أخرج وينكل من جيبه كسرة خبز ، وأخذ يقضمها وهو جالس تحت شجرة . كان الجو رطباً ولكنه دافىء . وجلس تحت الشجرة المجاورة ألمانى آخر يمضغ شيئاً . وبدأت الظلمة تتبدد رويداً رويداً . ونام وينكل ثم استيقظ ، وعاد إلى النوم ، ثم استيقظ من جديد .

كان الألمانى الآخر ما يزال نائماً تحت الشجرة المجاورة .

جاست عينا وينكل بلا هدف فى الغابة ، فوق الممرات الممهدة وعلى الأشجار التى تفوح منها رائحة صمغية نفاذة . وأخيراً أطال النظر إلى جاره النائم ، فبدا وجهه الطويل الأجرد الملىء بالبثور — مألوفاً له .

كان النائم يرتدى معطفاً بالياً قذراً وقد أمسك بعصا ذات مقبض عظمى ، ويده الأخرى تتشبث بحرابه ، وفى قدميه حذاء قديم ممزق .

عرفه وينكل . وندت عنه صيحة دهشة وفرح : « هيس ! »

زحف وينكل إليه ، وتأمله ملياً ، وصاح وكله ثقة :

ـ هيس !

استيقظ هيس ونظر إلى وينكل وقد تملكه الرعب ، ولكنه لم يعرفه فى البداية . وابتسم وينكل لأول مرة منذ خمسة أسابيع . وقال :

ـ هيس . هالو هيس ! أنا يا هيس ! ... أنا وينكل !

شهق هيس شهقة قوية ، تعانقا ، وجلسا جنباً إلى جنب . وسرد

www.alkottob.com

وينكل بسرعة كل ما صادفه من متاعب . تحدث بصراحة تامة — لاكا يتحدث مع هان . وختم كلامه قائلا :

— لقد ذهب كل شيء إلى الجحيم . هذه هي الحقيقة . إنها النهاية . لم يعد أمامك اليوم إلا الإفلات بجلدك .

قال هيس وهو يتلفت حوله :

— شش ! اسكت !

فقال وينكل :

— ما الذي تخشاه ؟

وأضاف بصوت أهدأ :

— ليذهب الجميع إلى الجحيم .

وكرر هيس :

— اسكت ! اخرس !

واقترب من وينكل ثم همس :

— يستحسن أن تحتفظ بمثل هذه الآراء لنفسك ، وإلا ... من أين جئت ؟

— من لاتسبرج . حاولت رؤية فرز .

— لقد رحل منذ مدة طويلة .

— هذا ما قالوه لي . وأنت ؟

فابتسم هيس ابتسامة شاحبة وقال :

— أنا ما زلت في خدمة الوطن ... لدينا قائد جديد هنا . ربما سمعت عنه ؟

وزاد صوته انخفاضاً وأضاف :

— فريتز بورك من فرقة العاصفة .

وصمت لحظة ، ثم راح يقص كل ما صادفه خلال الشهر الماضي :

— لقد أمضيت يومين فقط في جنزنو . ولم أفلت بجلدي إلا بصعوبة فقد وشى بي أحد الجيران ، وهو ألماني الأصل ، إلى القيادة السوفييتية وفي الطريق تظاهرت بأني تشيكي من مواليد السوديت ... إلى درجة أنني انضممت إلى جماعة من التشيكيين وأردت أن أواصل السير معهم ولكن حدث أن شربت يوماً حتى سكرت وهذيت بما لا أعرف ، ولم أتمكن من الإفلات هذه المرة أيضاً إلا بأعجوبة . وفي برتشتين أمسك بي هذا القائد بروك . وها أنا اليوم أجري هنا وهناك كالكلب أجمع المعلومات عن الروس وأقدمها إلى رئيسي .. هذا هو حالي الآن ! ..

وتلفت حواليه ، ثم همس في أذن وينكل :

— إن بروك هذا نوع مخيف من الرجال .. إنه سفاح .. إحذر ! لا تفصح عن موقفك بحرف واحد .

فقال وينكل :

— ولكننا سنرحل . إننا من ضباط القوات المسلحة ولسنا من رجال فرقة العاصفة .

www.alkottob.com

وهز هيس رأسه قائلا :

ـ هذا الرجل بورك ، هل تدرى ؟ . . إنه يقول إننا سنصطلح مع الإنجليز والأمريكيين قريباً ثم نلقى بكل قوانا لضرب الروس . . . إنهم يعلقون أملا كبيراً على ذلك فى برلين .

وصمتا قليلا ، ثم سأل وينكل :

ـ وأين كرافت ؟

فأشاح هيس بيده وقال :

ـ كرافت ؟ . . لقد أطلق الرصاص على نفسه فى بوزنان .

وعادا إلى الصمت ثانية . ثم سأل هيس :

ـ هل معك بعض الطباق ؟

ـ لا .

قال هيس ـ متحدثاً عن كرافت :

ـ لقد أصاب بما فعل . كنت أريد أن أحذو حذوه ، ولكن ليست لدى الجرأة الكافية .

وتأمل هيس وينكل ملياً . وقال :

ـ ما كنت لأعرفك ، فقد تغيرت كثيراً ، ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ لست أدرى .

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ إلى كونجسبرج فى نيومارك للبحث عن أحد مراكز الاتصال .

ـ إن مراكز الاتصال القديمة قد اختفت ، لأن المخابرات الروسية قبضت على كثير من زملائنا .

ـ ماذا يجب أن نعمل ؟

ـ هل عندك مانع من المجىء معى إلى سولدن ؟

ـ إلى هذا الرجل بورك ؟

ـ وهل ثمة مكان آخر نذهب إليه ؟

وفى المساء تجمع الألمان من جديد وواصلوا السير . وتبع وينكل زميله هيس مستسلماً .

وصل وينكل وهيس بلدة سولدن قرب الفجر ، وقاد هيس زميله وينكل إلى ضواحى البلدة الغربية عبر الأفنية للمنازل . واجتازا حوائط وأسوارا منخفضة . ووجدا نفسيهما أخيرا فى طريق جانبى حال تهدمت منازله جميعها .

تلفت هيس حوله ، ثم تسلل من نافذة بدروم أحد المنازل . وتبعه وينكل صامتاً . وفى البدروم عبرا بابا ثم آخر إلى أن وصلا إلى ممر طويل رطب تفوح منه رائحة الطحالب والفئران .

وسارا مسافة طويلة ، وأخيراً وصلا إلى غرفة مربعة تفوح من محتوياتها كلها رائحة النبيذ النفاذة . وتكومت البراميل الكبيرة فى كل مكان . وعلى أحد هذه البراميل وضع مصباح مشتعل ، وكان على الأرض

www.alkottob.com

رجلان يرقدان على بعض القش ، وثالث يصلح شريط مصباح الغاز وسأل الأخير هيس بصوت هامس عن أمر ما ، فأجاب هيس مطمئناً :

— نعم ، نعم .

واصلا السير . واجتازا ممراً ثانياً مظلما رطبا . وفتحا باباً حديدياً كبيراً ودخلا قبوا آخر للنبيذ مكتظاً بالبراميل . كان المكان مضيئاً بمصباح كهربائى صغير يمتد سلكه من فوق البراميل ويتدلى داخل برميل ضخم ويصب ضوءه فوق رءوس الجالسين حول المنضدة .

ترك هيس زميله وينكل عند الباب وتوجه إلى المنضدة التى تفرع فوقها الكؤوس ، ومال على أحد الجالسين وهمس ببضع كلمات .

كان الرجل الذى تحدث إليه هيس ضئيل الجسم نحيل العود ، ذا وجه حاد كوجه الفأر . وقال الرجل بصوت مرتفع :

— وينكل اتعال هنا !

تقدم وينكل فرأى إل المائدة رجلا آخر يغالب النوم وقد أسند رأسه فوق يديه . وبرز من بين الأكواب رأس ضخم أشعث تتوسطه صلعة مستديرة .

قال الرجل ذو الوجه الشبيه بوجه الفأر :

— إجلس .

فجلس وينكل .

وسأل الرجل ذو الصلعة المستديرة فجأة :

— ضابط آخر من الجيش ؟

— نعم .

وقدم وينكل نفسه قائلا :

— الملازم كونراد وينكل .

واستند الرأس على المائدة لحظة ثم ارتفع وحملقت عينان نفاذتان صغيرتان فى وجه وينكل . كان الرأس مزروعا بين كتفين مكتنزتين عريضتين ، كادت الرقبة تختفى بينهما .

نظر الرجل إلى وينكل مليا ، ثم انفجر فجأة فى قهقهة عالية وصاح :

آخ ! ... انظر إليه يا مكس ! ياله من منظر ! من أين حصلت على هذا المنديل . أظن أنه منديل حريمى . إنه منديل حريمى ! هو — هو — هو ! إجلس إلى المائدة ياسيدة وينكل وكلى واشربى وأذهبى لتنامى ، هو — هو — هو ! ...

وماتت الدعابة فجأة كما انطلقت فجأة .

وقال باكتئاب : « إجلس » (وذلك على الرغم من أن وينكل كان قد جلس بالفعل) واستطرد :

ـ ماذا ؟ هل تشعر بالتعب ؟

وأجاب على نفسه :

ـ لابد أنك تشعر بالتعب ، أليس كذلك ؟

www.alkottob.com

وقال بعد قليل من الصمت :

— سوف تعرف بعضنا . أنا فريتز بورك . هل سمعت هذا الإسم من قبل ؟ وهذا مساعدى ماكس ديرنج . . . سيكون له شأن كبير إن لم يقتله الروس ، هو — هو — هو ! حسناً ياوينكل ، ماذا تنوى أن تفعل ؟

وتمتم وينكل ببضع كلمات عن ضرورة تقديمه تقريراً إلى القيادة .

وتكلف بورك الابتسام ، وقال :

— قيادة ! أية قيادة ؟ سوف تكون تحت قيادتى . . . أوربما لايناسبك كضابط فى الجيش أن تكون تحت قيادة أحد ضباط فرقة العاصفة ، إن كليهما يعملان معاً ، ولكن فرقة العاصفة أولا ، إيه ؟ ربما يكون الجيش أنسب لك ؟ فهناك سادة من أمثال فون فيتسلبن أو بيك ، إن كنت مازلت تذكرهما . اسمع ، إن هاتين اليدين . .

(ووضع على المائدة يدين ضخمتين يغطيهما شعر كثيف وتزين أصابعهما خواتم ذهبية) .

— إن هاتين اليدين انتزعتا بنيتو موسولينى من الإنجليز تحت سمعهم وبصرهم . هل تفهم ؟ إنه فريتز بورك الذى يتولى قيادتك ! لقد كنت قاتلا فى باريس مع ستولنباجل ، وفى روسيا مع كوخ . وقد عملت مع ستراسر وروهم أيضاً ، إن كنت تذكرهم . . . إشرب ! ما الذى تنتظر ؟ هنا نبيذ يكفينا إلى يوم النصر !

شرب وينكل كوباً من النبيذ وأخذ رأسه يدور ، ونظر بفزع إلى رجل العاصفة بعينين خفيضتين . وملأ له الرجل كوباً أخرى عبها ، فقد كانت به رغبة شديدة للشرب حتى الثمالة .

قال بورك بعد لحظة صمت :

— لاتخش شيئاً ، لن يصيبك الأذى طالما أنت تعمل معى . إن مدام ريجو ، قارئة البخت الباريسية قالت لى إننى لن أموت إلا جنرالا . وأمامى وقت طويل لكى أصل إلى رتبة جنرال . . . ولقد جئت اليوم لأعمل فى مؤخرة الروس كما يقولون ! تصور ! فى مؤخرة الروس على أرض ألمانية ! لم أكن أتصور أن هذا سيحدث يوماً .. وماذا أرى ؟ أرى الألمان يبولون فى سراويلهم ، هذا ما أراه . . فأين توجد القوى السليمة فى الأمة الألمانية ؟ أنا لا أراها ... إننا نعمل وكأننا على أرض معادية . وها نحن فى ذعر دائم من أن يشى بنا أحد أبناء بروسيا ويسلمنا إلى العدو ...

واحمرت مقلتاه فجأة ، وامتلأتا بالحقد والكراهية ، واستطرد :

— وفى هذه المرحلة يرسلوننى للعمل فى المؤخرة . إنها مهمة دموية . من فضلك يافريتز بورك ! ... إنها مهمة تتمشى مع ميادئك ، إننا نؤمن بمقدراتك يافريتز إننا سنجعلها حربا يافريتز بورك ! من أجل العمل القذر المبنى على فكرة الاشتراكية الوطنية . إنه ليس من المخنثين أو الدبلوماسيين أو الخطباء ولكنه رجل يعمل بيديه . سأقتلهم جميعاً ! ... وأنت ياوينكل ، سأقتلك أنت أيضاً .

www.alkottob.com

وتوقف فجأة ، ثم واصل :

ـ أنا لست من النقابات ، كما أنى لست ضابطا بولنديا فى الجيش النظامى ! سأنزع أذرعكم وأضع أعواد الثقاب مكانها ، فهمت ؟ ... اخلع هذا المنديل ياشرج الحصان ! أسرع ! احلقوا له واملأوه بفكرة الاشتراكية الوطنية حتى يختنق ! ... إشرب ياوينكل !

نزع وينكل المنديل بسرعة من على رأسه وعب كوبا أخرى من النبيذ وبلغ به السكر مداه . وشعر بأنه أخذ يتعلق ببورك ..

وتمتم وهو يكاد يبكى من فرط التأثر الذى ينتاب السكارى :

ـ إنه رجل بكل معنى الكلمة ! رجل ح . ح .. حاسم ! رجل ح .. ح ... حقيق !

ونظر فى عينى رجل العاصفة المتحجرتين بإخلاص عبد ذليل تابع .

وبدا كل شىء حوله وكأنه يسبح فى ضباب كثيف . واختفى ديرنج قليلا ثم عاد ثانية وهمس ببضع كلمات فى أذن بورك ، فنهض وسار بخطوات غير متزنة إلى مدخل القبو .

همس هيس فى أذن وينكل :

ـ هذا هو معدن الرجل ! ...

وتمتم وينكل :

ـ ع ... ع ... عظيم ! ر ... ر ... رائع ! سنقتلهم جميعا ! ...

وفجأة رأى وينكل رؤيا مخيفة . رأى جنديا روسيا يقبل ناحيته

من باب القبو المفتوح ! فحفل وهز رأسه وهو لايصدق عينيه ، ولكن الرؤيا لم تختف ، ففقز من فوق مقعده وأخذ يتقهقر إلى البراميل . وحملق الرجل الذى يرتدى البدلة العسكرية الروسية فى وجه وينكل وسار إلى المنضدة وشرب كوبا من النبيذ ، وقال بلغة ألمانية سليمة :

ـ سأذهب إلى الفراش ياسيادة الرئيس . لقد حان وقت راحتى .

واختفى بسرعة من خلال باب صغير لم يلحظه وينكل من قبل .

وتمتم وينكل :

ـ ما هذا ؟

فأجاب بورك بهدوء :

ـ إخرس ! خذ هذا المخمور إلى الفراش !

أمسك هيس بوينكل المترنح وسحبه إلى خارج الغرفة ، وبعد مجهود تمكن من إرقاده على كومة قش فى أحد أركان القبو . وتمتم وينكل :

ـ ر . . ر . . . رجل حقيق !

www.alkottob.com

١٥

هل كان وينكل يحلم ، أم أنه رأى بالفعل جنديا روسيا فى هذا الوكر من أوكار جواسيس فرقة العاصفة ؟

عندما استيقظ وينكل فى الصباح كان أميل إلى الاعتقاد بأن الأمر كان حلما . كان رأسه مكسرا من تأثير الخمر ، ولم يستطع أن يميز — وهو مستلق فوق القش — بين الحقيقة والأحلام من أحداث الليلة السابقة .

كانت البراميل الضخمة تقف محيطة به ومن خلفها يتسرب ضوء المصباح الضعيف المتراقص .

من الواضح أن التقاءه بزميله هيس وحديثه مع بورك كانا حدثين حقيقيين . وأحس وينكل الآن ، وبعد أن أفاق ، بأنه أقل حماساً لرجل العاصفة من الليلة المنصرمة . ودارت بذهنه الأفكار : هل كتب لى أن أعاود هذا العمل من جديد ؟ ولو تمكن الروس من القبض على مع بروك فإن الأمر لن يقتصر على وضعى فى أحد معسكرات أسرى الحرب ! . . .

ووصلت إلى سمعه أصوات خافتة من خلف البراميل :

— هناك معركة دائرة الرحى فى الشمال .

— نعم ، بإمكانك أن تسمع هدير المدافع .

— لقد ألقت قواتنا بعدد كبير من الدبابات .

وسأل أحدهم همساً :

— هل رأيت ... بيتر ؟

فقاطعه آخر :

— شش .

ثم أخذوا يتهامسون بصوت خفيض إلى درجة أن وينكل لم يستطع أن يلتقط سوى بضع كلمات متفرقة واسم بيتر الذى يتردد كثيراً . وعلى أية حال ، فلم يكن وينكل مهتما بتتبع حديثهم . كان رأسه يوشك على الانفجار ، ورائحة النبيذ الخام تملأ خياشيمه .

وسمع وقع أقدام مقبلة خلف البراميل ، وتردد صوت هيس :

— وينكل ، أين أنت ؟

ظهر هيس بين البراميل وقد تأهب للرحيل ، وعلق فوق ظهره جراباً كبيراً ، وحاك فوق معطفه عدداً من الرقع المتباينة الألوان .

قال وهو يشير إلى الرقع :

— سأكون اليوم تشيكياً .

وسار وينكل مع هيس حتى نهاية الممر وسأله :

— ماذا تظننى سأعمل ؟

— ستقوم ببعض أعمال الاستكشاف مثلى . حسناً ، لقد كان منظرك رائعاً بالأمس .

www.alkottob.com

— لم أعد أحتمل شرب النبيذ الآن .

وبعد صمت قصير سأل وينكل :

— ما الذى حدث بالأمس ؟ هل كنت أحلم ، أم . ؟

فقاطعه هيس على الفور:

— حسناً ، لا تسأل عن شيء فأنا مثلك لا أعرف . مهمة قذرة . مهمة خاصة من برلين ... إلى اللقاء .

ووقفا معاً مدة أطول وهما لا يرغبان فى الفراق . فهما صديقان قديمان منذ تلك الأيام الرائعة ، أوائل تبدو رائعة بالنسبة لحالها الآن ، وقت أن كانا يعملان معاً فى مقر القيادة وكان الجيش عندهم الفستولا ، وقت أن كان مايزال للحياة معنى

عاد وينكل إلى القبو ، وسرعان ماستدعاه ديرنج إلى المائدة ، وعهد إليه بمهمة بسيطة كبداية . كان عليه أن يمشى خمسة عشر كيلو متراً إلى محطة « ليبين » مع شخص يدعى هينز ليزور أحد عمال السكة الحديد هناك ، وأن يعى كل ما يخبره به هذا العامل ويرجع حاملا هذه المعلومات .

قال ديرنج .

— ستذهب فى المساء ، وتذكر أنه يجب أن تنهض بالمهمة بكل دقة وتعود فى الصباح . لقد كلفنى الرئيس بأن أحذرك من التفكير فى الاختفاء ... إن لنا عيوناً وآذاناً فى كل مكان ، تذكر هذا جيداً .

وفى المساء غادر وينكل القبو .

تبين وينكل أن هينز ليس إلا شاباً صغيراً لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يذهب إلى الجبهة أيضاً ، إذ تمكن أبوه من إنقاذه من الخدمة العسكرية مستغلا صداقته القديمة بيوليوس ستريخر .

كان هينز يعمل إلى عهد قريب فى أحد منظمات « شباب الفوهرر » فى منطقة بمقاطعة هانوفر . وعندما تم تشكيل كتيبة الفولكستورم ، برز فيها بما يلقيه من خطب وطنية . وفى صبيحة يوم رائع نقل للعمل هنا فى مهمة سرية خاصة . وتم ذلك دون سابق إنذار إلى درجة أنه لم يجد الوقت الكافى لإبلاغ والده . وحدث ذلك قبل مجىء الروس بأسبوع واحد .

أرسل هينز فى صحبة بورك ، وكان يعتبر من أهم الرجال الذين يعتمد عليهم ومع ذلك لم يكن راضياً عن عمله : فقد كانت المهمة محفوفة بالمخاطر من ناحية ، ومن ناحية أخرى — وهذا هو الأهم — كان عملا لا هدف له فى الواقع . وقد صارح وينكل بهذا . حقيقة أنهم كانوا يجمعون معلومات هامة عن تجمعات القوات الروسية وتحركاتها ، ولكن عندما يستدعون الطائرات الألمانية لتضرب الأهداف لم تكن الطائرات تستجيب أبداً . وهم بحاجة إلى الديناميت أيضاً ، ولكن الديناميت غير موجود . إنهم لا يستطيعون إمدادنا حتى بالطباق ... إننا نكاد لا نذكر آخر مرة ذقنا فيها طعم التدخين ... وبصفة عامة قامت برلين بإحداث

www.alkottob.com

ارتباك عام فى كل الأمور ! . .

وتحدث هيز عن بورك باحترام ممزوج بالخوف . قال :

ـ لو كان جميع الألمان مثل فرتيز لما سارت الأمور إلى هذه الدرجة من التدهور ... إن قتل إنسان أو طعنه أو ضربه مسألة بسيطة جداً بالنسبة له .. إنه يضرب كل من يصادفه ، حتى ديرنج نفسه لا ينجو من لطماته .

قال هيز ذلك وهو يتحسس وجنتيه بحقد ، واستطرد :

ـ إنه أحد مساعدى أوتوسكورزينى ، إن له يداً فى كثير من الأمور الهامة ! حتى ليقال إن الفوهرر نفسه يعرفه معرفة جيدة . كان بورك فى يوم من الأيام من حرس الفوهرر الخاص . يالله من رجل عظيم !

كانا يسيران ببطء وهدوء فوق أوراق الصنوبر الأبرية المبللة .

وسأل وينكل :

ـ هل يوجد عدد كبير منا ؟

ـ عدد كبير ؟ ! قد يكون هناك حوالى خمسين جاسوساً ، أما الباقون فقد قروا عندما واتتهم الفرصة .

وفكر وينكل باحتقار : أى نوع من الجواسيس هذا الشخص ؟ إنه ثرثار !

وحزم وينكل أمره أخيراً وسأله :

ـ هل تعرف بيتر ؟

فهمس هيز :

ـ لقد رأيته مرة واحدة ... إن بيتر هو اسمه الأول ولا يعرف أحد من هو . إنه طائر كبير أيضاً ... إنها جماعة خاصة ... يتكلمون الروسية ويعملون متخفين فى بذلات رسمية روسية . لقد سمعت الشيء القليل عنهم .

عسكر الرجلان فى الخلاء ، وقدم هيز قنينتى نبيذ . وبعد أن أكلا وشربا ، قال هيز :

إنهم يقتلون الجنود الروس الفرادى المتخلفين ..

ومال هيز على أذن وينكل ، وقال :

ـ هل تقسم بألا تخبر أحداً بأنى أطلعتك على أية أسرار . إنهم لا يقتلون الجنود الروس فقط ... إنهم يقتلون النساء والأطفال الألمان أيضاً ... صحيح ، صحيح ، صدقت أو لم تصدق .

استدارت عينا وينكل من فرط الدهشة ، وسأله :

لماذا ؟

ـ تلك مهمة خاصة .

قال ذلك متفاخراً ، وهو فى غاية السرور لأنه هز جاسوساً محترفاً واستطرد :

ـ مادة رائعة لوزارة الدعاية ... إن إثارة الرأى العام أمر عظيم الأهمية كما تعرف ...

www.alkottob.com

ثم واصلا السير وقد شمل الهدوء كل ما يحيط بهم ، ولم يصل إلى آذانهما سوى قصف المدافع على مسافة بعيدة إلى الشمال . ومن حين لآخر كانت الأنوار الكشافة تمسح بأذرعها الطويلة وجه السماء.

وقال هينز :

ـ مهدنا الأرض فى مكان غير بعيد عن هنا لهبوط الطائرات ، ولكن الطائرات لم تأت ولا مرة واحدة ، ولا أكاد أقوى على الإنتظار إلى أن تصل ... ربما يتمكن والدى من نقلى إلى عمل آخر ، وها أنا فى انتظار الأوامر ولكنها لم تصل حتى الآن .

وصلا سريعاً إلى قرية « ليبين » الواقعة على شريط السكة الحديد بين بحيرتين . وشق وينكل وهينز طريقهما متسترين بجسر السكة الحديد . وكانت القطارات المحملة بالمدافع والدبابات تقف على الشريط . لا بد أنها وقعت فى أيدى الروس قبل أن تصل إلى الجبهة . كان القطار محملا بأسلحة جديدة لم تنطلق منها قذيفة واحدة ، والحراس الروس يمشون جيئة وذهاباً بالقرب من العربات ورشاشاتهم مستعدة للعمل .

عبر وينكل وهينز شريط السكة الحديد بحذر ، واتجها إلى بحيرة قريبة على شاطئها كوخ صغير إلى جوار طاحونة . ودخل الرجلان الكوخ . كان صاحب البيت عاملا بالسكة الحديد من أهل القرية . لم يستقبلهما الرجل بالترحاب ، ولم يدعهما حتى للجلوس بل أغلق الباب خلفه وبدأ يسرد ما لديه من أخبار على الفور : إن على الطريق المؤدى

إلى بيرينز عدد كذا من السيارات الروسية ، وعدد كذا من الدبابات ، وكذا من جنود المشاة . وقد أقام الروس أخيراً مطاراً فى بقعة قريبة من هذا المكان ، ليس به أقل من خمسين طائرة من ذات المحركين . واستحم الجنود الروس أمس صباحاً فى بحيرة فندلسى ... نعم ، لقد استحموا على الرغم من البرد . وقام الروس بفحص شريط السكة الحديد ، ويقال إنهم سيقومون بإصلاحه بسرعة .

وظهر فيما بعد السبب فى عصبية صاحب البيت . فعندما تمدد هينز فوق الاريكة وأبدى رغبته فى البقاء للراحة بالمنزل ساعة أو ساعتين نصحه الرجل بالرحيل فوراً ، لأنه قام بالأمس بتسجيل إسمه فى مكتب القائد السوفيتى معترفاً بأنه كان عضواً فى الحزب الإشتراكى الوطنى ..

هب هينز كالملدوغ وسأله

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فأجاب الرجل :

ـ إنها أوامر القيادة السوفيتية ، ولم يكن باستطاعتى تجاهلها ، فسيقوم الجيران بإبلاغهم على أية حال .

وأسرع هينز ووينكل بمغادرة المنزل . ودارا حول البحيرة الأولى ثم الثانية . واجتازا غابة فى طريقهما إلى قرية زولين . وتبين وينكل أن هينز مكلف بالمرور على هذه القرية . ومن يدرى ، ربما كان ديرينج ، الذى غادر الوكر فى مهمة خاصة ، فى انتظارهم هناك .

www.alkottob.com

لم يجدا أحداً فى كوخ الفلاح القائم عند حافة القرية الشرقية . دفع هينز الباب فانفتح . ودخلا . شهق هينز من فرط الدهشة ، وقال :

ـ أين ذهبوا جميعاً ؟

خرجا إلى الفناء وعلى حين كانا يهمان بالرحيل ، انفتح باب قبو حجرى فى الفناء ، ولم يكن الشخص الذى برز من تحت الباب غير بورك بنفسه . وسأل :

ـ من هناك ؟

فأجاب هينز بوجل :

ـ نحن ، هينز وونكل .

خرج بورك من القبو يتبعه صاحب الكوخ وزوجته اللذان مرا صامتين أمام الجاسوسين وتواريا داخل البيت . ووقف هينز وونكل (انتباه) فى انتظار أوامر « الرئيس » . وجلس بورك متثاقلا فوق كتلة من الخشب بالقرب من القبو ، وقال بصوت كالنعيق :

ـ إليكما ما حدث . لقد وقعنا . وأصبت بجرح فى ذراعى . . . لماذا تقفان ؟

واستطرد بعد قليل من الصمت :

ـ إجلسا ، ولنفكر فيما يجب عمله . لقد مات ماكس وبيتر وقبض على ليب وأربعة آخرين . لقد وشى بنا أحدهم .

ونهض بورك وسار إلى القبو مترنحاً ومن ورائه هينز وونكل . كان الجو فى القبو رطباً تفوح فيه رائحة الكرنب العطن . ولكن أصحاب البيت حاولوا أن يجعلوا المكان مريحاً بقدر الإمكان : ففى أحد الأركان وضعوا منضدة وكرسياً ، كما كان هناك مصباح يضيء ، وخيال بورك يهتز كالمذعور على السقف المقوس .

قال بورك :

ـ يجب أن نرحل بسرعة ، فمن المحتمل أن يكون الروس قد عرفوا أماكن التقائنا جميعها .

وجلسوا صامتين . وظل بورك يتفحص رسغه المضمد . وقال :

ـ حالته سيئة .

كان يخشى أن يصاب بتسمم فى الدم أو بالغرغرينة . كان فى غاية القلق على صحته .

سرعان ما لاحظ وينكل أن بورك لم يعد بورك الذى يعرفه من قبل ، وأنه قد تغير ، وإن كان قد ظل على هدوئه النسبى وهو لا يكف عن ذكر تيرينج . ويبدو أن تيرينج كان عزيزاً عليه . لم يذكر بالتفصيل كيف اهتدى الروس إلى قباء النبيذ . ربما وشى أحد الرجال بهم ، أو ربما تعقبهم الروس إلى أن اهتدوا إلى الوكر . واستمر تبادل إطلاق النار نصف ساعة . واقتحم بورك واثنان معه الحصار ، فتمكنوا من الإفلات ، وإن كانوا قد تشتتوا وتاهوا بعضهم عن بعض فى الظلمة .

www.alkottob.com

ووقعت محطة لاسلكية وبعض الوثائق الهامة فى أيدى الروس . وكان لابد لهم من الخروج من هذا المأزق .

قال بورك :

— يجب العثور على طبيب وإلا بدأ التسمم .

فوقف هينز وقال :

— لا تقلق أيها الرئيس فسأذهب لإحضار الطبيب .

فسأله بورك متشككا ، وهو يثبت عينيه باهتمام فى وجه هينز :

— من أين ؟

— من ليبين . فأنا أعرف هناك رجلا يشتغل مساعد جراح بالقرب من المحطة . لن أتغيب كثيراً ، وإنما يجب أن أترك جرابى هنا لأنه ثقيل وسيعيقنى عن السير .

وألقى هينز بالجراب من على كتفيه ، الأمر الذى طمأن بورك .

ترك وينكل وحده مع بورك ، الذى جلس مدة طويلة وعيناه مغلقتان ، وفتح عينيه بعد نصف ساعة وسأل :

— ألم يعد هينز بعد ؟

— لا ، لم يمض على ذهابه سوى زمن قصير .

أغلق بورك عينيه ثانية ، وأطفأ وينكل المصباح وتمدد فى أحد الأركان وظهره فوق كومة من جذور البنجر ، وسرعان ما غلبه النعاس ، ولكن صوت بورك أيقظه :

— هل أنت هنا يا وينكل ؟

— نعم .

— ألم يعد هينز بعد ؟

— لا .

وعاد السكون ، وأغفى وينكل ثانية . وبعد قليل أخذ جسده يرتعد من الذعر ، فقد شعر بيد مكتنزة تتصبب عرقاً تتحسس وجهه . وكان وينكل يعرف هذه اليد حق المعرفة . قال بصوت مرتجف :

— ماذا حدث أيها الرئيس ؟

— ألم يعد هينز بعد ؟

— لا .

— لماذا أطفأت المصباح ؟ هل تريد الفرار أنت أيضاً ؟

— كلا ، بل كنت مستغرقاً فى النوم .

وزحفت يد بورك ، وأمسكت بطيات معطف وينكل ، ورفعه بيسر من فوق الأرض . وقال بورك :

— هيا نغادر هذا المكان . لا تقلق ، فلن يصيبك أذى طالما أنت مع بورك . آه ، لو أن التسمم لم يسر فى جسدى ! إنك لم تعرف بورك ، ولكنك سوف تعرفه . لقد مات ديرينج وستكون أنت صديق إنك فتى طيب يا وينكل وأعدك بوسام الصليب الحديدى بمجرد أن

www.alkottob.com

تخترق الخطوط . وسوف نخترقها ، لا تقلق . هل تسمع هذا الصوت ؟ إنها المدافع تقصف ! إن رجالنا يتقدمون ! سنلتقاهم فى معركة فاصلة ..

ورحل وينكل مع بورك وعلى حين هم يسيرون إلى خارج القرية أخرج وينكل من جيبه منديله وربطه على رأسه ولبس القبعة فوقه . وتمتم :

— هذا أفضل !

لم يقل بورك شيئاً . وسارا متوغلين فى الغابة متجهين إلى الشمال حيث تقصف المدافع بصوتها الراعد الكئيب .

وعندما طلع ضوء النهار جلسا يستريحان على الحشائش ، وفجأة رأيا بعض الجنود الروس يقتربون منهما عبر أحد ممرات الغابة .

كان الجنود يحملون لفات من الأسلاك ، وكانوا يفكونها ويربطون الأسلاك إلى فروع الأشجار . وكان على رأسهم ضابط شاب نحيل الجسم داكن البشرة وتوقف الضابط حين رأى الرجلين الجالسين على الحشائش واللذين يرتديان الملابس المدنية .

نهض بورك واقفاً وهو شاحب الوجه . أما وينكل الذى اجتاز كثيراً من المواقف التى لا يعرف بورك عنها شيئاً ، فقد سار بجرأة نحو الروس ، وقال :

— فلاديسلاف فالينسكى ... مواطن بولندى .

ثم أشار إلى بورك وقال :

— بان ماتوسيفسكى بولسكا ... بولسكا .. الوطن .. إلى وارسو .

فأحنى الضابط رأسه لهما وواصل سيره . وتنفس بورك الصعداء ، وعادت الدماء إلى وجنتيه ، وقال :

— يالك من فتى رائع يا وينكل !

وإذ رأيا مصنعاً مهجوراً للفار ، اعتزما البقاء هناك والانتظار .

وقال بورك وهو يتمدد فى الكوخ الخشبى الكبير الملحق بمصنع الفار :

— سيصل رجالنا إلى هنا بسرعة . إنها عملية عسكرية هامة جداً يا وينكل ، هامة جداً . وهناك عدد كبير من الدبابات . إن الفوهرر لم يقبل على نفسه بعد . لا تقلق يا وينكل ، لا تقلق !

www.alkottob.com

١٦

لابد أن الملازم نيكولسكى كان مستعجلا جداً ، وإلا لاستطاع ملاحظة الفزع المرتسم على وجه السيد ماتوزيفسكى .

كان عليه أن يسرع ، فقد بدأت الفرقة تخوض المعركة التى بدأت تحتدم فى الغابات ووديان البحيرات المزدحمة بالمنازل الريفية الجميلة التى يملكها أغنياء مدينة سنيتن

إن رجال سلاح الإشارة هم أكثر رجال الجيش اطلاعاً على الأسرار والمعلومات . فرجل الإشارة هو الطرف الصامت الخفى الذى يشترك فى أية مكالمة تليفونية أو لاسلكية ، ويطلع على عدد من أخطر أسرار وحدته .

لاحظ نيكولسكى - بعد أن استمع إلى بعض المكالمات التليفونية - لاحظ أن الموقف يزداد تعقيداً ساعة بعد أخرى .

أرسلت إحدى الكتائب فى الصباح تقريراً يعرضها لهجوم قامت به أربعون دبابة ألمانية ، وبعد عشر دقائق أعلنت كتيبة أخرى أنها تعمل على صد هجوم تقوم به ستون دبابة ، وأن مراكزها قد تعرضت لنيران مدافع المورتر . وكان أوجانسيان يدلى لرئيس الأركان بالمعلومات التى

أخذها من أسرى فرقة البحرية الأولى بقيادة الأميرال دونيتز . وتوالت التقارير من مراكز المراقبة الجوية عن غارات طائرات العدو وتضمنت بالتفصيل أرقام هذه الطائرات وأنواعها .

وجاء الكولونيل ماليشيف رئيس قسم مخابرات الجيش إلى الفرقة ودام الاتصال التليفونى بالكتائب ، وكان الضباط النوبتجيون فى مقر قيادة الفيلق ومقر قيادة الجيش يوجهون الأسئلة ويصدرون الأوامر ويصيحون حتى تبح أصواتهم .

وأخذت الرموز والإشارات التليفونية المميزة لوحدات المدفعية الإضافية تزداد وتتوالى . ووصلت إلى أذنى نيكولسكى - من خلال أسلاك التليفون الممتدة - أصوات أنفاس الفرقة وهى تخوض المعركة ، كما تناهى إليه صوت قائد الفرقة هادئاً متزناً . ويصل هذا الصوت إلى مقرات القيادة ومراكز التقوية وشبكة الاتصالات الواسعة جميعها ، فيحبس السامعون أنفاسهم ويطالبون المتكلمين بالصمت :

— اسكت ، إن ٣٥ يتكلم !

— صه ، إن ٣٥ على الخط !

— ٣٥ ينادى !

وبينما نيكولسكى فى مخبئه ينصت إلى هذه المحادثات كانت الأرض من حوله تهتز مع انفجار القذائف والقنابل . وسرعان ما انقطع الاتصال بكتيبة كشترفيريكوف التى كانت فى موقف دقيق .

www.alkottob.com

ودهش نيكولسكى حين سمع صوت قائد الفرقة بعد ذلك بلحظات يوجه إليه الحديث مباشرة :

— نيكولسكى ، لماذا انقطع الاتصال بشيتفيركوف .

— لقد حدث خلل بالخط يارفيق ٣٥ ، وسأرسل بعض رجال الإشارة لإصلاحه .

— إذهب بنفسك والخصه ، إنى أحملك مسئولية إعادة الإتصال بشيتفيريكوف .

ذهب نيولسكى إلى الخط ومعه جماعة من رجال الإشارة . وكان الوقت صباحاً ، والسماء غائمة معتمة . كان خط التليفون يمتد فوق حقول محروثة مبتلة ، ثم يخترق غابة ، ويمتد أخيراً فوق أحد الطرق الرئيسية وكانت مياه الربيع تغمر الأراضى وهى تزبد وتسح ، وكان على الرجال أن يجتازوا كثيراً من الجداول ويخوضوا فى الماء حتى خصورهم وفاضت مياه الجداول والبحيرات وطفت على الأراضى المنخفضة .

أقيم مركز التقوية الأول للخط التليفونى فى منزل أبيض ذى سقف من القرميد يقع عند مشارف إحدى القرى . وتبين الرجال عدم وجود أى خلل عند هذا المركز ، فالاتصال منتظم بمقر قيادة الفرقة وبمركز التقوية الثانى . وقامت امرأة ألمانية بدينة بتقديم القهوة لرجال الإشارة وهى تشكو من أنها ليست قهوة حقيقية ولكنها قهوة مصنوعة من طحين ثمار البلوط . وقالت إن الألمان قد شنوا الحرب من أجل الحصول على

اللبن الحقيق الذى ينمو فى أفريقيا ، وأن أعداء ألمانيا كانوا قد استولوا على مستعمرات ألمانيا .

واصل نيكولسكى السير إلى مركز التقوية الثانى .

وهنا تبين أن الخط ينقطع كل ساعة ، ولم يكف رجال الإشارة عن الجرى لإصلاحه طيلة الوقت ، حتى كادوا يسقطون إعياء .

وتساقطت قذائف الألمان فوق مرعى مغطى بالمياه ، حيث أقيمت مراكز مدفعيتنا .

أما القرية فقد كان بها مقر قيادة المدفعية ، وكل شىء فيها يهتز مع طلقات المدافع القريبة ، والأبقار المذعورة تنطح الأبواب وتخور بصوت مرتفع .

لم يجد رجال الإشارة مركز التقوية الثالث ، فقد سقطت قنبلة ألمانية فوق المخزن الذى أقيمت فيه ، وجرح رجلا الإشارة اللذان كانا يعملان فيه ، وانفلت السلك المشدود إلى الغابة . وتمكن نيكولسكى ورجاله ـ بعد لأى ـ من اكتشاف طرفى السلك المقطوع ووصله ، ووضع الجريحين فى عربة ذاهبة إلى المؤخرة لاستجلاب الذخيرة .

ترك نيكولسكى رجلين من جنود الإشارة عند مركز التقوية وأخطر فصيلة الإشارة بالسبب فى عطل الخط ، ثم توجه إلى مقر قيادة الكتيبة .

كان مركز اتصالات الكتيبة موجوداً فى قبو أحد المنازل الكبيرة

www.alkottob.com

بين البراميل وزجاجات النبيذ المعتق التى يعلوها التراب . ومقر قيادة الكتيبة فى قبو مجاور .

عندما رفع نيكولسكى السماعة سمع صوت قائد الفرقة :

— لاتقلق ! لاتقلق ! ماذا تعنى بقولك إن الألمان قد اخترقوا خطوطك ؟ يجب أن تسيطر على الموقف فى الحال ، وأن تقوم بهجوم مضاد فوراً !

وبعد لحظة صمت سأل :

— هل عاد خط « هزيم الرعد » إلى العمل ؟

فتدخل نيكولسكى قائلا :

— أجل يارفيق ٣٥ .

— من المتكلم ؟

— الملازم بيكولسكى .

— من أين ؟

— من « هزيم الرعد » .

— هل تمكنت من الوصول إلى هناك بمثل هذه السرعة ؟ يالك من فتى رائع ! أعطنى شتفيريكوف .

كشفت المحادثة بين قائد الفرقة وقائد الكتيبة عن ازدياد الموقف تعقيداً بعد أن استجلب الألمان عدداً كبيراً من الدبابات وألقوا بها فى المعركة . وتمكنوا من التوغل كيلومترين فى قطاع « النورس » .

وتدخل قائد « الصنوبر » [وهو رمز كتيبة مدفعية مضادة للدبابات ملحقة بقوات شتفيريكوف] تدخل فى الخط ، وقال :

— لامؤاخذة يارفيق جنرال . قائد « الصنوبر » يتكلم . لقد نجحنا فى صد هجوم قامت به اثنتا عشرة دبابة ، وأحرقنا دبابتين ، وتعطلت أربعة مدافع من مدافعنا ، أرى تجمعاً كبيراً لدبابات الألمان فى « الغابة المستديرة » .

فقال الجنرال :

— احمد ، سيأتى « النخيل » لنجدتك .

وردد « الصنوبر » ، وقد بدت فى صوته اللهفة لرؤية « النخيل » :

— أخيراً !

كان النخيل هو رمز كتيبة المدفعية الآلية .

شرب رجال الإشارة من نبيذ البراميل وبللوا رءوسهم بالخمر ، وكان الماجور ميجاييف — بطل الشعب السوفيتى ورئيس أركان حرب الكتيبة — يدخل القبو من وقت لآخر وقد اكفهر وجهه وبدا منظره رهيباً ، فقدموا له كأساً من نبيذ الموزل وبعضاً من الماخوركا لأنه فقد كيس طباقه .

قال محذراً رجال الإشارة وهو فى طريقه إلى قبوه :

— إحذروا أن تفرطوا فى الشراب !

عن لنيكولسكى أن يعود إلى مقر قيادة الفرقة ، ولكنه لم يجد من

www.alkottob.com

المناسب أن يترك خط النار بعد أن تحول الموقف وساء إلى هذا الحد .

وبعد ساعة من الزمن أصبحت العودة مستحيلة ، لأن كتيبة شتفيريكوف أصبحت محصورة من كل جانب .

ذهب نيكولسكى لمقابلة ميجاييف فوجد شتفيريكوف الذى ترك مركز المراقبة منذ برهة . كان الألمان قد اقتربوا من مركز المراقبة وأخذوا يطرونه بوابل من رصاص رشاشاتهم .

وقف قائد الكتيبة فى وسط القبو ، وهو رجل ضخم ذو ساقين ممتلئتين قويتين ، يضع على رأسه قبعة من الفرو ، ذات قمة حمراء ويمسك فى يده سوطاً . سأل :

ـ هل عندكم قنابل يدوية ؟

ـ فأجاب ميجاييف :

ـ نعم .

ـ كم عددها ؟

ـ عشرون قنبلة يدوية ، وخمس قنابل مضادة للدبابات .

ـ بلغ شوكين أن يحضر مائة قنبلة أخرى ، وسلح جميع الرجال بالقنابل اليدوية ، وعلى جميع رجال الإشارة والكشافة والسائقين ورجال الشفرة والحراس أن يحفروا الخنادق حول المنزل . تحركوا ! أما أنا فسأذهب إلى الفصيلة الثانية .

وضرب شتفيريكوف حذاءه بالصوف ، واتجه ناحية الباب . كان العرق يتصبب فوق رقبته .

أحضر الرجال القنابل اليدوية . ووضع ميجاييف اثنتين من القنابل اليدوية المضادة للدبابات على المنضدة القريبة منه ، ثم أصدر أوامره بالدفاع عن بقر القيادة . وبدأ الاتصال التليفونى « بالبنفسج » ، ولكن « البنفسج » لم يرد .

قال ميجاييف وهو يلق السماعة :

ـ انقطع الخط !

وإذ رأى أمامه نيكولسكى يقف وسط القبو بلا عمل وهو يمسك بيده قنبلة يدوية ، قال له :

ـ أيها الملازم ، إن ضباطى جميعا مشغولون ، إذهب إلى الأورطة ، وتبين ماذا يجرى هناك وبلغهم هذا الأمر .

ـ أى أمر ؟

فأجاف ميجاييف :

ـ أى أمر ! الأمر المعهود . اعمدوا إلى آخر رجل . الأمر التقليدى فى معركة ستالينجراد . هذا كل مافى الأمر .

وسأله نيكولسكى :

ـ هل أستطيع ترك معطفى هنا ؟

www.alkottob.com

فاستدارت عينا ميجايف من الدهشة ، ثم ضحك وقال :

ـ طبعاً ! إلق معطفك وأسرع أيها الطائر الغريب !

وتمتم نيكولسكى مستاء ـ وهو يتجه ناحية الشمال الشرق فى طريقه إلى الأورطه الأولى : « طائر غريب ! لماذا غريب ؟ أنا لا أفهم . بل إنه هو الغريب » .

جلس بعض ضباط المدفعية فى خندق بالقرب من الطريق الرئيسى تحف به الأشجار . كانوا ينظرون خلال نظارات الميدان إلى النقطة التى يختفى عندها خط السكة الحديد بين التلال المنخفضة . كانت الدبابات تتحرك ببطء خلف تل صغير ورذاذ الماء يتناثر من جنازيرها وهى تتعثر صاعدة فوق التل .

وفكر نيكولسكى : أهى دبابات ألمانية حقاً ؟

وصاح أحد ضباط المدفعية من رتبة كابتن بصوت أجش فى التليفون :

ـ استعدوا !

وبينما كان نيكولسكى يبتعد سمع الأمر بإطلاق النار . وتبعت ذلك طلقات تصم الآذان . كانت الدبابات ألمانية بالفعل . وأخذت القنابل تنفجر من حولها .

كان مركز قيادة الأورطة فى خندق الاتصال يمتد من خندق خط

القتال الأمامى إلى الغابة . وقفز نيكولسكى إلى الخندق أمامه فرأى الماجور جارين رئيس القسم السياسى .

كان الماجور يرقد مغمض العينين . فسأل الملازم قلقاً :

ـ ماذا أصابه ؟ هل جرح ؟

ـ كلا ، لقد أصيب بالأعياء الشديد فرقد يستريح .

استيقظ جارين من نومه ، فتعرف عليه حين رآه ، وابتهج لرؤيته ، وامطره بوابل من الأسئلة .

ـ كيف حال قائد الفرقة ؟ هل يعلم مايجرى هنا ؟ هل رأيت الكولونيل بانفيلوف ؟ هل كل شىء على مايرام هناك ؟ هل قتل أو جرح أحد ؟ هل قيادة الجيش على إلمام بالحالة ؟

وجاءه قائد الأورطة . كان ضابطا برتبة ماجور ، طويل القامة ، متجهم الوجه ، خشن المظهر ، يدعى فسيلشاكوف .

ارتبك جارين لأمر ما عندما رأى قائد الأورطة ، وسعل محاولا التغلب على شعوره بالذنب . ولكن القائد لم ينظر إلى رجل القسم السياسى ، واستمع إلى تقرير نيكولسكى ، ثم قال إنه قد بعث رجلا يحمل رسالة إلى ميجايف ، وإن الخط التليفونى قد أصلح ، وأنهم سيصمدون .

وانطلقت نيران المدفعية من اليسار ، فجفل نيكولسكى ، وانحنى فرمقه فسيلشاكوف بنظرة استخفاف ، وقال :

www.alkottob.com

— إنها مدفعية كتيبتنا المضادة للدبابات .

وأعلن أحد الواقفين فى الخندق :

— دبابة واحدة تحترق .

ورفع فسيلشاكوف منظاره إلى عينيه ، وأمسك بالتليفون ، وصاح بصوت مرتفع غير متوقع :

— ألا ترى أن الدبابات تقترب منا مرة أخرى ؟!

وتوجه إلى خندق الخط الأمامى وصاح :

— اطلقوا نيران البنادق المضادة للدبابات .

سرعان ماتبع نيكولسكى قائد الأورطة الذى كان يقف إلى جوار ضابط شاب برتبة كابتن ، قصير القامة ذى عينين رماديتين . وكان كلاهما يدخن . قال الكابتن :

— إن الألمان يستخدمون قنابل مضادة للدرعات .

وقال فسيلشاكوف مفكراً .

— أليست عندهم قنابل متفجرة ؟

أشاعت أصواتهما الهادئة الطمأنينة فى قلب نيكولسكى . والمكان هنا أهدأ من مقر قيادة الكتيبة ومقر قيادة الفرقة ، وهذا الهدوء نتيجة طبيعية لوضوح الموقف . فهنا يمكن رؤية الألمان رؤية العين على حقيقتهم بلا مبالغات : إنهم الألمان بدباباتهم الألمانية .

لم يشترك الملازم نيكولسكى فى القتال سوى ستة أشهر ، وهذه أول مرة يقف فى خط القتال الأمامى . وأدهشته بساطة كل شىء فى هذا المكان ، إنه مجرد خندق صغير يجلس فيه الجنود . كان أحدهم يحتضر وهو يتمتم بعض الكلمات بصعوبة . إن أداة الجيش الهائلة تدور بأسرها من أجل هؤلاء الجنود : إن مراكز القيادة ، والمدفعية ، والمهندسين ، والإمدادات ، واللاسلكى والتليفون ، إن كل هذا يعمل لكى يتقدم هؤلاء الجنود الجالسون هنا فى معاطفهم الملطخة بالأوحال .

لم يكن لدى نيكولسكى متسع من الوقت للتفكير فى هذا الموضوع فقد ظهرت قاذفات الألمان . وأخذ الجنود يرقبونها بمزيج من حب الاستطلاع والاهتمام بمعرفة اتجاهها وهم يتمنون من أعماق قلوبهم أن تطير بعيداً عنهم . ولكن ، لا . كانت خنادقهم ، وأجسادهم هى بالذات هدف هذه الطائرات السوداء المزمجرة الخمس والأربعين . وأنهالت عليهم القذائف ، وتوقفت قلوبهم عن الخفقان فى انتظار الألم والموت .

ظل فسيلشاكوف والكابتن واقفين فى الخندق غير آبهين بقذف القنابل ، وهما يتظاهران بأنهما لا يريان الجنود الذين انبطحوا على بطونهم . وعندما انتهت الغارة صاح الكابتن بصوت مجلجل :

— فصيلة ، قف !

وظهر الماجور جارين وفى يده مسدس .

وتذكر نيكولسكى أنه يحمل مسدساً هو أيضاً ، فأخرجه من

www.alkottob.com

جرابه . وسمع جاويشاً عجوزاً ذا شارب أسود يقول للماجور جارين :

— ماذا تصنع هنا أيها الرفيق الماجور ؟ إذهب إلى مقر قيادة الكتيبة ، فلن نعجز عن القيام بواجبنا بدونك .

ولم يسمع نيكولسكى إجابة جارين .

أطلق الجنود نيران أسلحتهم ، وبدت الطلقات لنيكولسكى ممزقة وغير مرضية ولكن الألمان كان لهم رأى آخر . وقال أحد الجنود إن الألمان قد توقفوا وانبطحوا أرضاً .

وقال الكابتن تسوخوف للملازم نيكولسكى مكشراً :

— من الذى يستعمل مسدساً على بعد اربعمائة متر ؟ تناول بندقية هذا الجندى الجريح .

أخذ نيكولسكى البندقية ، ووقف خلف الساتر وأخذ يطلق النار . وكلما أطلق رصاصة أحس إحساساً متزايداً بالثقة فى نفسه . لم يكن يعرف ما إذا كانت تصيب طلقاته أهدافها أم لا . ولكنه كان على يقين من أنه سيقاتل حتى الموت ، شأنه شأن الجميع ، كما قاتل رجال ستالينجراد ، دون أن يتراجعوا خطوة واحدة إلى الوراء .

إن هذا المشهد هو ما يسمى فى الإشارات التليفونية وفى تقارير القيادة : صد هجوم العدو بعد أن تكبد خسائر فادحة .

أشعل الكابتن الشاب الواقف إلى جوار نيكولسكى سيجارته دون أن يهتز عود الثقاب فى يده . وقال :

— كفى إطلاق النار . ألا ترى أن الألمان قد تراجعوا ؟

ولكن نيكولسكى لم يكن قد رأى الألمان يتراجعون . بل إنه لم يكن يرى أى شىء . فقد تملكته رغبة واحدة : هى أن يضرب ، ويستمر فى الضرب ، دون توقف .

www.alkottob.com

١٧

لم يفهم أحد فى البداية كيف جاء الكولونيل بلوتنيكوف — رئيس القسم السياسى للفرقة - إلى خندق خط القتال الأمامى . وقف الكولونيل إلى جوار الجند قليلا وهو ينظر إلى الألمان من خلال منظار الميدان ، ثم سأل تشوخوف :

— حسناً ياكابتن ، كيف حالكم هنا ؟ هل ستصمد ؟

وأجاب تشوخوف :

— نعم ، سنصمد .

فقال الكولونيل ضاحكا :

— لماذا تبدو عليك الكآبة إذن ؟ إذا كنا سنصمد فيجب أن يكون ذلك مدعاة للابتهاج .

وعاود النظر إلى الألمان من جديد ثم سأل :

— هل تناول الجند إفطارهم ؟

فقال تشوخوف :

— لا .

— ولم لا ؟ باللعار ! أين باشجاويش الفصيلة ؟

جرى جودونوف وجلا إلى الغابة حيث مطبخ الميدان .

وصاح به بلوتنيكوف :

— إحضر بعض الفودكا معك !

تنقل الكولونيل بين الجند وأمر بتعميق الخندق والهدوء ما يزال قائماً . وأخيراً سأله ساليفنكو :

— ولكن ، كيف جئت إلى هنا يارفيق كولونيل ؟

وضحك بلوتنيكوف قائلا :

— لقد شققت طريق إلى هنا كما ترى . لم يكن أمامى غير ذلك . هل تصورت أنى جئت زاحفاً . . . ثم إنكم لستم محاصرين تماماً . إن كلمة محاصرين مجرد لغو . . . فالألمان هم الذين يعتقدون أنهم المحاصرون .

وقال له ساليفنكو ناقداً :

— كان من الممكن أن تقع فى أسر الألمان .

— لقد جئت فى حراسة رجال الاستكشاف .

وكان ذلك صحيحاً . فقد كان الكابتن ميشيرسكى ورجال الاستكشاف موجودين هم أيضاً . وحيا ميشيرسكى الكابتن تشوخوف ، ثم ذهب إلى الكولونيل وقال :

— إن الماجور جارين موجود هنا مع الفصيلة التالية ويبدو أن

www.alkottob.com

نيكولسكى هنا أيضاً .

وابتسم الكولونيل وقال :

— ها أنتم ترون أن الفرقة قد بعثت إليكم بالإمدادات ، ومع ذلك تشكون من قلة الرجال عندكم .

وعدا جارين فى الخندق إلى الكولونيل وقد أدهشه وجوده هنا ، وأثار فى نفسه بعض المخاوف . وصاح فى الكولونيل :

— لماذا أنت هنا ؟

فقال الكولونيل وقد أخذه الغضب لحظة :

— حسناً ، حسناً ! كل واحد هنا يريد أن يلقن درساً وينقذ حياتى. الأفضل لكم أيتها القادة أن تمسكوا المعاول وتساعدوا الجنود فى تعميق الخندق بسرعة قبل أن يبدأ الألمان موسيقاهم من جديد .

وقال تشوخوف بهدوء وهو واقف بجوار ميشيرسكى :

— إن المسئول السياسى يتحلى بالشجاعة الكافية !

فقال ميشيرسكى :

— إنه دائماً هذا الرجل .

عندما وصل ميشيرسكى بدأ تشوخوف ينظر إلى كل ماحوله نظرة جديدة . سيأتى يوم يكتب فيه عن تلك الأشياء التى عادة مانبدوا فى نظر قائد فصيلة للقناصة مجرد أمور لاتلفت النظر ، إنها بحاجة إلى

لمسات فنية عميقة لتصبح موضوعاً لقصيدة من الشعر . وازدادت نبرات صوت تشوخوف حزماً ، وصارت أوامره أكثر إيجـــازا ، وأشد وضوحاً . ولم يفت تشوخوف أن يلاحظ حتى المناظر الطبيعية التى تحيط به : الحشيش الصغير الذى ينمو فوق القبة ، وخرير المياه ، والجدول الطافح بالمياه الذى ينساب على يسار الموقع .

وعلى أية حال لم يكن أمام ميشيرسكى متسع من الوقت للتفكير فى الشعر ، ونسى كل شىء عنه . فالألمان يعدون العدة لهجوم جديد ، وتعالت قرقعة الدبابات المختفية فى الغابة المستديرة . كان من الواضح أن الإمدادات قد وصلت إلى الألمان هناك .

حمل جودونوف وآخرون الغودكا والإفطار إلى الخندق . وأكل الجنود وشربوا ، فزهت جميع الأشياء فى أعينهم ، إلى درجة أن بيشوجين بدأ يصيح فى الألمان القابعين عند حافة الغابة المستديرة :

- إرفعوا الأيدى ، وتعالوا لتناول الإفطار معنا !

لم يستمر المرح طويلا إذ سرعان ما بدأت المعركة . وأخذت الدبابات المختبئة فى الغابة تمطر الخندق بالقنابل المضادة للمدرعات . وانطلقت نيران مدافع الألمان السريعة من مكان ما خلف الغابة . وانتصبت الأشباح الألمانية السوداء من جديد ، وأخذت تتقدم ، ومن ورائها صف من الدبابات عددها إثنتان وثلاثون . وسارت الدبابات فى محاذاة المشاة ، ثم تخطتهم ، وسارت أمامهم ببطء متجهة ببلادة نحو الخندق .

www.alkottob.com

تجمد كل واحد فى مكانه ، وتساقطت الملاعق فى طاسات الطعام فصلصت بصوت مسموع .

صاح جودونوف وهو يمسك بزجاجة الفودكا فوق رأسه :

— من منكم لم يأخذ نصيبه ؟

وأزت رصاصة بالقرب من الزجاجة .

كان الأوميانى سميجلاف وحده هو الذى لم يأخذ نصيبه . ولكنه فى ذلك الوقت كان قد أمسك بمدفع رشاش ، فلم يشعر بالرغبة فى شرب الفودكا وأعطى نصيبه لبيشوجين الذى جرعه دفعة واحدة ثم مصمص شفتيه ، ونهض ، وتوجه ببطء إلى بندقيته الملقاة على الأرض .

وفكر بلوتنيكوف وهو يتنهد بارتياح : يالهم من فتيان !

وقال :

— حسناً ، أيها الرجال . إن الجميع يعتمدون على المشاة !

واتجهت نحوهم قنبلة سريعة معولة ، وكأنها قطار سريع منطلق بأقصى سرعة . وسرعان ما أحاط الدخان بالخندق .

وأحضر أحد جنود المراسلة صندوق ذخيرة وهو محنى الظهر شاحب الوجه يتمتم بصوت خافت . وسأل :

— أين الكولونيل بلوتنيكوف ؟ إن قائد الفرقة يطلبه على الراديو .

توجه بلوتنيكوف إلى جهاز اللاسلكى وهو محنى القامة ، وقال وهو يميل بوجهه فى الأرض الرطبة إلى جوار جهاز الإرسال :

— إن ٢٥ يتكلم !

ووصل إلى سمعه الصوت البعيد لقائد الفرقة وبه نبرة ارتياح واضحة :

— لقد بحثت عنك كثيراً ولم أعثر عليك إلا بعد جهد . كيف الحال عندكم ؟ هل رجال لوبنتسوف معك ؟

[كان من عادة الجنرال أن يسمى رجال الاستكشاف باسم قائدهم]

صمت الجنرال قليلا بعد أن سمع تقرير بلوتنيكوف عن الحالة ، ثم أشار بطريقة غير مباشرة إلى أن الفرقة ستقوم بالهجوم عند الظهيرة .

فى تلك اللحظة ظهرت طائرات الألمان ثانية . فقال بلوتنيكوف :

— إن طائرات الألمان تغير علينا وتمطرنا بالقنابل .

فأجاب الجنرال :

— فى استطاعتى أن ألاحظ ذلك . اصمدوا وسنعيد الأمور إلى نصابها سريعاً . إن العدو يتراجع فى قطاع إيفانوف . إذهب لتبين حالة «قارعى الطبول» وحال «خيارهم» .

ذهب بلوتنيكوف إلى رجال المدفعية ليرى إن كانت لديهم قنابل كافية ولم يسمع الكلمات التى أنهى بها قائد الفرقة حديثه ، فالجنرال لم يملك نفسه من أن يضيف الكلمة الآتية :

— ولكن لماذا توجهت إلى خط النار الأمامى يابافل إيفانوفيتش ! أنت أيها الرجل المدنى !

www.alkottob.com

كان خندق الاتصال مليئاً بمياه الربيع . ومواقع المدفعية خلف خط القتال فى الغابة ، تكاد تكون على حافتها . وسيارات النقل تقف فى فرجة بين الأشجار . والمدافع موضوعة فى حفر بالأرض تغطيها فروع الأشجار وشبكة خضراء للتمويه . وبجانب المدافع تكومت صناديق القذائف الفارغة وتصاعد فى كل مكان ضباب كثيف من دخان البارود .

كان رجال المدفعية سوداً غاضبين ، يتصببون عرقاً وهم منهمكون فى العمل حول مدافعهم ، وهم يردون بين حين وآخر على توجيهات شخص منهم جالس فوق شجرة بكلمة واحد .

– حاضر !

قفز الكولونيل فى إحدى الحفر ، وأسرع إليه الضابط فى الحال ، وقال أحدهم :

– إنك مصاب بجرح أيها الرفيق الكولونيل !

وتحسس بلوتنيكوف وجنته فوجدها مبللة . يبدو أن شظية أو كتلة من الطين الجاف قد أصابته . كان الجرح بسيطاً ، ومع ذلك أخذه رجال المدفعية إلى مخبئهم ، ووضعوا صبغة اليود على الجرح ، ثم غطوه بقطعة من القطن الطبي .

كانت الذخيرة متوافرة لديهم ولكن كان عليهم أن يقتصدوا فى استخدامها . وقال بلوتنيكوف :

– لاتنسوا أن الجميع يعتمدون على المدفعية الآن .

عاد الكولونيل عن طريق خندق الاتصال . كانت الحال أهدأ من ذى قبل . وكان الجندى الجريح الراقد فى الخندق قد سكن . وقال أحدهم :

– لقد مات .

ثم غطى وجه الرجل الميت بقبعة .

وقف الضابطان تشوخوف وميشيرسكى عند الثغرة . وسأل تشوخوف :

– كيف حال الماجور لوبنسوف ؟ هل تحسنت صحته ؟

– إنها تتحسن بالتدريج . من المؤسف أنه ليس بيننا الآن . إن المرء يشعر وهو إلى جواره بمزيد من الثقة . فهو بارع فى اكتشاف خطط العدو بمنتهى الدقة .

وظهرت طائرات العدو من جديد . وقال تشوخوف :

– لو أننا نستطيع الصمود حتى الليل . .

نظر بلوتنيكوف إلى ساعته وهو مقطب الجبين . كانت الساعة العاشرة صباحاً .

قال جارين وقد رأى الدم على خد الكولونيل :

– لقد جرحت !

ولكن بلوتنيكوف ألقى عليه نظرة ذات معنى جعلت الكلمات تموت على شفتيه .

وأخبرهم فسيلساكوف أنهم يعدون لهجوم مضاد فى تمام الساعة الحادية عشرة ، ومرت لحظات الانتظار ببطء .

www.alkottob.com

وأخيراً ، دوى النداء المألوف :

— إلى الأمام ، اهجموا !

وقف الجنود لحظة دون حراك وتساءل ساليفنكو بينه وبين نفسه : ترى لماذا لم يخرج الجند من الخندق ؟ ويبدو أن الجميع كانوا يتساءلون السؤال نفسه . واستمر الرصاص يئز فوق الرؤوس منذراً بالشر .

وتردد السؤال فى ذهن ساليفنكو مرة أخرى : لماذا لم يخرج أحد من الخندق ؟ وابتسم لنفسه : إنهم فى انتظارى أنا .

وبحركة عصبية تشبث ساليفنكو بحافة الخندق ، وقفز إلى الخارج ، وانطلق . وفى الوقت نفسه ، بل فى اللحظة نفسها ، تشبث الجميع بحافة الخندق ، وقفزوا إلى الخارج ، وانطلقوا .

ترى كيف حدث هذا ؟

إما أن كل جندى دار بذهنه فى اللحظة نفسها : أن الكل فى إنتظارى أنا ، أو أن الإنسان لابد له من فترة محددة من الزمن حتى يتهيأ لمواجهة الموت ، أو ربما لأن الجنود عرفوا — دون أن يلتفتوا بأبصارهم — أن هذه هى اللحظة التى سيقفز فيها منظم الحزب إلى خارج الخندق . وعلى أى حال ، فقد اندفع الجميع إلى خارج الخندق فى اللحظة نفسها .

وانبعثت أنة خافتة من ناحية اليمين . وسقط أحد الجند وكأنه ذبح ، ولكن أحداً لم يلتفت إليه .

وصاح ساليفنكو بصوت أجش عال :

— من أجل الوطن !

اندفع الجنود إلى الأمام ، وهم يتنفسون بصعوبة ، ويتعثرون ، ويسقطون ثم ينهضون . أخذت أقدامهم تغوص فى الطين فأدركوا أنهم وصلوا إلى الجدول القريب من الخندق . وخاضوا فى الماء حتى وصل إلى الركبتين ثم إلى الوسط . وعند حافة الغابة ، على اليمين ، ظهر منزل ريفى كبير جميل المنظر ، فوقه مؤشر للرياح .

ولمعت فكرة فى ذهن ساليفنكو : لو خرجت من هذه المعركة حياً . ولكن ماذا عساه يفعل لو خرج من المعركة حياً . لا ، إنه لايستطيع مواصلة التفكير فى هذا الأمر . فليس أمامه متسع من الوقت .

وفى اللحظة التى بدأت فيها القنابل (وهتف ساليفنكو فرحاً ، قنابلنا ، قنابلنا ،) تتساقط فوق حافة الغابة المستديرة ، حدث تغير غير متوقع . أين حدث هذا التغير ؟ ربما حدث فى الجو عموماً . لقد أصبح الاندفاع إلى الأمام أمراً أكثر يسراً ، وأصبحت صيحة الا ، هوراه ، التى تنطلق من حناجر المهاجمين أكثر دوياً ، لحملت إلى الجند إحساساً بالانفراج .

ماذا حدث ؟

لقد كف الألمان عن إطلاق النار . ولم يستطع ساليفنكو أن يتبين سبب ذلك فى بداية الأمر . ولكنه تبين بعد ذلك أن تشكيلات الدبابات التى تزحف إلى يسار التل لم تكن دبابات ألمانية ، ولكنها دباباتنا .

www.alkottob.com

ولحق رجال المورتر بالقناصة وهم يحملون صناديق الذخيرة فوق أكتافهم ويتصببون عرقاً . وإلى اليمين رأوا البنادق الطويلة المضادة للدبابات تهتز فوق أكتاف الرجال . وأخيراً سمعوا هدير السيارات ينبعث من مكان ما خلف الجنود ، ثم ظهرت المدافع من الغابة .

تحولت تلك الغابة المستديرة البغيضة التي كانت مصدراً لكل تلك الشرور ، تحولت إلى غابة بسيطة وادعة تطير فيها العصافير وتمتد على أرضها ظلال أشجار الصنوبر . وفي المنزل الريفي الكبير أسر ميشيرسكي رجلين من رجال الدبابات الألمان مصابين بجروح ، وكانا من فرقة سيليزيا للدبابات التي جاءت من الغرب منذ ساعتين فقط .

خلف الغابة تقع قرية صغيرة وورشة لنشر الخشب ، وعندما وصلت القوات السوفيتية كانت الأعلام البيض قد رفعت على المنازل . وخرج رجلان لاستقبال الجنود . كانا داكنى البشرة يلمع جلدهما كالزنوج . ولكن أفتح قليلا ، وكانا يرتديان ملابس عاكية ممزقة .

اتجها نحو الجنود مباشرة وهما يبتسمان ابتسامة عريضة ، ويصيحان بكلمات غير مفهومة تعبر عن فرحتهما . وبعد حديث استمر دقيقتين اكتشف الكولونيل بلوتنيكوف أنهما أسيران بريطانيان ، لم يكونا انجليزيين بل كانا هنديين تمكنا من الهرب من معسكر للأسرى بالقرب من ستيتن . وطالب الرجلان بإعطائهما السلاح ليخوضا المعركة جنباً إلى جنب مع الروس . وابتسم بلوتنيكوف وقال :

ـ سوف تنهي الحرب بأنفسنا سريعاً ... هل أمامكم رحلة طويلة ؟ .

إلى بمباي أو كلكتا .

وقال أحدهما بسرور :

ـ بمباي ، بمباي !

وقال الآخر :

ـ لاهور !

ونظر الجنود إلى الهنديين بمزيد من الدهشة .

وأشرف الباشجاويش جودونوف على إكرام الضيفين من علي بعد ، ولم ينس الفودكا طبعاً . وسارا الهنديان إلى مؤخرة الكتيبة وهما يترنحان ويبتسمان بفرح .

في هذه الأثناء كانت القوات قد بدأت اشتباكا جديداً مع الألمان بعد أن أفاقوا من صدمة الهجوم الروسي . وأزالوا الرصاص من جديد فوق خندق حديث ، وعاودت المدفعية قصفها . وعب الجنود من مياه الجدول والبرك التي اغترفوا منها في خوذاتهم . ونظر تشوخوف إلى ساعته . لم تكن قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر .

www.alkottob.com

١٨

فى ساعة متأخرة من مساء يوم ١٢ مارس ، وبعد أن اجتاحت قواتنا قلعة كوسترين على نهر الأودر وآمنت ودعمت رأس الجسر على الضفة الغربية للنهر ، سأل الجنرال سيزوكريلوف القيادة عن سير القتال عند مشارف الأودر السفلى .

وضع الكولونيل مياشيف رئيس قسم الاستكشاف بالجيش تقريراً مفصلا للمجلس الحربى ، وذلك بعد أن قام بزيارة الفرق المشتركة فى صد الهجوم الألمانى فى الشمال . واستطاع الكولونيل أن يجمع بعض الحقائق ذات الدلالة استقاها من الإشارات البرقية والمعلومات التى أدلى بها الأسرى ومن ملاحظاته الخاصة .

وأول هذه الحقائق أن مدافع الألمان ودباباتهم تستخدم القذائف المضادة للمدرعات فى الهجوم ضد المشاة ! وهذا يعنى أن الألمان يعانون من نقص خطير فى القنابل المتفجرة . والحقيقة الثانية هى أن الألمان يقذفون الأهداف الأرضية بالمدافع المضادة للطائرات التى تحجب من قوة الدفاع الجوى فى منطقة ستيتن ، بل وفى منطقة برلين ذاتها . وهذا معناه أن الألمان تنقصهم مدافع الميدان . وأخيراً كانت

جميع القذائف الألمانية مصنوعة فى عام ١٩٤٥ . وكان هذا اكتشافاً خطيراً ، إذ يعنى أن القذائف تخرج من المصانع إلى ميادين القتال مباشرة وأن مخزون الألمان قد نفد .

لم يحرز الألمان أى نجاح على الرغم من أنهم ظلوا يقذفون بقوات جديدة إلى المعركة . حقيقة أن بعض فرقنا تعرضت لمواقف عصيبة ، وتكبدت خسائر كبيرة ، إلا أن هذا كله لم يكن يساوى شيئاً بالمقارنة إلى نتائج القتال العامة . فقد تحطمت محاولات الألمان لاختراق مؤخرة القوات فى الجبهة البيلوروسية الأولى . وكانت قواتنا لا تكف عن القيام بعمليات الهجوم المضاد ، فاستنزفت قوة العدو ، وأخذت تدفع قواته إلى الوراء ، وتتقدم ببطء ، وتطبق من جانب على بلدة ألتدام – آخر معاقل الألمان على الأودر الأدنى .

أشاعت هذه الحقائق جميعها الثقة والهدوء فى نفس الجنرال سيزوكريلوف .

لم يكن تشوخوف ورجاله على إلمام بالحالة العامة فى الجبهة . إن المجلس الحربى مسئول عن حياة عشرات الآلاف ، أما الجنود فهم مسئولون عن حياتهم فحسب . وتحت يد الجنرال سيزوكريلوف مئات المصادر التى يستقى منها التفاصيل التى لا تحصى ، أما الجنود فلا يعرفون إلا ما يرونه بأعينهم .

www.alkottob.com

وهم يرون أمامهم الآن الدبابات الألمانية بصلبانها ذات اللونين الأبيض والأسود ، إنها الدبابات التى سبق أن رأوها عند نهر الدون وفى نوفوجورود وسباستبول .

كان لا يزال عند الألمان عدد كبير من الدبابات ، ولكن الجنرال سيريدا شعر ، وقد لاحظ تحركات الألمان ، أن العدو يخوض المعركة وهو غير واثق من النصر ، وبشكل متردد كفيل بأن ينتهى بأى هجوم إلى الفشل . لقد اندفع الألمان فى البداية غير آبهين بالخسائر الجسيمة التى أصابتهم ، ولكن قواهم أنهكت بعد بضعة أيام ، وعلى أثر ما لاقوا من مقاومة عنيفة ؛ وأخذت الكتائب السوفييتية تتقدم ببطء .

واطمأن تاراس بتروفيتش : فترك مركز المراقبة ؛ واستقل سيارته إلى مقر القيادة حيث اغتسل وخلع حذاءه ؛ بل واعتزم الحصول على قسط من النوم . ولكن رئيس القسم السياسى لم يدعه يستريح ؛ فقد عاد بلوتنيكوف لتوه من خط النار ، وأدهشه أن يرى الجنرال راقداً على سريره وفى يده جريدة .

قال الكولونيل :

ـ ما هذا ؟ هل ستنام ياتاراس بتروفتش ؟

ـ نعم ، سأغفو قليلا . كما أنى أريد أن أتصفح الجريدة .

ـ كيف ؟ فى خط القتال الأمامى ؟

فابتسم الجنرال وقال متخابثاً :

ـ لقد سمعت . . . أنت اشتركت فى الهجوم . . . من المؤسف أنك كولونيل وإلا لمنحناك مدالية المجد من الدرجة الثالثة التى تعطى للجنود ولماذا ذهبت إلى هناك ؟ ألم يكن هناك من يقوم بالهجوم بدونك ؟ هل تريد أن أبين لك سبب ذهابك إلى هناك ؟ إن السبب هو انعدام ثقتك فى رجالك !

وانفجر بلوتنيكوف ضاحكا . وقال :

ـ وأنت ، ألا تذهب بنفسك إلى خط النار الأمامى ؟

ـ أجل . عندما يتطلب الأمر ذلك .

ـ ومن يستطيع أن يحدد ما إذا كان الأمر يتطلب ذلك أم لا ؟

فغمز تاراس بتروفيتش بعينه بخبث وقال :

ـ يجب أن تكون لديك المقدرة على التمييز !

فى هذه اللحظة طلبت الكتيبة التى تقاتل على الجناح الأيسر ، طلبت الجنرال على الراديو ، فقد حدثت تغيرات هامة فى العشرين دقيقة الأخيرة . تمكن العدو من دفع قوات الكتيبة المجاورة إلى الخلف وهاجم مؤخرة كتيبة إيفانوف . وتقوم هذه الكتيبة بتنظيم الدفاع عن خطوطها وهى تقوم بصد هجمات الدبابات الألمانية (التابعة لفرقة سيليزيا) بصعوبة .

بل حدث ماهو أكثر من ذلك ، لقد بدأ الألمان يقتحمون القرية التى فيها مركز قيادة الكتيبة ، وكان أركان حرب الكتيبة يتكلم

www.alkottob.com

في جهاز اللاسلكي من منزل تنصب عليه نيران الألمان الرشاشة.

ألقى تاراس بتروفتش نظرة من ركن عينه على بلوتفيكوف، وزرر سترته وأخذ يلبس حذاءه، ثم التقط سماعة التليفون وطلب قائد قوة «النخيل».

ـ هيء رجالك للقتال، وتوجه بنفسك إلى دروزدوف. ستجدني هناك.

وقال الجنرال وهو يضع السماعة:

ـ سأذهب إلى هناك.

فسأله بلوتفيكوف وهو يبتسم:

ـ هل تحس أن الأمر يتطلب ذلك؟

وأجاب الجنرال غاضباً:

ـ نعم.

استقل الجنرال سيارته وتوجه إلى البحيرة التي تعسكر إلى جوارها أورطة القناصة الاحتياطية. وكانت الأورطة قد تأهبت فعلا للقتال ووقفت تشكيلات الجند على شاطئ البحيرة. واستقبل قائد الأورطة ـ وهو ضابط شاب ممتلئ الجسم لا يرتدي معطفاً ويحلي صدره العريض بوسامين من أوسمة العلم الأحمر ـ استقبل الجنرال بصيحة مدوية: «انتباه»!

نزل الجنرال من السيارة، ومر يستعرض صفوف العصبة ويتفحص وجوه الرجال بعناية، ثم قال:

ـ أيها الرفاق، سأرسل بكم إلى المعركة. ولم تكن بي رغبة في ذلك فأنتم الاحتياطي الخاص الملحق بقيادتي المباشرة. وهذا يعني أن الضرورة الملحة هي التي تضطرني إلى ذلك. وإني أطلب إليكم أن تقاتلوا قتالا لائقا باحتياطي قائد الفرقة. أطردوا القوات الألمانية من المكانين الآهلين بالسكان، وأعيدوا الموقف إلى صالحنا، وساعدوا الفرقة المجاورة التي هي في مركز لا تحسد عليه، وباختصار، إني أطلب إليكم أن تحرزوا النصر على العدو. هذا هو الأمر الذي أصدره إليكم ولن تذهبوا للقتال سيراً على الأقدام ولكنكم ستذهبون راكبين على المدافع الأتوماتيكية.

وسمعوا صوت محرك يهدر، وإذ بسيارة تقترب منهم قادمة من المرعى وهي تنثر رذاذ الماء من تحت عجلاتها. التفت الجنرال نحو السيارة التي وصلت بعد قليل، وقفز منها ضابط برتبة كولونيل قصير القامة قمحي اللون. وتقدم بخطوات متسقة نحو الجنرال. كان هذا الضابط هو قائد كتيبة المدفعية الآلية، وقدم تقريره إلى الجنرال عن تجمع الكتيبة عند خط التجمع في غابة في المنطقة التي ارتفاعها ٦١،٠ وأنها على استعداد للحركة. فقال الجنرال:

ـ ستكون الأورطة معك في ظرف ساعة.

www.alkottob.com

وبعد أن انصرف الكولونيل رفع قائد الأورطة يده الكبيرة بالتحية وصاح :

— هل أتقدم يارفيق ؟

فأشار قائد الفرقة بيده . وأعطى قائد الفصيلة الأمر :

— إلى اليمين در .

وضربت كعوب الجند الأرض فى وقت واحد .

وسأل الجنرال قائد الأورطة :

— لماذا لاتلبس معطفا ، يمكن أن تصاب بالبرد !

فصاح قائد الأورطة بأعلى صوته وبألفاظ متناسقة كأنه يلقى أحد الأوامر :

— لم أصب بأى مرض فى حياتى يارفيق جنرال !

ثم التفت إلى الجنود وصاح :

— إلى الأمام سر .

ومرت صفوف الأورطة بالجنرال ، ثم اختفت عند انحناءة فى الطريق .

وسأله بلوتنيكوف متهكماً :

— حسناً ، هل ستذهب لتنام ؟

— لابأس من التسكيت .

ونحاه الجنرال جانباً ، ثم وقف هنيهة ، وكأنه ينصت إلى شىء ما ، ثم استقل سيارته .

بعد أن عاد الجنرال إلى مركز المراقبة أمر قسم العمليات بالإعداد لهجوم عام فى تمام الساعة الثامنة عشر يتم فى الوقت الذى تهاجم فيه أورطة المدفعية الأوتوماتيكية . وتلقى اللفتنانت كولونيل سيزيخ أمراً بتنظيم ستار مدفعية يستمر عشرين دقيقة .

ذهب بلوتنيكوف إلى القسم السياسى وأخطر رجاله بالهجوم المقبل وأرسلهم إلى كتائبهم . وشعر الكولونيل بعدم الارتياح للتراخى الذى لاحظه فى خط القتال الثانى ، فقرر الذهاب إلى مؤخرة الفرقة لتنظيم عملية تسليم الذخائر بسرعة ، الأمر الذى أصبح على أعظم جانب من الأهمية فى هذه الظروف .

وبعد أن انصرف الكولونيل استقل الجنرال سيارته فى طريقه إلى خط النار الأمامى .

مرت السيارة بأنقاض القرى الألمانية المحترقة . وتذكر الجنرال قرى بيلوروسيا التى قوضها الألمان وسووها بالأرض . لقد ظلت الجبهة البيلوروسية محتفظة باسمها وهى تقاتل عند حائط بوميرانيا لكى يظل فى هذا الإسم تذكرة بالمصير الذى ينتظر كل من تحدثه نفسه بالعدوان على الاتحاد السوفيتى .

هبت ريح قوية رطبة من الشمال الغربى ، فتذكر الجنرال أن البحر

www.alkottob.com

قريب ، والتفت إلى اللفتنانت كولونيل سيزيخ الذى كان معه فى السيارة . ولكن ضابط المدفعية اقتنص فرصة الهدوء وراح فى نوم عميق.

نظر الجنرال إلى ساعته فوجدها ١٧,٣٠ ، ونظر إلى السائق بركن عينه فوجده ينظر إلى الأمام نظرة شاخصة . قال قائد الفرقة :

— ريح البحر .

فهز السائق رأسه وأجاب باقتضاب :

— البلطيق .

كان الهدوء يسود الغابة التى تجمعت فيها كتيبة المدفعية الآلية . وكان جنود الأورطة الاحتياطية يأكلون وهم جالسون على الأرض . واختلط بهم رجال المدفعية ببذلاتهم الزرق ، والمشاة يدعونهم لتناول العصيدة معهم ، ولكن رجال المدفعية رفضوا الدعوة . وقال أحدهم :

— من الأفضل أن يحارب الجندى ومعدته خاوية . إن ذلك يجعله أشد ضراوة وبأساً .

وصل رجال الاستكشاف وعلى رأسهم ميشيرسكى ، ثم وصل الكولونيل كرسيكوف ، وأبلغ الجنرال أن القوات التى إلى يمينه تقدمت أربعة كيلو مترات وأن قائد الفيلق يطالب سيريدا بالعمل السريع .

ونظر الجنرال إلى ساعته : كانت السادسة إلا ثلثاً .

وصل القناصة المكلفون بمصاحبة المدافع الآلية ؛ وكان إيفانوف

يطلب النجدة بالراديو . ونظر الجنرال إلى ساعته : لم يبق إلا عشر دقائق ودوى النداء : « إلى المصفحات ! » فاندفع رجال المدفعية الآلية إلى الهياكل النولاذية العملاقة .

دس المشاة ملاعقهم فى جوانب أحذيتهم وشدوا (كروناتهم) إلى حقائبهم .

وانبعث صوت من أحد التليفونات من مكان ما بالغابة :

— « عش الغراب » ، « عش الغراب » ، « عش الغراب » !

ووقف الجنرال عند حافة الغابة ، وأخذ ينظر من خلال منظاره المكبر إلى السهل المنبسط أمامه ، وإلى الشجيرات الخضر التى تحف بالجدول الضيق الواقع على الشمال . وعلى مسافة بعيدة إلى يساره لمح الجنرال مدينة وبرجين عاليين من أبراج الكنائس ، وقد انعقد الدخان الأسود فوق المدينة .

أطلقت المدفعية نيرانها ، واندفعت المدافع الأوتوماتيكية من الغابة . سارت المدافع فى البداية الواحد خلف الآخر ، ولكن عندما أصبحت فى محاذاة التحصينات المصنوعة من القرميد انتشرت المدافع فى شكل مروحة وأخذت تطلق النار وهى تتحرك . وجر رجال الإشارة الأسلاك خلفها ، وسرعان ما توجه الجنرال وأركان حربه إلى تلك التحصينات حيث ذهب ميشيرسكى ورجاله لإعداد مركز للمراقبة يصلح للجنرال .

صعد الجنرال على الدرج إلى الطابق الأعلى حيث وضعوا منظاراً

www.alkottob.com

للميدان . كانت المدفعية تقصف بلا توقف . وأخيراً ساد نوع من الهدوء لا يمزقه سوى صوت إطلاق المدافع الآلية الحادة الجافة الشبيهة بالسعال الغاضب . وعلى السفوح الواقعة إلى اليمين تسلق الرجال الخنادق واندفعوا إلى الأمام . ونقلت الرياح إلى أسماع الجنرال أصداء صيحة « هوراه » .

بدأت بلاغات الكتائب تصل بعد ثلاثين دقيقة : اقتحمت كتيبة المدافع الآلية خطوط الألمان ووصلت إلى مؤخرة العدو ، وحطمت كتيبة إيفانوف حصار الألمان بمساعدة كتيبة المدافع الآلية واستولت على ثلاثة مراكز مأهولة ، وتقدمت الكتائب الأخرى بنجاح . ومر رجال المدفعية بمراكز المراقبة وهم يجرون المدافع ويحملون صناديق الذخيرة فوق ظهورهم ويتصايحون ويلعنون .

تقدم الجنرال إلى الأمام ، وسرعان ما وصل مركز القيادة إلى التحصينات . وأسر فورونين ضابطاً ألمانياً وأحضره إلى أوجانسيان . وكان أوجانسيان يوشك أن يبدأ استجوابه حين وصل الكولونيل بلوتنيكوف من المؤخرة ، الذي أبدى رغبة الكولونيل في حضور الاستجواب ، فاستدعى أوجانسيان والأسير

أخبرهم الضابط البحري الكابتن إيرهارت بأنه لم تبق في ألتدام سوى قوة للتغطية تحرس التحصينات المقامة عند رأس الجسر . لقد انسحبت الفرق الممزقة إلى الضفة الغربية حيث تحاول إعادة تنظيم

صفوفها واتخاذ مراكز دفاعية جديدة . وأضاف الكابتن الألماني وهو يطرف بعينيه في انتظار السؤال التالي :

ـ سيعملون ذلك ، إن استطاعوا .

لقد فقد هذا الضابط أخاه الذي جرح في معارك الأمس ومات بين ذراعيه . كان أخوه ضابط اتصال بالبحرية ، وكان أفراد عائلته جميعا من البحارة . وكانوا يرددون دائماً منذ معركة تيرينتز أن مستقبل ألمانيا سيتقرر في البحار . وعندما تحولوا إلى سلاح المشاة قام القائد العام السلاح البحري ـ الأميرال دونيتز بزيارتهم ، وكان ذلك في ألتدام منذ ثلاثة أسابيع . وقال الأميرال في حديثه للفرقة التي تحمل اسمه إن مستقبل ألمانيا سيتقرر فوق هذه الرقعة الصغيرة من الأرض .

واختلج وجه البحار الوسيم بالغضب ، ثم قال بعد لحظة صمت :

أثناء إعادة تدريبنا كان المدربون من سلاح المشاة يضربون المثل بالبحارة الروس الذين أثبتوا تفوقهم في معارك سباستبول ولينجراد . لم يكن من الكياسة تذكيرنا بشجاعة البحارة والمشاة الروس في هذه الظروف ، فبحارتنا لن يستطيعوا ـ أو ربما لن يتسع أمامهم الوقت ـ ليصبحوا مشاة حقيقيين . في مارس كان عدد الفرقة ١٤ ألف رجل ، أما الآن فلم يبق منها للأسف سوى أربعة آلاف رجل فحسب ، انهارت معنوياتهم . وكانت الفرقة جزءاً من فيلق الأودر الذي كان جزءاً من جيش الفستولا تحت قيادة هملر قائد فرق العاصفة .

www.alkottob.com

ولاحظ أوجانسيان أن الكابتن الألمانى كان يتكلم عن فرقته وعن الفيلق وعن الجيش وعن هملر بصيغة الماضى . وقال الكابتن :

ـ لم تبق فى ألمانيا أنهار أخرى لكى تتسمى الفيالق الألمانية باسمها .

ثم تمتم :

ـ لم يبق سوى نهر واحد ـ هو نهر الليث .

وترجم أوجانسيان هذه الكلمات إلى الكولونيل بلوتنيكوف .

كان الكولونيل يتفحص وجه ضابط البحرية الشاحب . ولاحظ الألمانى أن الضابط الروسى ينظر إليه مفكراً ، وبدا له أنه يعطف على حاله ، فقال فجأة :

ـ أيها الهر كولونيل ، خذنى فى بحريتكم فأنا خبير فى حرب الغواصات ولى دراية كافية بها . لقد سئمت العمل مع هؤلاء المغامرين ، والأغبياء الملتاثين .

فابتسم الكولونيل وقال :

ـ لم تعد مضطراً إلى العمل معهم بعد الآن . ولكن إذا ظهر أمثال هؤلاء المغامرين فى المستقبل فإنى أنصحك بتذكر عبرة هذه السنين وكلماتك التى قلتها الآن .

والتفت الكولونيل إلى أوجانسيان وقال :

ـ إسأله إن كان يقبل التحدث إلى زملائه فى مكبرات الصوت .

ووافق إبرهارت فى الحال . وفى المساء أخذوه إلى خط النار

الأمامى الذى كان يمتد بين منازل ضواحى المدينة . وترددت أصداء صوت الكابتن عالية مدوية بين المخازن والأرصفة المشيدة على ضفاف النهر :

ـ أنا الكابتن إبرهارت ، يعرفنى الكثير من بينكم . كان أبى وجدى فى السلاح البحرى من قبلى وأستطيع أن أفرر أننى أيضاً مواطن ألمانى شريف ، وبصفتى هذه أدعوكم إلى إلقاء السلاح ، أدعوكم ألا تسفكوا دماءكم من أجل هتلر . العار والموت له ! لقد جر الخراب والدمار على بلادنا !

وعندما انتهى الضابط الألمانى من إلقاء خطابه وقف فى مكانه وكأنه قد تحجر ، ثم بدأت كتفاه تهتزان بعصبية ، ثم استدار فجأة وانصرف فى حراسة رجال الاستكشاف الصامتين .

www.alkottob.com

١٩

واصل الجند سيرهم إلى الأمام ، وقد انتفشت أحذيتهم بفعل الماء والوحل كانوا متعبين غاضبين يتصببون عرقاً . وعلى جانبي الطريق مدافع صفر ودراجات محطمة وسيارات ولوريات مهشمة .

وفى المساء شق تشوخوف ورجاله طريقهم إلى مدينة صغيرة على نهر الأودر . كانت الدبابات الألمانية المحطمة تقف فى الشوارع الخالية والمدافع المضادة للطائرات منصوبة عند مفترق الطرق .

وكان وصول الروس مفاجأة لسكان المدينة الذين قرأوا بالأمس فقط أنباء نجاح الهجوم الألمانى فى صحف ستيتن .

كانت الأضواء تتلألأ فى النوافذ . يبدو أن محطة توليد الكهرباء فى ستيتن لم يصل إلى علمها بعد أن هذا القطاع قد سقط فى قبضة القوات الروسية

وفى النهر بالقرب من الشاطىء وقف مركب حربى ينفث الدخان فى الظلام ، وتدب عليه أقدام ثقيلة ، وينبعث من إحدى نوافذه ضوء فانوس .

أخذ تشوخوف مدفعاً رشاشاً من فوق كتف سميجلاف وهبط إلى

الشاطىء ، وثبت المدفع إلى جوار لوحة للإعلانات ثم أطلق وابلا من الرصاص والقذائف التى تخترق المدرعات . وألقى ساليفنكو قنبلة مضادة للدبابات على الصندل . فدوى انفجار مروع واندلعت ألسنة اللهب من المركب وتعالت منه الصيحات والأنات .

وصلت أصوات الإنفجارات إلى مركب حربى آخر وزورق يقف فى وسط النهر . وتألقت الأضواء فى السماء فوق الظلام الزجاجى . وسرعان ما بدأ إطلاق الرصاص عبر النهر . أخذت المراكب تطلق النار على المدينة اعتباطاً . وتوالت الإنفجارات ، وفتحت مدفعية السواحل البعيدة المرمى نيرانها من مدينة ستيتن .

وعلى الرغم من تبادل إطلاق النار تمدد الجنود لينالوا قسطاً من النوم ، ولكنهم سرعان ماأوقظوا ليواصلوا المسيرة لكى يقطعوا الطريق الواصل بين ألتدام والجسر الجنوبى المقام على النهر . وتخطى تشتفيركوف قائد الكتيبة — تخطى جنوده سيراً على قدميه القويتين ، وصاح :

— لماذا أتقدم وتسيرون أنتم ببطء ؟ هل سأقوم بالهجوم وحدى ؟

فدب النشاط فى الجنود وأسرعوا الخطى . ظلوا يسيرون ويسيرون وقد نسوا الراحة والنوم مرة أخرى . وكانوا كلما مروا بأحد المنازل يتطلعون إلى نوافذه وقد امتلأت نفوسهم بالحسد ، فخلف هذه النوافذ أسرة كبيرة مريحة عليها حشيات ناعمة من الريش . وقال ساليفنكو :

www.alkottob.com

ـ لاتبتئسوا يافتيان . اصبروا قليلا ، فستتمكن من النوم بعد قليل !

وقال جوجوبريدز :

ـ سأنام شهراً ! شهراً كاملا ! إنى مستعد للتضحية بأى شىء فى سبيل لحظات نوم على الجبال تحت معطف من فراء الغنم .

وقد يحدث من حين لآخر أن يحاول أحدهم النوم وهو يسير فيفقد الاتجاه ويشرد بعيداً عن الطابور ويسير مترنحاً حتى يناديه زملاؤه فيصحو ويهز رأسه ويلتفت حواليه . ثم يعود بسرعة ليأخذ مكانه بين الآخرين .

أبدى الألمان مقاومة عنيفة بالقرب من ألتدام . وظلت مدفعية السواحل البعيدة المدى تطلق نيرانها من ستيتين . وأطلقت المدافع الرشاشة نيرانها من أعالى المنازل . وتمدد الجند على الأرض وراحوا فى النوم فوراً إلا من كلف منهم بالحراسة .

نام الجنود على حين كانت مدفعيتنا تتخذ مواقع جديدة ونيرانها تشتد وتتسع . وظهر تشتفيريكوف من جديد ولكنه لم يكن وحده فى هذه المرة . كان معه الكولونيل كراسيكوف الذى صاح :

ـ لماذا توقفتم ؟ إلى الأمام !

وتولى الكولونيل قيادة الهجوم بنفسه .

نهض الجند وتقدموا وهم يعدون من ساتر إلى ساتر ومن مرتفع إلى

آخر . واقتحموا الضواحى القريبة للبلدة . وكان الجسر الأخير الذى يصل ألتدام بستيتين يحرسه قطار ألمانى مصفح . وكان الجنود يسمعون طلقاته أثناء هبوط الظلام .

وعثروا فى الطريق على مدافع ألمانية مضادة للطائرات ، فأمر تشوخوف الجنود بجرها وتصويب فوهاتها ناحية مراكز إطلاق النار ، فقام الجنود بتلك المهمة ودفعوها إلى الأمام وهم يتصببون عرقاً . ولكنهم لم يطلقوها سوى ثلاث مرات لأنهم لم يعثروا على مزيد من القذائف .

زحف ساليفنكو إلى الأمام وفى يده قنبلة يدوية ، وكانت أنفاس بيشوجين الثقيلة تصل إلى مسامعه وهو يزحف إلى يساره . سأله ساليفنكو :

ـ هل تعبت يا بيشوجين ؟

فأجاب بيشوجين وهو يلهث :

ـ لا تحمل هماً . سنصمد .

وفى مفترق الطرق أمامهما نصب مدفع رشاش ألمانى يطلق النار بعناد ويحول بينهما وبين مواصلة التقدم ، فتوقفا . ولم يعد ساليفنكو يسمع أنفاس بيشوجين الثقيلة فتلفت حوله فلم يجده . رفع ساليفنكو بصره فرأى على يساره منجراً كبيراً عليه لافتة ضخمة تهشمت واجهته الزجاجية .

www.alkottob.com

وفكر ساليفنكو بغضب : لا بد أنه دخل ليملأ حقيبته القديمة .

تقدم أحد المدافع الآلية ببطء فى الشارع ثم توقف فى مفترق الطرق وأطلق قنابله على أحد المنازل عند الناصية . وصمت الرشاش الألمانى وبدأ قصف المدافع كالرعد . وترددت أصداء صيحة الـ « هوراه » من جميع الجهات وكأنها هدير العاصفة المكتسحة .

واندلع لسان من اللهب فى الفضاء ، واحترق القطار المدرع فوق ضفة النهر السوداء .

اندفع ساليفنكو إلى الأمام ، وسرعان ما ساد الهدوء ، وخرج بعض الجنود الألمان من المنزل وأيديهم مرفوعة فى الهواء .

ومسح ساليفنكو العرق المتصبب على جبينه وفكر مرة ثانية فى بيشوجين .

وسأل جوجو بريدز :

— هل رأيت بيشوجين ؟

ولكنه تبين أن أحداً لم يره . فقال بغضب :

— أنا أعرف أين هو ... سأذهب إليه الآن .

لم يعد الجنود بحاجة إلى التقدم فى طرقات البلدة وهم منحنون إلى الأمام . وأخذت البلدة تمتلىء شيئاً فشيئاً بالقوات الروسية .

عاد ساليفنكو إلى المتجر الألمانى الذى اختفى فيه بيشوجين . نعم ، كان الجندى هناك . رآه ممدداً بالقرب من منضدة الصراف وقد أصيب

بجرح ، فجره ساليفنكو إلى الشارع وانحنى فوقه وسأله :

— ماذا أصابك ؟

— لقد أصابنى الرشاش فى صدرى ، هنا .

ثم أن وهو يتكلم بصعوبة من بين أسنانه :

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟ لن أموت ! لست من هذا النوع . فأنا بيشوجين .

— كيف حدث هذا ؟

— جئت إلى هنا لألقى نظرة على المكان .. وكان هناك رشاش ألمانى ... الخنزير .

كانت كلمات التقريع على شفتى ساليفنكو ولكنه ظل صامتاً ، ومزق حزام بيشوجين وفك أزرار معطفه ، ورفع سترته . كان خيط صغير من الدم يدفق من الجرح . ومزق ساليفنكو ضماداته الخاصة ووضع القطن الطبى البارد على الجرح وقال :

— انتظر لحظة ، سأحضر رجل الإسعاف .

كانت شوارع البلدة المظلمة ممتلئة بالجند ، ولكنه لم يجد بينهم أحد من رجال الإسعاف .

وكان ساليفنكو يسأل كل جماعة يصادفها :

— هل بينكم أحد من رجال الإسعاف ؟

www.alkottob.com

وأخيراً عثر على جندى من الأورطة الطبية وبعض حملة المحفات.

كان بيشوجين راقدا ووجهه إلى الأرض، ولما قلبه ساليفنكو على ظهره برقة وجده قد فارق الحياة. كان وجه بيشوجون باسماً ماكراً وهو على قيد الحياة، أما الآن فقد كان حزيناً هادئاً.

وانصرف الجندى وحاملو المحفات.

وظل ساليفنكو واقفاً بجوار جثة بيشوجين وقد تملكه شعور مفاجىء بالإعياء الشديد. كان إطلاق النار قد توقف. وسيل لاينتهى من الرجال يسيرون فى الشوارع فى طريقهم للراحة. وسقط ضوء باهر على وجه بيشوجين وظهر ساليفنكو العريض المتعب.

كان رجال الإشارات يجرون الأسلاك فى الشوارع والأفنية. وتناقل الناس الأخبار من فوق الأسطح، ومن حدائق المنازل الخلفية بل وفى الشوارع: لقد سقطت ألتدام

لم يعد فتلر جندى واحد على الضفة الشرقية لنهر الأودر. وانهارت خطة الهجوم المدروسة وانهارت معها آمال بورك وونكل وآمال المرأة العجوز فون بوركاو وغير هؤلاء من مخلفات ألمانيا القديمة الذين تركوا فى المؤخرة السوفيتية.

توقفت إحدى السيارات بالقرب من ساليفنكو وقفز منها الماجور جارين. قال:

— هل تعرف إلى أين انتقل مقر قيادة الكتيبة؟

وإذ تعرف جارين على ساليفنكو أخبره أن القسم السياسى سيعقد اجتماعاً لمنظمى الحزب فى مختلف الفصائل، وطلب منه أن يعد تقريرا عن نشاطه الحزبى. ولاحظ جارين الجثة الممددة فوق الأرض، فتوقف عن الكلام، ثم سأل وهو ينظر بإشفاق فى وجه بيشوجين:

— ماذا؟ صديق؟

فقال ساليفنكو:

— لم يكن صديقا بمعنى الكلمة. ولكننا حاربنا جنباً إلى جنب فى فصيلة واحدة. إننى أشعر بالأسف من أجله، فقد كان يتطلع إلى حياة أفضل ولكنه لم يكن يعرف الطريق إليها. كان مايزال متأثراً بالأفكار القديمة، الأمر الذى كان يعانى منه شخصياً. لقد كان رجلا معقداً.

استقل جارين سيارته وانصرف، ولكن ساليفنكو ظل واقفاً فى مكانه. كان يفكر فى ضرورة دفن جثة بيشوجين.

عثر ساليفنكو على فصيلته بعد بحث شاق. كانت البلدة مكتظة بالقوات والمدافع والسيارات الروسية والألمانية التى وقعت فى أيدى الروس. وأرشده أحد معارفه من جنود الإشارة التابعين لأورطة القيادة — أرشده إلى مكان فصيلته. كانت تعسكر فى أكواخ الصيد المنتشرة على ضفة النهر، وشباك الصيد الكبيرة مكومة فى كل مكان ورائحة السمك تفوح من كل شىء.

www.alkottob.com

وفوق مياه الأودر الداكنة والجسر المدمر ، والمخازن المظلمة ، سماء سوداء مقبضة تضيؤها من وقت لآخر ومضات الانفجارات .

كان الرجال فى غاية الإنهاك ، ولكن أحداً منهم لم ينم ، فانفعالات المعركة الليلية لم تكن قد هدأت بعد . وكانت الفصيلة قد فقدت ثلاثة جنود ، وأثارت أنباء موت بيشوجين الحزن فى نفوس الجميع على الرغم من أن الكثيرين منهم لم يحبوه لشخصيته المعقدة .

وقال سميجلاف :

— كان يريد الوصول إلى الجنة على أكتاف الآخرين . كان فردياً .

فقال الباشجاويش :

— لماذا تتذكر جوانبه السيئة الآن ؟

وقال جوجوبريدز :

— لقد كان مضحكا . ياله من رجل مضحك !... ستكون الحياة من غيره كئيبة ...

تحامل ساليفنكو على نفسه ووقف بصعوبة ، ثم قال :

— إننى ذاهب لأعرف أين دفنوه . يجب أن أكتب لعائلته .

وخرج من الكوخ وسرعان ماوجد نفسه فى شوارع البلدة . لم يعد هناك سوى عدد قليل من السيارات والرجال فقد أحتوتهم المنازل والأفنية .

وصل ساليفنكو فى الوقت المناسب فقد كانت ثلة من رجال الدفن التابعين للفرقة تبحث عن القتلى وتجمعهم ، وكان قائدهم ملازما أول كبير السن يبلغ الخامسة والأربعين له لحية مدببة . وكان يسير وفى يده مشعل . كان الرجال من الجنود المتقدمين فى السن غير المحاربين . وكانوا يقومون بعملهم بهدوء يحسدون عليه . وكانوا يدخنون الماخوركا فيضىء وهج لفافاتهم الضخمة للحظات هذا الوجه الملتحى ، أو ذاك الوجه ذا الشارب الذى لاتبدو على أيهما انطباعات المرح أو الحزن .

وأخيراً توجه رجلان منهم إلى بتشوجين . وسأل أحدهما ساليفنكو :

— هل هو من بلدتك ؟

— نعم .

— من أين ؟

فأجاب ساليفنكو متبرماً :

— كان من كالوجا . أما أنا فمن حوض الدنيتز .

— وتعتبره من بلدتك ؟

وتدخل الرجل الثانى فى الحديث قائلا :

— إننا جميعاً (بلديات) عندما نكون على أرض أجنبية .

أصدر الملازم ذو اللحية المدببة أمره بمواصلة السير ، وتدحرجت العربات فوق الطريق الرئيسى ببطء ، وعلى الطريق إلى جوار العربات تهادت أشباح جنود ثلة الدفن السود . قال أحدهم :

www.alkottob.com

— وقعت حادثة مثيرة لأحد الملازمين عند المحطة . عثرت عليه عمداً هناك ، وأمسكته من قدميه ، ثم رفعته إلى كتفى . كان ضابطاً وسيماً صغير السن . وعندما وضعته على كتفى قال : « أهذه أنت يا ماما » . تبينت حينئذ أنه حى . قال إنه كان يخوض المعركة لأول مرة فى حياته ، وإنه ضابط فى سلاح الإشارة فى مقر القيادة . وإنه كان فى طريق العودة من خط النار الأول حين جلس الفتى المسكين وغاب فى النوم كالميت . ونام سبع ساعات متواصلة . ربما كانوا يبحثون عنه فى كل مكان وهو غارق فى النوم ، وكنا على وشك أن ندفنه حياً .

وقال صوت آخر تختلج فيه نبرة تأثر :

— كان يحلم بوالدته . حسناً ، فهو مازال غلاماً صغيراً على الرغم من أنه ملازم فى الجيش .

وقال صوت ثالث :

— لقد قتل كثير من رجالنا هذه المرة . لقد كانت المعركة حامية .

وقال الرجل الذى قص حكاية الملازم :

— ولكن مهما كان الأمر ، أليس من الغريب أن نكون على أرض ألمانيا .

وقال صوت آخر :

— هذا صحيح . لقد قرب الوقت الذى ننتهى فيه من عملنا البغيض .

وقال آخر بفتور :

— إنها مهمة من مستلزمات الحرب .

بدأ نور الفجر ينتشر . وظهرت أشباح صامتة فوق التل الذى اختير ليكون جبانة لجثث ضحايا الفرقة ، وكان معروفاً على الخرائط باسم المرتفع رقم ٩٫٢ ، الذى يقع على مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الشرقى من ألتدام . وتمددت جثث القتلى التى جمعتها ثلة اللحادين على الأرض وإلى جوارهم كومة من البنادق ومدافع التومى وكومة أخرى من الصلبان الخشبية عليها نجوم حمر . كان التل قريباً من الطريق الرئيسى الموصل إلى لاندسبرج وبوزنان ووارسو وبريست ومينسك وموسكو . وهناك طريق آخر يوصل إلى كالوجا ، وهو الطريق الذى سلكه ذلك الجندى الضئيل الخاطئ ، تيموفى تروفيموفيتش بيشوجين ، ولن يعود أبداً .

وقف ساليفنكو يراقب الجنود صامتاً ، وهم يوارون جثة بيشوجين التراب . كان يحس بالانقباض لعجزه عن الإفصاح عن شىء فى نفسه كان يريد أن يقوله لبيشوجين ، ولكنه لا يستطيع ذلك الآن .

www.alkottob.com

٢٠

بعد الإستيلاء على ألتدام توجه كراسيكوف لزيارة تانيا وفى حقيبته خطاب كتبه لزوجته سوف يعطيه لتانيا إذا دعا الأمر . وكان سيميون سيميونوفيتش واثقاً من أن تانيا أو أية امرأة أخرى ستوافق على أى شىء بعد قراءة هذا الخطاب . كان كراسيكوف فى حالة معنوية مرتفعة فقد انتهت معركة التدام بنجاح ، وتردد أن الفيلق سينقل إلى جبهة برلين وكان سيميون سيميونوفيتش مايزال متأثراً بذلك الهجوم الذى قاده ليلا وكان يعتقد أن نجاح قواتنا فى اقتحام مشارف ألتدام الجنوبية إنما يرجع الفضل فيه أساساً إلى مشاركته الشخصية .

وفى القرية التى عسكرت فيها الأورطة لم ينج من الدمار سوى منزلين اثنين . ولم تكن كل خيام الأورطة قد نصبت بعد ، ولكن خيمة العمليات كانت وحدها هى التى تعمل . وكان الجرحى يتمددون أو يجلسون على الأرض أو على المحفات فى العراء ، أما الجنود المصابون بجراح خطيرة فقد وضعوا فى المنزلين .

تحدث كراسيكوف إلى بعض الجنود بلغة تعودوا أن يسمعوها من

بعض الضباط الكبار ، لغة تفتقر إلى الألفاظ والمعانى معاً . وغالباً مايتهون خطابهم بروح الراعى الذى يحاول التبسط مع رعيته وبعبارات من مثل : « حسناً يا أولاد ، كيف الحال الآن » أو « حسناً يافتيان ماذا حدث » . أو « حسناً يازملاء كيف تسير الأمور » ؟

وكان الجنود يمقتون هذه اللهجة وتلك العبارات . ولكن الاحترام الذى يتميز به الجندى الروسى للرتب الأعلى كان يستوجب على الجرحى أن يتقبلوا لهجة كراسيكوف وأن يردوا بالطريقة نفسها ، إجابات لاتخلوا من الجفاف :

« لابأس يارفيق كولونيل ... » أو « إن رجال الدبابات لايتحدثون عن الموت » .

جاء الأطباء ، وتحدث كراسيكوف معهم عن المعركة الأخيرة وعن دلالة الاستيلاء على ألتدام ودحر تشكيلات الألمان التى كانت تهدد الجناح الأيمن . وقال كراسيكوف :

— لقد قاتلت ألتدام قتال المستميت ، وكان على أن أقوم بقيادة إحدى كتائبنا بنفسى .

وسكت لحظة ، ثم سأل :

— أين كولتسوفا ؟

www.alkottob.com

— فى الخيمة تجرى العمليات للجرحى .

— هل ستنتهى من عملها سريعاً .

— نعم .

— سأنتظر .

وذهب الكولونيل يتجول فى القرية فلمح من بعيد غابة وبحيرة وطابوراً طويلا من العربات يتقدم فوق الطريق الرئيسى ويسير بجانبه عدد كبير من الأجانب الذين أطلق سراحهم . وكان بعض الأسرى الفرنسيين الذين حررتهم قواتنا على شواطىء البلطيق يركبون عربة ريفية يجرها حصان روسى ، وقد ارتفع فوق العربة علم فرنسا المثلث الألوان .

كان المسافرون يلبسون فوق رؤوسهم بيريهات وقبعات عسكرية وأخرى من القش أو القماش . فلوح كراسيكوف لهم بيده ، وعاد إلى القرية .

كانت عملية ترحيل الجرحى قد بدأت . وتقاطرت عربات الإسعاف على طول الطريق ، وتنقل رجال الإسعاف بمحفاتهم فى كل مكان .

رأى كراسيكوف سيارة أخرى تقف إلى جوار سيارته . كانت سيارة جديدة وجميلة من ماركة أوبل — أدميرال وقعت فى قبضة

قواتنا . ورأى سائقه وسائق السيارة الأخرى يتأملانها ويتحدثان عن مزاياها . وسأل كراسيكوف :

— من الذى جاء إلى هنا ؟

— الكولونيل فوروبيوف .

فارتبك السائق وقال :

— ليرى كولنسوفا .

اتسعت عينا كراسيكوف . ولكن كل شىء أصبح واضحاً بعد قليل حين خرج من خيمة العمليات الكولونيل الضخم متهللا مبتسما ومعه تانيا . كانت يد قائدالفرقة اليسرى ملفوفه بالضمادات ، وقدمالت قبعته الخضراء إلى الوراء .

وسأله كراسيكوف :

— هل جرحت ؟

- نعم جرح بسيط .

كان الضحك فى عينى فوروبيوف الرماديتين الماكرتين . ونظر إلى كراسيكوف نظرة ساخرة ، أو ربما توهم كراسيكوف ذلك . وسأله كراسيكوف :

— متى حدث ذلك ؟

www.alkottob.com

— منذ مدة .

— لماذا لم تسمع به ؟

فابتسم فوروبيوف وقال :

ـ لقد أمرت بذلك . شكراً لتانيا فلاديميروفنا التي جاءت لإنقاذي .

(وأمسك بيد تانيا وقبلها) .

— يد من ذهب ، وشفتان من ذهب لا تبوحان بسر . والمشكلة هي أنني يجب ألا أقبلهما ، فهي مرهوسني قبل كل شيء . ها ـ ها ـ ولماذا جئت أنت إلى هنا ، هل أنت مريض ؟

وتمتم كراسيكوف :

— نعم ، أسناني .

— أوه . أسنانك !

وابتسم فوروبيوف وبدأ كراسيكوف يحس بعدم الإرتياح . ولكن قائد الفرقة حول مجرى الحديث في الحال . قال :

— سمعت أنك قدت إحدى الأورط في هجوم الأمس .

فقال كراسيكوف دون اكتراث :

— نعم ، حدث هذا .

وأشار فوروبيوف إلى السيارة وسأله :

— هل رأيتها ؟ لقد أسرها رجال الإستكشاف . كانت فيما مضى سيارة الجنرال ديتيك قائد فرقة المظلات الألمانية التاسعة . لقد وجدنا بها باراشوت . يبدو أن الجنرال قد اضطر إلى الهبوط من السيارة بدونها .

بعد رحيل فوروبيوف نظر كراسيكوف إلى تانيا لأول مرة . كانت جميلة جذابة في ردائها الأبيض وقبعتها البيضاء ، وكانت عيناها المستديرتان الصافيتان تنظران إلى كراسيكوف في برود وجد .

وسألها كراسيكوف :

— أين تقيمين هنا ؟ يجب أن أتحدث معك .

— لا أقيم في أي مكان حتى الآن . فقد أخذ الجرحى يتوافدون فور وصولنا .

واقترح كراسيكوف أن يتجولا قليلا في القرية . وبعد أن سارا صامتين قليلا قال :

— حين طلبت يدك لم أكن أهزل . وبالأمس ، وفي أثناء المعركة ، وأنا أواجه الخطر ، أعدت التفكير في كل شيء مرة أخرى وأدركت كل شيء .

www.alkottob.com

ثم فتح حقيبته وأخرج الخطاب :

ـ هذا خطاب كتبته لزوجتى أخبرها فيه أنى أحبك وأعلنها بقطع كل صلة لى بها . لقد انتهيت من الماضى ياتانيا .

وأخذ يدها بين يديه وضغط عليها بشدة ، وشاع الجد فى نبرات صوته :

ـ لقد تحولنا إلى الزحف على برلين . لم يعد أمامنا سوى المعركة الأخيرة فى الحرب . ويبدو أن هذا سيلتقى مع سعادتنا الشخصية ...

كانت تانيا صامتة ، ولكنه واصل كلامه مسرعاً :

ـ أما عن تلك الممرضة ... فإنى أقدر مشاعرك الطيبة نحو الآخرين ياتانيوشا . لقد كنت متعجلا . وقد ألغى الأمر الخاص بهذه السيدة ، وعادت إلى قائد الأورطة ثانية . حدث ذلك منذ عدة أيام .

نظرت إليه تانيا مدهوشة ولكنها لم تقل شيئاً .

وضع كراسيكوف الخطاب فى جيب تانيا ، وتمتم مرتبكاً :

ـ وهناك مسألة أخرى ياتانيوشا أحب أن أحدثك عنها ... ليس كل ما كتب فى هذا الخطاب صادق ومطابق للحقيقة تماماً .. فقد كتبت أنى قابلتك عام ١٩٤١ ... وأكثر من هذا كتبت أنك قمت بعلاجى عندما أصبت بجرح فى ذلك الحين . لقد كتبت ذلك لكى تبدو المسألة أكثر معقولية وأحسن مظهراً ...

صعد الدم إلى وجنتى تانيا . وكان صمتها قد بدأ يثير القلق فى نفس كراسيكوف . وفجأة أخرجت الخطاب من جيبها ، ومزقته ، وألقت به على الحشائش . وقالت :

ـ كذا .

وهزت رأسها وقالت دون غضب ولكن فى صوتها نبرة حزن ودهشة وبلهجة كلها تعنيف :

ـ يالك من رجل متعفن ! يالك من تعس !

واستدارت تانيا عائدة إلى القرية .

وقف كراسيكوف ساكناً حتى ابتعدت تانيا عن نظره ، ثم التقط الخطاب الممزق ووضعه فى جيبه وتوجه إلى سيارته .

بعد رحيل كراسيكوف ضجت الأورطة الطبية بالأصوات ودب فيها النشاط فقد عرفت الممرضات والطبيبات ما حدث بطريقة ما . وجرت ليفكيوفا إلى خيمة تانيا ، وشدت على يدها بحرارة وقبلتها وقالت لها :

ـ أنت فتاة طيبة ياتانيوشا ! أنا أعرف كل شىء .

وابتسمت تانيا بحزن وقالت :

ـ أنا أعرف أنك تعرفين كل شىء ! إنى أتحداك أن تخفى سراً فى الأورطة الطبية .

www.alkottob.com

وكانت ماشا فى غاية السرور . فقد كان من رأيها دائماً أن الرجل يجب أن « يقص ريشه » و « ألا يعطى الكثير مما يطلب » .

قالت تانيا وهما تتمشيان فى القرية وقد أمسكت بيدها كطفلة صغيرة:

— إذا أعطيت للرجال ما يريدون فسوف يدوسون فوق رأسك وسنظل نعانى الكثير من المتاعب من هؤلاء الرجال .

واختلست جلاشا لحظة لترى تانيا على الرغم من انشغالها الشديد بترحيل الجرحى . وهنا علمت أن قصتها لها علاقة - دون أن تدرى - بالقطيعة التى حدثت بين تانيا وكراسيكوف ، فدهشت ، وتنهدت بمرارة ثم انفجرت باكية ، وقالت :

— عظيم ، هذا هو ما يستحقه بالضبط !

أما نساء الأورطة الطبية - تلك الأسرة الطبية الحانية ، الشديدة الصخب الكثيرة الكلام - فقد كن جميعاً فى حالة غير عادية من الإنشراح والغبطة ، وكأنهن شاركن تانيا فى ذلك الموقف المشهود .

لم يكن سرورهن راجعاً إلى أن تانيا امتهنت كراسيكوف حسب ، ولكنه سرور ينذيه إحساس رفيع بالفرحة عندما يرى الناس صفاء النفس البشرية وقدرتها حين ترفض أى مساومة مع ضميرها . وعندما انتهين من أعمالهن جلسن على درجات السلم ، وأخذن يغنين أغنيات

روسية عن موت إرماك وعازف الأكورديون فى الغابة المظلمة عند الجبهة ، وعن نهر الفولجا الواسع ، ونهر الدنيبر الداكن القديم .

وهكذا جلسن متقاربات حتى ساعة متأخرة من الليل وأصواتهن الرقيقة تلمع فى جو الليل الدافىء ، وتثير فى قلوب الجند الذين يسيرون فى الطرقات المظلمة حزناً محبباً وحنيناً طاغياً للوطن البعيد .

www.alkottob.com

٢١

كانت الإشاعات التى تقول بتحويل الفرق إلى الجنوب تقوم على أساس من الواقع .

لقد أقر القائد الأعلى هذا التحويل منذ بضعة أيام ، وعقب ذلك أصدرت قيادة الجبهة جميع الوثائق الخاصة بالزحف ورسمت على الخرائط خطوط السير ومراكز التجمع . ثم بدأ التليفون والتلغراف ينقلان أعمدة طويلة من الأرقام والرسائل المكتوبة بالشفرة والأوامر والاستفسارات .

وتحرك ضباط الاتصال من مقر قيادة الجبهة إلى مقر قيادة الجيش مستخدمين الطائرات والسيارات ، وأسرع ضباط آخرون إلى مقر قيادة الفيلق فى السيارات وعلى صهوات الخيل . وهرع ضباط من مقر قيادة الفيلق إلى قيادة الفرق على ظهور الخيل أو سيراً على الأقدام .

وكانت الأوامر تتضاءل فى الطريق من القائد الأعلى إلى الفصيلة حيث تصل فى شكل مكالمة تليفونية من قائد الأورطة : « استعدوا » .

كان الأمر بالزحف قد وصل بالفعل إلى قيادة الفرقة حين كان الكابتن تشوخوف يجلس فى هدوء فوق كومة من الشباك بجوار كوخ للصيد على ضفة نهر الأودر . وأشرقت الشمس ، ولكن برد الليل كان ما يزال يملأ الجو . وكانت فروع الأشجار وبراعمها الصغيرة ترتجف برقة . وانعكس على صفحة النهر الملساء أشعة حمر . وفى الجو رائحة نار تخبو فى مكان غير بعيد .

تحرك شخص بجوار تشوخوف ورفع رأسه . كان هذا الشخص هو ساليفنكو وقال :

صباح الخير .

فرد تشوخوف التحية بإيماءة من رأسه .

وقال ساليفنكو لتشوخوف وهو يمد يده بجريدة صغيرة :

- لقد كتبوا عنا فى جريدة الفرقة .

ومر تشوخوف بنظره على مقال بعنوان « رجال الكابتن تشوخوف فى المقدمة دائماً » . وشاع السرور فى وجه الكابتن وقال :

- شكراً للرجال والفضل لمعونتك يا رفيق .

فأجاب ساليفنكو مراعياً الأصول :

- إننى أخدم الاتحاد السوفيتى .

www.alkottob.com

واستيقظ الجنود الواحد بعد الآخر وهم يتثاءبون ويمتعون أبصارهم بمنظر الشمس المشرقة .

وقال أحدهم :

ـ لقد حلمت بزوجتى .

ـ هذا إذن هو السبب فى أنك قفزت كالملسوع .

وواصل الجندى كلامه :

ـ كنا نجلس معاً فى الحديقة بجوار السماور . عندنا حديقة جميلة ، أجل ... جلسنا تحت شجرة الكرز وشربنا الشاى مع الكعك الأوكرانى. إن زوجتى تجيد صنع هذا الكعك . وكان جو الربيع الساحر يحيط بنا .. وزوجتى ...

وضحك أحدهم وقال :

ـ إنها مثل الكعك تماماً .

ووافقه الجندى على الفور وعلى شفتيه ابتسامة عريضة :

ـ أجل إلى حد ما .

ودوى صوت الباشجاويش فى الفضاء :

ـ استيقظوا ! إلى متى تظلون نياماً ؟ قم يا سميجلاف وأعد طعام الإفطار للجند . نظفوا بنادقكم وزيتوها . انشطوا ! من منكم كلفته أمس بإصلاح حزامه ؟ إن الخيط والإبرة معى . انشطوا !

ودوى صوته كالهدير . ورد رجال الاستكشاف بمرح من أعلى المنزل المجاور :

ـ لماذا تتعب نفسك إلى هذه الدرجة يا باشجاويش . إن صوتاً كصوتك القوى مكانه على مسرح البلشوى لغناء الأوبرا .

خلع الباشجاويش سترته وقميصه ونزل إلى النهر وخلع حذاءه وخاض فى الماء وبدأ يغتسل . رش الماء فوق رأسه وعلى رقبته وجذعه حتى وسطه . وصاح به رجال القناصة من كوخ قريب :

ـ حذار فقد تتجمد من البرد يا باشجاويش !

ولم تبد على الباشجاويش أية رغبة فى الرد عليهم . ولبس حذاءه وقميصه وسترته فوق جسده المبتل وشد الحزام حول وسطه ورتب ثنيات سترته العسكرية متأنقاً ، ثم استدار إلى الجنود وبدأ الصياح من جديد :

ـ انشطوا !

خرج من الكوخ أحد جنود الإشارة وقال لتشوخوف :

ـ أيها الرفيق الكابتن ، إن البنفسج يطلبك .

دخل تشوخوف إلى الكوخ متمهلا وأمسك بسماعة التليفون فوصله صوت فسيلشاكوف يحييه ويقول :

www.alkottob.com

— تشوخوف ، جهزوا أنفسكم واستعدوا ، ثم اتصل بى .

وضع تشوخوف السماعة ، ووقف برهة مفكراً ثم سأل نفسه بصوت مرتفع :

— والآن ، إلى أين نحن ذاهبون .

ووقف برهة أخرى وكأنه ينتظر الجواب ، ثم خرج ليصدر الأوامر اللازمة .

توجه تشوخوف إلى مقر قيادة الأورطة بعد أن كلف جودونوف بتصريف المهام الصغيرة فى الفصيلة . وضج المنزل والفناء بالاستعداد للرحيل . وكان رجال الإشارة يطوون الأسلاك والسائقون يديرون محركات السيارات .

كان قادة الفصائل وقائد الإمدادات الملحقة بالأورطة قد اجتمعوا بفسيلياكوف . لم يكن أحدهم يتوقع استئناف المسيرة بمثل هذه السرعة . وأعاد عليهم فسيلياكوف ما سمعه من الماجور جارين بصوت خفيض :

— يقولون إننا سنتجه إلى برلين .

وقال أحد ضباط المدفعية بارتياح :

— إنهم لا يستطيعون الاستغناء عنا .

وسأل قائد الفصيلة الأولى عن المكان الذى سيتناول فيه الرجال

طعامهم . فأشار فسيلياكوف على الخريطة قائلا :

— هنا . سنتناول طعام الإفطار فى هذه الغابة . وسيكون مطبخ الأورطة قد سبقنا إلى هناك .

وألقى نظرة على قائمة رجال الفصيلة ، وهز رأسه قائلا :

— لم يبق منهم عدد كبير .

وقال أحد القواد :

— سيرسلون إلينا بعض الرجال .

وعاد القادة إلى وحداتهم . وتخلف تشوخوف وحده ، ثم سأل :

— أى طريق سنسلك ؟

فأشاح فسيلياكوف بيده فلم تكن هناك أية أهمية لهذا السؤال ، ولكنه أطلع تشوخوف على دليل السير عندما رأى إلحاحه فى السؤال .

إنه الطريق نفسه الذى جاءوا منه تقريباً وإن كان يميل قليلا ناحية الغرب ، وستعسكر القوات فى الغابة . ولا يعلم أحد — سوى القائد الأعلى — ما الذى يحدث بعد ذلك .

وشاعت الغبطة فى نفس تشوخوف ولكنه لم يفصح عنها — كعادته دائماً .

جميل أن يعرف الأجانب أن الضابط السوفيتى يحترم كلمته :

www.alkottob.com

لقد وعد تشوخوف بالعودة وسيعود . هكذا كان تشوخوف يفكر دون أن تخامره أية رغبة فى أن يخفى حتى عن نفسه تشوقه إلى لقاء مارجريت ثانية .

وفكر تشوخوف فى مارجريت وهو عائد إلى الفصيلة ، وخيل إليه أنها ما تزال تجلس كما رآها آخر مرة - على حافة النافذة ، مبتلة الشعر ، سعيدة ، تنتظر عودته .

بدأ السير . وامتدت طوابير الجند من ألتدام متجهة ناحية الجنوب . وارتفع هدير محركات السيارات ، وصهلت الخيل ، وضربت أحذية الجنود الثقيلة أسفلت الطريق ، ورفرفت عباءات الجند فى الهواء .

سار تشوخوف ببطء فى مقدمة الفصيلة على ظهر جواده . ومن ورائه سار الجنود وهم يتحدثون بصوت خفيض ويستعيدون تفاصيل معركة ألتدام والهجوم على المركب الألمانى ، وتعليقات بيشوجين المعهودة . وعلى جانبى الطريق تناثرت الدراجات المحطمة والمدافع والسيارات الألمانية المهشمة .

ومن حين لآخر يسمع النداء المتكرر الآتى من المؤخرة : « إلزم يمينك » ، فيتدافع الجند ملتصقين بحافة الطريق اليمنى ، وتمر بهم اللوريات والمدافع والكاتيوشا .

رأى تشوخوف من بعيد عدة سيارات تقف عند شجرة فى أحد

مفارق الطريق وقائد الفرقة ورئيس القسم السياسى يتمشيان بالقرب منها . ووقفت فيكا بجانب الطريق تبتسم للقوات الزاحفة .

والتفت تشوخوف إلى الجنود وأمرهم بهدوء :

ـ شدوا ظهوركم . لقد جاء الجنرال لمقابلتنا .

وأعلن ، وهو يرفع يده بالتحية :

ـ الفصيلة الثانية للرماة تسير . الكابتن تشوخوف قائد الفصيلة يتكلم .

واصل الجند سيرهم ومر بهم منظر الجنرال بقبعته الطويلة ، ووجه الكولونيل بلوتنيكوف الطيب ، وفيكا بقوامها النحيل . وقال تشوخوف للجند :

ـ خذوا راحتكم .

وبعد فترة من الوقت لحق به الماجور ميجايف على ظهر جواده الأسود . وسار إلى جوار تشوخوف صامتاً برهة ، ثم قال :

ـ لقد رشحوك لنيل وسام الحرب الوطنية من الطبقة الأولى لحسن بلائك فى معارك ألتدام . لقد منحت وسامين فى شهر واحد . عظيم . أليس كذلك ؟

فقال تشوخوف :

ـ لا بأس .

وهناك عدد من رجالك مرشحون لنيل أوسمة أخرى ، وبعضهم ممن

www.alkottob.com

ماتوا فى المعركة . لتكن دائماً فى المقدمة ، إننا نعتمد عليك .

ونظر إلى تشوخوف فى انتظار الإجابة ، وأخيراً قال تشوخوف :

ـ شكراً ، سأحاول .

وابتعد ميجايف وهو يحس بسرور كبير ، وفكر وهو يبتسم لنفسه ابتسامة ماكرة : يالك من حدث تافه ! لقد حلت عقدة لسانك وانتزعت منك كلمتان . واستدار ناظراً إلى تشوخوف ، وفكر : مسكين :

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث مرت الفصيلة بطريق يبعد ستة كيلو مترات عن المزرعة التى كانت تعيش فيها مارجريت رين . وظل تشوخوف ينظر إلى الخريطة بقلق ، وأخيراً حزم أمره على الذهاب إليها . كان ذلك خرقاً واضحاً للنظام بالطبع . ففكر تشوخوف للمرة الأخيرة وهو ينظر إلى رجاله غير مرتاح ويتأمل الحصان الأسود الذى يمتطيه بطل الاتحاد السوفيتى الماجور ميجايف . وبينما الفصيلة تستريح قليلا ، استدعى تشوخوف الباشجاويش وقال له :

ـ أتغيب لمدة ساعتين ، إذا سأل أحدهم ...

وابتسم جودنوف ابتسامة مطمئنة وقال :

ـ تمام ! لقد ذهبت لتسقى حصانك ...

كان الباشجاويش رجلا سريع الفهم .

لكز تشوخوف حصانه وانطلق مقتفيا آثار عربة ، وسرعان ماوصل إلى طريق موازٍ تمر فيه فرقة أخرى ، ورأى ضابطا برتبة

كولونيل يربط زراعه وعلى رأسه قبعة حرس الحدود الخضراء يقف بجوار إحدى السيارات يستعرض قواته وهى تسير على نعل الجنرال سيريدا . ومرت أورطة من سلاح المهندسين ، ثم المدفعية الآلية . وعندما توقفت حركة المرور دقيقة عبر تشوخوف الطريق وانطلق مقتفياً آثار عربة أخرى .

كانت الغابة باردة خالية . ولكن تشوخوف شاهد رجلين يسيران فى أحد الممرات . كان أحدهما أصلع الرأس ضخم الجثة ، والآخر نحيلا يضع فوق رأسه منديل امرأة وفوقه قبعة سوداء . ويبدو أنهما بولنديان والأشرطة الحمر والبيض تزفرف على سترتيهما . ورأى الرجل ذو المنديل تشوخوف فانحنى له وقال بالبولندية :

ـ نشكركم على تحريرنا .

ومضى الرجلان ببطء فى طريقهما إلى الجنوب ، واستمر تشوخوف يعدو بحصانه ، وعندما وصل إلى حافة الغابة رأى أمامه القرية التى كان يبحث عنها ، فلكز حصانه مستحثاً إياه . كانت الشمس قد ارتفعت ت الأشجار ظلالا طويلة شاحبة على الحشائش الصغيرة

كان الدخان يتصاعد من المنزل الريفى الذى كان يتحول بأسره إلى رماد . ورأى تشوخوف السيارة المرسيدس تقف على حالها حيث كانت فى الفناء . أما عربته فقد اختفت .

توجه تشوخوف إلى الكوخ الخشبى الذى كان الأجانب يعيشون فيه .

www.alkottob.com

كان الكوخ خالياً . وإلى الجدران أسندت الأسرة الخشبية ذات الحشيات المصنوعة من القش . وعلقت فى الركن الذى كانت تعيش فيه مارجريت وصديقتها الفرنسية ، علقت صورة قذرة مطبوعة على الحجر .

قال تشوخوف : « لقد رحلوا » .

وخرج من الكوخ ، ووقف فى الفناء وأخذ يتأمل بقايا المنزل المحترق ، وفكر : لقد أخطأوا حين أشعلوا النار فى المنزل ، كان من الممكن الاستفادة به كناد أو مكتبة ...

وفك وثاق الحصان ، واعتلى السرج ، وكر عائداً ببطء ليلحق بفصيلته . وعلى الطريق الرئيسى الممتد من الشمال إلى الجنوب ، مرت به عربات مكتظة بعدد كبير من الأجانب العائدين إلى بلادهم وهم يصخبون ويثرثرون ، ولكنه لم ير بينهم مجموعة الأجانب التى يعرفها . ثم ساد السكون الشامل إلا من هدير محركات السيارات الذى يأتيه من مكان بعيد .

قال تشوخوف مخاطباً حصانه الذى رفع أذنيه :

— إن الجميع يعودون إلى أوطانهم . وسيأتى دورنا قريباً . أجل ، سنعود نحن أيضاً إلى أوطاننا . لقد أدينا مهمتنا .

وأنصت الحصان . كانت هذه أول مرة ينفرد فيها تشوخوف بنفسه منذ أن اشترك فى الحرب ، وكان يفكر بصوت عال . قال :

— أجل ، هذا ما فعلناه . لقد اعتنينا بكل إنسان ... اصبر قليلا فسوف نحطم ذلك الخنزير ، ثم نعود إلى بلادنا .

ازدادت حرارة الشمس ، وساد الهدوء . ورأى تشوخوف قرية وبحيرة صغيرة على مسافة قريبة . وتذكر كلمات جودونوف فقرر أن يسقى حصانه . وترجل ، وقاد الحصان إلى حافة البحيرة .

كان هناك جنود يجلسون بالقرب من البحيرة ، ويأكلون لحما محفوظاً بعلق كبيرة ، ويأخذون من اللحم قطعاً متساوية ، لا كبيرة ولا صغيرة وينصتون باهتمام إلى جندى سيبيرى ذى شارب أحمر كان يجلس وسطهم فوق صندوق من صناديق الذخيرة الألمانية .

عرف تشوخوف فى المتحدث زميله فى رحلة الغربة .

كان السيبيرى يروى قصة وهو يبتسم ويكز على أسنانه التى اختفت وراء شارب كثيف :

— ... ولكن إليا موروميتس انطلق بحصانه وكأنه سيارة سريعة جرى ثلاث ساعات متتالية ، وقطع ثلاثمائة فرسخ ! وعندما رأى قاطع الطريق الذى نعرفه ، ورأى ذلك المخدع — اقتحم عليه المكان وضربه فى سريره فانقلب السرير .. ويقولون إنه قذف به فى قبو عميق تحت الأرض . فسارع رجلنا إليا إلى تحطيم أقفال باب القبو وأخرج إلى النور أربعين فارساً روسيا من الفرسان الأشداء . وقال إليا : « إذهبوا إلى حال سبيلكم يافتيان ، وعودوا إلى بلادكم وصلوا من أجل إليا

www.alkottob.com

موروميتس فلولاى للقيتم حتفكم الآن! ، حسناً هذه القصة روتها لى جدتى .

ودوى فى المكان صوت آمر :

— تجمعوا !

هب الجنود فى الحال دون أن يفوتهم أن يستخرجوا آخر قطعة لحم من العلب . والتقطوا بنادقهم ، وأسرعوا ليأخذ كل منهم مكانه فى الصف وفى تلك اللحظة تعرف ذو الشارب الأحمر على تشوخوف وصاح بفرح :

— يوم سعيد أيها الرفيق الكابتن . هل تعرفنى ؟

فأجاب تشوخوف :

— أجل .

— حسناً ، هل أنت ذاهب إلى برلين ؟

— نعم إلى برلين .

رحل الجنود . وهبت ريح الشمال من بحر البلطيق خلفهم . ورفرفت عباءات الجند فى الهواء . وفى القرية ، رفرفت الأعلام البيض فوق نوافذ المنازل .

www.alkottob.com

www.liilas.com
منتديات ليلاس

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)

www.alkottob.com

www.liilas.com

florist

المؤلف

عمانويل كازاكفتش من أدباء روسيا المعاصرين. ولد سنة ١٩١٣ بناحية كرمنشوج بأوكرانيا ودرس في كلية الفنون وبعد تخرجه قضى بضعة أعوام بالشرق الأقصى. ولما عاد إلى موسكو سنة ١٩٣٨ اشتغل بالصحافة وكتابة القصة. وفي سنة ١٩٤١ تطوع في الجيش واشترك في معركة موسكو كما عمل في قسم الغارات بالقيادة العامة ونال عدة أوسمة عسكرية. ولما انتهت الحرب استأنف كتابة القصة.

ومن أشهر أعماله «النجم» و«قلب صديق» و«الربيع على ضفاف الأودر». وهي القصة الرائعة التي حلق فيها المؤلف بخياله فوق [illegible] ودرس أدق المشاعر الإنسانية. [illegible] الحرب ورجالها. ومنحت لها جائزة ستالين في الأدب.

دار القومية العربية للطباعة

www.alkottob.com